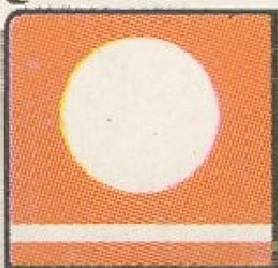
حولية

التاريخ الإسلامي والوسيط

المجلد الثاني
٢٠٠٢

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصر الوسيط

يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط - جامعة عين شمس



حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

المجلد الثانى

٢٠٠٢م

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط

جامعة عين شمس

عدد خاص يصدر على شرف ا.د. رأفت عبد الحميد

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٣ أ شارع إسلام–حمامات القبة–القاهرة

شكر وتقدير

تتقدم هيئة تحرير حولية التاريخ الإسلامي والوسيط بوافر الشكر إلى دار مصر العربية للنشر والتوزيع على اهتمامها بإخراج هذا العدد في أكمل صورة.

طبع هذا العدد في التاسع عشر من شهر يونيو٢٠٠٢

حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية علمية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط ، جامعة عين شمس

- ترسل المراسلات والطلبات باسم هيئة تحرير الحولية أو باسم د. طارق منصور وكذلك البحوث على العنوان التالي كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ، مصر. ص.ب.١١٥٦٦ ، فاكس: (٢٠٢٠٠) ٦٨٥١٤٣٢ بريد اليكتروني ntaseg@hotmail.com

، شريطة ألا تكون قد سبق نشرها فى مكان آخر من قبل، وأن تكون مكتوبة على الحاسب الآلى IBM ، Word 2000، حسب المواصفات التالية:

١ - البحوث المكتوبة باللغة العربية:

العنوان الرئيسى فونت ١٤ أسود ، العنوان الفرعى فونت ١٣ أسود

الخط Simplified Arabic ، فونت ١٣

الهوامش فونت ١١

المسافة بين السطور مفرد للنص وكذلك للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ١٩,٥ ؛ هامش علوى ٥,١، سفلى ٥,١، يسار ٤,٢، يمين ٤,٣ سم

٢- البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

العنوان الرئيسى فونت ١٣س أسود ، العنوان الفرعى فونت ١٢ أسود

الخط Times New Roman ، فونت ١٢

المسافة بين السطور متعدد single للنص ، exact للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ١٩,٥ ؛ هامش علوى ٥,١، سفلى ٥,١، يسار ٤,٢، يمين ٤,٣ سم

- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن الخاص به مقاس ٣,٥ .
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.
- آخر موعد لتلقى البحوث شهر أكتوبر من كل عام .
- يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسى للبحث مباشرة .

رأفت عبد الحميد

أستاذ تاريخ العصور الوسطي – كلية الآداب – جامعة عين شمس

حصـــل علـــي ليسـانس التـربية عام ١٩٦٣ بـتقدير عـام جـيد جـداً، وليسانس الآداب عــام ١٩٦٦ بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف،عمل معيداً ثم مدرساً مساعداً ثم مدرساً بعد حصوله علي الدكتوراه عام ١٩٧٤.

تـــدرج في ســلك الوظـــائف الجامعـــية حتى أصـــبح أسـتاذاً لـتاريخ العـــصـــور الوسطـــى عام ١٩٨٦، وفي عام ١٩٩٧ عين عميداً لكلية الآداب جامعة عين شمس حتى عام ٢٠٠١، حيث وافته المنية في ذلك العام.

وفـــي عام ١٩٩٩ عين مستشاراً لوزير التعليم العالي والدولة للبحث العلمي، كمـــا عين في نفس العام مديراً لمركز الحضارات المعاصرة بجامعة عين شمس، وفي عام ٢٠٠٠ عين مديراً لمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس.

مـــثل مصر في العديد من المؤتمرات الدولية والمحلية وله العديد من البحوث والمؤلفات المتميزة في تاريخ العصور الوسطي من أهمها:

- موسوعة الدولة والكنيسة، صدر منها أربعة أجزاء.
- ملامح الشخصية المصرية في العصر المسيحي، القاهرة، ١٩٧٣.
- بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة، ١٩٩٧.
- قضايا في تاريخ الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٩٨.
- الفكر المصري في العصر المسيحي، القاهرة، ٢٠٠١.
- الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطي، القاهرة، ٢٠٠٢.
- مصـــر فى العصر البيزنطى (بالاشتراك مع د. طارق منصور)، القاهرة، ٢٠٠٢.

هذا بالإضافة إلى عشرات المقالات الأدبية والتاريخية المنشورة فى الدوريات والمجلات المحلية والعالمية. كما أشرف على عدد كبير من الرسائل العلمية فى جامعة عيـــن شمس والجامعات المصرية الأخرى؛ بالإضافة إلى مناقشته عددا كبيرا آخر من رسائل الماجستير والدكتوراه.



الأستاذ الدكتور

رأفت عبد الحميد

٦/١١/١٩٤٢-٢٥/٦/٢٠٠١م

المشاركون في العدد*

إبراهيم القادري	أستاذ التاريخ الإسلامي- جامعة مولاى إسماعيل- المغرب
أحمد المحمودي	أستاذ التاريخ الإسلامي- جامعة مولاى إسماعيل- المغرب
اسحق عبيد	أستاذ تاريخ العصور الوسطي - جامعة عين شمس - مصر
ايرينا فدوفتشينكو	مدرس التاريخ والآثار البيزنطية- جامعة تاوريدا الوطنية - أوكرانيا
ديفيد نيقول	أستاذ التاريخ الإسلامي - جامعة نونتنجهام - إنجلترا
رأفت عبد الحميد	أستاذ تاريخ العصور الوسطي - جامعة عين شمس- مصر
زينب عبد المجيد	مدرس تاريخ العصور الوسطي- جامعة الزقازيق - مصر
طارق منصور	مدرس تاريخ العصور الوسطي- جامعة عين شمس- مصر
عبد العزيز رمضان	مدرس مساعد تاريخ العصور الوسطي- جامعة عين شمس مصر.
فلورا فافيا	محاضر تاريخ الرياضيات - اليونان
محاسن الوقاد	مدرس التاريخ الإسلامي - جامعة عين شمس - مصر
محمد تضغوت	أستاذ التاريخ الإسلامي- جامعة مولاى إسماعيل - المغرب
محمد مؤنس عوض	أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي- جامعة عين شمس- مصر
محمد نصر	مدرس مساعد التاريخ الإسلامي- جامعة عين شمس- مصر
محمود إسماعيل	أستاذ التاريخ الإسلامي - جامعة عين شمس - مصر
نجلاء حامد	مدرس تاريخ التربية - جامعة القاهرة - مصر
نريمان عبد الكريم	أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي - جامعة المنوفية - مصر
هانيء عبد الهادي	مدرس تاريخ العصور الوسطي - جامعة حلوان - مصر

---

*هذه الأسماء مرتبة ترتيباً هجائياً.

المحتويات

أولاً: القسم العربي

أ: الدراسات والبحوث

المشاركون في العدد ....ط

تقديم..ك-ن

أسحق عبيد، رأفت عبد الحميد مشكاة الآداب التي انطفأت ٣-٦

إبراهيم القادري، دور الفقهاء في مواجهة الخطر الصليبي بالأندلس ٧-٢٢

رأفت عبد الحميد، حدود مصر الشرقية ٢٣-٢٦

زينب عبد المجيد، ماهية البرلمان الإنجليزي في القرن الثالث عشر وحتي نهاية حكم الملك إدوارد الأول ٢٧-٧٤

عبد العزيز رمضان، عروض زواج العرائس في البلاط البيزنطي ٧٨٨-٨٨٢م..٧٥-٨٨

محمود إسماعيل، إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل...٨٩-١٠٦

محاسن محمد علي الوقاد، الألقاب والكني الشعبية الساخرة في عصر سلاطين المماليك ١٠٧-١٥١

نريمان عبد الكريم، السياسة المالية للفاطميين بين النظرية والتطبيق ١٥٣-٢٢٨

هانيء عبد الهادي البشير، المجريون في منطقة الدانوب الأوسط وحملاتهم علي مملكة الفرنجة ٨٩٦-٩٥٥...٢٢٩-٢٦٦

ب:عرض الكتب والرسائل

عامة المغرب الأقصي في العصر الموحدي. رسالة دكتوراة لم تنشر بعد، كلية الآداب، جامعة مولاى محمد، مكناس، المغرب.

عرض/أحمد المحمودي ٢٦٩-٢٧٤

عبد المحسن رمضان، الحروب الصليبية في الأندلس ميلادها وتطورها مع

دراسة نقدية لمصادرها العربية والأسبانية حتي القرن العاشر، القاهرة ، ٢٠٠١.
عرض/ محمد مؤنس عوض ٢٧٥-٢٨٤
إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الإجتماعي للمغرب والأندلس خلالا عصر المرابطين، بيروت، ١٩٩٨.
عرض/ محمد تضغوت...٢٨٥-٢٩٩
Hassan S. Khalilieh, Islamic Maritime law: An Introduction, Brill, 1998.
عرض/ محمد نصر عبد الرحمن...................................٣٠١-٣٠٥

ثانياً: القسم الأجنبي

أ : البحوث والدراسات

Contributors..V
D. Nicolle, Medieval Islamic Navigation in the Atlantic 3-14
Flora Vafea, The Philosophy of Greek Mathematics and its Influence on the Development of Arabic Civilization and Renaissance..............15-25
Irina Vdovichenko, Images of the Dances on the 4th Centuries Vases from the Black Sea Area 27-44
Tarek M. Mohammed, The Turkish Settlement in Caucasus and Steppes: Constantine's Evidence..45-60

ب :عرض الكتب والرسائل

Naglaa' M. Hamed, Education in Byzantine Egypt, Cairo.
by Naglaa M.Hamed..63-64

تقـــديم

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

تقـبل عليـنا حولـية التاريخ الإسلامي والوسيط في ثوبها الجديد، وقد كشفت الـنقاب عن وجهها، فإذا به يتلألأ كوجه القمر في ليل الفلا. المريدون والاتباع يقبلون فـي لهفـة نحوها، الكل يسعي عسي أن يجد ضالته بين راحتيها، وقد توشحت بوشاح العلـم المرصـع بلألـيء العقل من كل صوب وحدب ، ارتدت تاجاً مصري الصنع، مرصـع بـثمان عشرة حبة من لأليء المفكرين والعلماء، بل ثمان عشرة زهرة فواحة تدفع المارة والمريدين إلي قطفها، والاستزادة من عبيرها.

وكلمـا طابت النفس برحيق الأولي، تمتد الأنامل نحو الثانية فالثالثة، وما هي إلا لحظـات تمـر بالمرء منتشياً برحيقها، حتى يدرك أنه أمضي من العمر زمناً، في روضـة مـن رياض العصور الوسطي، دون أن يدري أنه اقبل علي نهاية رحلته في الروض المعطار، العدد الثاني من "حولية التاريخ الإسلامي والوسيط"؛ ذلك العدد الذي تفخـر أمانة سمنار العصور الوسطي، بأن تدفع به إلي أيدي قرائها الأعزاء بكل فخر وإعزاز.

يشـارك فـي تدشـين هذا العدد كوكبة متميزة من مؤرخي العصور الوسطي والـتاريخ الإسـلامي مـن مصر والمغرب وإنجلترا وأوكرانيا واليونان؛ قدموا جميعاً ثمانية عشر عملاً، شكلت سفراً جليلاً يربو علي الثلاثمائة وخمسين صفحة.

فمـن مصـر يقدم أ.د. اسحق عبيد كلمة وفاء في ذكري المرحوم أ.د. رأفت عـبد الحمـيد. أمـا أ.د. إبراهيم القادري، من المغرب، فقد قدم بحثاً رائداً، جديداً من نوعـه عـن الدور الذي لعبه الفقهاء في مواجهة الخطر الصليبي الذي كان يهدد بلاد الأندلـس. وتأتـي تحفة أ.د. رأفت عبد الحميد الأدبية، في كلمته التي ألقاها في افتتاح "ندوة حدود مصر الشرقية"، بالمجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠١، والتي أثارت إعجاب الحضـور جميعاً، في تلك الندوة، مما دفع بإدارة الحولية إلي نشرها ضمن بحوث هذا العدد الصادر في ذكراه السنوية.

أما السيدة الدكتورة زينب عبد المجيد، فقد قدمت بحثاً شيقاً عن ماهية البرلمان الإنجليزي في القرن الثالث عشر وحتى نهاية عهد الملك إدوارد الأول؛ وهي فترة حرجة في تاريخ الحياة البرلمانية في إنجلترا، نجحت الباحثة في تناولها بالعرض والتحليل من خلال استخدامها لمجموعة كبيرة من المصادر الأصلية والمراجع.

أما السيد/ عبد العزيز رمضان، فقد قدم بحثاً طيباً، ينم عن مهارته الباكرة في العرض والتحليل التاريخي، من خلال بحثه فى "عروض زواج العرائس في البلاط البيزنطي ٧٨٨-٨٨٢م". فقد تعرض في بحثه هذا للطرق التي كانت تتبع في ترشيح العرائس للإمبراطور، عندما كان يشرع في الزواج، وكيف كانت الإمبراطورة في بعض الأحيان تتولى القيام بهذه المهمة بنفسها.

وفي هذا العدد يقدم أ.د. محمود إسماعيل تفسيرا ورؤية خاصة حول إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل.

ومن البحوث الشيقة، الطريفة في موضوعها، البحث الذي قدمته الدكتورة محاسن الوقاد عن "الألقاب والكني الشعبية الساخرة في عصر سلاطين المماليك"، حيث تعرض فيه لمجموعة من الألقاب الساخرة التي استخدمتها العامة في مصر للسخرية من بعض الشخصيات أو الأمراء، والتي تعكس قدرة الشعب المصري علي استخدام النكتة أو الكني الساخرة لتجميل واقعه المرير أو لإدخال الضحكة إلي القلوب التي اشتاقت إليها في ظل وجود بعض الحكام من ذوي الشوكة القوية. وقد ختمت دراستها بجدول حصرت فيه كل الألقاب والكني الساخرة بكل أنواعها، طوال عصر سلطنة المماليك، سواء الأولي أو الثانية.

وتقدم الدكتورة نريمان عبد الكريم بحثاً قيماً عن "السياسة المالية للفاطميين بين النظرية والتطبيق"، وهو من البحوث الهامة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمصر الإسلامية، حيث ترصد فيه مؤشر الحياة الاقتصادية في مصر الإسلامية في ظل القرارات والمراسيم الصادرة عن الخلافة الفاطمية وموقعها من التنفيذ.

ويأتي آخر البحوث المقدمة بالعربية للدكتور/ هانئ عبد الهادي البشير بعنوان "المجريون في منطقة الدانوب الأوسط وحملاتهم علي مملكة الفرنجة ٨٩٦-٩٥٥م"،

حيث يرصد فيه جهود المجيار العسكرية في محاولاتهم فتح آفق جديدة لهم في الأراضي الألمانية، والتي يري أنها كانت فرنجية الطابع ، وقد انتهت هذه الجهود العسكرية بموقعة ليخفيلد عام ٩٥٥، التي تعد حداً فاصلاً في تاريخهم في منطقة الدانوب الأوسط. وقد رصد الباحث التحولات الجيوسياسية للمجيار منذ خروجهم من منطقة أتل كوزو إلي مورافيا العظمي، والتحديات التي واجهتهم هناك.

أما عن البحوث الأجنبية التي تضمنها هذا العدد، فتتسم جميعها بالثراء والقيمة التاريخية الرفيعة. فقد قدم أ.د. ديفيد نيقول، من إنجلترا، دراسة جادة عن "البحرية الإسلامية في المحيط الأطلنطي"، في العصور الوسطي؛ وقد دعم دراسته ببعض الصور والأشكال البحرية.

أما الأستاذة فلورا فافيا، من اليونان، المتخصصة في تاريخ الرياضيات، فقد قدمت بحثاً قيماً عن "فلسفة الرياضيات اليونانية وتأثيراتها علي تطور الحضارة العربية وعصر النهضة". وفي هذا البحث قدمت لنماذج عديدة من الرياضيين اليونانيين مقارنة بالرياضيين المسلمين والأوربيين من عصر النهضة الذين تأثروا بهم، مع بعض الأشكال واللوحات التاريخية.

وتقدم الدكتورة ايرينا فدوفتشنكو، من أوكرانيا، دراسة رائعة، كانت قد تقدمت بها إلي "المؤتمر الدولي الثاني لآثار وتاريخ البحر الأسود"، الذي عقد في تركيا في الفترة من ٥-٩/٩/٢٠٠١، وهو بعنوان "أشكال الرقصات المرسومة علي فازات البحر الأسود في القرن الرابع "، ودعمت دراستها بمجموعة كبيرة من أشكال الفازات التي تعكس أشكال الرقص وأنواعه وأوضاع الراقصين ، التى عثر عليها فى أحد المواقع الأثرية البيزنطية، في القرن الرابع.

ويقدم الدكتور/ طارق منصور، من مصر، بحثاً جاداً كان قد شارك به أيضاً في أعمال "المؤتمر الدولي الثاني لآثار وتاريخ البحر الأسود"، الذي عقد بتركيا في الفترة من ٥-٩/٩/٢٠٠١، بعنوان "الوجود التركي في القوقاز والسهوب: شهادة قسطنطين السابع"، ففي هذا البحث يتناول بالدراسة والتحليل رواية قسطنطين بورفيروجنيتوس عن أصول المجيار، ويرصد تحركاتهم من الشرق إلي المناطق

الغربـــية للاستبس، في منطقة ليبيديا ثم منطقة اتل كوزو. ويستخدم الباحث في دراسته عـــدداً كبـــيراً من المصادر البيزنطية والفارسية والعربية واللاتينية لإلقاء الضوء علي رواية قسطنطين السابع لإثبات قيمتها التاريخية بالنسبة لتاريخ المجيار الباكر.

ولـــم يفـــت إدارة الحولـــية أن تقدم عدداً من عروض الكتب والرسائل العلمية الجـــادة فـــي تـــاريخ العصـــور الوسطي والتاريخ الإسلامي، قدم لها خيرة من شباب الباحثيـــن المصريين والعرب منهم الدكتور/ محمد مؤنس عوض، ، والدكتورة/ نجلاء حامد، والأستاذ/ محمد نصر، من مصر؛ والدكتور/ أحمد المحمودى، والدكتور/ محمد تضـــغوت، من المغرب، وهي محاولة للوقوف علي أحدث الدارسات التاريخية في هذا الحقل، ليفيد منها الباحثون والدارسون.

ولا يســـع هيـــئة تحريـــر الحولية في نهاية هذه الكلمة إلا أن تشكر الدكتور/ طـــارق منصور، نائب رئيس تحرير الحولية، على الجهد الكبير الذي قام به في متابعة أعمال "السمنار" ودأبه وصدق عمله وتفانيه في جمع هذه المادة العلمية التي ضمها هذا العـــدد مـــن الحولـــية، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة، فله من إدارة السمنار وهيئة تحرير الحولية كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق.

وانـــه مما يسعد أمانة السمنار وهيئة تحرير الحولية بالغ السعادة أن تتلقي كل الملاحظـــات والمقـــترحات التـــي تتناول الحولية بالنقد العلمي الهادف وصولاً بها إلي مكانة علمية مرموقة نرتجيها وإليها نسعي.

هيئة تحرير الحولية

أولاً: القسم العربى

أ. الدراسات والبحوث

رأفت عبد الحميد
مشكاة الآداب التي انطفأت

اسحق عبيد

مصر

في الخامس والعشرين من يونيو الماضي انتقل إلي جوار ربه الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد محمد عميد كلية الآداب جامعة عين شمس وأستاذ تاريخ العصور الوسطي المرموق بها. وأصيب الأهل والخلان والمريدون في كل الأروقة العلمية بما يشبه الذهول من هول الصدمة، فلقد رحل هذا العالم النبيل دون وداع فجأة، إذ كان حتى ليلة رحيله يعمل في بيته الصغير وحبه الأول والأخير – كلية الآداب – حتى الرابعة بعد الظهر، دون كلل أو ملل، رغم أننا كنا نتوسل إليه دوماً أن يرفق بنفسه ويأخذ فسحة من التقاط الأنفاس، ولكنها همة ابن النيل الأصيل الذي يضع الواجب والصالح العام فوق كل اعتبار، ويغالب الإرهاق والعرق بضمير لا يعرف الكسل أو التراخي، وكنت كلما عاتبته علي ذلك يذكرني برؤية العلامة عبد الرحمن بن خلدون بأن للبشر أعمارا كأعمار الأمم والحضارات، وإن هي طالت أو قصرت "فلكل أجل كتاب".

كان رأفت عبد الحميد قدوة حسنة ليس فقط لتلاميذه ومريديه وإنما لكل زملائه والعاملين معه علي مختلف المستويات العلمية والإدارية، ولا نتحدث عن تواضعه الجم وعفة لسانه، ونظافة القلب واليد جميعاً، فهي أمثولة في كل دروب جامعة عين شمس.

لقد عرفته معيداً، فمدرساً مساعداً، فأستاذاً، فوكيلاً للكلية، ثم عميداً لها، وطوال هذه السلسلة التاريخية الطويلة بقي "صاحبي" ورفيق عمري هوهو، متسقاً مع ذاته، دائم الابتسامة، شديد الإيمان بالله عندما شرف كرسي العمادة به منذ سنوات أربع ازداد تواضعاً علي تواضعه، وتعففاً علي تعففه، كل هذا ولم يعرف قلمه السكون، فلقد ظل وسط هذا الزحام الإداري يبدع وينتج ليثري المكتبة العربية بفكره وأدبه وفلسفته وأسلوبه الفريد.

تخصص د. رأفت منذ وقت باكر في الشخصية المصرية وعبقرية مصر، التي حافظت علي هويتها وذاتيتها، رغم عوادي الزمن وتحرشات الطامعين، فلم تهتز أرض الكنانة من هجمة ذي القرنين أو حرائق قيصر، وإنما استأنست هذا وذاك، حتى صار في الإمكان أن نقول:" في مصر يصبح الفاعل مفعولاً به،". ولا غرابة في هذا، فأرض النهر الخالد هي فجر الضمير، وساحة الحضارة، وهي من قبل ومن بعد البوتقة التي تنصهر بداخلها كل التيارات الوافدة من شرق أو غرب أو من شمال أو جنوب!

موسوعة حضارية تاريخية

ومن يقلب في مؤلفات رأفت عبد الحميد يجد نفسه أمام موسوعة حضارية تاريخية، تضم بين دفتيها: عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، أثينا وروما، مدرسة الإسكندرية، بيزنطة ومدينة مدائنها القسطنطينية، ومن خلال هذا وذاك نلتقي بشوامخ الفكر والفلسفة في العالم القديم ثم العصر الوسيط، وهم عمد الحضارة في تقديره الواعي، جنباً إلي جنب مع أهل السياسة والحكم، وفي هذا السجل الحافل نلتقي وجهاً لوجه مع عمالقة العالمين القديم والوسيط. ولرأفت عبد الحميد موهبة فذة في رسم صور شخصياته، فهو أقرب إلي الفنان التشكيلي في إبراز ملامح أبطال رواياته: فهنالك قيصر، وأوكتافيان، وكليوباترا، وقسطنطين الكبير، وجوليان المرتد، وجستنيان، وهرقل، جنباً إلي جنب مع الأسقف أثاناسيوس بطل مجمع نيقيا اللاهوتي (٣٢٥م). والأنبا أنطونيوس كوكب البرية، وأفلوطين ابن الصعيد معلم الأفلاطونية المحدثة، وأوريجانوس ومعلمه كلمنت السكندري اللذان صالحا بين الفلسفة واللاهوت، وجعلا من مدرسة الإسكندرية منارة للفكر والاستنارة في كل ربوع البحر الأبيض المتوسط، وقبل كل هذا وذاك هناك إيزيس أم الصابرين التي نهلت من منابعها أفروديت وعشتار والأم العظمي (Mater Magna) لحضارات الشرق والغرب جميعاً!

جائزة أحسن كتاب في الفكر

وفي معرض الكتاب الدولي لسنة ٢٠٠١م فاز كتاب الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد بعنوان "الفكر المصري في العصر المسيحي" بجائزة أحسن كتاب في

الفكـــر، وكرمـــته الأمة المصرية في شخص رئيسها محمد حسنى مبارك في احتفالية معرض القاهرة للكتاب في حفل مهيب جمع صفوة مثقفي ومفكري هذه الأمة المباركة.

وقـــد كـــان لي مع صديقي د. فاروق القاضي، والأستاذة الدكتورة مني مكرم عبـــيد، والأســـتاذ الدكتور ميلاد حنا شرف مناقشة محتوي هذا الكتاب الفذ في سراي الســـادس من أكتوبر، ضمن فعاليات هذا المهرجان الثقافي العظيم، وكان يوماً تاريخياً بمعنـــي الكلمـــة، حيـــث المداخـــلات والتعقيبات، ولكأننا كنا في "مأدبة أفلاطونية" أو "ســـمبوزيوم" كما يقول أهل المعرفة، وكان نجم الجلسة المتألق صاحب الكتاب: رأفت عبد الحميد نفسه.

وكـــان رأفـــت عبد الحميد – عاشقاً للتراث العربي الإسلامي، ولا غرابة في ذلـــك فهو ابن لعالم جليل من علماء الأزهر الشريف هو المغفور له الشيخ عبد الحميد البسطويســـي، وكـــان الجمـــيع يرجعون إليه لأخذ رأيه في الثقات من المؤرخين، من الطـــبري إلـــي ابـــن الأثـــير، إلي ابن خلدون، إلي المقريزي، وصولاً إلي الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في العصر الحديث.

ومع أنه كان متخصصاً في تاريخ العصور الوسطي، والعصر البيزنطي علي وجـــه التحديد (٣٣٠ – ١٤٥٣م)، إلا أن رؤيته للتاريخ كانت رؤية المؤرخ الفيلسوف الـــذي يـــنظر، إلي التاريخ العالمي نظرة شمولية (جشتالت Gestalt)، بحيث لا تفهم الإقليمـــية أو المحلـــية إلا مـــن خـــلال الإطلالـــة الأوسع علي خريطة العالم الكبرى، والـــتحول مـــن عصـــر إلـــي عصر عند المؤرخ رأفت عبد الحميد لا تحدده الأحداث السياســـية الكـــبرى بقـــدر ما ترسم معالمه الأفكار والفلسفات السائدة، وعلي هذا فإن تواريـــخ الفقيد الجليل تواريخ في الحضارة وليست أرشيفاً لمزمنات أو حوليات أو أسر حاكمة أو دويلات تسقط وأخري تقوم!

رؤية موسوعية

ومـــن واقـــع هـــذه الرؤية الموسوعية جاء اختيار د. رأفت عبد الحميد – إلي جانـــب عمـــادة كلية الآداب جامعة عين شمس – مديراً لمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعـــة عين شمس، ومديراً لمركز الحضارات المعاصرة بجامعة عين شمس أيضاً،

وعضـــواً بلجـــنة الـــتاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضواً باتحاد المؤرخين العرب، وعضـــواً بالجمعـــية المصرية للدراسات التاريخية، وأميناً عاماً لسمنار التاريخ الوسيط والإسلامي بجامعة عين شمس، ورغم كل هذه الأعباء التي لا يطيقها إلا الأبطال، فإنه مـــا كـــان يـــتأخر دقيقة واحدة عن مواعيده ومسئولياته، وإني أعلم عن قرب أنه كان يقضي معظم أيام الدراسة في جنبات كلية الآداب لا يهدأ.

ومـــريدوه ينتشـــرون فـــي كـــل ربع من ربوع الدلتا وفي كل نجع من نجوع الصـــعيد، فله العشرات بل المئات من التلاميذ الأوفياء، من خلال إشرافه العلمي علي رســـائلهم فـــي الماجســـتير والدكتوراه، وهم الآن أعضاء لهيئات التدريس في مختلف جامعات مصر من أسوان إلي الإسكندرية.

وللعـــالم الفقـــيد عشرات من المؤلفات والبحوث التي عالجت أهم القضايا في الـــتاريخ البيزنطـــي ومصادره، وفي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، وفي ملامح الشخصية المصرية عبر العصور اليونانية والرومانية والبيزنطية.

ونذكر هنا بعض هذه المؤلفات علي سبيل المثال لا الحصر:

- الدولة والكنيسة، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٤.
- العالم البيزنطي (ج.هسي) ترجمة وتعليق، القاهرة ١٩٨٢.
- الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب، القاهرة ١٩٨٣.
- السمو البابوي بين النظرية والتطبيق، القاهرة ١٩٨٥.
- بيزنطة بين الفكر والدين والسياسية، القاهرة ١٩٩٧.
- الفكر المصري في العصر المسيحي، القاهرة ٢٠٠٠/٢٠٠١.

لقـــد كـــان علم رأفت عبد الحميد بريئاً من الجهل، وكان مسلكه عرياً من الرياء، وكان قوله موشحاً بالصواب، وكانت حاله دائرة مع الحق.

كانـــت غايـــة رفـــيق عمري في هذه الدار العاجلة معقودة بالأمثل فالأمثل، وكان طـــوال عمـــره مزداناً بثوب العفة والعصمة، ولم يكن صاحبي ممن سها عن باطن ما لـــربه علـــيه بظاهر ما له عنده، ولهذا فإن الله سبحانه وتعالي قد أخذ بيده، وآواه إلي كنف نعمته، ونقله حميداً إلي منازل رحمته.

دور الفقهاء في مواجهة الخطر الصليبي بالأندلس

إبراهيم القادري

المغرب

يجمـــع الدارســـون علي أن الحروب الصليبية لم تقتصر علي المشرق العربي فحســـب، بـل امـــتدت لتشـمل الغـــرب الإسلامي وخاصة بلاد الأندلس، فإذا كانت التحرشـــات الصليبية قد بلغت أوجها في المشرق العربي بعد احتلال بيت المقدس سنة ٤٩٢هـــ (١٠٩٩م)[1]، فإنها لم تكن تقل خطورة عنها في تلك المنطقة النائية من العالم الإســـلامي، وقد ترجم موقف البابوية ذلك عملياً قبل تاريخ هذا الاحتلال بسنوات حينما انـــبرت بكـــل ثقلها وسلطانها الديني لتحفيز النصارى الأسبان الذين تطوعوا للمشاركة فـــي الحـــروب الصليبية بالمشرق علي تغيير وجهتهم نحو الجبهة الأسبانية، ولضمان نجـــاح هـــذا التوجه، شرع البابا في منح صكوك الغفران لكل من هب من المسيحيين لقتال المسلمين بالأندلس، وجند الرأي العام المسيحي الأسباني لقبول هذه السياسة[2].

مـــن البديهـــي أن تخلـــق هذه الدعوة الصليبية المتعصبة ردود فعل قوية لدي الرأي العام الإسلامي بالأندلس، لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن تبرز قوات اجتماعية مخـــتلفة لوقف هذا التحدي الصليبي ومن بينها العلماء الأندلسيون الذين اتخذوا مواقف متبايـــنة، ولكنها تصب كلها في مقاومة الزحف الصليبي بالغرب الإسلامي، والأندلس علي الخصوص.

وقـــبل اســـتعراض مخـــتلف هـــذه المواقف، تستلزم المنهجية السليمة عرض أوضاع الأندلس خلال هذه الحقبة للكشف عن الحالة المتردية التي تمخض عنها تذؤب الخطـــر الصليبي وما نجم عن ذلك من ردود فعل العلماء الأندلسيين، فما هي الوضعية التي أفرزت هذا التحدي الصليبي ببلاد الأندلس؟

---

[1] ابـــن تغـــري بردي: النجوم الزاهرة، نشر المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، ج٥، ص١٤١ ؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر طبعة مصر، ط١، الطبعة الحسنية، ص٢١١.

[2] شارل اندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، الترجمة العربية. طبعة ليبيا- تونس، ١٩٧٨، ج٢، ص١١١.

سياسياً، لم تكن الأنــدلس خلال النصف الأول من القرن الخــامس الهجري (١١م) فــي وضعية تحسد عليها، فالخلافة الأموية في القرن الرابع جسدت آخر تجربة وحدويــة، وكان سقوطها إنذارا بظهور عصر الطوائف أو ما تسميه بعض المصادر[٣]، ب (أيــام الفــرق) التي أصبحت فيها الأندلس نهباً لكل مغامر أنس من نفسه القوة، ولا غــرو فقــد تقاسمتها شرذمة من المتربصين بالسلطان، ممن آثروا الاستبداد بنواحيهم، فأسسوا كيانات مهترئة وصل عددها إلي ثلاثة وعشرين دويلة[٤].

ولدينا شهادة معاصرة تؤكد حالة التمزق الذي بلغ أوجه في هذه المرحلة، أنها شــهادة الفقيه ابن عبد البر[٥] الذي عايش أحداث هذه الحقبة فكتب بهذا الخصوص قائلاً: (وانقطــع ملك بني أمية بعد الأربعمائة بأعوام يسيرة، فصار كل من غلب علي موضع ملكــه واستبعد أهله، وكثر فيها الأمراء، فضعفوا وصاروا خولاً للنصارى يؤدون إليهم أضعاف ما كان يأخذون منهم اليوم).

ويورد الأمام عبد الله بن بلكين[٦] أخر أمراء غر ناطة، في مذكراته التي تعتبر وثيقة هامة بحكم معاصرته للأحداث، نصاً يشير إلي هذا الانقسام وما تمخض عنه من أزمــة سياسية وانهيار كامل للسلطة المركزية بقوله: (وبقي الناس لا أمام لهم، فتنافسوا علــي الدنــيا، وطمــع كــل واحد في الآخر، وكذلك لا يصح أمر بين نفسين، فكيف ســلاطين كثــيرة وأهــواء مختلفة)، ولعل اتخاذ ألقاب خلافية متعددة من طرف أمراء الأندلس المتشرذمين يعكس عمق هذه الأزمة[٧].

---

[3] ابن الكرديوس: تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار عبادي. طبعة مدريد، ١٩٧١، ص٧٨.

[4] عــن أمــراء الطوائف والأسرات التي حكمت مختلف الإمارات الأندلسية، انظر: زامباور: معظم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، جامعة فؤاد الأولي سنة ١٩٥١، ج١، ص٨٦ وما بعدها.

[5] القصد والأمم في التعريف بأصول انساب العرب والعجم، طبعة القاهرة ١٣٥٠ هــ ص٣٥.

[6] كتاب التبيان، نشره ليفي بروفنسال، طبعة القاهرة، ١٩٥٥، ص١٨.

[7] المراكشــي: المعجب، طبعة البيضاء، ١٩٧٨، تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمي، (الطبعة٨) ص١٠٥ وقد أورد شعر أبي الحسن بن رشيق مستهزئا بهذه الألقاب الخلافية:

مما يزهدني في أرض أندلس — سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها — كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

زد علـــي ذلك أن الدويلات الطائفية لم تكن تتوفر علي أبسط مقومات الدولة، إذ اتســـمت بأسســـها الهشة، وافتقرت إلي قاعدة تضمن لها كياناً سياسياً صلباً له وجود اجتماعي مستقل.

كمـــا أن صـــغر مساحتها وقلة عدد سكانها، وطبيعة حكومتها التي تفتقد إلي الشـــرعية، وعـــدم توفرها علي قوة عسكرية للدفاع عن حدودها[٨]، كل ذلك جعل منها كـــيانات رخـــوة شـــبيهة بالدولـــة الإقطاعية[٩]، لذلك ظلت عاجزة عن إنجاز أي دور وحـــدوي، كمـــا اتســـمت بالضـــعف والوهن حتى (ذل الرئيس والمرؤوس، وافتقرت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية[١٠]).

وممـــا زاد وضـــعية هذه الدويلات تأزماً، إغراق نفسها في صراعات دموية زادت من هشاشتها، وهو ما عبر عنه أحد المؤرخين[١١] تعبيراً رائعاً بقوله: (وجعل الله بيـــن أولـــئك الأمـــراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات).

اســـتمرت هـــذه الحالة المؤسفة ما يربو عن الثمانين سنة، كلها تفكك خطير، وانحـــلال سياســـي واجتماعـــي عميق، وظل التناحر لغة التخاطب السائدة بين ملوك الطوائـــف الذيـــن تناســـوا مســـؤولياتهم القومية، بل فضل معظمهم الاستعانة بالممالك النصـــرانية حفاظـــاً علـــي عروشهم الواهية، لذلك لم يتورعوا عن سفك الدماء ومقاتلة إخوانهـــم العرب، يقول ابن الكر دبوس[١٢] في هذا الصدد: (وكان أسر شيء عند ألفنش (ألفونســـو السادس) Alfonso XI فتنة تقع بين الولاة من المسلمين (إشارة إلي أمراء

---

8 بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، طبعة قطر، ١٩٨٧، ص ١٠٣-١٠٤.

9 عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتي الفتح المرابطي، طبعة القاهرة، ١٩٦٩، ص٤١٨.

10 ابن الكردبوس: م.س.ص٧٧.

11 ابن الخطيب: أعمال الأعلام – القسم الخاص بالأندلس – تحقيق بروفنسال، طبعة بيروت، ١٩٥٦، ص٢٤٤ ولمزيد من التفاصيل حول صراعات أمراء الطوائف أنظر: عنان:م.س. ص٣٥ وما بعدها.

12 تاريخ الأندلس: ص٨٢.

الطوائف) فيعين هذا علي هذا، وهذا علي هذا فيتجلبب بذلك أموالهم طمعاً من أن يعجزوا فيظفر بملك الجزيرة كلها).

لم يكن هذا الواقع السياسي المهترئ سوي انعكاس أمين للوضع الاقتصادي المتدهور الذي أفرزته اعتداءات ألفونسو السادس الذي شكل قوة ضغط علي ملوك الطوائف، حتى جعلهم (في المعصرة) علي حد تعبير دوزي Dozy[١٣] وذلك باستنزاف مواردهم المالية عن طريق سن ضرائب سنوية تدعي (بارياس) [١٤] Parias ازدادت مقاديرها بشكل مروع إلي درجة أن بعضهم عجز عن أدائها[١٥]، فكانت جولاته العسكرية تعود كل مرة محملة بالضرائب[١٦]، وظل الأمر علي هذا النحو حتى قدوم المرابطين[١٧].

خلفت هذه السياسة الجبائية نتائج متناقضة علي المستوي الاقتصادي، ففي الوقت الذي امتلأت خزائن ألفونسو السادس بموارد إضافية (حوالي ٤٠ كلغ من الذهب كل سنة) تفاقمت الوضعية الاقتصادية بالأندلس، وازدادت تدهوراً وانهيار[١٨].

وساهمت الحروب بين زعماء الإمارات الطائفية في أنهاك الزراعة ونهب المحاصيل، وفي هذا الصدد يقول ابن بسام[١٩]: (فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعية مهملة، لأن جملة غلاتهم وجميع اعتمالاتهم تتلف بأيدي تلك الطواغيت)، وبالمثل فإن عمليات السلب والنهب التي قامت بها القوي النصرانية بين الفينة والأخرى، أسفرت عن خسائر فادحة[٢٠]، يضاف إلي ذلك كثرة المغارم التي ثبطت همة

---

13 DOZY: *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu' à la conquête de L' Andalousie par les Almoravides*, Leyde, 1932, Tome 3, p.11

14 FOSSIER: *Enfance d'Europe: aspects économiques et sociaux*, Paris, 1982,Tome 1, p. 254.

15 ابن بلكين م.س.ص ٧٦.

16 ابن خلدون: كتاب العبر، تحقيق خليل شحاتة، طبعة بيروت، ١٩٨١،ج٦،ص٢٤٨.

17 القلقشندي م.س. ج٥، ص ٢٤٩ ابن الكردبوس: م.س.ص ٧٧.

18 FOSSIER: op.cit, p. 127.

19 الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس، طبعة ليبيا – تونس، ١٩٨١ ق ٢مج١، ص٢٥٤.

20 FOSSIER: op. cit. , p. 254.

المزارعيـــن (فضـــعف الاعتمار وخلت الديار[٢١])، وفي ذلك إشارة واضحة إلي انهيار قـــوة الإنـــتاج الرئيسية في الأندلس وهي الزراعة، مما يعني تصدع البنية الاقتصادية برمتها.

ومممـــا زاد الطين بلة أن أهل الذمة، وخاصة اليهود استبدوا بالسلطة والنفوذ، وهيمـــنوا علـــي المناصب العليا في الآمرات الطائفية، مما آثار حفيظة الرعية وجعل السخط يتأجج في صدورها ضد حكامها وسياساتهم المتخاذلة[٢٢].

حـــدث هـــذا فـــي الوقـــت الذي تعاظم شأن النصارى، وجنحت ممالكهم نحو الـــتوحد، مدعمين من قبل الكنيسة البابوية والرهبان الكولونية، لذلك وجهوا كل طاقاتهم نحـــو دويـــلات الطوائف، ولبلوغ هذه الغاية نهجوا خطة تعتمد علي حرب الاستنزاف وتشـــتيت الصفوف، وهو ما عبر عنه الفونسو السادس بقوله: (ولكن الرأي كل الرأي تهديـــد بعضـــهم ببعض، وأخذ أموالهم أبدا حتى ترق وتضعف، ثم هي تلقي بيدها إذا ضـــعفت)[٢٣]، وقـــد تمخـــض عن هذه الخطة سقوط مدينة طليطلة[٢٤]، الذي جاء ضربة قاصـــمة للدويـــلات الطائفـــية، ودليلاً واضحاً علي عجزها عن وقف الزحف الصليبي المتفاقم.

من البديهي أن تساعد هذه الأوضاع المتردية علي احتداد شوكة الصليبيين، إذ أصـــبح الفونســـو الســـادس إذا استعرنا تعبير أحد الباحثين[٢٥]، (من أكبر الوجوه) التي ستضـــاعف الـــزحف الصـــليبي، ولعل تلقيب نفسه بذي الملتين[٢٦]، يزكي هذا المعني، وتـــنهض تحدياتـــه العسكرية حجة علي عزمه استرجاع الأندلس برمتها، وحسبنا أنه دوخ الإمـــارات الطائفـــية التي شقتها جيوشه من الشمال إلي الجنوب حتي وصلت إلي

---

21 ابن الخطيب، م.س.ص ٢٤٤.

22 ابن الكردبوس: م.س.ص: ٧٨ – ابن بسام، م.س.ق١ ،مج٢، ص٧٦٦.

23 ابن بلكين، م.س.ص ٧٣.

24 ابن بسام، م.س.ق٤، مج١ ص ١٦٣.

25 CALMETTE: *Histoire d'Espagne* .,Paris, 1947, p. 80.

26 DOZY: op. cit , p. 121.

فرضـــة المجـــاز من جزيرة طريف تحت سمع أمراء الطوائف وبصرهم[٢٧]، بل هؤلاء فضلوا ملاطفته بالأموال والهدايا، والانغماس في ملذاتهم (بشرب الخمور واقتناء القيان وركـــوب المعاصـــي وسماع العيدان)[٢٨] دون أي محاولة لإقامة جبهة متحدة لمواجهة الخطـــر المشترك[٢٩]، وتشهد الرسالة التي بعثها الفونسو السادس إلي يوسف بن تاشفين أمـــير دولـــة المرابطيـــن بالمغرب الأقصى قبيل موقعة الزلاقة SACRAJAS (سنة ٤٧٩هـــ) علي هذه الوضعية المتخاذلة[٣٠].

وتبلور التحدي الصليبي في المواقف التي تبنتها البابوية في هذا الصراع، ففي ســـنة ٤٧٦هـــــ (١٠٦٣م)، قـــرر البابا الاسكندر الثاني Alexander II منح صك الغفران لكل من يشد الرحال لقتال المسلمين في الأندلس،[٣١] وفي نفس المنحي اتفق مع ملك قشتالة فرناندو الأول Fernand I أن يصدر بركته البابوية لكل من يستجيب لهذه الرغـــبة الصـــليبية، فهب كثير من فرسان غرب أوربا للمشاركة فيها طمعاً في النهب والحصول علي المغانم.

ولمـــا عقد البابا أو ربان الثاني مؤتمر (كليرمون) Clermont لإذكاء حماس الأمـــم النصرانية من أجل خوض غمار الحروب الصليبية، أراد (برنا رد) Bernard ومعـــه عدد من الأساقفة الأسبان التوجه إلي المشرق لإفراغ طاقتهم القتالية، لكن البابا حـــرم علـــيهم ذلك، ووجههم للقيام بهذه المهمة في الأندلس التي كانت لا تقل في نظره أهمية عن أراضي المشرق[٣٢]، وبذلك أصبحت (خط الصدام الأول)[٣٣] في هذه الحروب التي أصبحت تشرف عليها روما وتوجهها كما توجه حروبها في الأراضي المقدسة[٣٤].

---

27 ابن أبي زرع: روض القرطاس، الرباط، ١٩٧٣، ص١٤٣.

28 ابن الكردبوس: م.س.ص٧٧.

29 عبر الأمير عبد الله بن بلكين عن ذلك في مذكراته بقوله: (فنحن لم يعن بعضنا بعضاً علي الرومي) انظر: التبيان، ص١٦٦.

30 انظـــر نص الرسالة عند الحلبي: كتاب حسن التوسل فى صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان، طبعة بغداد، ١٩٨٠، ص ٧٦.

31 شارل اندري جوليان:م.س.، ج٢، ص١١١.

32 أشباخ: تاريخ الاندلس علي عهد المرابطين والموحدين، الترجمة العربية. طبعة تونس – ليبيا، ١٩٧٨، ص ١٢٤.

وتجلت الروح الصليبية كذلك في دساتير بعض الدول المسيحية، ولا غرو فقد تضـمنت القوانين التي صادق عليها المجلس الملكي في البرتغال قانوناً ينص علي أن الذيـن يموتون في سبيل النصرانية يصبحون أعضاء في طبقة النبلاء، وأن صفة النبل ترفع عن كل شخص يفر إلي أراضي المسلمين[٣٥].

في هذا المناخ، ازداد تحدي الممالك النصرانية، فأبن الخطيب[٣٦]، يذكر أنه بعد احـتلال الفونسو السادس مدينة طليطلة، عرض عليه أنصاره أن يلبس التاج، فأرجأهم إلي أن يستولي علي قرطبة، بل (طمع في الاستيلاء علي الجزيرة كلها[٣٧]).

إلـي جانب شبح ألفونسو السادس، ظهرت شخصية عسكرية أخري زادت من متاعب مسلمي الأندلس، ألا وهي شخصية السيد الكنبيطور Campiodor الذي تحول من لص محترف[٣٨]، إلي قائد نجح في قيادة جماعة من الفرسان المسيحيين المغامرين، وأذاق الأندلسـيين الهـزائم المـرة، حتى أن ابن بسام[٣٩] وصفه بأنه كان (عقالا وداء عضالا له في الجزيرة وقائع)، وقد راودته أحلام استرجاع الأندلس برمتها[٤٠].

نسـتخلص ممـا تقدم، أن الأندلس عرفت خلال القرن الخامس الهجري تحدياً صـليبياً لا يقل خطورة عما شهده المشرق الإسلامي، فما هو موقف العلماء الأندلسيين من هذا التحدي؟

---

33 سـعدون نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس: عهد يوسف بن تاشفين، طبعة بيروت، ١٩٨٥، ص١٠٣.

34 DESCOLA: *Histoire de l' Espagnė chretienne*, ed. Robert Leffont., p. 107.

35 أشباخ:م.س.ص ٢٤٩.

36 أعمال الأعلام – القسم الأندلسي، ص٢٤٤.

37 مؤلف مجهول: الحلل الموحشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، طبعة البيضاء، ١٩٧٩، دار الرشاد الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، ص٣٨.

38 عبد الجليل الرضا الراشد: علاقات دول الطوائف في الأندلس بالمرابطين (أطروحة جامعية مرقونة) نوقشت بجامعة عين شمس بالقاهرة،ص٧٧.

39 الذخيرة، ق٣، مج ١، ص٩٥.

40 نفسه، ص ٩٩، ويقول في هذه الرواية: (حدثني من سمعه يقول وقد قوي طمعه ولج به جشعه: علي رذيق فتحت هذه الجزيرة ورذريق يستنقذها).

بـــرزت مواقف هذه القوة الاجتماعية بوضوح تجاه التحديات الصليبية، وأن لم تكـــن منسجمة بكيفية تامة، فقد استغلوا فرصة إلقاء دروسهم ومحاضراتهم للحظ علي الجهـــاد، وأذكـــاء الحمية الدينية والأنفة الإسلامية، كما تجلت مواقفهم أيضاً من خلال السفارات والوساطات بين أمراء الطوائف، ودعوتهم للتوحد والتصدي للخطر الصليبي، أو من خلال مساهمتهم في إسقاط الحكام المتخاذلين أو المشاركة الفعلية في معارك الجهاد والاستشهاد فيها.

وعلي العموم يمكن رصد مواقف العلماء من خلال الأدوار التي اضطلعوا بها لمجابهة التحديات الصليبية علي الشكل التالي:

١- الوعظ والدعوة لتوحيد الجبهة الإسلامية من أجل الجهاد.

لا جـــدال فـــي أن النزاعات التي شجرت بين أمراء الطوائف، وما تلاها من مواقـــف متخاذلة، كان لها وقع سيئ علي نفسية بعض العلماء الذين بادروا غلي الدعوة لنـــبذ الخلافـــات بغية تشكيل جبهة إسلامية متراصة قادرة دابر الصليبيين، والتصدي لمشاريعهم التوسعية.

وقـــد بـــدأت هذه الدعوة التوحيدية منذ سقوط طليطلة سنة ٤٨٧هـــ، وتزعمها العلامـــة الفقـــيه أبـــو الوليد الباجي (٤٠٣ – ٤٧٤ هـــ) الذي جال بلاد الأندلس طولاً وعرضاً، داعياً إلي وحدة الصفوف، ومحذراً من عواقب الفرقة والنزاع[٤١].

وتتضارب المصادر حول ما إذا كان هذا العالم قد قام بمبادرته من تلقاء نفسه أم أن حـــاكم بطليوس المتوكل بن الأفطس قد ندبه إلي ذلك. فأبن الآبار[٤٢] يؤكد الرواية الأخيرة بقوله: (ولما عظم عيث الطاغية أدفونش بن فردنلند، وتطاول إلي الثغور، ولم يقـــنع بضـــرائب المال، انتدب للتطوف علي أولئك الرؤساء القاضي أبو الوليد الباجي يـــندبهم إلي لم الشعث ومدافعة العدو، وكلهم يصغي إلي وعظه). بينما ذهب مؤرخون

---

41 السامرائي: الدعوة لتوحيد الأندلس في أيام الطوائف، مجلة زالكو السليمانية، نيسان، ١٩٧٧، ص٨٢ – ٨٣.

42 الحلة السيراء: تحقيق حسين مؤنس، طبعة القاهرة، ١٩٦٣، ج٢، ص٩٨.

أتخـــرون[٤٣] إلي تبني الرواية الأولي، فأكدوا أن الباجي قام بدعوته التوحيدية الوعظية مـــن تلقاء نفسه، ونحن نرجح الرواية الأولي لاجماع المؤرخين عليها وتفرد ابن الآبار وحــده بذكــر الثانية، كما أن الرواية الأولي أقرب إلي سياق المنطق التاريخي، إذ لا يعقــل أن يســعي أمير تمت أدانته من قبل كافة المصادر لمساهمته في انقسام الأندلس إلي المطالبة بتوحيدها!.

وممـــا يســترعي الانتباه، أن دعوة الفقيه الباجي بدأت مباشرة بعد عودته من المشــرق العربي، مما يعكس وحدة الظاهرة في التاريخ العربي، والظروف المشتركة التي استلزمت التصدي للخطر الصليبي في المشرق والمغرب علي السواء.

ورغــم أن جهــوده لم تسفر عن نتيجة عملية، فقد نجح علي الأقل في وضع أمـــراء الطوائــف أمـــام الأمر الواقع، وأشعرهم بمسؤولياتهم وضرورة نبذ خلافاتهم، وتوحــيد كلمتهم لمجابهة الخطر النصراني، يقول المقري[٤٤] بهذا الخصوص: (ولما قدم مـــن المشـــرق إلي الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً، وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة، فمشـــي بيـــنهم فـــي الصلح وهم يجلونه في الظاهر، ويستثقلونه في الباطن، ويستبدون نزعته، ولم يفد شيئاً فالله تعالي يجازيه عن نيته).

إلـــي جانب أبي الوليد الباجي، برز دور العلامة المحدث أبي حفص عمر بن الحســـن الهوزنـــي الـــذي جســد بحق نموذج الشجاعة والجرأة والروح النقدية الحرة المســتقلة التـــي أبـــان عـــنها بعض العلماء الأندلسيين تجاه حالة التمزق التي عرفتها الأندلـــس فـــي عصــــر الطوائف وما نجم عن ذلك من خطر صليبي، حتى أن موقفه الصلب كان وراء اغتياله[٤٥].

---

[43] أنظـــر النباهي: قضاة الأندلس (المراقبة العليا). طبعة بيروت ١٩٨٠. ص ٩٥ – ابن الشباط: صلبة السمط (المنتشـــور مـــع تـــاريخ ابن الكردبوس) ص٤٦ – ابن بشكوال، الصلة، ق١، ص:٢٠٠ – ابن خلكان: وفيات الأعيان: تحقيق حسان عباس، بيروت (د.ت)، ج٢، ص٤٠٨.

[44] نفح الطيب: ج٢، ص٧٧.

[45] بن عبود: م.س.ص١٧٥.

ولا يساورنا شك في أن رحلته إلي المشرق العربي جعلته علي مفاسد المجتمع الإسلامي، وعلي الأزمات التي كانت تعصف به، والتمزق الذي صار ينخره، فعاد يحمل في نفسه هم الدعوة للوحدة ورصد صفوف الأمة العربية – الإسلامية.

وبمجرد عودته، التقي بالعلامة أبي الوليد الباجي[٤٦]، وهو لقاء لم تكشف المصادر عما دار فيه من حوار بين الفقيهين، بيد أن تأزم الأوضاع بالأندلس واحتدد شوكة المسيحيين يجعلنا نفترض أن بعض مواضيع الحوار دارت حول مسؤوليتيهما في القيام بدور الوعظ ونصح أمراء الطوائف بتوحيد شبه الجزيرة الأندلسية، وهزم التطلعات الصليبية.

ويخيل إلينا أن سقوط مدينة ببشتر كانت الحدث الأكثر تأثيراً في نفسه، فقد تألم للمذابح والمآسي التي أصابت مسلمي الأندلس، فبعث إلي المعتضد رسالة تفيض بالغيرة والحماس يحضه فيها علي جهاد الكفرة وتحرير المدينة المحتلة[٤٧].

والملاحظ أنه دعم رسالته باستشهادات قرآنية لإضفاء المشروعية الدينية علي جرآته وصراحته، لكن ذلك لم يحل دون دفع الثمن غالياً، فقد امتعض المعتضد لما جاء في الرسالة فقتله بيده[٤٨]، وهو مثال صارخ للتضحيات التي قدمها بعض العلماء خدمة للقضايا القومية ومجابهة التحدي الصليبي.

ومن العلماء الذين قاموا بنفس الدور كذلك عن طريق الدعوة للوحدة واستنهاض الهمم الفقيه ابن عبد البر، نجل الفقيه الكبير أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري (ت٤٦٣هـ)، ورغم أسلوب التقية الذي نهجه، ومساندته لجرائم المعتضد[٤٩]، فأن بعض كتاباته جاءت زاخرة بالدعوة إلي الوحدة ورصد صفوف عرب الأندلس أمام الزحف الصليبي[٥٠]، ولا غرو فقد جاء في إحدى رسائله: (ورد كتابك يحض علي

---

46 عياض: ترتيب المدارك ج٣، ص٨٢٥.

47 انظر نص الرسالة في الذخيرة، ق٢، ج١، ص٨٤ – ٨٥.

48 نفسه: ص٨٣.

49 بن عبود: م.س.ص١٧٩.

50 إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، طبعة بيروت، ١٩٦٢، ص١٧٧.

مـــا أمر الله تعالي من الألفة واتفاق الكلمة وإطفاء نار الفتنة، وجمع شمل الأمة في هذه الجزيرة)[51].

وتقـــوم رســـالة ثانية كتبها علي لسان أهل ببشتر قرينة أخري علي دوره في الدعـــوة لوحدة الأندلس لمجابهة الخطر النصراني إذ جاء فيها: (ولو كان شملنا منتظماً وشـــعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتبكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً لما طاش لـــنا سهم ولا سقط لنا نجم... فتنبهوا وقاتلوهم في أطرافكم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغوركم قبل أن يجاهدوكم في دوركم[52]).

كل هذه القرائن تكشف بالملموس المحاولات الجادة التي قام بها بعض العلماء الأندلســـيين لتوحـــيد الجـــبهة الاسلامية في الأندلس وصد الأخطار الصليبية، فما هي الاختيارات الأخرى التي نهجها العلماء الآخرون؟

٢- فضح أمراء الطوائف ومعارضتهم لتقاعسهم عن رد الأطماع الصليبية:

لعـــل أهم عالم عكس هذا التوجه، الفقية أبو محمد علي ابن حزم أحد فطاحلة علمـــاء القـــرن الخـــامس الهجري، فعلي خلاف بعض العلماء الذين تبنوا مبدأ الواقعية وعـــدم الجرأة للتعبير عن معارضتهم للنظام الطائفي علي الأقل حتي ظهور يوسف بن تاشـــفين، كـــان ابـــن حـــزم أكثر إفصاحا في معارضته المطلقة واللامشروطة لدول الطوائـــف. بـــل طعـــن في شرعية النظام الطائفي معتبراً كل أمير (محارب لله تعالي وساع في الأرض بفساد[53]) كما أدان عصر الطوائف ونعته بعصر الفتنة والغلب[54]، بل عد جميع الأموال المتداولة في هذا العصر غير شرعية كذلك[55].

---

51 ابن بسام: م.س. نقلا عن السامرائي: م.س. ص٨٧.

52 إحسان عباس: م.س.ص١٨١.

53 ابن حزم: رسالة التلخيص، نشرت مع رسائل أخري ضمن كتاب: الرد علي ابن النغريلة اليهودي، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت (د.ت)، ص:١٧.

54 جمهرة أنساب العرب، طبعة القاهرة (د.ت)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ص١٠٢.

55 ابن حزم: رسالة التلخيص، ص١٧٥ وفيها يقول: (وبرهان ذلك أنني لا أعلم لا أنا ولا غيري بالأندلس درهما حلالا ولا ديناراً طيباً).

وبمـــا أن اليهود كانوا قد استولوا علي المناصب العليا في الدويلات الطائفية، وصاروا أصحاب الأمر والنهي، فقد صب عليهم جام غضبه وهاجمهم بعنف، وحسبنا أنه أفرد كتاباً لمجادلة اليهودي ابن النغريلة[56].

٣- إقناع ملوك الطوائف بالاستنجاد بالمرابطين لرد الخطر الصليبي:

كانـــت معارضـــة بعض العلماء لأمراء الطوائف ونظامهم القطري المهتريْ العاجـــز عن ردع الأطماع الصليبية معارضة خجولة اكتفت بالتلميح واللف والدوران أحـــياناً وبالصمت أحياناً أخري، وذلك بسبب انقسامهم علي أنفسهم، وعدم امتلاكهم قوة عســـكرية لتغيير الأوضاع[57]، غير أن عاملين ساهما في بروز معارضتهم بشكل قوي وصـــريح. يتمثل الأول في عجز أمراء الطوائف علي تشكيل جبهة موحدة قادرة علي ردع الخطر الصليبي، بينما يتجلي العامل الثاني في ظهور الأمير المرابطي يوسف بن تاشـــفين علـــي الساحة السياسية، فضلاً عن المساندة الشعبية التي أصبح يتمتع بها هذا الأمير.

انطلاقـــاً مـــن هذه الظرفية الجديدة، بدأ العلماء يبذلون قصاري جهدهم لاقناع حكـــام الأندلس بضرورة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين لمواجهة سياسة ألفونسو السادس التوســـعية، خصوصاً بعد أن صار هذا الأخير يلوح باحتلال الأندلس كلها، فأكدوا لهم أن الأمير المرابطي أصبح يشكل الاختيار لإنقاذ الأندلس، وأن أي فشل في البحث عن مساندته سيؤدي حتماً إلي محو الوجود العربي بهذا البلد الإسلامي[58].

فـــي هـــذا المنحـــي، أورد صاحب التكملة في ترجمة أبي عبيد الله محمد بن حســـين بـــن محمد بن عريب الأنصاري (ت بعد عام ٥٠٨ هـــ) أنه (سكن سرقسطة، وتجـــول وتجـــول كثيراً في بلاد الأندلس والعدوة .... وكان وجيهاً عند الملوك متردداً

---

[56] نشر هذا الكتاب تحت عنوان (الرد علي ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخري)، انظر هامش ٥٢.

[57] ابن عبود: م.س.ص ١٨٦.

[58] نفسه، ص١٨٨.

علـيهم[59]) وهـو نـص يكشف النقاب عن محاولاته الرامية إلي إقناع أمراء الأندلس بالدخول تحت طاعة المرابطين لمواجهة الأطماع الصليبية.

وبعـد دخول يوسف بن تاشفين جزيرة الأندلس، أصبح دور العلماء في إقناع أمـراء الطوائف بالتخلي عن إماراتهم لصالح الأمير المرابطي أكثر أهمية، خاصة أن القـوي الصليبية كانت لا تزال تتربص الدوائر بالمسلمين في الأندلس، لذلك بدأ العلماء يقومـون بدور الوساطة بين يوسف وأمراء الطوائف، وفي هذا الصدد تخبرنا المصادر أن الأمـير عـبد الله حاكم غرناطة بعث العالمين إن القليعي والقاضي ابن سهل ليبلغاه نجاحـه فـي حكم تلك الإمارة[60]، وهي محاولة نميل إلي الظن أنها سعت للتقرب من الأمـير المغربـي للاستنجاد به في اللحظة الضرورية بعد أن بدأ يشعر بالخطر يحدق بـه، لومـا سـمع أنه وصل إلي سبتة في طريقه إلي قرطبة، بعث القاضي ابن سهل المذكور بمعية باديس بن واروي لاستقباله والترحيب به[61].

غـير أن دور الوسـاطة الـذي قام به العلماء لتحقيق وحدة الدولة الإسلامية بـالأندلس لـم يجـد الأذان الصـاغية، مما جعل هؤلاء يصعدون الموقف، ويتخذون إجـراءات نجاعة وحزماً، وذلك بإصدار فتاوي فقهية تسمح ليوسف بن تاشفين بإسقاط الحكـام المتخاذليـن، وغـزو الأندلـس وتوحيدها كخطوة ضرورية وحاسمة لمجابهة التحديات النصرانية، وهو ما سنتناوله الآن.

٤- العمل علي إسقاط أمراء الطوائف العاجزين عن ردع الخطر الصليبي:

تـبلور هـذا الدور في اتجاهين: أولهما العمل في الخفاء لمساعدة يوسف بن تاشـفين بغية الإطاحة بأمراء الطوائف، وثانيهما إصدار فتاوي فقهية بكيفية علنية تجيز غزوهم وإسقاط حكمهم تحت غطاء شرعي.

بخصـوص الجانب الأول، تذكر إحدى الروايات أن العلامة القاضي بن سهل بعـث رسـولاً مـن طرف حاكم غرناطة إلي يوسف بن تاشفين، فأستغل هذه الفرصة

---

59 ابن الابار: التكملة لكتاب الصلة. نشره القرد بل وابن أبي شنب. طبعة الجزائر، ج١، ص٤١١.

60 ابن بلكين: م.س.ص١١٦.

61 نفسه، ص١٤٦.

لأخـبار الأمـير المرابطي بالوهن الذي أصاب إمارة غرناطة، وانقسام جيشها وانهيار معـنوياته، وفـي نفـس الوقت أبلغه ترحيب سكانها به لتخليصهم من جبروت حاكمه واسـتعدادهم للانضـواء تحت راية المرابطين[٦٢]، كما أن الفقية أبو جعفر ابن القليعي عـبر إلـي المغرب ليحرض يوسف علي الإيقاع بملوك الطوائف، بيد أن أكثر العلماء سـعياً للإطاحـة بهذا الأمير، كان هو الفقية أبو بكر بن مسكن الذي يحدثنا عنه الأمير عـبد الله حاكم غرناطة في مذكراته فيذكر أنه اتصل بيوسف بن تاشفين وأغراه بغزو إمارته[٦٣].

وفـي نفـس السـياق، لم يتوان عالم أخر هو الفقية ابن إحسان عن العمل في خفاء للأطاحة بأمير بطليوس ابن الأفطس الذي كان قد ولاه شؤون دولته.

وبالمـثل، لعب بعض العلماء دوراً هاماً في إسقاط المعتمد بن عباد، فبعد تردد يوسـف بـن تاشفين عن خلعه بسبب العهد الذي كان قد قطعه عليه، ألح عليه الفقهاء بإزاحـته عن الحكم هو وغيره من ملوك الطوائف، إذ ورد علي لسانهم: (فبادر بخلعهم ونحـن بيـن يدي الله المحاسبون، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون، فأنك أن تركتهم وأنـت قادر عليهم أعادوا بقية بلاد المسلمين إلي الروم، وكنت أنت المحاسب بين يدي الله تعالي).

أمـا الجانـب الثانـي الخاص بإصدار فتاوي لتنحية أمراء الطوائف، فالفقيه العلامـة أبو بكر الطرطوشي يقدم نموذجاً رائعاً لهذا الإفتاء، وبما أن أمر الأندلس كان قضـية لا تخص مسلمي الأندلس فحسب بقدر ما كانت تهم المسلمين كافة، فإن فتاوي أخـري صـدرت مـن علماء مسلمين من المشرق كذلك، وفي طليعتهم الإمام الغزالي الـذي أفتـي بـأن (إعفـاء أمراء الطوائف والإبقاء عليهم لا يتوصل معه إلي واجب الجهاد).

---

62 نفس المصدر والصفحة.

63 إبراهيم خليل السامراتي: علاقات المرابطين بالممالك الأسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، طبعة بغداد، ١٩٨٥، ص١٥٧.

ونظـــراً لمـــا تكتســبه الفتاوي من خطورة لكونها تعطي المبرر الشرعي لكل مـــبادرة سياســية، فـــإن أقدام العلماء علي إصدار مثل هذه الفتاوي لتمرير مخططات الأمـــير المرابطـــي تعكس مساهمتهم في إسقاط أمراء الطوائف، ودق أخر مسمار في نعوشـــهم، وتمهـــيد الســبيل ليوسف ابن تاشفين لاجتياح الإمارات الطائفية المترهلة، وضـــمها نهائياً كخطوة أولي لاستئصال شأفة الخطر النصراني دون إراقة دماء كثيرة، كمـــا يـــرجع إلـــيهم الفضل في إضفاء الصبغة الشرعية الدينية علي دخول المرابطين الأندلس وتوحيدها لمواجهة جحافل الجيوش الصليبية، بعد أن برروا ذلك بتعامل أمراء الطوائـــف مـــع النصـــاري، وإثقال كاهل الرعية بالضرائب وتقديمها بسخاء لألفونسو السادس.

٥- مشاركة العلماء في الجهاد والاستشهاد لرد الأطماع الصليبية.

فضـــلاً عـــن الأدوار الســـابقة الذكر، اختار بعض العلماء طريق الاستشهاد والمـــوت فـــي ساحة المعارك لقطع دابر القوي الصليبية، وحسبنا أن بعضهم شـــارك مشـــاركة فعالة في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـــ م ١٠٨٦م، فرزقوا الشـــهادة مـــثل الفقية يعلي المصمودي الذي يذكر عنه ابن عبد الله الملك، أنه دخل الأندلس غازياً صحبة قاضي الجماعة أبو مروان المصمودي (فأكرمهما الله بشـــهادة فـــي وقعـــة الـــزلاقة علي النصاري). ومنهم من ساهم في هذه المعـــركة وخرج ظافراً مزهواً بالنصر كما هو حال ابن القصيرة الذي تجشم عـــناء الصمود في الصفوف الأمامية للجيش، ولم يصب إلا بجراحات خفيفة، وانفرد بذكر مشاهداته لأطوار هذه الحرب في رواية تعد من الروايات النادرة والطـــريفة التي وصلت إلينا علي لسان شاهد عيان، ومن العلماء الذين كانت تحدوهـــم الرغـــبة في خوض غمار هذه المعركة ولو أن الظروف لم تسعفهم لتحقـــيق ذلك، نذكر علي ابن عبد الله بن حمود المكناسي، وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن حداد.

نفـــس الشـــيء يقـــال عن علماء آخرين شاركوا في معارك صليبية أخـــري مـــثل معـــركة ألبورت سنة ٥٠٨هـــ واستشهدوا فيها، ونذكر في هذا

الصــدد يحــي بــن محمد الأموي، وأحمد بن ثابت بن عبد الله العوفي، بينما تحـتفظ المصــادر بأسماء العديد من العلماء الذين استشهدوا في معركة قتندة سـنة ٥١٤هـ لمنع زحف القوي الصليبية، وفي طليعتهم أبو علي بن الحسن الصــدفي السرقسطي الذي كان يشار إليه بالبنان لسمو منزلته في العلم، وعلو كعبه في المسائل الدينية، وكذلك عبد الرحمن بن فتح اللخمي، ومحمد بن يحي بـن عـبد الله بـن زكـريا، وبالمثل لم يتقاعس علماء آخرون عن الذب عن هويـتهم الإسلامية حينما كانت حركة الاسترداد في أوجها إبان مرحلة ضعف المرابطيـن، وفـي هـذا الصـدد يخبرنا الذهبي أن الفقية العلامة الرشاطي (استشهد عند دخول العدو ألمرية) وذلك في جمادي الأخرة من سنة ٥٤٢هـ. كمـا يورد ابن الأبار في ترجمة الفقية جعفر بن محمد بن يوسف أنه استشهد بشنتمرية سنة ٥٤٦هـ دفاعاً عن العروبة والإسلام ضد القوي الصليبية، وأذا كانــت الاستشهادات الأخيرة تتعلق بالقرن السادس الهجري، فأنها تمثل رافداً واستمراراً لروح الجهاد لدي علماء القرن الخامس.

وثمة سيل من أسماء العلماء الذين حملوا رسالة الجهاد لكسر شوكة القـوي الصليبية والتصدي لها بجرأة وحزم، وقد اقتصرنا علي النماذج الأنفة كأدلــة علــي الــدور الطلائعــي الذي اضطلعوا به للدفاع عن دولة الإسلام بالأندلس.

خلاصــة القــول أن العلمــاء الأندلسيين لعبوا خلال القرن الخامس الهجــري أدواراً متــنوعة في التصدي للأطماع الصليبية التي حاقت بالأندلس انطلاقاً من الوعظ والحظ علي تحقيق الوحدة الإسلامية، مروراً بترشيد أمراء الطوائــف ومعارضــة سياســتهم ســراً أو علــناً إلــي المشاركة في الجهاد والاستشهاد، وقد أسفر هذا الدور عن قطع دابر القوي الصليبية ورفع التحدي عــن المنطقة بمساعدة المرابطين، كما أسهم في رفع معنويات المسلمين قاطبة بعــد معركة الزلاقة التي كانت أول نصر كسر شوكة الصليبين ومهد للمعارك المظفرة ضد الصليبيين في المشرق العربي خلال المراحل اللاحقة.

حدود مصر الشرقية*

رأفت عبد الحميد

مصر

لم تسعد مصر بحد من حدودها .. كما سعدت بحدها الشرقي!

ولم تشق مصر كذلك بحد من حدودها .. كما سعدت بحدها الشرقي!

حادثات الزمان تقول ذلك

ووقائع الدهور تحكيه

ولا يكــذب التاريخ ولا يتجمل حين يدون أن بشائر السعادة، وإن كانت قليلة، إلا أنهــا كانــت قريــنة العمــر الطويل، والأثر الباقي.. والمعني والمغزى في الفكر والحضارة والشخصية.

ولا يكــذب الــتاريخ ولا يتجمل حين يسجل بكل الحسرات أن مسببات الشقاء كانــت كثــيرة، ولكنها لم تلبث إلا قليلاً.. مهما طالت.. وجارت مكثت غير بعيد.. ثم دالت.. وتلك عقبي التعدي.

هــناك.. عند الحد الشرقي.. يفتر الثغر المصري عن ابتسامة.. فيحتزم القلب أوردته والشرايين.. ويتراقص من حب وحبور.. وهناك أيضاً.. تنكأ الجراح. فينقبض الصدر.. وتختفي الابتسامة.. وتتولى إلي الظل حياة.. لتولد من جديد.

سعدت يوم قدم إليها أبو الأنبياء إبراهيم.. موحياً بمقدمه أن مصر واحة الدين وإن تعددت أسماؤه..

ويــوم أصهر إلي أهلها بزواجه من هاجر المصرية.. لتغدو هذه أم العرب من أسباط بني إسماعيل.

ســعدت يــوم فتحــت بالحب أحضانها، وبالأمن والأمان ذراعيها.. لتستقبل العــذراء ورضيعها المسيح، وتمسي الملجأ والملاذ للعائلة المقدسة، من مكر بني يهود، وبطش بني الأصفر!

---

*ألقيت هذه الكلمة فى ندوة أقامها المجلس الأعلى للثقافة فى شهر مايو ٢٠٠٢، وكان سيادته مقررا لها.

وسجل ربنا ذلك في قرأنه الكريم بقوله سبحانه وتعالي: (وجعلنا ابن مريم وأمه آية، وآويناهما إلي ربوة ذات قرار ومعين) وكانت مصر هي الربوة.. وكانت المعين.

ووجدت المسيحية في مصر أرضا خصبة، نمت فيها وأورقت، ومكنت الكنيسة السكندرية لنفسها فيها، حتى جاءتها كنائس الرسل الأخرى تسعي.. تقف علي بابها، وتخطب ودها.. وتسألها الرأي الفصل في شأن المسيح ومكانته، وأبعاد اللاهوت والنا سوت في طبيعته.

وإلي صحا رواتها علي ضفتي النهر الخالد، سري المريدون من كل أنحاء العالم، ليجلسوا مجلس التلميذ أمام رهبانها، يحتذون بهم، وينقلون عنهم، حتى غدت الرهبانية المصرية لدنيا المسيحية، أسلوب عبادة، وأنموذج حياة.

وسعدت مصر يوم أصهرت بمارية المصرية إلي محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام.. فجمعت بذلك ليس بين الحسينين. بل الحسن كله.. وكيف لا وقد أصهرت من قبل إلي أبي الأنبياء إبراهيم.. والآن إلي خاتم الأنبياء محمد؟!

وسعدت يوم حمل جند الإسلام رسالة السلام إلي أهليها، وبين أيديهم سماحة، وفي قلوبهم من الرسول وصيتان.

- أن يستوصوا بأهلها خيراً.. فإن فيهم صهراً.. ولهم ذمة..
- وأن يتخذوا من أهلها جنداً كثيفاً.. فإنهم خير أجناد الأرض.. ولأنهم في رباط إلي يوم الدين.

سعدت مصر يوم احتضنت الإسلام وتدثرت به.. واحتضنها الإسلام واحتمي بها.. وعاش المسلمون والمسيحيون فيها يعزفون نغمة المحبة علي قيثارة السلام. يترنمون بالإنجيل.. ويرتلون القرآن. وتتعانق مآذن المساجد وأبراج الكنائس في لوحة رائعة للتسامح، بريشة راقية للحب.

سعدت مصر يوم أضحت قبلة الدارسين، وكعبر حجيج المعرفة الإنسانية، الذين وفدوا من كل أنحاء العالم الإسلامي، لينهلوا من فيض علم أزهرها الشريف،

وليتفقهوا في الدين، علي يد علماء سمت نفوسهم، وترققت طباعهم، ورقت أخلاقهم، فكانوا بحق أنموذجاً يحتذي، وقدوة.. بها.. يقتدي.

وسعدت مصر بحدها الشرقي يوم خرجت جيوشها، خير أجناد الأرض، ترد عادية المعتدين الذين جاءوا يتسترون برداء الصليب.. والصليب والمسيح منهم براء، ورددت حطين والمنصورة.. أنا نحن جند النصر، أبطال الدفاع، يوم يدعونا لداع الحرب داع.

وتدفع بغي جحافل المغول، الذين ساحوا في الأرض وعاشوا، وأكثروا فيها الفساد.. فصب عليهم ربك سوط عذاب، حين أجبرهم جيش مصر أن يضعوا في قاموسهم العسكري لأول مرة، لفظة الهزيمة، ولم يكونوا قبل "جالوت" قد عرفوها.. الآن لحقت بهم.. فعقلوها.. وحمت مصر الإسلام وحضارته من شر مستطير..

تلكموا سادتي هي سعادة مصر بحدها الشرقي.. وفي الجعبة كثير، ولكنها به شقيت..

شقيت به يوم انتهكته جحافل الهكسوس، وجيوش الفرس، فيالق الصليبيين، وقبائل المغول.. والكل في مصر طامع، ولخيرها ناظر.. لموقعها في حلقة غصة، ولجندها في جنبه شوكة.

هاكم هولاكو يقول في رسالته إلي سلطان مصر المملوكي قطز "قلوبنا كالجبال.. وعددنا كالرمال.. نحن لا نرحم من شكا، ولا نرق لمن بكي، عليكم بالهرب.. وعلينا الطلب، فلم يبق لنا مقصد سواكم".

والجملة الأخيرة تغني عن أي تعليق.

وكم قبل قالها عموري ملك بيت المقدس.. وصدق عليه خلفه غير المباشر جان دي بريين.. حين قالا بنبرة واحدة.. وعبارات مختلفة، إن الطريق إلي القدس يبدأ من القاهرة، وإن مصر هي رأس الأفعى.. من حطمها دان به الشرق.. وكأني بالصالح نجم الدين أيوب.. يقول لهم موتوا بغيظكم.. فلم تناولا منها رطباً ولا يابس.. وهو يعظ أبنه توران شاه في وصيته..

".. يـــا بني .. احرص علي ألا يكون للفرنج بالديار المصرية قعر قصبة، فإن كانــت بــيداك مصر.. كان بيدك الشرق كله، وإن هي.. لا قدر الله ضاعت.. ضاع الشرق كله!".

وكأني بشاعر النيل.. حافظ إبراهيم يصدق علي ذلك كله بقوله علي لسان مصر

أنا تاج العلاء في مفرق الشرق ودراته فرائد عقدي

أنا إن قدر الإله مماتي.. لا تري الشرق يرفع الرأس بعدي

وشــقيت مصـــر بحدها الشرقي يوم دبر المؤتمرون بليل من بني يهود، ومن ورائهــم قــوي الاســتعمار الغربي في النصف الأول من القرن العشرين، زرع جسم غريب علي حد مصر الشرقي، بغية عزلها عن أشقائها العرب، وبغية شغلها دوماً عن الــتطلع إلـــي بلوغ آفاق التنمية البشرية والاقتصادية، وإهدار طاقاتها المبدعة والخلاقة في نزيف عسكري متقطع ودائم.

ولكن.. أعود إلي صدر حديثي..

كم هي بقصيدة وإن كثرت ساعات الشقاء وحادثاته.

وكم هي معمرة علامات السعادة ووقائعها..

ونحن هنا في ندوتنا هذه.. حول حد مصر الشرقي..

تروا.. ماذا نحن فاعلون؟"

ماهية البرلمان الإنجليزى فى القرن الثالث عشر وحتى نهاية حكم الملك إدوارد الأول عام ١٣٠٧ م

زينب عبد المجيد

مصـــر

يقـول مـؤرخ إنجليزى معاصر نقلاً عن حولية أنجلوسكسونية : " كان وليم الفـاتح غداة الفتح النورمانى لإنجلترا عام ١٠٦٦ ، يحتفل بتتويجه وارتداء التاج ثلاث مـرات فى العام ، الأولى فى عيد القيامة فى مدينة وينشيستر Winchester ، والثانية فـي أسـبوع العنصرة فى ويستمنستر Werstminster، والثالثة فى عيد الميلاد فى مديـنة جوسيسـتر Cloucester . وذلـك فى حضور رؤساء الأساقفة ، والأساقفة، رؤسـاء الأديرة ، الأيرلات ، البارونات والفرسان "[١] وتعد احتفالات التتويج هذه من الأحـداث الاجتماعية الكبرى ، عندما يأتى البارونات للمثول أمام الملك لتقديم فروض الطاعة والولاء باعتباره السيد الإقطاعى الأعلى . وفى هذا الاحتفال المهيب يتم وضع التاج على مفرق رأس الملك . وفى نهايته يجتمع الملك وكبار رجاله لمناقشة الأوضاع العامة للمملكة .[٢]

وعـرف هـذا الاجـتماع الذى يعقد فى نهاية الاحتفال من جانب المعاصرين آنـذاك باسـم المجلـس الكبير للملك Magnum Concilium or great council . والـذى لـم يختلف كثيراً فى تكوينه عن الواتان Witenagemot أى مجلس الرجال الحكمـاء أثناء حقبة الملكية الأنجلو سكسونية (٤٥٠-١٠٦٦م) . بل أحياناً ما عرف

---

(1) Stubbs, *The Constitutional History of England* (Oxford, 1873) vol. I, ,p.145; Willson, *A Hist. of England* (2 nd. London, 1972), p.58; Iloyd, *The Norman Conquest* (London, 1967), p.110 ;

سعداوى ، تاريخ إنجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى (دار النهضة العربية ، ١٩٦٨م)

(2) Willson, Op.Cit., p.58 .

المجلــس الكبــير باسم الواتان من جانب المعاصرين للملكية النورمانية . بيد أن هناك فــروقاً جوهرية بين المجلسين ، إذ يعد الواتان مجرد اجتماع حر للرجال الحكماء من أربــاب المشورة والرأى، وتتضح اختصاصات الواتان فى نواحى متعددة أبرزها منح الأراضـــى والعمـــل كســاحة للقضـــاء. (١)· وفى هذا الصدد يقول المؤرخ الإنجليزى William Stubbs " إن كـــل مـــن الملـــك الأنجلوسكســـونى والواتـــان كانا يتمتعان بالصـــلاحية القضـــائية العليا على جميع الأفراد وفى جميع القضايا " .(٢) وفى مجال السياســـة المالـــية لا سيما ما يتعلق منها بالضرائب . نجد أن فرض الضرائب الطارئة يـــتم بناءً على أمر الملك ومشورة الواتان . (٣) كما يشترك مع الملك فى التشريع ، فلا يصدر الملك القوانين إلا بموافقته ، علاوة على صلاحياته فى تعيين رؤساء المقاطعات والأساقفة ، ومنح الأراضى العامة ، وإعلان حالتى السلم والحرب . كما نرى مشاركة الواتـــان فـــى الأمور السياسية العامة مثل الجيش والأسطول ، ويكون الملك والمجلس

---

(1) Stubbs, Op.Cit., pp.154, 155; Green, *A short History of the English People*, vol. I (London, 1960) P.162 .

(2) Stubbs, Op.Cit., p.155 .

(٣) عن صلاحية الواتان فى فرض الضرائب يذكر المؤرخ الإنجليزى William Stubbs نقلاً عن حولية أنجلو سكسونية أن من أهم الضرائب غير العادية التى فرضت بناءاً على أمر الملك الأنجلو سكســونى ومشورة الواتان ، تلك التى فرضت سواء بهدف تمويل الحرب ضد الداينين أو لكسب ودهم وشراء مهادنتهم ، كما حدث عام ٩٩١م فى عهد الملك أيثلريد الثانى Ethelred II (٩٨٧ –١٠١٦م) وعرفت هذه الضريبة باسم الدانجلد Danegeld ، كوسيلة لتمويل الجزية التى ينبغى دفعهـــا للغـــزاة الدانمركييـــن . وكانت قيمتها شلنين ، ولكنها أحيانا كانت تصل إلى أربع شلنات وأكـــثر. وعلـــى الرغم من أن هذه الجزية كانت تدفع منذ عام ٩٩١م . فإن مصطلح الدانجلد لم يعـــرف إلا بعـــد الغزو النورمانى . وتكررت هذه الضرائب على مدى سنى ١٠٠٢ ، ١٠٠٧ ، ١٠١١م وقـــد استمر الملوك الأنجلو نورمان فى فرض هذه الضريبة لاسيما وليم الفاتح وهنرى الـــثانى حـــتى سنة ١١٦٢م لأغراض حربية خاصة ، أو لمواجهة النفقات الإضافية . لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر :

Stubbs, Op.Cit., pp.155, 156 ;

كانـــتور ، الـــتاريخ الوسيط (ت قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الخامية ١٩٩٧) جـــ٢ ، ص ٣٨٨ ، حاشية رقم (٢) .

محكمـــة علـــيا للقضـــايا الجنائـــية والمدنـــية . مما يعنى أن مجلس الحكماء كانت له اختصاصات تشريعية وتنفيذية وقضائية . (١)

بـــيد أن المهمـــة الرئيســـية للواتان انحصرت فى انتخاب الملك من بين أفراد العائلـــة الملكـــية وفقـــاً للنظام السياسى والنظرية السياسية للجرمان . (٢) ويتمتع أيضا بســـلطة عـــزل الملوك ، وإسداء النصح للملك فى المشاكل الرئيسية للمملكة . ويتألف الواتـــان مـــن رؤساء الأساقفة ، رؤساء الأديرة الكبرى ، حكام المقاطعات ، النبلاء ، والقساوســـة . وتعقـــد اجـــتماعاته فـــي حضور الملك الذى يكون أحيانا برفقة زوجته وأبناءه، وأصدقاءه ، ومستشارية ، وكبار رجال الحاشية الملكية . (٣)

فـــى حيـــن كان المجلس الكبير بمثابة اجتماع للأفصال الاقطاعيين ، بما يتفق والأيدلوجـــية السياسية التى أرسى دعائمها وليم الفاتح غداة الفتح النورمانى عام ١٠٦٦ ، باعتـــباره ملـــك وسيد إقطاعى أعلى ، أى الجمع بين الملكية المطلقة التى تتمتع بها أســـلافه من الملوك الأنجلوسكسون فى ضوء القانون الأنجلوسكسونى الذى يعتبر الملك راعـــياً للرب ويستمد سلطته من الرب ، وبين هيمنة السيد الإقطاعى الأعلى . وقد افلح ولـــيم فى ذلك بعد أن استطاع أن يتغلب على نقائض النظام الإقطاعى ، بأن جعل من نفســـه الســـيد الإقطـــاعى الأعلى والمباشر لكل فصل داخل المملكة . فقد أراد للنظام الإقطاعى فى المملكة أن يكون إقطاعيا ملكياً .(٤)

---

(1) Stubbs, Op.Cit., pp.156 , 157 ;

سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(2) Willson, Op.Cit., p.58 ; Green, Op.Cit., vol.I, P.162 ;

ولمزيد من التفاصيل عن النظام السياسى الجرمانى انظر :

كانتور ، المرجع السابق ، جـــ١ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(3) Stubbs, Op.Cit; p.146 ;

زينـــب عبد المجيد ، الإنجليز والحروب الصليبية (عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، ص ٢٨ ، حاشية رقم (١) .

(4)Stubbs, Op.Cit., p.404; Willson, Op.Cit., p.58; Iloyn, Op.Cit., p.127;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

وقـد جـاء المجلس الكبير انعكاساً لهذه السياسة الملكية ، إذ باعتباره المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك ، حينئذ يكون من واجب السيد الإقطاعى الأعلى أى الملك دعـوة كبار مستأجرى أرض التاج أى هؤلاء الذين يحوزون ضياعاً إقطاعية من الملك مباشـرة لحضـور مجلسـه . لـتكون الحيازة الإقطاعية شرط أساسى لحضور هذا المجلس. [1]

ومن الجدير بالذكر أن وليم الفاتح من منطلق خبرته السابقة كدوق لنورماندى وفصـل إقطـاعى للملك الفرنسى حاول استخدام النظام الإقطاعى بطريقة خاصة تزيد مـن سلطة الحكومة المركزية. فلم يسمح لطبقة كبار مستأجرى الأرض Tenants in Chief بالوصـول إلى وضع الاستقلال الذى تمتع به قبل عام ١٠٦٦ فى علاقته تجاه ملـك فرنسـا. فقـد قسـم جمـيع أراضى المملكة بالإضافة إلى الضياع الملكية على البارونات الخاضعين مباشرة للتاج . وهؤلاء بدورهم اقتسموا جانباً كبيراً من أراضيهم مـع فرسان وإفصال آخرين يؤدون نفس الحقوق والواجبات الإقطاعية التى يدينون بها للملـك سـواء فى السلم أو الحرب . وتضمنت المملكة بذلك ما يقرب من سبعمائة من طـبقة كـبار مسـتأجرى الأرض ، وسـتين ألفـاً ومائتين وخمسة عشر من الفرسان الإقطاعييـن . بـيد أنه فى ضوء هذا العدد الهائل اقتصر الحضور فى المجلس الكبير علـى نخـبة من هؤلاء الذين يحوزون فقط ضياعاً إقطاعية من الملك مباشرة .[2] ولا

---

(١) يذكـر المؤرخ وليم سبتس فى حديثه عن المجلس الكبير باعتباره المجلس الاستشارى الإقطاعى للملـك فى بداية التاريخ الباكر للملكية الأنجلو نورمانية أنه فى العام الأخير من حكم الفاتح عام ١٠٨٧ دعى جميع ملاك الأراضى العظام لاجتماع عقد فى سالزبورى ، حيث أدى كل واحد منهم قسم الولاء والطاعة الإقطاعى ضد جميع الرجال الآخرين . لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر :
Stubbs, Op.Cit., Vol.I, p.405 ; Hall and A Lbion, *A Hist. of England and the British Empire* (London, 1946), p.66 ; Stenton, *English Society in the Early Ages (1066-1307)* Penguin Books, 1959, p.61 ;
سعداوى ، المرجع السابق ، ص٦٦ .

(2) Stubbs, Io. Cit., Vol.I, pp.403 , 404 ; Adams, *The political History of England 1066-1266* (New York and Bombay, 1905) p.15 ; Hume, *The Hist. of England from the invasion of Julius Gaesar to the revolution of 1688* (London, 1836) p.49 .

مــراء فى أن وليم الفاتح من منطلق سلطته السياسية احتفظ بحقه فى دعوة أى شخص كـيفما شاء . ومن ثم فقد تضمن هذا المجلس رجال الحاشية الملكية ، وباروناته الذين يحـوزون ضياعاً إقطاعية فى نورماندى ، وأيضا الضيوف والمبعوثون الأجانب وكبار رجال الكنيسة . (1)

وباعتـبار المجلس الكبير المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك ، تبدو الوظيفة الرئيسية لهذا المجلس جلية فى العمل كمحكمة إقطاعية ، على سبيل المثال أنه فى عام ١٠٧٥ لا أتهـم أحد البارونات بإثارة التمرد ، وبمقتضى القانون الاقطاعى تم إدانته من قـبل المجلس بالسجن مدى الحياة . أيضا حدث عام ١٠٩٦ أن أتهم أحد البارونات فى المجلـس بارونـاً آخـر بالمشـاركة فى تمرد . وأسفر ذلك عن محاكمة على الطريقة الجرمانـية ، بـأن يتقاتل المدعى والمدعى عليه فى نزال مميت أمام المجلس ، ويعلن المنتصـر فـى النهاية أنه قد حقق انتصاره بسبب عدالة دعواه ، وإدانة البارون المتهم والمهزوم بسمل عينيه وخصبية بناءً على أمر وحكم الملك . (٢)

وبعـيداً عن العمل القضائى تبدو وظيفة ومهام المجلس الكبير فى هذه الحقبة من التاريخ الباكر للملكية الأنجلو نورمانية ، مبهمة وغير واضحة ، ونستقى معلوماتنا فـى هـذا الصـدد من المؤرخ الإنجليزى المعاصر ويلسون Willson بقوله : " فقد اقتصـرت مهـام المجلـس الكبـير فـى التصديق على القوانين التى يتخذها الملك ، والموافقـة علـى الكثـير من أعماله ، وإسداء النصح للملك فى القضايا التى يختارها مقدمـاً للعـرض أمام المجلس ، وأحيانا ما يتجه الملك للمجلس طلبا للعون والتأييد فى علاقاتـه مـع القوى الخارجية ومشاكله الداخلية . وقلما تكون هناك معارضة من قبل المجلـس لرغبات الملك ، إذ كان الملك يعمل دوماً بدون مشورة المجلس ، وفى ضوء الـنظام السياسـى الذى أرسى دعائمه وليم الفاتح يجب إلا نتوقع ثمة قيود على سلطته الملكـية ."(٣) وهى سلطة كانت تحول دون تحقيق أية سلطات أخر ى منافسة ، فقد كان السيد الإقطاعى ، والأسقف والفارس ، والمزارع مشدودين إلى الارتبـاط بالسلطة

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص٣٢

(1) Willson, Op.Cit.. p 58
(2) Loc. Cit
(3) Loc Cit

الملكية [١]

وعن صلاحيات المجلس الكبير باعتباره المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك يعلــق المــؤرخ الإنجلــيزى ريتشارد جرين Richard Green بقوله "أن سلطة هذا المجلــس قــد قــيدت بالموافقــة بدون مناقشة أو حتى إمكانية الرفض على كل ما هو مطلــوب مــنه من قبل التاج ، لأن مبدأ التشاور و الموافقة يعد أمرا ضروريا لإضفاء الشرعية القانونية على كل إجراء مالى أو سياسى كبير . "[٢]

وفــى رأى الباحث أن المؤرخ قد أصاب كبد الحقيقة لا سيما وأنه يتحدث عن صلاحية المجلس فى الفترة الباكرة من تاريخ الملكية الأنجلو نورمانية .

وتجــدر الإشــارة أن اجتماع المجلس الكبير لم يكن سوى جلسة طارئة فقط ، وكــان العمــل الــيومى للحكومة الملكية ينفذ من خلال الملك بمساعدة رجال الحاشية الملكــية وكبار البارونات وموظفى البلاط والذين يشكلون ما اصطلح على تسميته باسم المجلــس الملكــى Guria Regis أو المجلس الصغير للملك . وعندما يجتمع المجلس الكبــير يكــون مقــترنا بــالمجلس الصغير أى المجلس الملكى باعتباره قلب وجوهر المجلــس الكبير . وفى حين تترك القضايا ذات الأهمية الكبرى للعرض على المجلس الكبــير للتشــاور والموافقــة . كان أعضاء المجلس الصغير يتمتعون بأحقية التشاور المباشــر مع الملك ، والتصديق على القوانين وتنفيذها . والعمل كمحكمة ، حيث يعتبر المجلس الملكى المحكمة العليا فى المملكة التى تتمتع بسلطة التنفيذ . [٣]

---

(١) كانتور ، التاريخ الوسيط ، جـ٢ ، ص ٤٥٣.

(2) Green, Op.Cit., p.158 .

(٣) ينفرد المؤرخ الإنجليزى William stubbs بالحديث عن المثال الدال على الصلاحية القضائية للمجلس الملكى من خلال قوله عن المحكمة التى عقدت للحكم على وليم أسقف درهام Durham غــداة اتهامــه بالتواطؤ فى التمرد البارونى عام ١٠٨٨م ، واتهامه بالخيانة والحنث بقسم الولاء والطاعــة الإقطــاعى . ونتــيجة لذلك قام موظفى الملك بانتزاع ضياعة الإقطاعية . وقد طالب بالــتعويض عــن هــذا الضرر مهدداً بالاستئناف بعرض قضيته أمام البابا فى روما . واسفرت المحاكمــة التى عقدت فى سالزبورى فى حضور جميع الأساقفة والبارونات والايرلات ومندوبى

فـــى ضـــوء مـــا ســبق نقول أنه إذا كان مجلس الرجال الحكماء أى الواتان جـــيموت بمثابة المجلس القومى للأمة The National Council أثناء الحقبة الأنجلو سكسونية ، فإن هذا المجلس القومى أصبح هو المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك فى عهـــد الملوك النورمان . ومن الجدير بالذكر أيضا أن الواتان جيموت لم يكن مجلساً أو اجتماعاً كبيراً ، إذ لا يتجاوز عدد الحضور من الأساقفة عن سبعة عشر أسقفاً ، وعدد غـــير ثابـــت من الايرلات لا يزيد أبداً عن عشرين وعدد من الأفصال يتزايد تدريجيا حسب قوة التاج . [1]

ولامـــراء فى أن أصل البرلمان الإنجليزى قد وجد فى المجلس الكبير للملك ، والـــذى يـــتكون من طبقة كبار مستأجرى أرض التاج Tenants in chief ، رؤساء الأســـاقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، البارونات . ويعتبر الحضور جزء من واجبهم الإقطاعى . وقد أسلفنا القول أن المملكة تضمنت غداة الفتح النورمانى عام ١٠٦٦م ما يقـــرب من سبعمائة من طبقة كبار مستأجرى الأرض أى هؤلاء الذين يحوزون ضياعاً إقطاعـــية مـــن الملـــك مباشرة . وحوالى ستين ألفاً ومائتين وخمسة عشر من الفرسان الإقطاعيـــين . ممـــا يعـــنى أن المجلس لم يضم بالطبع كل تلك الجموع الهائلة لجميع المســـتأجرين سواء الكبار أو الصغار ، ليقتصر الحضور فى هذا المجلس على هؤلاء الذيـــن يتمـــتعون بدرجة عالية من الثراء والقوة سواء من العلمانيين أو رجال الدين ، والذين تراوح عددهم فى المجلس بين خمسين إلى خمسة وسبعين فقط . [2]

الملـــك ، ولانفرانس رئيس أساقفة كانتر برى عن انتزاع إقطاعه باعتباره فصل إقطاعى للملك ، وقضاء ثلاث سنوات فى المنفى . ولعل هذا المحاكمة تمدنا ببرهان قاطع ومقنع حول حقيقة عمل هذا المجلس باعتباره محكمة إقطاعية . لمزيد من التفاصيل عن المجلس الملكى أنظر :
Stubbs, Op.Cit., Vol. I, pp.498 , 499 .

(1) William stubbs, *Select Charters and other illustrations of English : from the Earliest times to the Reign of Edward the first* (Oxford, Ninth edition, 1913) pp.11, 17 ; *The Constitutional History of England,* Vol.I, p.403 .

(2) Green, Op.Cit., p.158 ; Willson, Op.Cit., p.147 .

وبــدء من منتصف القرن الثالث عشر بدأت اجتماعات المجلس الكبير تعرف بأســم البرلمانات . سواء من جانب المصادر المعاصرة لهذه الحقبة الزمنية من تاريخ إنجلــترا فــى العصــور الوسطى أو من جانب المؤرخين المحدثين فى القرنين التاسع عشــر والعشــرين . ويمكن تبرير ذلك فى أن اجتماعات المجلس الكبير بدء من القرن الثالــث عشر شهدت بالفعل حضور عناصر جديدة لم يشهدها من قبل . حيث بدأ الملك فــى دعوة ممثلين عن الطبقة المتوسطة سواء فى الريف أو المدن لحضور اجتماع هذا المجلــس . بيد أن هذه الممارسة جاءت بطيئة وعلى فترات متقطعة ، ولم يكن متوقعاً حدوث ذلك سريعا ، لأن الملك لم يفعل أكثر من العمل الذى يراه ملائــماً.(١)

ويجدر بنا فى هذا السياق الإشارة إلى المعنى اللغوى لكلمة برلمان ، نجد أنها مشــتقة من الكلمة الفرنسية Parler ، والتى تعنى الكلام والمناقشة وتبادل الآراء. مما يعــنى أن كلمــة برلمان فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم تعنى أكثر من مجرد اجـتماع للمجلس الكبير بهدف التشاور والمناقشة بصدد القضايا العامة للمملكة ، والتى يخـتارها الملــك مقدمــاً للعرض أمام المجلس . (٢) وفى ضوء المفاهيم السياسية التى جاءت انعكاسا للفكر السياسى الملكى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ليس ثمة غرابة أن نجد مصطلح برلمان وقد شاع استخدامه ، فقد راح مؤرخى هذه الحقبة جنبا إلــى جنــب مــع المؤرخين المحدثين ينعتون كل اجتماع للمجلس الكبير شهد حضور ممثليــن عــن الطــبقة المتوسطة اسم البرلمان . حتى اجتماعات المعارضة البارونية وصــفت أيضا بالبرلمانات . بيد أن هناك نفر من المؤرخين المحدثين مثل Stubbs ، ولونــت Lunt ، وســميث Smith ، وتــوت Tout ، وغيرهم كانوا أكثر دقة ، فقد أطلقوا على اجتماعات المجلس الكبير التى شهدت حضور ممثلى الطبقة المتوسطة اسم

(1) Vickers, *England in the later Middle Ages* (London, 1926) p.145 ; Dietz, *A political and social History of England*, (Third Edition, New York, 1937) p.81 ; Willson, Op.Cit., p.148 .

(2) Stubbs, *The Constitutional Hist, of England*, Vol.II, pp.215, 216, lunt, *History of England* (London , 1928) pp.216 , 217 , Smith, *A History of England* (New York, 1966) p.138 .

البرلمانات النيابية Representative Parliaments ، وأطلقوا على ممثلى الطبقة المتوسطة فى هذه الاجتماعات اسم Representative elements [1]. واتفق مع وجهة النظر هذه .

ويقول المؤرخ المعاصر جولدين سميث Goldwin Smith : " مما لاشك فيه أن سجلات وقوانين البرلمان والتى تعد من أهم مصادر التاريخ الدستورى الإنجليزى ، إنما تميط اللثام عن الكثير من التطورات المهمة ، ذلك أن البرلمان فى القرن الثالث عشر ما زال فى نواح كثيرة لم تتضح معالم تكوينه بعد . وظل كذلك حتى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الذى شهد بداية ملامح الشكل القانونى للبرلمان بمعناه الحديث بظهور مجلسى العموم واللوردات . وبالرغم من حضور ممثلى الطبقة المتوسطة من فرسان المقاطعة وبرجوازية المدن ، فقد ظل البرلمان طيلة هذه الفترة بمثابة اجتماع خاص للملك وهؤلاء الذين يتم دعوتهم من الملك مباشرة للتشاور معه من النبلاء العلمانيين والكنسيين ، وبعض مستشارى الملك الدائمين ، ورجال الحاشية الملكية . ولم تكن التغيرات التى طرأت على تنظيم ووظائف البرلمان فى القرن الرابع عشر تبدو فى أعين المعاصرين تغيرات كبرى أو مهمة ، إذ ما زال البرلمان من وجهة نظر هؤلاء مجرد اجتماع للمجلس الكبير للملك ، وما زالت العناصر الرئيسية الممثلة فيه قاصرة فقط على كبار النبلاء من العلمانيين والكنسيين، وهؤلاء فقط هم الذين يحق لهم سماع الدعاوى القانونية وتقديم الحلول اللازمة لها . وأن جوهر ومحور البرلمانات التى عقدت فى العصور الوسطى كان الملك وأعضاء مجلسه الصغير أى المجلس الملكى ، وأن البرلمان الذى هو المجلس الكبير كان دائما بمثابة محكمة أعدت جيداً للعمل القضائى ، باعتباره المحكمة العليا فى المملكة . " [٢]

---

(1) Stubbs, *The constitutional Hist, of England*, Vol. II, pp.215, 216; Lunt, op.Cit, pp.216, 217 ; Smith, op.Cit, p.138.

(2) Smith, Op.Cit., P.139 ; *A Shley, Great Britain to 1688* (Michigan, 1961) p.118, Willson, Op.Cit., p.148 .

وفي ضوء هذا النص فإن الباحث يتفق مع المؤرخ سميث وغيره من المؤرخين المحدثين بأن البرلمان الإنجليزى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم يخرج عن كونه المجلس الكبير للملك ، كما سنرى فيما بعد

ويجدر بنا قبل الحديث عن التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة فى البرلمان أى المجلس الكبير أن نستعرض الجذور التاريخية لفكرة التمثيل النيابى لهذه الطبقة ، وأين وجدت ؟

للإجابة على ذلك ينبغي أولاً التعرف على ماهية البناء الاجتماعى لهذه الطبقة، نقول في ضوء الدراسات التاريخية أنها تنقسم إلى قسمين هما الطبقة المتوسطة في الريف ، والطبقة المتوسطة فى المدن ، فيما يتعلق بالأولى فقد وجد فى المناطق الريفية – كنتيجة طبيعية للنظام الإقطاعى الذى أرسى دعائمه وليم الفاتح – الكثيرون من الرجال الأحرار الذين لا يتمتعون بأحقية حضور المجلس الكبير للملك لأنهم ليسوا من طبقة كبار مستأجرى أرض التاج . وهناك أيضا ملاك الأراضى الأحرار Freeholders الذين حازوا من خلال آخرين على حيازة إقطاعية ، علاوة على فئة صغار المستأجرين mesne tenants . ولم يكن هؤلاء مرغمين على حضور المجلس الكبير باعتباره جزء من واجبهم الإقطاعى . ومن جهة أخرى فقد اعتبرت طبقة كبار المستأجرين tensnts – in – chief حضور المجلس الكبير عبء ثقيل طالما حاولوا التملص منه قدر استطاعتهم . بيد أنه فى القرن الثالث عشر انفرد هؤلاء فقط بالدعوة من جانب الملك كل بمفرده لحضور المجلس الكبير [1]، فى حين بقيت طبقة صغار المستأجرين عادة بمنأى عن ذلك . ولا مراء أن هذه العناصر الثلاثة التى تتكون منها الطبقة المتوسطة في الريف ألا وهى ملاك الأراضى الأحرار غير الإقطاعيين The non – Feudal Freeholders ، المستأجرين الإقطاعيين The menses tenant ، صغار مستأجرى أرض التاج The lesser tenants – in – chief ، يمثلون جميعا درجات عالية من الثراء والمكانة الاجتماعية . وارتقوا السلم

(1) Lunt, Op.Cit., p.213 ; Stubbs, *The Constitutional History of England,* vol.II, p.249 ; Select Charters, p.41 ; Green, Op. Cit., p.164 .

الاجــتماعى مــن مجرد مالك متواضع لمبنى فى ضيعة إقطاعية إلى فارس المقاطعة. والــذى يجــب أن يقارن من حيث الثراء والمكانة الاجتماعية بأحد البارونات . وعندما أصــبح شــائعا فـــى القـــرن الثالث عشر تطبيق مبدأ حق الابن الأكبر فقط فى وراثة الحـيازة الإقــطاعية ، معنى ذلك أن الأبناء الصغار للبارونات أنفسهم أصبحوا ضمن أفــراد الطــبقة المتوسطة . وبالرغم من الفروق الاجتماعية الهائلة لأبناء هذه الطبقة . فقد كان للجميع مصالح مشتركة باعتبارهم ملاك أراضى . (١)

وفى ضوء هذا الحراك الاجتماعى الطبقة الفرسان بعناصرها الثلاثة المتباينة، أصــبح أبــناء هــذه الطبقة بدء من القرن الثالث عشر أقل ولعاً بالحرب والقتال وأكثر اهــتماماً بــإدارة ضياعهم ، وكانوا من الكثرة التى جعلت التاج يعول عليهم دائما فى عمــل الحكومــة المحلــية ، مــثل حكام المقاطعات والموظفين القضائيين ، وتجسدت مهمــتهم فـــى تقديم المعلومات اللازمة للمندوبين الملكيين ممن يتم إرسالهم للاستقصاء والتحرى فى المقاطعات .(٢) وفى هذا الصدد يقول المؤرخ الأمريكى المعاصر نورمان كانــتور : أن الشــريف ، أى حاكم المقاطعة ، كان من حيث إمكانياته الخاصة مجرد واحــد من ملاك الأراضى المتوسطين ، ومع ذلك فقد تمتع بنفوذ هائل وسلطة ضخمة بســبب وضــعه كممــثل لحكومــة ملكية على درجة كبيرة من القوة والفاعلية ، وهى حكومــة لم تكن تطيق أى تمرد من جانب أكبر السادة الإقطاعيين المحليين فى البلاد ، وكــان الشــريف يــرأس محكمــة المقاطعــة ، كما كان هو المندوب المحلى للخزانة الملكية."(٣)

بــيد أن الأهــم مــن ذلــك أن أبناء الطبقة المتوسطة فى الريف من فرسان المقاطعــة وكبار ملاك الأراضى أصبحوا جميعاً ممثلين فى إدارة الحكومة المحلية من

---

(1) Lunt, Op.Cit., p.213, Green, Op.Cit., p.164 ; Willson, Op.Cit., pp.148 , 149 .

(2) Lunt, Op.Cit., p.213, Green, Op.Cit., p.164 ; Willson, Op.Cit., pp.148, 149 .

(٣) كانتور ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٦٥ ولمزيد من التفاصيل عن منصب حاكم المقاطعة انظر:
Stubbs, Op.Cit., vol.I, pp.225 – 235 .

خـــلال اجـــتماع محكمة المقاطعة Shire court ، حيث يعلن حاكم المقاطعة مراسيم الملـــك بصــــدد المســــاعدات والمنح المالية الخاصة بالتاج ، وتلقى أسماء المتهمين ، وتحـــريات المحلفيـــن المحلييـــن (1) ، الذيـــن يكونـــوا عادة من الرجال البارزين فى المجـــتمع، والضــــرائب التى تم تقديرها على كل منطقة ، وسماع الالتماسات الخاصة بالعدالـــة فـــى القضــــايا المدنية والجنائية من هؤلاء الذين تعرضوا للظلم فى المحاكم الصغرى التى اصطلح على تسميتها باسم محاكم المائةHundred – Courts . ومن خـــلال اجتماع محكمة المقاطعة فقط يستطيع حاكم المقاطعة قانونا باعتباره نائباً للملك دعـــوة فرســـان المقاطعة لحضور اجتماع المجلس الكبير الذى أصبح يعرف فيما بعد باســـم الـــبرلمان ، ممـــا يعنى أن حضور ودعوة ممثلى هذه الطبقة لحضور المجلس الكبـــير إنمـــا يحـــدد مـــن خلال حاكم المقاطعة فقط بناء على أمر الملك (٢). وتتكون محكمة المقاطعة التى يرأسها الشريف فى كل القضايا المدنية والجنائية من اثنى عشر

---

(١) يـــرجع نظام المحلفين المحليين local juries إلى عهد وليم الفاتح ، ففى محاولة فعالة من جانبه لتحســـين الإجراءات الجرمانية البالية ، أدخل نظام الاستجواب الفرنجى – النورمانى إلى إنجلترا ، وكلـــف القضاة بأن يستخدموه فى القضايا المدنية. ففى سبيل فض المنازعات بين كبار البارونات خولـــت محـــاكم المقاطعات حق استجواب بعض الرجال الذين يقسمون اليمين من سكان المناطق المجاورة . ويشكل هؤلاء الفئة المختارة من أعيان البلاد المقيمين فيها . وكانت شهادتهم من عوامل الحســـم فى القضايا القانونية المتعلقة بالشئون المدنية . وبعد ذلك وفى إطار الإصلاحات القضائية لهـــنرى الثانى دأب على تحسين الإجراءات القانونية الإنجليزية بالتوسع فى استخدام نظام المحلفين فى القضايا المدنية والجنائية . وبذلك أحل هنرى الثانى نظام المحلفين محل الوسائل البدائية الشائعة، حيث كانت وسائل التعذيب البدائية الجرمانية (المحنة) ما تزال تستخدم لإقامة الدليل فى القضايا الجنائـــية . وبـــدءً مـــن النصف الثانى من القرن الثانى عشر كان نظام التحرى بواسطة المحلفين يستخدم فى القضايا المدنية والجنائية على حد سواء ، ثم صار أساس العملية القانونية الإنجليزية . ولمزيد من التفاصيل عن نظام المحلفين انظر :

Stubbs, *The Constitutional Hist of England*, Vol. I, pp.681 , 682, Lunt, Op.Cit., p.213 ;

نورمان كانتور ، المرجع السابق ، جـــ٢ ، ص ٣٩٥ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٨١ ، ٨٢

(2) Green, Op.Cit., p.164, Stubbs, Op.Cit., Vol.I, p.119 .

من القضاة المساعدين لحاكم المقاطعة Assessors of the Sherief ، ومن كل مائة ضـيعة يتم اختيار اثنى عشر من المحلفين jurors . ومن خلال هؤلاء الذين يمثلون المقاطعـة أمام مندوبى الملك يتم تقدير مشاركة المقاطعة فى الضرائب العامة، وتقدير الملكـية الشخصـية .(١) وفى ضوء ما سبق نستخلص نتيجة مؤداها أن فكرة أو مبدأ التمثيل النيابى قد وجدت أصلاً فى محكمة المقاطعة .(٢)

---

(1) Stubbs, Select charters, p.40 ; Green, Op.Cit., p.164, Lunt, Op.Cit., pp.213 , 214 .

(٢) يذكر المؤرخ Stubbs فى حديثه عن محكمة المقاطعة Shiremoot فى الحقبة الأنجلو سكسونية بأن الشريف كان يعقد محكمة المقاطعة بمقتضى قوانين إدجار Edgar (٩٥٩-٩٧٥م) مرتين فى العام . وكان الأسقف والأيرل يجلسان معاً للحكم فى الدعاوى الكنيسة والعلمانية على حد سواء دون تمييز بينها . ويرأسان معاً محكمة المقاطعة . فى حين كان حاكم المقاطعة بمثابة موظف معين من قـبل الملك . وفى عام ١٠٧٦ أصدر وليم الفاتح قانون إنشاء المحاكم الكنسية وفصلها عن المحاكم المدنية بهدف تحقيق الاستقلال القانونى للكنيسة الإنجليزية فى الأمور الكنسية البحتة .

وأصـبحت محكمـة المقاطعـة فى عهد وليم وخلفاؤه تعقد عند حضور القضاة الجوالين itinerant justices ، وتـتكون مـن رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأيرلات ، البارونات ، الفرسـان ، وأربعـة من الرجال عن كل بلدة Township واثنى عشر رجلاً عن كل مدينة كبرى Borough وكانـت بمثابة اجتماع عام للشعب . وتضمنت بالتالى جميع العناصر التى تكون منها الـبرلمان فيما بعد . بيد أنه تم إعفاء من هم أدنى مكانة من الفارس ما لم يتم دعوتهم . ومن جهة أخرى فقد تضمنت العهود التى منحت للمدن فيما بعد أنه عند انعقاد محكمة المقاطعة فقط للاجتماع بالقضاة الجوالين يكون حضور ممثلى المدن أمراً ضرورياً .

وبمقتضـى الفقرة الثانية والأربعين من مرسوم هنرى الثالث بصدد إعادة إعلان الماجنا كارتا عام ١٢١٧م . أصـبحت محكمـة المقاطعـة تنعقد مرة واحدة فى الشهر . ويتضمن هذا المرسوم ستة وأربعـون فقـرة ويتفق فى جميع بنوده مع الماجناكارتا باستثناء الفقرات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ . لمزيد من التفاصيل انظر النص الكامل لهذا المرسوم عند :

Stubbs (ed.) " Second charter of Henry III, 1217 " PP.341 – 344 ;

انظر أيضاً

" Ordinance of William I Separating the Spiritual and Temporal courts 1071," in Stubbs (ed.) Select charters, pp.99 , 100 ; Stubbs, *The Constitutional Hist. of England*, Vol.I, PP.223 , 224 .

وطـــبق هـــذا المبدأ بعدئذ على المجلس الكبير فى القرن الثالث عشر . ويعلق أحـــد المؤرخيـــن الإنجلـــيز فى القرن التاسع عشر بقوله : " أن محكمة المقاطعة هى الأصـــل الـــذى انحـــدرت منه البرلمانات الإنجليزية فى العصور الوسطى . وأن مبدأ التمثـــيل النـــيابى يعـــد واحدا من بين أعرق وأقدم نظمنا وتقاليدنا . "(١) وبالتالى تكون فكرة التمثيل النيابى أكثر قدما من البرلمان ذاته .(٢)

وكما ذكرنا آنفا لم يكن البناء الاجتماعى للطبقة المتوسطة قاصرا على فرسان المقاطعـــة وكـــبار المـــلاك فى الريف . هناك أيضا سكان المدن Bourgeois . وفى القـــرن الثالـــث عشـــر أحرزت هذه الطبقة درجة عالية من الثراء الناجم عن ممارسة النشـــاط الـــتجارى والصناعى ، وامتلاك الأراضى .(٣) بيد أنه يجب تفسير مكانة هذه الطـــبقة فـــى ضـــوء الحـــراك الاجتماعى للمجتمع الإنجليزى فى القرنين الثانى عشر والثالـــث عشـــر ، والـــذى جـــاء انعكاسا للتطورات التى شهدتها القارة الأوربية على الصـــعيدين الـــثقافى والاقتصادى . فقد شهد القرن الثانى عشر ظهور أولى الجامعات الأوربـــية فـــى بولونيا بإيطاليا ، وباريس بفرنسا . وانعكس ذلك على إنجلترا بتأسيس جامـــعـــة أكسفورد عام١٢٠٠ ، وجامعة كمبريدج عام ١٢٠٩م .(٤) وعلى الرغم من أن الـــزعامة الثقافـــية كانت لفرنسا فى القرن الثانى عشر ، فقد ساهمت إنجلترا بعض

---

(1) Green, Op. Cit., p.164 .

(2) Lunt, Op. Cit., p.214, Willson, Op. Cit., p.149 .

(3) Stubbs, *The Constitutional Hist. of England*, Vol. II, pp.459 – 416 ; Traill & Mann, *Social England, A Record of the progress of the people, from the Earliest times to the present Day* , London, 1979 , pp.659 – 661, Lunt, Op. Cit., p.213 .

(٤) لمـــزيد مـــن التفاصيل عن نشأة الجامعات ودورها ، انظر سعيد عبد الفتاح عاشور ، الجامعات الأوربـــية فـــى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، جوزيف نسيم يوسف ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الإسكندرية ١٩٧١

الشئ مع إيطاليا وألمانيا فى الإنجازات الفكرية آنذاك ، فقد ولد جون السالزبوى John of Salisbury فـــى إنجلترا ، والذى كان يعد من أبرز شخصيات القرن الثانى عشر وتعلم فى فرنسا وعمل فى إيطاليا ثم عاد إلى إنجلترا ، واختتم حياته العملية فى فرنسا ، حيـــث شغل منصب أسقف شارتر chartres . فلم يكن هناك إحساس على الإطلاق بالتقسيمات التى تصنعها الحدود السياسية على القادة الثقافيين آنذاك . (١)

أمـــا على المستوى الاقتصادى فقد شهدت هذه الحقبة ظهور المدن الأوربية ، وكمـــا يذكـــر الأستاذ الدكتور سعيد عاشور فإن الفترة الواقعة بين سنة ١٠٧٥ وسنة ١١٨٣ تصور دور البطولة فى تاريخ نشأة المدن فى أوربا العصور الوسطى ، بدءً ب نشـــأة المدن الإيطالية ، ثم فى إقليم لمبارديا ، وفلاندرز، وأخذت تنتشر بسرعة فى بقية بـــلاد الغرب .(٢) ومن الجدير بالذكر هنا أن المدن الأوربية في نشأتها قد خرجت من عباءة النظام الإقطاعى السائد في معظم الحكومات الملكية فى أوربا ، ولأن الملوك هم السادة الإقطاعيين فقد قاموا هم وكبار افصالهم بأعتبارهم مالكى الأرض بتأسيس المدن ، وتعلموا أن يشجعوا الفلاحين ، لأنهم اكتشفوا أن زراعة الأرض تجعلهم أكثر ثراء . ونظـــراً لوجود مساحات وافرة من الأرض ، كان عليهم أن يجعلوا شروطهم مغرية لم يعمـــرونها . وكانت أكثر الاغراءات التى يمكنهم تقديمها للمزارعين هى منحهم مزيداً مـــن الحـــرية . أى أن الـــريفى الـــذى يأتى للأقامة فى بلدة جديدة كان يتمتع بالحماية والامتـــيازات التـــي تقدمها وثيقة مؤسس هذه البلدة والتى نصت على " حرية الأرض الـــتى قامت عليها المدنية ، وأن كل من يعيش فى هذه المدينة سنة أو يوماً واحداً يعتبر حـــراً " وهنا لم يكن الريفى مضطرا لأن يعمل فى أرض السيد الإقطاعى ، وإنما كان يدفـــع إيجـــارا ، نقـــداً أو عيـــنا ، كما أنه لم يكن مربوطاً بالأرض ومن ثم فإن المبدأ الشـــهير القـــائل بأن " هواء المدن يصنع الحرية " عرف منذ ذلك الحين . واستطاعت بعـــض المـــدن أن تحصل على سلطة سياسية أكبر ، وهذه المدن هى التى تعرف باسم

---

(١) كانتور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٦ .

(٢) سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ٢ ، ص ٩٨ ، ٩٩.

القومونـــات Communes وبــدأت هـــذه القومونات فى إقليمى تسكانيا ولمبارديا فى إيطالـــيا ، ثـــم أخـــذت تنتشـــر منذ أواخر القرن الحادى عشر فى العديد من الممالك الأوربية . (١)

وبالطـــبع لم تكن إنجلترا بمنأى عن هذه التطورات الاقتصادية التى تموج بها القـــارة الأوربـــية فقـــد حصـــلت المـــدن الإنجلـــيزية فى عهد وليم الفاتح على بعض الامتـــــيازات (٢) ، ولعل العهد الذى منحه هنرى الأول لمواطنى مدينة لندن إنما يحيط اللـــثام عـــن طبـــيعة ومغزى الامتيازات التى حصلت عليها المدن الإنجليزية آنذاك . وبمقتضـــى هـــذا العهـــد فإن الامتيازات التى تمتعت بها مدينة لندن لا يمكن أن تعتبر نموذجـــا للحـــريات التى حصلت عليها المدن العادية ، وإنما علامة بارزة على مقدار الاســـتقلال والحق فى إدارة شئونها ، وهى الحقوق التى كانت المدن الأخرى تصبوا للحصـــول علـــيها. بـــيد أن أهم الامتيازات التى ظفرت بها مدينة لندن بمقتضى هذا العهـــد. أنهـــا وضعت فى مكانة مساوية للمقاطعة ، فأصبح لها الحق فى انتخاب حاكم المقاطعـــة والقاضـــى justiciar الخـــاص بها . وعدم مثول مواطنيها أمام أى محكمة

---

(1) Stubbs, *The Constitutional Hist. of England*, vol.I, P.459 ;
موريـــس كيـــن ، حضـــارة أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م) ص ٩٢ ، سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ٢ ، ص ٩٨ ، ٩٩.

(٢) يعلق المؤرخ وليم سبتس على العهد الذى منحه وليم الفاتح لمدينة لندن باعتبارها المدينة الرئيسية للمملكـــة بأنـــه ينطوى على الحرص على الحقوق الملكية ، ومن ثم فقد جاء هزيلاً وتضمن هذا العهد : " تحيات وليم الفاتح إلى وليم أسقف المدنية ، وجوفريث Gosfrith حاكم المدنية ، وجميع المواطنيـــن داخـــل لـــندن من الفرنسيين والإنجليز لهم الود ، أننى أرى بديهيا أنكما أنتما الاثنين جديـــران بكل القوانين التى كانت قائمة فى عهد الملك إدوارد المعترف ، وأننى سوف أجعل كل طفـــل يكـــون وريثاً لأبيه بعد وفاته ، وأننى سوف لا احتمل أى رجل يقترف أى خطأ تجاهكم ، ويباركما الرب . " وهكذا لم يتضمن هذا العهد أية امتيازات عامة فيما عدا أن الابن يجب يخلف أبـــيه فى حق التصويت والانتخاب ، وضمان ما تم منحه فى عهد إدوارد المعترف . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Stubbs, Op Cit., p.460 .

خـــارج أســـوار مدينتهم ، والتحرر من ضريبة الدانجلد ، ومن الالتزام بالموافقة على المحاكمـــة عـــن طـــريق النزال ، والإعفاء من المكوس الخاصة بالمرور وكل أنواع الضـــرائب فـــى جمـــيع أنحـــاء المملكة براً وبحراً ، وحقهم فى امتلاك أراضيهم .(١) وبالـــرغم مـــن كل هذه الامتيازات فإن المدينة لم ترقى إلى درجة الكوميون mCom unio ، أى المدينة ذات السلطة السياسية المستقلة إلا فى عهد الملك ريتشاد الأول عام ١١٩١م .(٢)

ويـــتوالى مـــنح هذه " العهود الإعفائية " على [p تعبير أستاذنا الدكتور سعيد عاشـــور ، في عهد كل من هنرى الثانى (١١٥٤ – ١١٨٩م) ، ريتـــــشارد الأول (١١٨٩ – ١١٩٩م) جون (١١٩٩ – ١٢١٦) وهنري الثالـــث (١٢١٦ – ١٢٧٢م) ، لتشـــمل العديـــد مـــن المـــدن الإنجليزية مثل كمبردج Cambridge ، وينشيستر Winchester ، لنكولن Lincolon ، نونتجهام Nottingham ، اكسفورد Oxford ، وساوثهامبتون Southampton وغيرها .(٣)

---

(1) *Charter of Henry I to the citizens of London*, Stubbs, Select charters, pp.128 – 130 ; *The Constitutional Hist, of England*, Vol. I, pp.460 , 461 ;

ولمـــزيد مـــن التفاصيل عن ماهية العهد الذى منحه هنرى الأول لمواطنى مدينة لندن انظر الدراسة القيمة التى قام بها

Richardson, " Henry Is charter to London " The English Historical review, vol. XLII, No 165, January, 1977, pp.80 87 .

(٢) يجب تفسير العهود التى منحت للمدن الإنجليزية فى عهد ريتشاد الأول فى إطار السياسة المالية الـــتى انـــتهجها لجمع المال اللازم لتمويل مشاركته فى الحملة الصليبية الثالثة ، ونظراً لحاجته الماســـة للمـــال عرض كل شئ فى المملكة للبيع المناصب ، المقاطعات ، الألقاب ، الأراضى ، والعهود التى منحت للمدن انظر : زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(3) *Charters of Boroughs granted by Henry II*, pp.195 – 199 .
Charters of Towns granted by Richard I, pp.259 – 262 .
Charters of Towns granted by John pp.305 – 312 .
Charters of Towns granted by Henry III, pp.366-369 .

كل هذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق الوارد ذكرها عند .

Stubbs, Select charters, pp.195-369 .

لامـــراء أن هذه العهود التى حصلت عليها المدن الإنجليزية فى القرنين الثانى عشـــر والثالـــث عشر [1]، كان لها أكبر الأثر فى تأكيد رسوخ مكانة هذه المدن ، وأن تصبح مراكز مزدهرة للنشاط التجارى والصناعى ، وتعتبر السنوات الأولى من القرن الثالث عشر علامة لحقبة مهمة فى تاريخ التجارة والصناعة لهذه المدن ، فقد ازدهرت مديـــنة ســـاوثهامبتون باعتبارها سوقا تجاريا مهما فى تجارة البحر الأبيض المتوسط ، والـــتى كانـــت حكراً على الجمهوريات الإيطالية . وبالطبع جاء هذا النشاط مصحوبا بظهور العديد من الأسواق فى المدن الإنجليزية مثل سوق ستوربريدج Stourbridge Fair ، وســـوق وينسيســـتر ، ونوتـــنجهام ، ســـتامفورد Stamford ، اكســـفورد ، وابنـــيجدون Abingdon وأماكـــن أخـــرى . أيضا واكب هذا الرواج التجارى ظهور

(1) تجدر الإشارة هنا أن المدن الإنجليزية التى تمتعت بنفوذ سياسى بمقتضى هذه العهود الملكية ، لا يعنى ذلك أنها تحررت من التزاماتها نحو السلطة السياسية أو أنها ذات سلطة سياسية مستقلة تماما عن التاج ، يتضح ذلك من خلال العهد الذى منحه ريتشارد الأول لمواطنى مدينة لنكولن ، صحيح أن أصـــبح لهـــم الحق فى اختيار حاكم مقاطعتهم ، بيد أنه جاء مرهونا بأن يراعى فى اختياره أن يكون الشخص الملائم والمؤهل لخدمة المدينة والملك . أيضا تمتعت مدينة نوتنجهام Nattingham بهذا الحق بمقتضى العهد الذى منحها إياه الملك جون ، ولكن الملك احتفظ بسلطته فى إبعاد الشخص الذى لا يراه ملائما . بما يتفق والفكر السياسى للملكية الإنجليزية .

ومـــن جهـــة أخـــرى نلاحـــظ فـــى ضوء العهود التى منحها الملك هنرى الثانى لمدن كمبريدج ، وينشيســـتر، لنكولن ، نوتنجهام، لندن ، واكسفورد أنه تحاشى منح هذه المدن حريات دائمة ، وإنما آثر أخذ مبالغ مالية مقابل استمرار الامتيازات والإعفاءات التى تتمتع بها من عام لعام . ومن ثم لم تخرج العهود التى منحت فى عهده فى مضمونها عن تلك التى منحت فى عهد هنرى الأول . على ســـبيل المـــثال فقـــد اشترط على مواطنى لندن دفع مبلغ مائة مارك مقابل حقهم فى اختيار حاكم مقاطعـــتهم . ومدينة لنكولن دفع مائتى مارك فضة وأربعة ذهب والنساجين فى اكسفورد دفع مبلغ اثنين مارك ذهب عن نقابتهم . ومواطنى كمبريدج مبلغ ثلاثمائة مارك فضة ومارك واحد ذهب ، وتعهـــد مواطنى هورن كاستل Horncastle بدفع مبلغ تسعة وعشرون جنيه إسترلينى وثلاثة عشر شلن لزواج أبنة الملك مقابل العهد الذى منحه الملك للمدينة . لمزيد من التفاصيل انظر :
Charters of Boroughs granted by Henry II, P.195, in Stubbs, Select charters, pp.195 – 198; *The constitutions Hist. of England*, Vol. I, pp.701 , 702 .

نقابـــات الـــتجار The Merchant guilds ، ونقابـــات المهن والحـــــرف Graft guilds . [1] ولا داعـــى هنا للخوض فى تفاصيل ذلك فتلك قصة أخرى . بيد أن أهم مـــا يعنينا هنا فى المقام الأول أن ظهور النقابات فى إنجلترا قد حقق نوعاً من التماسك بين رجال المدن ، الذين تكاثرت اجتماعاتهم بهدف إعداد الإجراءات اللازمة لممارسة النشـــاط الـــتجارى ، وكـــان ذلـــك كافياً لمنحه مسلطة اجتماعية طالما تركت فى أيدى موظفـــى الإدارة المحلـــية ، والمطالبة بالإعفاء من المكوس فى جميع أنحاء المملكة . لتصـــبح عضـــوية نقابات التجار والحرفيين أمر لا مندوحة عنه وتتويجاً لمكانة سكان المـــدن ، إذ بمجرد تسجيل اسمه فى عضوية النقابة يتم إعفاءة من كافة الالتزامات التى يطالب بها عادة مستأجرى الضياع الإقطاعية [٢]

كـــان ذلـــك بدون منازع يمثل خطوة قوية تجاه الحرية التى تمتع بها المجتمع الإنجلـــيزى فـــيما بعد ، ولأن التاريخ السياسى انعكاسا ومرآة للتاريخ الاجتماعى ، فقد أســـفر هـــذا الحراك الاجتماعى الذى شهده المجتمع الإنجليزى فى القرنين الثانى عشر والثالـــث عشـــر باعتبارهما علامة بارزة فى مسيرة ظهور وتطور المدن ، عن ظهور طـــبقة ثالـــثة هـــى الطـــبقة المتوسطة ممثلة فى فرسان المقاطعة فى الريف ، وأرباب التجارة والصناعة من سكان المدن ، وهى طبقة لابد وأن ينظر إليها بعين الاعتبار من جانـــب التاج لما تمتلكه من مقومات الإغراء المادى فى مواجهة المتاعب المالية الملحة للـــتاج الإنجلـــيزى ، ففى القرن الثالث عشر – كما سبق أن ذكرنا – بلغ سكان المدن درجـــة من الثراء الناجم عن ممارسة التجارة والصناعة ، وامتلاك بعض الأراضى ، ليصـــبح أفراد هذه الطبقة بمثابة العمود الفقرى فى تاريخ الدستور الإنجليزى ، ومن ثم لـــيس ثمـــة غـــرابة أن يشارك ممثلى المدن أقرانهم فى الريف مهام الإدارة المحلية ،

---

(1) Traill & Mann, Op.Cit., pp.654 – 660 ;

ولمزيد من التفاصيل عن النقابات انظر :

Stubbs, *The Constitutional Hist of England*, Vol. I, pp.469 – 479 ;

سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ٢ ، ص ١٠٧-١١١ .

(2) Stubbs, *The Constitutional Hist, of England*, vol. I, pp.482 , 483 .

والإنجـاز والـتعامل مع مندوبى الملك . ومن ثم كان لهذه الطبقة سواء فى الريف أو المدن خبرتها فى أمور الإدارة والحكم والإلمام بفكرة التمثيل النيابى .(١)

ومنذ وقت طويل والملك يتعامل مع ممثلى هذه الطبقة ، إذ جرت العادة عندما يرغـب الملـك فـى استقصـاء الأوضاع المحلية أن يقوم بإيفاد القضاة الجوالين أو الموظفيـن الملكيين إلى محاكم المقاطعات للتعامل مع الفرسان وكبار الملاك المجتمعين فـى كـل مقاطعة . وعندما يرغب فى الحصول على موافقة المدن على مطالبة المالية يقوم بإيفاد مبعوثين للتفاوض مع سكان كل مدينة على حدة . بيد أن هذه الطريقة كانت تتسـم بالـبطء ، ومن ثم فقد وجد ملوك إنجلترا فى القرن الثالث عشر أنه من الأفضل دعـوة ممثليـن عـن مختلف المناطق المحلية سواء فى الريف أو المدن للاجتماع مع مندوبيهم فى مكان محدد بدلاً من إيفادهم لجميع المقاطعات والمدن . (٢)

فـى ضـوء ذلـك نؤكـد ثانية أن فكرة التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة إنما تضـرب بجذورهـا فـى نظام المحلفين ، الذين يتحدثون بصوت المنطقة فى محكمة المقاطعـة ، لأن نظام المحلفين ذاته يرتكز على مبدأ التمثيل النيابى ، حيث تتكون هيئة المحلفيـن من اثنى عشر من الرجال البارزين فى كل ضيعة إقطاعية ، وأربعة عن كل مديـنة ، بهدف تقديم تقرير للقضاة الجوالين أثناء انعقاد محكمة المقاطعة التى لابد وأن تنعقد فى حضورهم ، وذلك بمقتضى قوانين كلارندون Assize of clarendon التى أصدرها هنرى الثانى عام ١١٦٠م .(٣)

---

(1) Traill & Mann (eds.), Op.Cit., P.568 Lunt , Op.Cit., p.212 ; Willson, Op. Cit., P.149 ;

راوس ، التاريخ الإنجليزى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٦ ن ص ٤٧ .

(2) Green, Op.Cit., vol.I, p.165, Willson, Op.Cit., P.149 ; Lunt, Op. Cit., p.214 ; Traill & Mann, OP. Cit., . 568 .

(٣) تتضمن قوانين كلارندون اثنين وعشرين فقرة ، تعتبر ذا أهمية فائقة فى تاريخ القضاء الإنجليزى ، نظـراً لما تضمنته من تغيرات فى إدارة العدالة ، والتى مهدت الطريق أمام الحكم النيابى فيما بعد لمزيد من التفاصيل انظر النص اللاتينى لهذه القوانين كاملة فى

Incipit Aassisa de clarendunа facta a rege Henrico, Scilicet secund, in Stubbs (ed.) Select charter, pp.170 – 173 .

علـــى أيـــة حـــال فإن أول الأمثلة على اجتماع مندوبى الملك وممثلى الطبقة المتوســـطة حدثت عام ١٢٠٤ ، عندما أمر الملك جون بدعوة اثنى عشر رجلاً من كل الموانـــئ الـــبحرية للاجتماع ومندوبى الملك فى مكان محدد لمناقشة الأوضاع الخاصة بالـــتجارة . وتكـــرر ذلـــك ثانية عام ١٢١٣ عندما أمر الملك جون أيضا بدعوة حكام المقاطعـــات وأربعـــة عـــن كل مدينة للاجتماع فى دير القديس البانس St.Albans ، بهـــدف تقديـــم تقريـــر عن الضرر والخسائر التى لحقت بالكنائس المحلية أثناء نزاع الملـــك مـــع الـــبابوية . بيد أن هذين الاجتماعيين لم يكونا أكثر من مجرد اجتماع فقط لهيئة المحلفين . (١)

وكمـــا ســـبق الإشـــارة بأن فكرة التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة لم تكن شيئا مســـتحدثا ، ولكـــن الجديد الذى حدث بعد ذلك يكمن فى تمثيل هذه الطبقة فى المجلس الكبـــير للملك فى أوائل القرن الثالث عشر ، عندما وجد الملك أنه من الأفضل والأكثر أهمـــية دعوة ممثلين عن المناطق المحلية للاجتماع وأعضاء مجلسه لتقديم المشورة ، مـــثال ذلـــك أن الملك جون أعلن مرسوما ملكيا لحكام المقاطعات يأمرهم بدعوة أربعة من الفرسان من كل مقاطعة لحضور اجتماع الملك والمجلس الكبير فى مدينة اكسفورد بهدف ما أسماه " التشاور معنا بشأن أوضاع مملكتنا " .(٢)

ويعلـــق المـــؤرخ William Stubbs على دعوة الملك جون لحضور ممثلين عن المدن والمقاطعات بقوله: " هذه المرة الأولى التى يتم فيها دعوة ممثلى المقاطعات للمجلـــس العـــام للملكة ، على أساس مبدأ التمثيل النيابى الذى طالما استخدم لأغراض قضائية . بمعنى أن هؤلاء الرجال الأربعة وحاكمَ المقاطعة منذ القدم وهم يمثلون البلدة فـــى محكمة المقاطعة Shiremoot . والآن وبناءً على دعوة الملك جون أصبح هؤلاء الـــرجال الأربعة ، وحاكم المقاطعة يمثلون محكمة المقاطعة فى المجلس القومى – أى

---

(1) Stubbs, *The Constitutional Hist, of England*, Vol.II, p.697 ; Green Op.Cit., p.165 ; Willson, Op.Cit., p.149 ; Traill, Mann, OP.Cit., p.568 .
(2) Stubbs, *Select charters*, p.282 ; Green, Op.Cit., p.165 ; Willson, Op.Cit., p.149 ; Lunt, Op.Cit., p.215 .

المجلس الكبير – " [١] وهذا يؤكد بجلاء ما ذهبنا إليه من قبل بأن فكرة التمثيل النيابى قد وجدت أصلاً فى محكمة المقاطعة .

وبناءاً على مرسوم الملك جون لحكام المقاطعات لم يكن اجتماع اكسفورد المقترح أكثر من مجرد اجتماع للمجلس الكبير مع حضور فرسان المقاطعة . وبالرغم من أنه ليس مؤكداً ما إذا كان اجتماع المجلس الكبير الذى دعى الملك رسمياً لانعقاده، أو أى اجتماع آخر قد عقد فى التاريخ المحدد فإنه من المؤكد أن فكرة دعوة ممثلين عن فرسان المقاطعة للتشاور مع الملك ومجلسه إنما تنسب إلى الملك جون عام ١٢١٣ .[٢]

بالإضافة إلى ذلك ليس غريبا أن يحظى عهد الملك جون (١١٩٩-١٢١٦م) بأهمية خاصة فى التاريخ السياسى الإنجليزى، فقد شهدت السنوات الأخيرة من حكمه إخفاقه التام فى إمكانية امتصاص غضب البارونات وإصرار صارم من جانبهم على تأكيد حقوقهم التى أقرها القانون الإقطاعى، وأعلن البارونات الثائرين أنهم سوف يقاتلون من أجل الحريات التى يتضمنها مرسوم هنرى الأول ، المستمدة من القانون الإقطاعى كما طبقه وليم الفاتح .[٣] وجاءت الرغبة العامة والعارمة لهؤلاء الثائرين باستعادة هذه الحريات بمثابة السبب الحقيقى للصراع بين الملك والبارونات ، وتفاقم النزاع بين الجانبين بعد هزيمة الملك وحلفائه فى بوفييه على أيدى الملك الفرنسى عام ١٢١٤. وكيفما كان الأمر ، فإن طبقات الشعب الإنجليزى من البارونات ورجال الدين وأهل المدن اتفقت كلمتهم فى خريف عام ١٢١٤ على ضرورة المطالبة بتنظيم ما لهم وما عليهم تجاه الملك ، وفى رينميد Runnmede على ضفاف نهر التايمز وقع الملك على ما اصطلح على تسميته الماجنا كارتا أو العهد الأعظم . والتى استهدف البارونات من صياغتها التأكيد على ضرورة حماية حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية ضد

---

(1) Stubbs, Op.Cit., P.282 ; *The Constitutional Hist, of England*, vol.II, P.697
(2) Lunt, Op.Cit., P.215 ; Willson, Op.Cit., P.149 ; Green , Op.Cit., P.165.
(3) " A. D 1100. AuG.5. charter of liberties Issued by Henry I. " *in stubbs, select charters*, pp.116 – 119 ;
زينب عبد المجيد، المرجع السابق ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

انتهاكات الملك وأسلافه . وتتمثل أهمية العهد الأعظم باعتبارها أولى القيود على السلطة الملكية المطلقة ، وإقرار مبدأ ضرورة احترام الملك للقانون الإقطاعي الذى يعتبر كل من الملك والبارونات حزبين متعاقدين فى إطار حقوق وواجبات إقطاعية متبادلة . (١)

لامراء أن الماجناكارتا تمثل خطوة مهمة وفعالة فى مسيرة التأكيد الملكى على أهمية وضرورة التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة فى المجلس الكبير من جهة ، والتاريخ الدستورى لإنجلترا من جهة أخرى .

فقد نصت الفقرة (١٢) منها على "*يتعهد الملك بعدم فرض ضريبة الاسكوتاج أو الإعانات الإقطاعية على المملكة إلا بمشاورة المجلس العام للمملكة ، فيما عدا الأموال الإقطاعية الخاصة بافتدائنا من الأسر ، وتنصيب ابننا الأكبر فارس ، وزواج ابنتنا الكبرى . وبنفس هذا النهج تتخذ الإعانات الإقطاعية من مدينة لندن .*"

وجاء فى الفقرة (١٣) "*سوف تكون لمدينة لندن جميع الحريات التى كانت لها فى الماضى ، والاعفاء من المكوس براً وبحراً ، علاوة على ذلك سوف نمنح جميع المدن والبلدان والموانئ الأخرى جميع حرياتها والإعفاء من المكوس*"

وتضمن الفقرة (١٤) "*للحصول على المشورة العامة للمملكة بصدد تقدير المساعدات الإقطاعية فيما عدا الحالات الثلاث المشار إليها آنفا –أو الأسكوتاج ، سوف ندعو رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأيرلات ، كبار البارونات، كل على حدة بناء على خطابات منا ، إضافة إلى ذلك سوف ندعو بشكل عام من خلال حكام مقاطعاتنا وجميع نوابنا هؤلاء الذين يحوزون ضياعاً إقطاعية من التاج – الفرسان – للتاريخ والمكان المحدد للاجتماع ، والذى يعقد فى غضون أربعين يوماً*

---

(١) تقع الماجناكارتا فى واحد وستين فقرة ، ولمزيد من التفاصيل انظر النص اللاتينى الكامل لهذا العهد عند :

Stubbs, *select charters*, pp.292 – 302 ;

وكذلك الترجمة الإنجليزية لهذا النص عند :

Warren, *King John* (London, Second edition, 1978) pp.266 – 277 .

على الأقل من توجيه الدعوة ، وسف نحدد في جميع الخطابات سبب الاجتماع ، وأثناء الاجتماع سوف يتم العمل وفقا لمشورة هؤلاء الحاضرين ، بغض النظر عن حضور جميع الذين تم دعوتهم . "(١)

وقبل أن يجف المواد الذى كتبت به الماجناكارتا نقض الملك جون شروطها وتنكر لمبادئها.(٢) ولكن فى ضوء هذا الصراع السافر بين الطرفين فإن المعارضة البارونية فى صراعها من أجل الحريات أى حرية الامتيازات الإقطاعية والكنيسة ، تكون قد ساهمت فى إرساء أحد الأسس اللازمة لإقامة حكومة دستورية فيما بعد .

ونترك عهد الملك جون جانباً ، ونمضى قدماً مع مسيرة تطور التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة فى المجلس الكبير . ففى أثناء حكم الملك هنرى الثالث (١٢١٦-١٢٧٢) أعلن الملك عام ١٢٢٦ مرسوما ملكياً بدعوة أربعة من فرسان كل مقاطعة بهدف التشاور السياسى حول التفسير المتنازع عليه لبعض بنود الماجناكارتا.(٣) وفى عام ١٢٢٧ تولى حكام المقاطعات فى محاكم المقاطعات مهمة انتخاب أربعة من الفرسان عن كل مقاطعة للاجتماع مع الملك ومجلسه الكبير . وجاء هؤلاء الفرسان بهدف تقديم تقرير بالشكاوى ضد حكام المقاطعات التى يمثلونها . وفى عام ١٢٥٤ تم انتخاب اثنين من الفرسان عن كل مقاطعة لحضور اجتماع المجلس الكبير فى ويستمنيستر ، بهدف تحديد المساعدة التى يجب أن ترسل للملك فى جاسكونى (٤)- إحدى الممتلكات الإنجليزية المتنازع عليها فى فرنسا – ومن أبرز الأمثلة فى عهد هنرى الثالث على هذه الاجتماعات التى شهدت حضور ممثلين عن الطبقة المتوسطة

---

(1) *Great charter of liberites* . 1215 in stubbs (ed.) select charters , pp.294 , 295 ; Warren, Op.Cit., pp.268, 269 .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن مراحل الصراع بين الملك جون والبارونات انظر :

Annales londonienses, vol.I, P.16 ; William of Newburgh, *Historia Rerum Angligarum*, Vol.2, pp.217 , 218, Warren, Op.Cit., p.236 ;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٧٧ – ٨٣ .

(3) *Writ for the summong of four knights of the shire A.D. 1226*, in Stubbs, Op.Cit., p.353 .

(4) *Writ of summons for two knights of the shire to Grantan Aid, A.D. 1254*, in stubbs, Op.Cit., pp.365 , 366 .

سواء فرسان المقاطعة ، أو البرجوازية ، وقد وصفت بالبرلمانات من جانب المؤرخين المعاصـــرين والمحدثين على حد سواء ، هذين الاجتماعيين اللذين دعى لعقدهما زعيم المعارضـــة البارونـــية ســيمون مونـــتفورت Simon de Montfort أيرل ليسستر Leicester . الأول بعــد هزيمة القوات الملكية أمام الأيرل سيمون وقواته فى معركة لويـــس Lewes فـــى الثانى عشر من مايو ١٢٦٤م . والتى أسفرت عن وقوع الملك وولـــى عهـــده الأمـــير إدوارد فى الأسر . وفى محاولة من جانب الأيرل لكسب تأييد المملكـــة ، دعـــى لعقـــد اجتماع ضم بارونات المملكة ، وأربعة من الفرسان عن كل مقاطعـــة . أما الاجتماع الثانى والذى حدث بعد أن دب النزاع فى صفوف المعارضة البارونـــية الـــثائرة من خلال النزاع بين الأيرل سيمون ومونتفورت ، وريتشارد ايرل جوسســـيتر Cloucester وبهـــدف تدعيم مركزة وشرعيته قام سيمون بعقد اجتماعه الـــثانى فـــى أوائل عام ١٢٦٥ ، وهو الاجتماع الذى حاز شهرة واسعة من جانب عدد لـــيس بالقليل من المؤرخين المحدثين ، ففى هذا الاجتماع مثلت المدن لأول مرة بإيفاد اثنين عن كل مدينة .[١]

---

(١)جاء عقد هذين الاجتماعيين انعكاسا للأوضاع الداخلية فى عهد هنرى الثالث ، حيث تورط الملك فى نزاع مرير مع البارونات بزعامة الأيرل سيمون مونتفورت ، مما دفع الثائرين من البارونات والملـــك على الدعوة لعقد اجتماع للمجلس الكبير فى اكسفورد عام ١٢٥٨ ، حيث قدم البارونات مطالـــبهم التى تجسدت فى إبعاد جميع الأجانب ، وتعيين لجنة مكونة من أربعة وعشرين عضوا نصـــفهم مـــن الجانب الملكى والآخر من البارونات ، والمطالبة بخطة للحكم يتم بمقتضاها نقل السلطة الكاملة من التاج إلى ممثلين عن البارونات يتولون السيطرة التامة على الإدارة ، وانتخاب حكام المقاطعات سنوياً ، وتجديدهم سنوياً ، وتعهد الملك بدعوة البرلمان – أى المجلس الكبير – للانعقاد ثلاث مرات فى العام على غرار ما كان يحدث فى عهد الفاتح . لينتهى ذلك بما عرف فى الـــتاريخ الإنجلـــيزى بشـــروط اكسفورد provisions of Oxford ، مما جعل بعض المؤرخين يطلقون على اجتماع اكسفورد اسم البرلمان المجنون لشدة وجرأة المطالب البارونية . وينتهى هذا الـــنزاع بهـــزيمة الجيش البارونى بعد فرار الأمير إدوارد من الأسر ، وقتل الأيرل سيمون فى معـــركة ايفشهام Evesham ، والاستسلام النهائى للبارونات عام ١٢٦٧. ولمزيد من التفاصيل انظر :

وتعلـيقاً على هذا الاجتماع الثانى للأيرل سيمون الذى شهد أول حضور نيابى عـن المـدن فأنه لم يكن أكثر من مجرد اجتماع ثورى للمعارضة البارونية ، فقد جاء انعكاسـا للأوضـاع السياسـية المـتردية أثناء حكم هنرى الثالث سواء فى الداخل أو الخـارج ، نتـيجة عدم استقرار الأوضاع فى جاسكونى ، وإخفاق هنرى فى استعادة أراضـيه فى فرنسا . وفى ضوء هذه الأوضاع السياسية حيث المعارضة البارونية فى أوج ذروتهـا ، بعـد وقوع الملك وولى عهده فى الأسر غداة معركة لويس فى الثالث عشـر من مايو ١٢٦٤ ، وانتقال مقاليد الحكم إلى أيدى الأيرل سيمون ، إلى أن تمكن الأمـير إدوارد مـن فـك قيود أسره فى الثامن والعشرين من مايو ١٢٦٥ ، وتحقيق الانتصار الملكى فى معركة ايفشهام فى الرابع عشر من أغسطس عام ١٢٦٥ . معنى ذلـك أن الملك وولى عهده قد بقيا فى الأسر لمدة تزيد على تسعة أشهر . وأن اجتماع الأيـرل الذى عقد فى العشرين من يناير ١٢٦٥ ، أى أثناء أسر الملك وولى عهده . قد اقتصر فى معظمه على فريق من البارونات الثائرين من مؤيدى الأيرل سيمون .

وفى ضوء الفكر السياسى للملكية الإنجليزية التى تقف بالمرصاد لأى محاولة قد تمثل أدنى انتهاك للسلطة الملكية المطلقة ، حتى فى الأوقات التى شهدت تردى هذه السـلطة ، فـإن ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالبرلمان فى القرنين الثالث عشر والـرابع عشر لم يكن الأمر أكثر من مجرد اجتماع للمجلس الكبير للملك ، والذى بدأ يشـهد حضـور ممثليـن عن الطبقة المتوسطة حسب مشيئة التاج ، وبما يتفق وخدمة

Stubbs, Op. Cit., pp.369 – 389 ; *The chronicle of Bury st. Edmund's 1212-13* (London, 1964) pp.26-38 ; Matthew Paris, *English History from the year 1235 to 1273* (London, 1852) vol. I, p.194, Vol. III, PP.347 – 349 ; John Capgrave, *The chronicle of England* (London, 1858) pp.158-160 ;

أما المعلومات التى وردت فى المتن انظر :

Dietz, Op. Cit., p.84 ; Lunt, Op. Cit., p.215, Willson, Op. Cit., p.149 ; Vickers, Op. Cit., p.146 ; Stubbs, Op. Cit., pp.397 – 399 .

الأهــداف السياسية والمالية للتاج . ولم ينطبق ذلك بالطبع على اجتماع الأيرل سيمون مما يؤكد وجهة نظرنا بأنه لم يزد عن كونه اجتماع ثورى للمعارضة البارونية .

علـــى أيـــة حـــال ، يمكـــن تفسير رغبة التاج أثناء حكم هنرى الثالث بصدد حضـــور نـــواب عـــن فرسان المقاطعة ، للحضور أمام المجلس الكبير للملك ، بأنها جـــاءت مـــثلما حـــدث فـــى الماضى استجابة لتحقيق أهداف إدارية ، والموافقة وليس التشـــاور علـــى الضـــرائب المفروضة عليهم من قبل التاج ، ففى عام ١٢٥٤ – على سـبيل المـــثال – كـــان هنرى الثالث فى حاجة ماسة للمال لتغطية نفقات حملته على جاســـكونى . ومـــن واقع تجاربه السيئة فى الحصول على أموال إضافية ، وبالأحرى مســـاعدات غـــير إقطاعية ، رأى من الأفضل ضمان موافقة المقاطعات على ضريبة جديدة من خلال حضور ممثليهم من الفرسان . (١)

وفـــى نهايـــة حكم الملك هنرى الثالث أصبح حضور ممثلى الطبقة المتوسطة بهـــدف الاجتماع مع الملك ومجلسه أمراً مسلماً به . بيد أن إرساء مبدأ التمثيل النيابى باعتـــباره جزء ثابتا من السياسة الملكية يتضح بجلاء أثناء حكم الملك إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٧) . فقـــد اســـتهل فـــترة حكمه بعقد أول برلمان عام – أو بعبارة أدق اجـــتماع نـــيابى للمجلس الكبير – فى الثانى والعشرين من أبريل عام ١٢٧٥م ، بهدف فـــرض ضـــريبة على الجلود الخام والصوف ، والذى يمثل الإنتاج الرئيسى للمملكة ، ومـــن ثـــم فقـــد أصبح هدفا شهيا للضريبة أسالت لعاب ملوك إنجلترا منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ففى عام ١١٩٤ تم الاستيلاء على كميات كبيرة منه بهدف تمويل الفدية اللازمة لإطلاق سراح الملك ريتشارد الأول من الأسر الألمانى أثناء عودته من الحملة الصـــليبية الثالـــثة . ولـــذا كـــان طبيعياً دعوة ممثلى الطبقة المتوسطة وخاصة التجار والمـــدن التجارية " towns merchants " لحضور الاجتماع . بيد أن هذا الاجتماع لم تمثل فيه طبقة صغار رجال الدين .(٢)

---

(1) Stubbs, Select charters, p.365 ; Dietz, Op.Cit., p.88 ; Vickers, Op.Cit., p.146 .

(2)Lunt, Op.Cit., p.216 ; Dietz, Op.Cit., Vickers, Op.Cit., p.63 ; Willson, Op.Cit., p.149 ; Stubbs, Op.Cit., pp.440 , 441 ;

أيضـــا شهد عهد إدوارد الأول عام ١٢٨٣ انعقاد ما اصطلح المؤرخون على تســميته باســم بــرلمان شيرســبورى Shrewsbury . والذى انقسم إلى اجتماعيين منفصـــلين ، وبيــنما بقى البارونات كما هم لمناقشة الموضوع الرئيس للاجتماع ممثلاً فى الحكم على ديفيد David أمير ويلز وإدانته ، أثر رجال الدين الانسحاب ، مبررين ذلــك بــأن مهــامهم المقدسة لا تحتم عليهم المشاركة فى إراقة الدماء . فى حين ذهب ممــثلى المــدن إلى مدينة أكتون بيرنيل Acton Burnell لمناقشة قضايا التجارة .[1] ويعلــق المــؤرخ William Stubbs على ما يسمى برلمان شيرسبورى بقوله : " أن هــذا الاجــتماع يختلف عن البرلمان العادى فى ناحيتين هامتين ، أولاً أنه لم يتضمن ممثليــن عــن القساوسة أو حتى الأساقفة . وثانياً أن ممثلى المدن تم دعوتهم بمراسيم مســتقلة وليس من خلال حكام المقاطعات كما جرت العادة . وأن محاكمة ديفيد وأدانته كانــت مــن خــلال البارونات فقط . وأن ما يعرف باسم قانون أكتون بيرنيل قد شرع وشــن فى الواقع من خلال الملك ومجلسه . ومع ذلك فقد أطلقت كلمة برلمان على هذا الاجتماع "[٢].

وعلــى مدى العشرين عاماً التالية لعام ١٢٥٧ لم يتخلى الملك إدوارد الأول عن دعوة ممثلى الطبقة المتوسطة لحضور الاجتماعات الكبرى للمجلس الكبير والتىعرفت بالــبرلمان مــن جانــب المؤرخيــن [٣]. مما يعنى أن تجربة الملك إدوارد الأول مع الاجتماعات النيابية للأمة الإنجليزية لم تكن وليدة الاجتماع الشهير عام ١٢٩٥ .

ولمزيد من التفاصيل انظر الوثيقتين التاليتين

Summons of knights and Burgesses, A. D. 1275 .
Grant of Custonn on wool, woolfells and leather A.D. 1275,

وهاتين الوثيقتين ورد ذكرها كاملتين بالنص اللاتينى عند :

Stubbs, Op.Cit., pp.441 – 444 .

(1) Stubbs, Op.Cit., pp.456, 461 , 462 ; Powicke, *The thirteenth century 1216-1307* (Oxford , 1962) p.341, Tout, *An Advanced History of Great Britian* (London, 1912) p.191 ; Smith, Op.Cit., p.115 .

(2) Stubbs, Op.Cit., p.456 .

(3) Smith, Op.Cit., p.115, Tout, Op.Cit., p.191, Dietz, Op.Cit., p.88; Powicke, Op.Cit., p.341

وفـــى عام ١٢٩٥ دعى إدوارد الأول لعقد واحد من أهم المجالس النيابية التى عقـدت حـتى الآن ، بصـورة لـم تشهدها إنجلترا من قبل ، والذى ذاع صيته باسم الـبرلمان الكبير أو البرلمان النموذجى Model Parliament . إذ بالإضافة لأعضاء المجلـس الكبير من رؤساء الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأساقفة ، البارونات ، تضمن ممثليـن عن الطبقة المتوسطة من فرسان المقاطعة والمدن ، بمعدل اثنان من الفرسان عـن كـل مقاطعـة واثـنان عن كل مدينة ، علاوة على قساوسة الكنائس الكاتدرائية والأبروشـية ، بـيد أن هـؤلاء القساوسة سرعان ما توقفوا عن الحضور بعد ذلك ، واثروا منح الضرائب الخاصة بهم للتاج من خلال مجالسهم الكنسية ، وترك مصالحهم الكهنوتـية الأخـرى لكـبار رجال الدين من أعضاء المجلس الكبير . وبانسحابهم من حضـور الـبرلمانات التالية حرموا من أن يصبحوا عنصراً فعالا فى البرلمان والذى أصبح فيما بعد السلطة العليا فى المملكة .(1)

ويتضـح هـدف الملـك إدوارد الأول من عقد هذا الاجتماع فى ثنايا ديباجة المرسـوم الملكـى للأعضاء الذين تم دعوتهم للحضور جاء فيه " للنظر والتعامل مع القضـايا الملحة والجوهرية لنا ومملكتهم ، وتقديم مشورتكم لنا . لأن ما يخص الجميع يجـب أن يكـون بموافقـة الجمـيع ، وأن الأخطار العامة يجب أن تكبح بالجـهود المتحدة ."(٢)

فى ضوء ذلك يجب تفسير الأسباب الحقيقة لعقد هذا الاجتماع النيابى للمجلس الكبـير عـام ١٢٩٥م فـى ضوء ظروف عصر الملك إدوارد الأول على المستويين الداخلـى والخـارجى . فعلـى المستوى الداخلى شهد عهد إدوارد الأول اتساع نطاق النشـاط التجارى ، وحركة البيع والشراء فى كل ميناء ، وازدهار التبادل التجارى مع المـناطق المجـاورة ، فـى الوقـت الذى تزايدت فيه أعباء الإدارة الملكية ، وازدياد

---

(1) Annales londonienses, Vol. I, p.85; *The chronicle of Bury St. Edmunds*, p.129 ; Stubbs, *The constitutional Hist, of England*, Vol. II, p.140; Stubbs, select charter, pp.477, 478, Hume, op.Cit, p.146 ; Smith, op.Cit, p.117 ; Dietz, op.Cit, p.89 ,

(2) Smith, Op.Cit., p.117 ; Dietz, Op.Cit., p.89 ; Tout, op.Cit, p.191 ; Hume, op.Cit, p.116, Hall & Albion, op.Cit, p.152.

المطالبة بتوفير سبل العدل والأمن بين الناس ، اقتضى ذلك بطبيعة الحال ضرورة إيجاد منافذ جديدة للتمويل . وبنظرة ثاقبة رأى الملك أن أفضل السبل للحصول على الإيراد القومى اللازم لتغطية الأعباء العامة للإدارة الملكية تتمثل فى الدعوة لعقد هذا الاجتماع . لا سيما وأنه لا يستطيع أمام هذه المطالب المتزايدة أن يعتمد فقط على موارده الإقطاعية من الضرائب الإقطاعية المنتظمة وغير المنتظمة ، وأموال ضريبة الاسكوتاج Scutage ، أو موارده من الضياع الملكية ، والإيرادات الملكية الموروثة. ومن ثم فقد ساهمت الأموال الناجمة عن المكوس الجمركية فى تلبية بعض الاحتياجات الملكية ، مثلما حدث عام ١٢٧٥ عند وافق البرلمان – على حد تعبير المعاصرين – على منح إدوارد الأول كجزء من إيراد ثابت ومنتظم الأموال الناجمة عن الضرائب التى تقرر فرضها على تصدير الصوف والجلود الخام ، تجمع من كل موانئ التصدير فى إنجلترا ، ويلز ، وايرلندا لصالح الملك (١). أيضا فرضت ضرائب على الاستيراد بمعدل اثنين شلن عن كل برميل ضخم من النبيذ الأجنبى ، وجنيه واحد على كل سلعة يتم استيرادها . وعرفت هذه الضرائب أو الرسوم الجمركية باسم "Tunnage and Poundage" أى الضريبة النسبية التى تحصل على كل جنيه أو سلعة .(٢)

علاوة على ذلك فقد تلقى إدوارد الأول من خلال هذا المجلس النيابى تسع منح مالية ، على فترات متقطعة بلغت قيمتها الإجمالية ما يعادل أربعمائة وخمسون ألف جنيه إسترلينى ، وجاءت هذه المنح كما يقول المؤرخ المعاصر جولدين سميث Coldwin Smith على شكل ضرائب مباشرة مشابهة لعشور صلاح الدين .(٣)

معنى ذلك أن الإيراد الملكى من الدخل الإقطاعى لم يعد كافيا فى عصر جعل إيراد التاجر الإنجليزى من تجارة النبيذ والصوف أضعاف ما يدخل خزانة البارون من

---

(1) *The chronicle of Bury st Edumund*, p.129 ; Stubbs, *select charters*, pp.440-444 ; Smith, op.Cit, pp.114, 115 , Dietz, op.Cit, p.89 .
(2) Smith, Op.Cit., p.115, Hall & Albion, Op.Cit., p.151 .
(3) Smith, Op.Cit., pp.114 , 115 ; Hume, Op.Cit, p. 116.

الإيجـــارات الإقطاعـــية ، وبالتالى فإن الثراء الذى يتمتع به التجار والطبقة المتوسطة عامة أصبح يمثل إغراء شديد للتاج المثقل بالأعباء المالية .(١)

وعلـــى المســـتوى الخـــارجى كان إدوارد الأول منغمساً فى حرب طويلة مع فرنســا ، العـــدو اللـــدود للملكية الإنجليزية منذ الفتح النورمانى عام ١٠٦٦ ، وأيضا الحـــرب مع اسكتلندا ، وويلز ، بهدف توحيد الجزر البريطانية كلها فى مملكة واحدة ، علاوة على سلسلة من الأزمات التى عرضت سلام واستقرار المملكة للخطر . (٢)

ولأمـــراء أن دعوة ممثلى الطبقة المتوسطة من الفرسان والبرجوازية لحضور هذا الاجتماع ، إنما جاءت بهدف تلبية الاحتياجات المالية الملحة للتاج ، لتغطية نفقات الحـــرب مع فرنسا ، والتهديد الإسكتلندى من الشمال ، والحرب مع ويلز ، أى لمجرد الموافقـــة على الضرائب المقترحة من جانب الملك . مثلما حدث فى جميع الاجتماعات الـــتى شـــهدت حضور ممثلى هذه الطبقة على مدى الفترة من ١٢٧٥ - ١٢٩٠ ، فقد

(1) Smith, Op.Cit., pp.114 , 115 ; Hume, Op.Cit., p.116 ; Lunt, Op.Cit., p.217 ; Feiling , *A Hist. of England : from the coming of the English to 1938* (London, 1948) p.181 ;

سعداوى ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٢) يعلق المؤرخ الإنجليزى William Stubbs على الأخطار التى جابهت الملكية عام ١٠٩٥ بقوله : " بأنــه بــات واضحاً أمام تفاقم هذه الأخطار أن الملك لم يكن قادراً حتى شهر يونيه من عام ١٠٩٥ علـــى أتخاذ الإجراءات اللازمة لعقد اجتماع نيابى أى البرلمان ، ولذا فقد أعلن مرسوماً ملكـــياً بدعـــوة أعضاء المجلس الكبير من رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، رؤساء المؤسســـات الدينـــية ، الأيرلات ، البارونات ، والقضاة لحضور اجتماع المجلس فى الأول من أغســـطس ١٢٩٥ فى ويستمنستر ، بهدف مناقشة المقترحات الخاصة بالوساطة مع فرنسا ، من خـــلال اثنيـــن من مبعوثى البابا ، مفوضان بسلطة عقد الهدنة . وبالرغم من أن هذا الاجتماع لم يشهد حضور ممثلين عن العموم أى الطبقة المتوسطة ، لم يخرج عن كونه اجتماع للمجلس الكبير ، فقد صنف فى سجلات البرلمان باعتباره برلمان " الأمر الذى يؤكد صحة استنتاجاتنا عن ماهية بـــرلمانات هـــذه الفترة . وتجدر الإشارة أن البرلمان النموذجى قد عقد فى شهر نوفمبر من عام ١٢٩٥ . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Stubbs, *Select charters*, pp.477, 478 ; John Capgrave, Op.Cit., pp.170 – 172 ; Dietz, Op.Cit., p.88 ; Tout, Op.Cit., p.192 ; Smith, Op.Cit., p.117

أسفر ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالبرلمان النموذجى بعد مناقشة الطبقات الثلاث كل على حدة من البارونات ، كبار رجال الدين ، الطبقة المتوسطة ، اشتراك كل من الفرسان والبارونات فى دفع ضريبة بنسبة ١١/١ من ممتلكاتهم ، والبرجوازية نسبة السبع ، ورجال الدين العشر ، ومن الجدير بالذكر أن فرسان المقاطعة منذ تمثيلهم فى المجلس الكبير – البرلمان فيما بعد – وهم يعملون بالاشتراك مع أقرانهم من ملاك الأراضى أى البارونات . لأن مجلس العموم الذى تكون فى القرن التالى من الفرسان والبرجوازية لم يكن قد ظهر بعد . وعن مغزى اندماج هاتين الطبقتين أى الفرسان والبرجوازية ، كانت الأخيرة تمثل طبقة اجتماعية جديدة على درجة عالية من الثراء ، ولكن ينقصها المكانة والهيبة اللازمة لتكوين مكانة سياسية مستقلة وفعالة ، فى حين كان فرسان المقاطعة من نفس النسيج الاجتماعى لبارونات المجلس الكبير . وانضمامهم النهائى مع ممثلى المدن أعطى لهاتين الطبقتين المكانة والتأثير السياسى الفعال ، الذى لم يكن من المستطاع تحقيقه بأية طريقة أخرى . وفى عهد إدوارد الأول لم تكن ملامح هذا الانضمام قد اتضحت بعد .(١)

لا مراء أنه باستثناء تلبية الاحتياجات المالية الملحة للتاج لم يسفر الاجتماع الكبير عام ١٢٩٥م عن اتخاذ أى أجراء حاسم ، لأن إدوارد الأول لم يعتزم بدعوته لهذا الإجتماع إرساء تقليد سياسى دائم ، أو منحه سلطة حقيقة فيما عدا توفير الاعتمادات المالية للتاج ، وأن يكون ذلك بموافقة جميع رعاياه . علاوة على ذلك لم يصبح حضور ممثلى الطبقة المتوسطة تقليداً دائما فى الاجتماعات النيابية التالية ؛ إذ نجد حوالى اثنا عشر اجتماعا من الاجتماعات النيابية العشرين والتى عقدت بعد عام

---

(١) فى ضوء المراسيم الخاصة بالبرلمان النموذجى ، تم توجيه خطابات مباشرة من الملك لدعوة كل من رؤساء أسقفيتى كانتر برى ويورك ، ومقدم الاسبتارية ، واثنان وأربعون من رؤساء الأديرة ، والأساقفة ، وأحد عشر أيرل ، وثلاثة وخمسون من البارونات ، كبير القضاة ، ثمانى وثلاثون قاضيا ، وآخرون من القضاة الجوالين ، وأعضاء وموظفى المجلس لمزيد من التفاصيل عن وثائق هذا الاجتماع انظر :

Stubbs, *Select charters*, pp.479 – 482 ; smith, Op.Cit., p.117 ; Lunt, Op.Cit., p.216, Hall and Albion, Op.Cit., pp.153, 154 .

١٢٩٥ لـم تشهد حضور ممثلين عن المقاطعات أو المدن . وثلاث فقط هى التى حذت نمـوذج اجـتماع ١٢٩٥ . وعلـى حـد تعبير المؤرخ سميث كان الاجتماع الكبير أو الـبرلمان الـنموذجى بمثابة خطوة على مسار طويل من الإجراءات والممارسات التى أرست تدريجيا مبدأ ضرورة وأهمية مشاورة الطبقة المتوسطة فى البرلمان . (١)

وتعلـيقا على نعت الاجتماع الكبير عام ١٢٩٥ باسم البرلمان النموذجى يقول المؤرخ الإنجليزى المعاصر لونت Lunt " أن اصطلاح البرلمان النموذجى يعد تعبيراً مضـللاً بعـض الشئ ، لأنه لم يصبح نموذجاً دائما تحتذى به جميع المجالس النيابية الكبرى التى عقدت فيما بعد . لأنه لم يتضمن حضور تلك الفئة من صغار رجال الدين مـن قساوسـة الكنائس الأبروشية أو الكاتدرائية ، الذين توقفوا عن الحضور بعد هذا الـبرلمان ، وآثـروا مـنح الضرائب الخاصة بهم من خلال مجامعهم الكنسية ، وترك الـتعامل بصـدد مصـالحهم الكنسية الأخرى لكبار رجال الدين من أعضاء المجـلس الكبير . "(٢)

ويضيف المؤرخ الإنجليزى المعاصر ويلسون Willson مؤكداً ذلك بقوله : " بأنـه لـيس ثمـة شـئ نموذجى فى هذا البرلمان باستثناء أنه ضم ممثلين عن جميع الطبقات التى ظهرت فى البرلمانات التالية فى العصور الوسطى . "(٣) وفى ضوء هذه الدراسة فإننا نتفق مع هذين المؤرخين .

وعـن طبيعة دور الطبقة المتوسطة فى البرلمانات التى عقدت فى عهد إدوارد الأول ، نـرى أن سـلطة ومجال عملى ممثلى هذه الطبقة جاءت محددة وهامشية وفى أضـيق الحدود . فمن خلال اجتماع الأعضاء جميعا فى قاعة واحدة ، يقف ممثلى هذه الطبقة فى مؤخرة القاعة مجرد مستمعين ، مغالاة فى إبداء الاحترام والتقدير . حيـث يتشاور الملك معهم بصدد الضرائب المقترحة فقط ، والوقف على حالة الرأى العام فى المـناطق المحلـية ، وأحـيانا بصدد القوانين التى ينبغى إعدادها . ثم انصرافهم بعد

(1) Smith, Op.Cit., p.118 ; Dietz, Op.Cit., p.89 .
(2) Lunt, Op.Cit., p.216 .
(3) Willson, Op.Cit., p.149 . حاشية رقم (٥)

تسـجيل موافقـتهم علـى الضـرائب المطلوبـة منهم ، باعتبار ذلك الهدف الرئيسى لحضورهم ، تاركين الملك ومجلسه لقبول نصيحتهم أو رفضها . بينما البرلمان مستمر فـى الانعقـاد بعد ذهابهم . وقد يبدأ المجلس فى العمل قبل حضورهم ، ولا سيما وأن حضـورهم لـم يكن مفروضاً عليهم من الناحية القانونية ، لأنهم خارج شريحة التبعية الإقطاعـية للملـك . بيد أن الشئ الوحيد الذى كان باستطاعة ممثلى الطبقة المتوسطة القـيام بـه يتمـثل فـى تقديـم الالتماسات أو الشكاوى للملك سواء كانت شخصية أو جماعية. ومن خلال هذا المنفذ استطاعوا تدريجيا المشاركة فى العمل التشريعى . (١)

وتقـدم الالتماسات للملك بدون مساندة كبار البارونات فى المجلس كما جرت العادة ، للبت فى شكاوى عامة أو فردية ، وإذا حظى الالتماس بموافقة الملك يتم إعداد وصياغة القانون الذى يستمد بنوده من مضمون الالتماس . (٢)

---

(1) Smith, Op.Cit., p.150 ; Powiche, Op.Cit., pp.344, 345 ; Green , Op.Cit., p.166 .

ولمزيد من التفاصيل عن ماهية الالتماسات المقدمة من جانب ممثلى الطبقة المتوسطة فى البرلمانات التى عقدت على مدى الفترة من ١٢٩٠ – ١٣٠٧ انظر الدراسة القيمة التى قام بها

Haskins, " The petitions of Representatives in the Parliaments of Edward I" in *E. H. R*, Vol. L III, No, CCIX – January 1938, pp.1 –20 .

(٢) يذكر المؤرخ Haskins أن الشكاوى المقدمة من النواب فى المجلس الكبير كانت تقدم باسم أى شـخص مـن السـبعة وثلاثين مقاطعة التى اعتادت إرسال ممثلين عنها إلى البرلمان فى الفترة من ١٢٩٠ – ١٣٠٧ ، وأيضـا باسم أى من المدن المائة وخمسة وستون المعروفة بإرسال ممثلين عنها أثناء هذه الحقبة . وأيضا باسم الأفراد ، ولا سيما وأن هناك مرسوما ملكيا أعلن فى الثالث عشر من أكتوبر عام ١٢٨٩ يحث كل من لديه شكوى ضد وزراء ونواب الملك يجب أن يتقدم بها . وبالفعل تم تشكيل لجنة لسماع هذه الشكاوى التى كانت فى معظمها موجهة ضد موظفى الملك . وقدمت الشكاوى من جميع الطبقات الممثلة فى المجلس الكبير ، البارونات ، الفرسان ، البرجوازية ، الأساقفة ، رؤساء الأديـرة ، المؤسسـات الدينية ، ويقدر المؤرخ عدد الشكاوى التى قدمت على مدى الفترة من القرن الثالـث عشر إلى الخامس عشر بحوالى عشرين ألف . وقد تراوحت بين الأذن بإقامة سوق أو منح أرض ، مناصب ، حق التصويت ، عدم دفع ديون أو أجور الخ ، لمزيد من التفاصيل انظر :

Haskins, Op.Cit., PP.7 , 8 ; Smith, Op.Cit., P.118, Willson, Op.Cit., P.150 .

وفـــى ضوء ذلك أصبح حضور ممثلى الطبقة المتوسطة فى المجلس الكبير – الـــبرلمان فيما بعد – أمراً لا مندوحة عنه ، ففى هذا العصر الذى شهد سوء الطرق ، وانعـــدام وسائل الاتصال السريع ، لا يستطيع الملك الوقوف على حالة الرأى العام فى المقاطعـــات بـــدون حضـــور ممثلى هذه الطبقة . ومن هنا تبدو أهمية المعلومات التى تســـديها، علاوة على أن حضور ممثلين عن جميع مناطق المملكة فى اجتماع عام لابد وأن يكـــون فرصة سانحة تجعل الأمر برمته رهن إشارة الملك ، والذى يتعذر تحقيقه بأية وسيلة أخرى . (١)

وإذا كـــان الهـــدف الأساســـى للـــتاج من دعوة ممثلين عن الطبقة المتوسطة لحضور اجتماع المجلس الكبير للملك يتمثل فى الموافقة على الضرائب المقترحة ، إلا أن المطالـــب المالية للتاج لم تلق دوماً الاستجابة من رعاياه ، فقد حدث بعد عامين من الاجـــتماع الشـــهير عام ١٢٩٥ حادثة على جانب كبير من الأهمية فى مسيرة التطور الـــبرلمانى فيما بعد . ففى عام ١٢٩٧ كان الملك إدوارد الأول فى حاجة ماسة لتمويل حملاتـــه العسكرية المعتادة فى فرنسا واسكتلندا . وعندما طالب بفرض ضرائب باهظة ســـرعان مـــا اصـــطدم بصـــخرة المعارضة البارونية . وفى الاجتماع الذى عقد فى ســـالزبورى وكالعـــادة وصف بالبرلمان من جانب المؤرخين ، تراءت مشاهد رد فعل عنـــيف مـــن قـــبل مجموعة بارونية تحدث الأوامر الملكية بصدد المشاركة فى الحملة العســـكرية فـــى جاسكونى وفلاندرز ، وأبدى العديد من البارونات استيائهم للضرائب المتتالية التى فرضت عليهم ، ورفض رجال الدين بناءاً على أمر البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ – ١٣٠٣) دفـــع أيـــة ضرائب بدون إذن البابوية . أيضا شهد هذا الاجتماع استياء التجار للابتزازات الملكية المجحفة على تصديرهم للصوف ، حيـــث قدرت الضريبة المفروضة بحوالى أربعين شلن على كل جوال صوف ، والتى تعادل ثلث القيمة . (١)

---

(1) Lunt, Op.Cit., P.218 .

(1) *The chronicle of Bury St Edmunds*, p.138 ; Stubbs, *The constitution Hist, of England*, Vol. II, pp.160 , 161 ; Select charters, PP.482, 483 ; tout, Op.Cit., P.193 ; Smith, Op.Cit., p.119 ; Ashely, *Great Britain to 1688* (Michigan, 1961) P.124 .

وأثـــناء غياب إدوارد الأول فى القارة قام – البرلمان – بإعادة إعلان الماجنا كارتـــا ، والامتــيازات والحـــريات التى سبق وتعهد بها أسلافه ، وضرورة مراعاتها بـــدون أدنـــى انتهاك لأى من بنودها . واضطر الملك فى نوفمبر عام ١٢٩٨ للموافقة علـــى ما يعرف باسم إقرار العهد Confirmatio cartarum . والذى نص فى الفقرة السادســـة منه على " يتعهد الملك من الآن فصاعداً بعدم فرض أى إعانات أو ضرائب أو هـــبات إلا بالموافقة العامة لجميع المملكة ، وللصالح العام للمملكة فيما عدا الإعانات والضرائب الإقطاعية القديمة والمعتادة " (٢)

---

(٢)يتضمن المرسوم الملكى الخاص بإقرار العهد سبع بنود هى كالتالى :

أولاً : إدوارد ، بمباركة الرب ، ملك إنجلترا ، وسيد أيرلندا ، ودوق اكوتين ، إلى جميع الذين سوف يســمعون أو يـــرون هذا المرسوم ، التحيات ، أنكم تعلمون أننا بمباركة الرب والكنيسة المقدسة ، ولصـــالح جميع مملكتنا ، منحنا من أجلنا وأجل ورثتنا هذا العهد الأعظم للحريات ، وقانون الغابة charter of the forest ، اللتيـــن تـــم منحهما بالموافقة العامة لجميع المملكة فى عهد أبانا الملك هنرى . هذه العهود يجب أن تراعى فى كل بنودها بدون انتهاك ، وسوف نرسل هذه العهود موقعة بختمنا إلى قضاتنا ، وجميع حكام مقاطعاتنا ، وسائر نوابنا ، وكافة مدننا فى جميع أنحاء المملكة مع مراسيمنا التى تتضمن ذلك ، لكى يقوموا بإعلانها ، وأن يعلنوا للشعب أنه سوف يتم مراعاتها من جميع النواحى . وأن قضاتنا وحكام المقاطعات والموظفون ، والذين يقع على عاتقهم إدارة القانون فـــى مملكتنا سوف يضعوا هذه القوانين المذكورة نصب أعينهم فى الدفاع وإصدار الأحكام . ومن البديهى أن يكون كل من العهد الأعظم باعتباره القانون العام ، وقانون الغابة لصالح شعبنا .

ثانياً : أننا نتعهد إذا صدر أى حكم من الآن فصاعداً ، مخالفا لبنود العهود المذكورة ، من قبل قضاتنا أو أى شخص آخر من وزرائنا ، سوف يتم محاكمتهم بمقتضى بنود العهود السالفة ، وحينئذ يفقد منصبه وحيازته .

ثالثاً : سوف نقوم بإرسال هذه العهود الموقعة بختمنا لإيداعها فى الكنائس الكاتدرائية فى جميع أنحاء مملكتنا ، على أن تقرأ أمام الشعب مرتين فى العام .

رابعـــاً : يجـــب أن يعلن رؤساء الأساقفة والأساقفة عقوبة الحرمان الكنسى ضد جميع الذين يتسببون بـــالقول والفعل والمشورة ، فى انتهاك أو تجاوز أى من بنود العهود المشار إليها . وأن تعلن هذه العقوبـــات مرتيـــن فى العام ، وتذاع من خلال الكهنة المشار إليهم . وإذا حدث أن تهاون أى من رجال الدين هؤلاء فى الإدانة بالعقوبات السالفة ، حينئذ يكون رؤساء أساقفة كانتر برى ويورك – كما جرت العادة – هما الملائمين لتوجيه اللوم لهؤلاء ، وإرغامهم على الإذعان للإدانة .

وبالـــرغم من أن إدوارد الأول لم يراع تماما ما وعد به ، إلا أن أهمية أحداث عـــام ١٢٩٧ – فـــى ضوء المرسوم السابق – تؤكد بجلاء أنه تقرر من الآن فصاعدا عـــدم الموافقـــة علـــى مـــنح أيـــة ضـــرائب غير إقطاعية بدون موافقة ممثلى الطبقة المتوســـطة. وبالتالى تأكيد دعوة ممثلى هذه الطبقة لحضور اجتماعات المجلس الكبير للملـــك . وفـــى ضـــوء الـــثراء المالى لهذه الطبقة أصبحت موافقة ممثليها على منح الضـــرائب المفروضـــة عليهم من قبل الملك ، سلاحا يستخدم مقابل انتزاع الامتيازات والســـلطات المرغوبة من الملك . بيد أن دلائل ذلك لم تتضح فى عهد إدوارد الأول ،

خامســـاً : نظـــراً لخـــوف الكثيرين من شعبنا من الضرائب والإعانات التى كانت تقدم من أجلنا فى الماضى بشأن حروبنا والقضايا الأخرى . ويؤدونها عن طيب خاطر ، قد أصبحت عبئاً عليهم وعلى ورثتهم ، كما هو موجود فى السجلات . وعلى نفس النمط فإن الضرائب التى تؤخذ فى جميع أنحاء المملكـــة مـــن خـــلال وزرائنا ، ومنحت من أجلنا نحن وورثتنا ، ومن ثم فإننا سوف لا نجعل هذه الضـــرائب والإعانات تتحول إلى تقليد يحاكى أى شئ أتخذ فى الماضى ، وربما وجد فى السجل أو بأى أسلوب آخر .

سادساً : إضافة إلى ذلك فإننا نوافق باسمنا واسم ورثتنا ، أيضا لرؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ،وسائر رجال الكنيسة المقدسة ، وأيضا الأيرلات ، البارونات ، وجميع طوائف المملكة ، بأنه مـــن الآن فصاعدا سوف لا نتبع هذا الأسلوب فى الضرائب فى مملكتنا ، إلا بالموافقة العامة لجميع المملكة ، ومن أجل الصالح العام للمملكة ، فيما عدا الإعانات والضرائب الإقطاعية القديمة والمعتادة

سابعاً : حدث كثيراً أن معظم طوائف المملكة وجدوا أنفسهم يئنون من وطأة المكوس على الصوف ، لـــذا يـــبدو بديهيا فى ضوء ضريبة تقدر بحوالى أربعين شلن على كل جوال صوف أن يلتمسوا إلينا للتحرر من ذلك ، وإننا استجابة لالتماسهم سوف نحررهم من ذلك ، ونتعهد بعدم تكرار ذلك مستقبلاً ، أو أى شئ آخر بدون موافقتهم العامة ، وبإرادتهم ، فيما عدا ما كان يمنح لنا ورثتنا من مكوس على الصـــوف والجلود من قبل . ونصدق على ذلك من خلال خطاباتنا . وتم منح وإقرار ذلك فى chent فـــى الـــيوم الخامس من نوفمبر فى العام الخامس والعشرين من ولايتنا . هذا وقد اعتمدنا هنا على الترجمة الإنجليزية للنص اللاتينى كما ورد ذكرهما عند المؤرخ :

Stubbs, Select charters, p.490 – 493 ; *The chronicle of Bury St Edmunds*, pp.138, 139.

لتشـــهد القـــرون التالية إصرار الملكية الإنجليزية على ما هو أكثر من الدخل العادى ، وتطلع البرلمان لما هو أكثر من صلاحياته العادية .(١)

بـــيد أن عـــدم مراعاة إدوارد الأول لمرسوم عام ١٢٩٧ (٢)، يجب تفسيره فى ضـــوء الوضع السياسى للملكية الإنجليزية من جهة ، والعلاقات بين الملكية الإنجليزية والـــبابوية فـــى العقد الأخير من حكم إدوارد الأول من جهة أخرى . فقد انغمس الملك فـــى رحـــى الحـــرب مع الملك الفرنسى فيليب الرابع بسبب الممتلكات الإنجليزية فى فرنســـا ، والمتاعـــب الـــناجمة عن العرش الاسكتلندى بعد عام ١٢٩٠ ، وحث البابا بونـــيفاس الثامـــن الملكيـــن المتنازعيـــن علـــى قبول وساطته ، من منطلق أيدلوجيته بضرورة سمو السلطة الروحية على السلطة الدنيوية ، فى صيغة مشددة لم تستخدم من قـــبل أى بابـــا آخر منذ بابوية انوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) . ورفض الملكين قـــبول وســـاطته . وفـــى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٢٩٦ أعلن البابا بونيفاس الثامـــن مرســـومة الشهير clericis laicos ، الذى نص على منع رجال الدين فى أى مكـــان مـــن دفـــع أى ضرائب عن إيراداتهم الكنسية للحكام العلمانيين بدون موافـــقة البابوية (٣)

وصـــادف هـــذا التحريم البابوى ترحيباً من رجال الدين الإنجليز الذين يئنون آنذاك تحت وطأة الضرائب المتتالية على مدى السنوات الثلاث الماضية . وتحت قيادة رئـــيس أســـاقفة كانـــتر برى الذى أعلن للملك استحالة تجاهل الأمر البابوى ، رفضوا

---

(1) Smith, Op.Cit., pp.119, 120 ; Lunt, Op.Cit., p.219 .

(٢) من الجدير بالذكر أن إدوارد الأول قد حنث بهذا المرسوم أكثر من مرة . لذا فقد تم أقرار التأكيد النهائى على هذا المرسوم فى البرلمان الذى عقد فى لنكولن Lincoln فى الرابع عشر من فبراير عام ١٣٠١ . لمزيد من التفاصيل أنظر :

The chronicle of Bury St. Edmunds, pp.140, 141 ; Stubbs, Select charters, pp.490, 495; The Constitutional Hist of England, Vol. II, p.163

(3) John Capgrave, Op.Cit, pp.170, 171 ; Stubbs, Select, Charters, p.483 ; Smith, Op.Cit., p.121, Powicke, Op.Cit., p.320 .

ولمزيد من التفاصيل حول مشكلة العرش الاسكتلندى انظر :

Capgrave, Op.Cit., p. 171 ;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ ، حاشية رقم (٣)

الإذعـــان للمطالب الملكية بدفع نسبة الخمس من إيراداتهم استنادا للمرسوم البابوى عام ١٢٩٦ . وأعلـــنوا أنهـــم يديـــنون بالطاعة للسلطتين الملكية والبابوية ، ولكنهم يدينون بالطاعـــة أكـــثر للسلطة الروحية . وفى فرنسا منع الملك الفرنسي فيليب الرابع خروج الأموال من المملكة بدون الموافقة الملكية . وفى إنجلترا اعتبر إدوارد الأول معارضيه مـــن رجال الدين مارقين عن القانون ، ووضعهم خارج حماية المحاكم الملكية والقانون العلمـــانى . ممـــا اضـــطر معظم رجال الدين للإذعان للملك بدفع ضريبة الخمس التى ســـبق أن طالب بها . فى حين تمت مصادرة أموال الذين رفضوا دفع هذه الضريبة . واضـــطر الـــبابا بونـــيفاس الثامن بتأثير معارضة ملكى فرنسا وإنجلترا للتراجع عن مرسومه المتشدد ، بتعديل بنوده ، حين سمح لرجال الدين بتقديم الهبات للملك بدلاً من الضـــرائب . بل وإلغاء مرسوم عام ١٢٩٦ تماما فى غضون عام تقريبا . وأسفر هذا الـــنزاع بيـــن رجـــال الدين والملك بصدد الضرائب الملكية ، عن انضمام رجال الدين لجانـــب المعارضـــة البارونية فى الصراع من أجل تأكيد القوانين ، لينتهى النزاع بين الملـــك ومعارضـــيه بالانتصار التام للملك والبابوية ، حين أعلن للبابا كليمنت الخامس Clement V (١٣٠٥-١٣١٣) فـــور ارتقائه الكرسى الرسولى تبرئة إدوارد الأول مـــن القســـم الـــذى اتخـــذه بشـــأن إقـــرار القوانيـــن عام ١٢٩٧ ، وإعفاء وينشيلسى Winchelsey رئيس أساقفة كانتر برى من منصبه باعتباره مسئولا بدرجة كبيرة عن إثـــارة المعارضة الكهنوتية والبارونية ضد الملك عام ١٢٩٧ . وأمر البابا رجال الدين الإنجلـــيز بـــأن يدفعـــوا للملـــك ضريبة بنسبة العشر لمدة سبع سنوات . وتعبيراً عن الامتـــنان سمح إدوارد الأول للبابا بفرض ضريبة جديدة على رجال الدين الإنجليز فى الجـــزر البريطانـــية لمـــدة ثـــلاث سنوات ، ليجد رجال الدين أنفسهم بين شقى رحى الاحتياجات المالية للبابوية والملكية . (١)

(1) *The Chronicle of Bury St. Edmunds*, pp.151-154 ; Stubbs, *The constitution Hist. of England*, Vol. II, pp.165-166 ; *Select charters*, p.489 ; Smith, Op.Cit.. p.122. Lunt, Op.Cit., p.221 ; Feiling, Op.Cit., pp.183, 184 .

ويـــأبى عهـــد إدوارد الأول أن يأذن بالمغيب قبل أن يشهد إزاحة الستار عن ارتفـــاع صـــيحة العـــداء الشعبى من جانب العلمانيين والكنسيين على السياسة المالية للبابوية . وفى الاجتماع الذى عقد عام ١٣٠٧، والذى اصطلح المؤرخون على تسميته باســـم بـــرلمان كارســـيل Carsile . ناشـــد المجـــتمعون مـــن البارونات والفرسان والـــبرجوازية الملك لوضع نهاية للتجاوزات المالية للبابوية ، ومنع الجابى البابوى وليم تيســـتا William Testa ، الـــذى اســـتدعى للمثول أمام المجتمعين ، من جباية أى ضـــرائب أخرى يأمر بها البابا . وبعد انتهاء هذا البرلمان قام الملك من منطلق التزامه باتفاقـــه الســـابق مع البابا كليمنت الخامس بإلغاء قرار المجتمعين بصدد منع الضريبة الـــتى فرضت من قبل هذا البابا، وموافقة الملك على فرض ضريبة جديدة على رجال الديـــن فـــى الجـــزر البريطانـــية . والـــتى عرفـــت باسم Annates أى الملحقات أو الإضافات، وساند بشدة قرار المجتمعين من البارونات والايرلات ورجال الدين وسائر طوائـــف المملكـــة ، وبشأن عدم جباية أى أموال أخرى لم تكن تؤدى فى الماضى إلى روما . (١)

لا مراء أن هذا القرار كان له أكبر الأثر فى وقف الابتزازات المالية البابوية، الـــتى استمرت بدون انقطاع لمدة تربو عن نصف قرن ، لذا يعتبر علامة بارزة ونقطة تحـــول مهمـــة فى تطور المعارضة الشعبية الإنجليزية تجاه السياسة المالية للبابوية ، وبدايـــة لسلسلة من القوانين الهامة المضادة للبابوية ، التى شرعت بواسطة – البرلمان – أثـــناء القرن الرابع عشر ، هذا القرن الذى شهد نهاية الزعامة البابوية فى العصور الوســـطى ، حيـــث اتخـــذ البابا مأواه فى أفينون Avignon بفرنسا لفترة امتدت زهاء سبعون عاماً فيما اصطلح على تسميته الأسر البابوى . (٢)

---

(1) Stubbs, *The Constitutional His. of England,* Vol. II, p.170 ; Smith, Op.Cit., p.122 ; Lunt, Op.Cit., P.222 ;

ولمزيد من التفاصيل عن هذا البرلمان انظر الدراسة التحليلية التى قام بها كل من :

Richardson & Sayles " The parliament of Garlisle, 1307- some New Documents " in *E. H. R.*, Vol. LIII, 1938, PP.425-437 .

(2) Smith, Op.Cit., p.122, Lunt, Op.Cit., p.222 ; Green, Op.Cit., p.166 ; Asheley, Op.Cit., p.125 .

وفـــى نهايـــة هذا العرض للغوص فى أعماق جذور فكرة البرلمان الإنجليزى مـــنذ الـــتاريخ الـــباكر للملكـــية الأنجلونورمانـــية حتى الاجتماع الكبير أو ما اصطلح المؤرخـــون علـــى تسميته باسم البرلمان النموذجى عام ١٢٩٥ . على مدى هذه الفترة الـــتى شـــهدت إرساء اللبنة الأولى فى تكوين البرلمان الإنجليزى ، نقول أنه فى ضوء الفكـــر السياســـى للملكـــية الإنجلـــيزية ، فإن فكرة دعوة ممثلين عن الطبقة المتوسطة لحضـــور اجتماع المجلس الكبير للملك جاءت ملائمة لخدمة المصالح الملكية أكثر من الـــرعايا . فقد وجد النواب أنفسهم يتكبدون رحلات مضنية وباهظة التكاليف لحضور اجـــتماع الملـــك فى قصر ويستمنيستر . فقد قدرت نفقات تمويل رحلة ممثلى الفرسان والـــبرجوازية ، بما يعادل اثنين شلن يوميا للنائب عن المدينة ، وأربعة شلن للفارس . ومـــن ثم ليس ثمة غرابة أن تبذل المدن محاولات يائسة للتخلص من عبء الحضور ، فـــى عصـــر شهد سوء وسائل المواصلات سواء كانت برية أو نهرية أو بحرية ، فقد أصـــرت بعض المدن على عدم إبلاغ حاكم المقاطعة بأسماء مرشحيها ، وقام البعض الآخـــر بشراء قوانين للإعفاء من هذا الامتياز المضنى . مما يعنى أن حضور ممثلى المـــدن كـــان يشكل عبئا ثقيلاً عليهم وعلى المدن التى أرسلتهم . علاوة على ذلك فإن مســـألة اختـــيار ممثلى هذه الطبقة والتى تتم فى محكمة المقاطعة ، إنما تقع على عاتق حكـــام المقاطعـــات ، الذيـــن يحسمون الانتخاب عادة لصالح مرشحيهم . فى حين لم تشـــارك جمـــوع الســـكان ســـوى بدور ضئيل فى اختيار مرشحيها من خلال قلة من الشخصيات البارزة المفوضين لهذا الغرض .[1]

ويذكـــر المـــؤرخ ريتشـــارد جرين Richard Green أن منح ممثلى المدن للضـــرائب فـــى المجلـــس الكبير – البرلمان فيما بعد – أثبت دوماً أنه أكثر فائدة من الابـــتزازات الســـابقة لمندوبى الخزانة ، وإذا ما أنست المدن فى نفسها قوة وأظهرت تـــردداً فـــى مســـاندتها العامـــة للتاج ، كان الملك لهم بالمرصاد ، إذ كان من السهل الســـيطرة عليهم ، لا سيما وأن اختيار المدن التى تمثل فى المجلس بقى كلية فى أيدى الملـــك ، ومن ثم فإن إعداد ممثلى المدن من الممكن أن تزداد أو تتضاءل حسب مشيئة

(1) Green, Op.Cit., P.166 .

الملك . الذى يترك تحديد ذلك لحاكم المقاطعة . ولعل أبرز الأمثلة على ذلك أنه بإيعاز مـن المجلس الملكى قام حاكم مقاطعة Willts بتخفيض عدد ممثلى المدن الواقعة فى مقاطعـته من أحد عشر إلى ثلاثة فقط . بيد أن هذه الممارسة لم تستطع عرقلة امتياز التمثـيل النيابى للطبقة المتوسطة وتحديداً المدن فى المجلس الكبير ، فى ضوء حرص بعض المدن على الاحتفاظ بهذا الحق . (١)

ونظـراً للاحتـياجات المالـية الملحـة للتاج بدت الإجراءات القانونية أمراً ضـرورياً لضمان حضورهم فقد ورد فى أحد المراسيم " أن تقدم ثمانية ثيران وأربعة جياد مدربة أمام الملك فى يوم محدد ، ضمانا لحضورهم البرلمان . "(٢)

---

(1) Loc. Cit.
(2) Ibid., P.167 .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأوربية :

Annales Londoninses ;
Chronicles of Reigns of Edward I and Edward II, Vol. I (ed.) W. Stubbs in Rolles Series, London, 1881.

The chronicle of Bury St. Edmunds 1212-1301 (ed.) by Antonia Gransden. London. 1964 .

Edward I. , King of England .
Confirmatio chartarum . A. D. 1298.
Summons of Knights and Burgesses, A. D. 1275.
Grant of Custom on Wool, Wollfells and leather. A. D 1275 .

Henry I. King of England .
Charter of Henry I to the citizens of London .
Charter of Liberties Issued by Henry I.

Henry II., King of England .
Assisa de clarenduns facta a rege Henrico scilicet secound, A. D. 1166 .
Charters of Boroughs granted by Henry II .

Henry III., King of England .
Charters of Towns granted by Henry III.
Second charter of Henry III, A. D. 1217 .

Writ for Summong of four Knights of the shire . A. D. 1226 .

John ., King of England.
Charters of Towns granted by John.

Great charter of liberites 1215 .

كل هذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق الوارد ذكرها عند :

Stubbs, Select charters, Oxford, 1921 .

John Capgrave.,
The chronicle of England, London, 1858 .

Matthew Paris.,
English History From the year 1235 to 1273, London, 1858.

Richard I., King of England.
Charters of Towns, in Stubbs (ed.) Op. Cit.

William of Newburgh,
Historia Rerum Anglicarum, in chroniches of the Reigns of stephen, Henry II and Richard, ed. R. Howlett, 2 Vols, Rolles series, 1884, 1885 .

William I., King of England,
Ordinance of William Separating the Spirtual and Temporal courts 1070, in Stubbs (ed.) Op. Cit.

ثانياً : قائمة المراجع الأوربية :

Adams, G. B ;
The political History of England : from the Norman conquest to the Death of John 1066-1216, New York and Bombay, 1905.

Ashley, M. ;
Great Britain to 1688, Michigan, 1961 .

Dietz ; F. G. ;
Apolitical and Social History of England, New York, 1937.

Feiling, K. ;
A History of England : From the coming of the English to 1938, London, 1948 .

Green, J. R. ;
A short History of the English people, 2 Vols, London, 1960.

Hall, W. P. & Albion, R. G.;
A History of England and the British Empire, London, 1946.

Haskins, G. M.;
" The petitions of Representatives in the parliaments of Edward I. " E. H.R, Vol. L III, NO.CCIX – January 1938, PP. A. – 20 .

Hume, D. ;
The History of England : from the Invasion of Julius Gaesar to the Revolution of 1688, London, 1836.

Lloyd , H. R.;
The Norman conquest, London, 1967 .

Lunt, W. E.;
A History of England, London, 1928 .

Powicke, F. M.;
The Thirteenth century 1216-1307, Oxford, 1962.

Richardson, H. G. & Sayles, G. O.;
" The parliament of Garlisle, 1307- some New Documents " in E. H. R, Vol. L.III, 1938, PP. 425-437.

Richardson, H. G;
" Henry Is charter to London " E. H. R, Vol. XLII, Vo. 165, January, 1977, PP. 80-87 .

Smith, Goldwin ;
A History of England, New York, 1966 .

Stenton, D. M. ;
English society in the Early Middle Ages 1066-1307, Penguin, 1959.

Stubbs, W.;
The constitutional History of England, 3 Vol. Oxford, 1873 .

-Select charters and other Illustrations of English constitutional History from the Earliest times to the Reign of Edward the first, Oxford, 1921 .

Tout, T. F.;
An Advanced History of Great Britain, London, 1912,

Traill, H. D. & Mann, J. S; (eds.)
Social England : A Record of the progress of the people from the Earliest times to the present Day, London, 1979 .

Vickers, K. H. ;
- England in the later Middle Ages, London, 1926.

Warren, W. L.;
King John, London, 1878 .

Willson, D. H.;
A History of England, London, 1972 .

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة :

جوزيف نسيم يوسف : (دكتور) :
نشـــأة الجامعـــات فى العصور الوسطى ، الإسكندرية ، ١٩٧١ .

زينب عبد المجيد : (دكتورة) :
الإنجليز والحروب الصليبية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبقة الأولى ، ١٩٩٦ .

راوس: (ل.)
الـــتاريخ الإنجليزى ، ت محمد مصطفى زيادة ، مكتبة

النهضة المصرية ١٩٤٦ .
سعداوى : (دكتور) :
تـــاريخ إنجلـــترا وحضـــارتها فـــى العصـــور القديمة والوسطى ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٨.
سعيد عاشور : (دكتور) :
الجامعـــات الأوربـــية فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
أوربـــا العصور الوسطى ، جـــ١ ، التاريخ السياسى ، الطبعة السادسة، ١٩٧٨ .
كانتور : (نورمان. ف.) :
الـــتاريخ الوسيط ، جزءان ، ت قاسم عبده قاسم ، عين للدراســـات والـــبحوث الإنسانية والاجتماعية . الطبعة الخامسة ، ١٩٩٧ .
موريس كين :
حضـــارة أوربـــا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عـــبده قاســـم ، عيـــن للدراســـات والـــبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبقة الأولى ، ١٩٩٤ .

عروض زواج العرائس في البلاط البيزنطي

(٧٨٨ – ٨٨٢م)

الدلالات السياسية والدينية

عبد العزيز رمضان

مصـــــر

شـــهد البلاط البيزنطي منذ أواخر القرن الثامن وطوال القرن التاسع الميلاديين تقلـيداً فـريداً من نوعه، كان نصيبه من التكرار خمس مرات فحسب، تمثل في إجراء عــروض شـــاركت فيها فتيات جميلات جلبن من شتي أنحاء الإمبراطورية، وحظيت الفائزة منهن بشرف الزواج من وريث العرش الإمبراطوري.

ولأن هــذا التقلــيد يتسم بالطرفة والتفرد في آن واحد، فقد استرعى انتباه عدد مـــن الباحثيـــن المحدثين الذين أقبلوا علي تناوله بالبحث والدراسة، واختلفوا فيما بينهم حـــول مدي مصداقيته من الناحية التاريخية، ففي حين اعتبره البعض[١] واقعاً تاريخياً لا يقـــبل الشـــك مدلليـــن علي ذلك بأنه ورد في عدد من المصادر البيزنطية المعاصرة، تناوـــله البعض الآخر[٢] علي أنه مجرد إبداع أدبي صرف لا يرقي إلي مستوي الحقيقة التاريخية معتمدين في رأيهم هذا علي أن أغلب المصادر التي أوردته سير قديسين.

وهذه الدراسة مجرد محاولة لتحديد تاريخية ذلك التقليد من خلال مصادر هذه الفـــترة لاســـتجلاء أســـبابه ودلالاته السياسية والدينية، وهو الأمر الذي لم يتطرق إليه الدارسون الذين تناولوا هذا الموضوع بالبحث[٣].

---

١ Treadgold, W.T., "Bride-Shows of the Byzantine Emperors," *B*, 49 (1979) 395-413; Garland, L.,. *Byzantine Empresses:Women and power in Byzantium AD.527-1204*, New york, 1999, 73, 80-1, 90, 96.

٢ Rydén, L.," The Bride-Shows at the Byzantine Court: History or Fiction", ***Eranos***, 83 (1985), 175 – 91; Speck, P., *Kaiser Konstantin VI*, 2vols, Munich, 1978, I, 203 – 8.

٣ ركـــز تريدجولد في بحثه "عروض عرائس الأباطرة البيزنطيين" علي الآثار السياسية التي نتجت عن فشل الـــزيجات الـــناجمة عن هذه العروض،بينما عرضت جرلاند للموضوع في سياق كتابها "المراة والسلطة في بيزنطة" دون الخوض في تفصيلاته.

وكــان أول هــذه العروض في عهد الإمبراطورة إيريني Irene، وتحديداً في منتصــف عــام ٧٨٨م، ويحدثنا عنه كل من الراهب ثيوفانيس Theophanes وكاتب ســيرة القديـــس فيلاريتوس المعطاء St. Philaretus the Almsgiver،[٤] حيث يشير ثيوفانـــيس إلـــي أن الإمـــبراطورة إيرينـــي أرســلت وفــداً مــن القضـــاة برئاســـة البروتوســـباثاريوس ثيوفانيس Theophanes protospatharios للبحث عن عروس تلـــيق بأبنها قسطنطين السادس (٧٨٠ – ٧٩٧م) Constantine VI الذي كان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره[٥].

ويستكمل كاتب سيرة القديس فيلاريتوس القصة، فيخبرنا بأن القضاة بحثوا في كافـــة أنحـــاء الإمـــبراطورية، جـــنوباً وشـــمالاً وغرباً، دون أن يجدوا فتيات يناسبن الإمـــبراطور الشـــاب، فواصلوا رحلتهم الى شرق الإمبراطورية حتي بلغوا بلدة أمنيا Amnia وفـــيها أســـتهل القضـــاة عملية البحث بقصر قديم وكبير لنبيل محلي يدعي فيلاريـــتوس، كان قد أنفق ثروته في التصدق علي الفقراء، ورغم أن أهل البلدة حاولوا لفـــت أنظار القضاة إلي فقره، إلا أنهم ظنوا أن تلك مجرد إشاعة روجت لإبعادهم عن الإقامـــة في قصره وعلي نفقته، وتلقاهم فيلاريتوس بترحاب بالغ، ولم يبخل عليهم بما اتيح له من كرم الضيافة، وساعده في ذلك كبار رجال البلدة.

ويواصل كاتب السيرة حديثه، فيخبرنا بأن القضاة سألوا فيلاريتوس عن بناته، فأخـــبرهم بأنه غير مسموح لهن بمغادرة حجراتهن، وتحت إلحاح شديد منهم سمح لهم فيلاريـــتوس برؤيتهن داخل حجراتهن الخاصة، وعندما وقعت أعين القضاة علي بناته وحفـــيداته لـــم يتمكنوا من تمييز حفيداته عن أمهاتهن لفرط جمالهن الذي بهر الجميع، ولمـــا كانـــت البـــنات قد تزوجن بالفعل، فقد تحول القضاة نحو حفيداته الثلاث ماريا

---

[٤] كاتـــب هـــذه الســـيرة هو نيقتاس الأمني، ابن شقيق القديس فيلاريتوس، وكتبها في حوالي عام ٨٢١ م أو ٨٢٢ م.انظر

La vie de S. Philarète, ed. et trad. Franc. M .H. Fourmy & M. Leroy, *B*, 9(1934), 85-107, esp 98; Rydén, L. , "The Revised Version of the Life of St. Philaretos the Merciful" and the "Life of St. Andreas Salos", ***Analecta Bollandiana***, 100 (1982), 485-95,esp.485.

[٥] Theophanes, *Chronographia*, trans. H. Turtledove, Philadelphia, 1982, 147.

Maria وميرانثـيا Myranthia ويؤنثيا Euanthia، وبعد أن أخضعوهن لاختبارات أعــدت ســلفا[٦]، وجــدوا أنهــن جميعاً مؤهلات للمشاركة في العرض النهائي بالقصر الإمبراطوري، فاصطحبوهن مع كافة أفراد أسرة فيلاريتوس إلي القسطنطينية.

ويســتطرد كاتب السيرة حديثه مشيراً إلي أن القضاة صادفوا توفيقاً في العثور علــي فتــيات أخريات تنطبق عليهن الشروط والصفات المؤهلة للمشاركة في العرض الإمــبراطوري، وكانــت بينهــن فــتاة ثــرية وجميلة ذكرت بأسم "ابنة جيرونتيانوس Gerontianus"، التــي رفضــت بــازدراء اقتراح ماريا حفيدة فيلاريتوس بعقد اتفاق ودي بين المتنافسات، قائلة "طالما أنني الأكثر ثراءً والأسمي نسباً والأفضل هيئة، فمن المؤكد أنني الفائزة".

وفــي الــبلاط الإمــبراطوري، تقدمت ابنة جيرونتيانوس جميع المرشحات، وحيــنما رآها الإمبراطور ووالدته قالا لها: "إنك رائعة الحسن والجمال، غير أن تأنقك يــدل علي أنك لن تعني بأمر الإمبراطور"، ثم قدما لها الهدايا، ونحوها جانباً، وبعد أن فعلــوا ذلك مع الأخريات، الواحدة تلو الأخرى، جاءت حفيدات فيلاريتوس في النهاية، وعــندما وقعــت أعين الإمبراطور ووالدته عليهن، خلبوا بجمالهن ورشاقتهن، فخطب الإمبراطور الفتاة الكبري ماريا[٧].

علــي هــذا الــنحو يسرد كاتب سيره القديس فيلاريتوس قصة أول عروض العــرائس الإمبراطورية، ويتفق مع ثيوفانيس في أنه جاء نتيجة رغبة الإمبراطورة الأم

---

٦ يذكر كاتب السيرة أن هذه الاختبارات ركزت في المقام الأول علي المقاييس المثالية لدرجة الجمال وهي طول القامة ومقاس الخصر والقدمين، دون الإشارة إلي آية صفات أخري تتعلق بالأخلاق أو التدين.

٧ *S.Philarete*, 135 43; Garland, *Women and Power*, 81; Treadgold, *Bride- Shows*, 398-9; Kazhdan, A.,& Sherry, L. F., " The Tale of a Happy Fool : The Vita of St.Philaretos the Merciful (BHG 1511z- 1512b) ",*B*, 66/2 (1996), 351-62,esp.355-7.

ويري كجدان وشيري أن قصة ماريا في هذا العرض تشابه إلي حد بعيد قصة سندريلا الفلكلورية، حقيقة أن ماريا لم تتعرض لاضطهاد زوجة أب شريرة، غير أن حسن حظها وجمالها وانبهار الإمبراطور بها كان عاملاً حاسماً في اختيارها.

Kazhdan & Sherry, *Happy Fool*, 355.

إيرينـــي في تزويج ابنها قسطنطين السادس، وأن جمال العروس كان العامل الأساسي في اختيارها، ولكن هل تبدو المسألة بهذه البساطة حقاً؟.

تتجه جرلاند Garland إلي أن إيريني استحدثت هذا التقليد لاستخدامه كوسيلة دعايـــة لنظامها الحاكم، أو ربما لأن إيريني نفسها أختيرت من قبل عن طريق عرض مشابه عند زواجها من الإمبراطور ليو الرابع (٧٧٥ – ٧٨٠م) Leo IV[٨]، بينما يعتقد تـــريدجولد Treadgold أن إيرينـــي أقدمـــت علي ذلك لحفظ ماء وجه الهيبة والكرامة الإمـــبراطورية بعـــد أن سحب ملك الفرنجة شارلمان Charlemagne وعده بتزويج إبنـــته روتـــرود Rotrud مـــن قسطنطين السادس، ولتؤكد أن ابنها يمكنه الزواج من أجمل جميلات الإمبراطورية دون الحاجة إلي البرابرة الفرنجة[٩]، ويدلل تريدجولد علي صـــحة رأيـــه برواية إينهارد Einhard كاتب سيرة شارلمان، التي تشير إلي أن ملك الفـــرنجة قـــرر فـــي منتصـــف سنة ٨٨٧م سحب وعده بتزويج إبنته من الإمبراطور البيزنطي[١٠].

وربمـــا يكـــون من الأصوب أن ننظر إلي الأمر من زاوية أخري، فالمتصفح لسياسة الإمبراطورة إيريني وشخصيتها، يدرك من الوهلة الأولي أنه أمام امرأة بهرها بـــريق العـــرش الإمبراطوري وملك عليها كل حواسها، فأرادت منذ اللحظة الأولي أن

---

٨ Garland, *Women and Power*, 73, 81.

تعتمد جرلاند في إفتراضها الثاني علي أنه لا توجد أسباب واضحة لاختيار إيريني كعروس للإمبراطور ليو الرابع، حيث كانت فتاة يتيمة تنتمي إلي أسرة سارنتابيخوس الأثينية غير المشهورة، ولكنها في الوقت ذاته تؤكد علي عدم وجود دليل دامغ علي مشاركة إيريني في مثل هذا النوع من العروض

٩ Treadgold, *Bride- Shows*, 396-7.

١٠ اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة. عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٨ م، ص١٢٠، ١٢٢-١٢٣.

ويذكر اينهارد أن سبب عدم إتمام شارلمان هذه الزيجة هو تعلقه الشديد ببناته إلي الدرجة التي جعلته لا يستطيع أن يؤدي عملاً من الأعمال إلا إذا كن في صحبته، ففرض عليهن التزام القصر وحرم عليهن مغادرته، كما أنه لم يجز لهن الزواج.انظر كذلك السيد الباز العريني، اينهارت، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٢١-٢٢.

تفـــرض علـــي ابـــنها نوع من الوصاية الدائمة، فيكون طوع أمرها، بحيث يخلص لها العـــرش وتغـــدو صاحبة الكلمة الأولي والأخيرة في شئون الحكم، امرأة لم تتردد في ســـمل عينـــي ولدها حينما استشعرت منه خطراً يهدد بقائها علي سدة الحكم[11]، إمرأة بهـــذه الشاكلة هل كان من المتوقع أن تقبل بزواج ولدها من ابنة أقوي ملوك أوروبا في ذلك الحين؟

تشـــير أكـــثر الشواهد إلي أن إيريني لم تكن راغبة في إتمام مثل هذه الزيجة، وحتـــي إذا كـــان إيـــنهارد صـــادقاً في روايته، وأن شارلمان هو الذي تنصل من ذلك الأمـــر، فالـــراجح أن إيرينـــي كانت سعيدة بذلك، بل وربما تنفست الصعداء، فراحت تبحـــث عن عروس تناسب ولدها وطموحاتها السياسية في آن واحد، عروس لا تشكل أدنـــي خطـــر أو تهديـــد مـــن ذلـــك الـــنوع الذي كان من المحتمل أن تشكله الأميرة الفرنجـــية[12]، بـــل ربما كان ثيوفانيس الأكثر مصداقية من إينهارد حينما أشار إلي أن رفـــض إتمـــام هذه الزيجة جاء من جانب إيريني نفسها، خاصة وأنه يقرن ذلك بقرار الإمبراطورة تزويج ابنها من ماريا حفيدة فيلاريتوس، ويؤكد علي أن هذه الزيجة تمت بضـــغط مـــنها وضد رغبة الإمبراطور الشاب الذي كان مغرماً بابنة شارلمان[13]، وهو

---

١١ عن سياسة وشخصية الإمبراطورة إيريني. انظر علية الجنزوري، الإمبراطورة إيرين، القاهرة، ١٩٨١م
Barbe, D., *Irène de Byzance : la femme empereur*, Paris, 1990.

١٢ يـــري بعض الباحثين أنه كان للبابوية دوراً في فشل هذه الزيجة، وأنها إذا كانت قد باركت خطي إيريني في سياستها المتحمسة لعبادة الأيقونات، والتي تجلت في مجمع نيقية عام ٧٨٧م، فقد ساورتها المخاوف من النتائج التي تترتب علي التحالف بين بلاطي بيزنطة وآخن، انظر، عفاف صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية زمن شارلمان، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٩٥-٩٦. ويتفق الباحث مع وجهة نظر الأستاذتين علية الجنزوري وعفاف صبرة حول أسباب فشل هذه الزيجة، حيث تقول الدكتورة علية الجنزوري: "ثمة رأي نرجح كفته عن سبب فسخ إيريـــي لخطـــبة أبنها من أبنة شارل ملك الفرنجة، وهو أنها خافت أن يصبح قسطنطين السادس ووالد زوجته شـــارل قوة تنتزع منها صولجان الحكم، وأن يتمكن قسطنطين بمساعدته من اعتلاء منصة الحكم بمفرده، اما الدكـــتورة عفاف صبرة فتقول: "فكرت ايرين في إلغاء مشروع زواج أبنها من أبنة شارلمان وذلك لخوفها من اتحاد قوة شارلمان مع ابنها الذي بلغ سن الرشد وأصبح من حقه أن يحكم، ولم تكن عنده أي نوايا للتنازل عن الحكـــم، فـــإذا مـــا تـــم زواجه من أبنة شارلمان فسيؤدي ذلك إلي تقوية مركز أبنها علي حسابها. "انظر علية الجنزوري، ايرين، ص٣٠؛عفاف صبرة، الإمبراطوريتان، ص٩٥.

١٣ *Theophanes*, 147-48.

الأمــر الذي أكده كاتب سيرة الإمبراطورة إيريني حينما أشار إلي أنها بنفسها هي التي اختارت العروس من بين الفتيات الأخريات[١٤].

وهكــذا كان العرض الذي أقامته الإمبراطورة إيريني لتزويج ابنها سابقة سار علــي نهجهــا عــدد ممــن قدر لهم الجلوس علي العرش البيزنطي بعدها، إذ أنه بعد الإطاحة بها سنة ٨٠٢م علي يد وزير ماليتها نقفور الأول Nicphorus I، أقام الأخير ثانــي عــرض عرائس إمبراطوري معروف لتزويج ابنه ووريث عرشه ستوراقيوس Stauracius، ومصــدرنا الوحــيد عن هذا العرض هو ثيوفانيس، الذي يخبرنا بقصته قائلاً:

"بعــد أن قــام نقفــور ببحث واسع النطاق شمل كافة أراضي الإمبراطورية الواقعــة تحت سلطته لإختيار الفتيات اللاتي يصلحن للزواج من ابنه ستوراقيوس، وقع إختــياره علــي ثيوفانو الأثينية Theophano of Athens التي ترتبط بصلة القرابة بالإمــبراطورة القديســة إيريني، ورغم أنها كانت مخطوبة فعلاً لأخر غيره، وشاركته الفــراش مــرات عديدة، إلا أن نقفور لم يأبه بذلك، ففصلها عنه وزوجها لابنه محطماً بذلــك وبشــكل مخــز كل القوانين والأعراف، ولم يكتف بذلك، بل تخير لنفسه فتاتين أخريتين أكثر جمالاً، وأنغمس معهن في الفسق طوال أيام الزفاف، جالباً بتصرفاته تلك سخرية واشمئزاز الجميع[١٥]".

ورغم ما يبدو واضحاً في رواية ثيوفانيس من تحامل شديد علي نقفور، إلا أن مــا يعنينا منها هو البحث عن دافع نقفور الحقيقي من وراء إجراء هذا العرض، وهو بالطــبع لــم يكن الإعزاز لذكري إيريني أو الاعتزاز بتقليد استحدثته، وثيوفانيس نفسه يقــدم لــنا ذلــك الدافع عندما أشار – بصورة متعمدة – إلي أن العروس الفائزة ترتبط بصلة قرابة للإمبراطورة إيريني، وهو أمر ربما كان يمثل أهمية قصوى لنقفور، الذي أدرك أن فــي نظــر البيزنطييــن مجرد مغتصب للعرش الإمبراطوري، والأسوأ أنه

---

١٤ Halkin, F., "Le vie de l'impératrice sainte Irene", *Analecta Bollandiana*, 106 (1988), 5-27, esp. 16; Treadgold, W. T., "The Unpublished Saints' Life of the Empress Irene", *BF*, 7 (1982), 237-51.

١٥ *Theophanes*, 164.

اغتصبه من الإمبراطورة إيريني التي تمتعت بشعبية جارفة بسبب مواقفها المعادية للحركة اللأيقونية، والتي دفعت الكنيسة البيزنطية إلي تبجيلها ورفعها إلي مصاف القديسات[١٦]، ولاشك في أن نقفور كان يعلم مقدماً أن ثيوفانو تنتمي إلي أسرة الإمبراطورة إيريني، وأنه كان حريصاً أشد الحرص علي تدعيم وجود أسرته الحاكمة وإضفاء الشرعية عليها من خلال ربطها بصلة النسب مع أسرة الإمبراطورة السابقة[١٧].

أما عن ثالث هذه العروض فقد أقيم في عام ٨٣٠م بعد وفاة الإمبراطور ميخائيل الثاني (٨٢٠ – ٨٢٩م) Michael II حيث قررت زوجته يوفروسيني Euphrosyne – إبنة قسطنطين السادس من ماريا الأمنية التي فازت بأول عرض عرائس إمبراطوري – إجراء مسابقة لتزويج ابن زوجها ثيوفيلوس (٨٢٩ – ٨٤٢م) Theophilos الذي كان قد بلغ السابعة عشر من عمره، مواصلة بذلك التقليد الذي بواسطته إقترنت أمها بأبيها، ومصدرنا عن قصة هذا العرض هو الكاتب الحولي سيميون اللغثيت[١٨] Symeon the Logothete، الذي يخبرنا بها قائلاً:

"لقد أرسلت – يوفروسيني – مبعوثيها إلي شتي بقاع الإمبراطورية لاختيار الفتيات الجميلات من أجل تزويج ابنها ثيوفيلوس، ورافقت المرشحات بنفسها إلي القصر الإمبراطوري، ثم أعطت ثيوفيلوس تفاحة ذهبية قائلة له "امنحها لمن تروق لك"، وكان من بين الفتيات الجميلات واحدة رائعة الجمال تدعي كاسيا Kassia، فتن ثيوفيلوس بجمالها وهيئتها، فخاطبها قائلاً "من خلال المرأة جلبت الشرور علي

---

١٦ عن سياسة الإمبراطورة إيرني من الحركة اللأيقونية. انظر،
Barbe, *Irene*, 313 ff ; Garland, *Women and Power*, 92-4

١٧ Garland, *Women and power*, 90; Treadgold, *Bride- Shows*, 401.

١٨ شغل سيمون وظيفة لغثيت الخزانة العسكرية(لغثيت الاستراتيوتيكون) وهو المشرف علي تقدير الضرائب المفروضة علي أسر الجنود وحالات الإعفاء منها. لمزيد من التفاصيل انظر،
Bury, *Adm. System*, 90ff ; Kazhden. A., "Logothetes Tou Stratiotikou", *ODB*, 2(Newyork, 1991), 1248.

الـرجل"، فأجابته قائلة "ومن المرأة أيضاً جاء الخير كل الخير")، فجرح قلب ثيوفيلوس بردها فتجاوزها مانحاً التفاحة لثيودورا، الفتاة البافلاجونية[١٩]".

ومـن الملاحظ أن رواية سيميون اللغيث لا تشير بصورة صريحة إلي تدخل مـن جانب يوفروسيني في اختيار العروس، مثلما حدث في حالتي الإمبراطورة إيريني والإمـبراطور نقفـور الأول، فثيوفيلوس – طبقاً لرواية سيميون – كان صاحب القرار الأول فـي عملية الاختيار، غير أن ذلك قد لا ينهض دليلاً قاطعاً علي عدم التدخل من جانـب يوفروسـيني، فهي التي أرسلت المبعوثين لإحضار الفتيات، ثم رافقتهن بنفسها إلـي القصـر الإمـبراطوري، حقيقة أن هدفها كان مواصلة تقليد كانت هي ذاتها أول ثمـراته، إلا إن ذلك لا يمنع أنها تدخلت بصورة أو بأخري في عملية الاختيار، وربما حـدث ذلـك دون دراية سيميون اللغثيت، خاصة وأن هناك دافعاً قوياً يجعلها حريصة أشـد الحـرص علـي اختـيار عروس ثيوفيلوس، فالعصر هو عصر مناهضة عبادة الأيقونـات التـي حمل لواءها أباطرة الأسرة الأيسورية منذ عهد ليو الثالث (٧١٧ – ٧٤١م) Leo وحتـي عهـد ميخائـيل الثانـي (٨٢٠ – ٨٢٩م) أول أباطرة الأسرة العموريـة وزوج يوفروسـيني الـراحـل، والـذي كـان من أشد المتحمـسين لمذهـب تحطـيم الأيقونـات، وكـان ثيوفـيلوس نفسـه عـلي

---

١٩ Leo Grammaticus, *Chronographia*, ed. I.Bekker, *CSHB*, Bonn, 1824, 213-14; Pseudo- Symeon, *Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonn, 1838, 624-25.

هناك رواية أخري مختلفة يقدمها لنا كاتب سيرة الإمبراطورة القديسة ثيودورا مفادها أن الإمبراطور ثيوفيلوس أرسل موظفي البلاط إلي شتي بقاع الإمبراطورية لاختيار الفتيات الجميلات المؤهلات للزواج منه، وأنه انتقي مـن بينهـن سـبعة، قدم لكل واحدة منهن تفاحة ثم أرسلهن إلي الحجرات المخصصة لهن، وفي اليوم التالي، أسـتدعى الفتيات وسألهن عن التفاحات غير أنهن اكتشفن ضياع التفاحات فيما عدا ثيودورا التي بسطت كفيها لتكشـف عن تفاحتين، فدهش الإمبراطور لما رأي وسألها عن تفسير لذلك، فأجابته بأنها قابلت في طريقها إلي القصر قديساً أعطاها التفاحة وتنبأ لها بأن الإمبراطور سيقدم لها تفاحة ثانية، وأن التفاحتين معاً ستكونان طريقها للفوز علي الفتيات الأخريات، وعندئذ أعلنها الإمبراطور ثيوفيلوس زوجة له. انظر،

"The Life of St. Theodora the Empress", trans. M.P. Vinson, in.. *Byzantimne Defenders of Images, Eight Saints' Lives in English Translation*, ed. A-M. Talbot, Washington D.C.,1998, 353-82, esp.363-65

شـــاكلــــة أبـــيــــه في سياســـــــته اللاأيـــقونية[٢٠]، ولما كانت يوفروسيني – شـــأنها في ذلك شأن أكثر نساء القصر[٢١] – من أشد المتحمسين لعبادة الأيقونات، فمن المحـــتمل أنهـــا كانـــت حريصــــة علي اختيار عروس تشاطرها هذه الحماسة، وكانت ثيوردورا البافلاجونية هي تلك العروس[٢٢].

وبعد وفـــاة ثـــيوفيلوس عام ٨٤٢ م، تولت ثـــيودورا الوصـــاية علي ابـــنها ميـــخائـــيل الثـــالـــث (٨٤٢ – ٨٦٧م) Michael III الذي لم يكن قد أتم العامين من عمره، بيد أن هذا الطفل سرعان ما أصبح مشكلة كبري بالنسبة لها عندما بلغ الخامسة عشـــر، حيـــث أقام علاقة غير شرعية مع إحدى فتيات القصر تدعي يودوكيا إنجيرينا Eudokia Ingerina، وكانـــت خطورة هذه العلاقة من وجهة نظر الإمبراطورة الأم أن يودوكـــيا هـــذه تنتمـــي إلـــي أســـرة مارتيناكيوس Martinakios المؤيدة للحركة اللاأيقونية[٢٣]، ولأن ثيودورا لم تكن لتسمح باستمرار مثل هذه العلاقة التي تتعارض مع مـــيولها الدينـــية، فقـــد قررت إقامة عرض عرائس لتزويج ابنها، متبعة في ذلك نهج سابقتها يوفروسيني عندما اختارتها هي نفسها بنفس الأسلوب ولذات السبب.

ويـــروي لـــنا كاتب سيرة القديسة إيريني الصغري St.Irene the younger قصـــة هـــذا العرض قائلاً أن الإمبراطورة ثيودورا قررت تزويج ابنها ووريث العرش

---

٢٠ – من احدث الدراسات التى تناولت الحركة اللايقونية ، انظر

Martin, E.G., *A History of the Iconoclastic Controversy*, London ,1978 ; Bryer , A., & Herrin , J.,(eds.), *Iconoclasm* , Birmingham , 1977 ; Gero ,S., *Byzantine Iconoclasm during the Reign of Leo III* ,Louvain ,1973 ; Idem , *Byzantine Iconoclasm during the Reign of Constantine V* , Louvain , 1977 .

٢١– عن موقف نساء القصر المؤيد لعبادة الايقونات ، انظر

Huxley ,G.,'Women and Byzantine Iconoclasm', in: J.Y.Perreault (ed.), *Les femmes et le monachisme byzatine*, Athens, Canadian Archeological Institute, 1991 , 11-24; Talbot,A.M.,& Kazhdan,A.,'Women and Iconoclasm', ***BZ***, 84-85 (1991-92), 391-408; Hatile, P.,'Women of Disipline during the Second Iconoclast Age',***BZ*** , 89 (1996), 37-44.

٢٢– عن موقف الإمبراطورة ثيودورا من الحركة اللايقونية ، انظر

Garland, *Women and Power*, 95-108; *Life of St. Theodora*, 353-382.

٢٣– ولدت يودوكيا بالقسطنطينية عام ٨٤٠ م ، وتوفيت عام ٨٨٢ م ، وكان والدها ينحدر من اصل اسكندنافي ، وعمل في وظيفة بالقصر الإمبراطوري ، انظر ،

Kazhdan, A.,'Eudokia Ingerina', ***ODB***, 2 (NewYork,1991), 739.

مـــن الأوساط الشهيرة الطيبة السمعة، ومن أسرة تقية مشهود لها بإيمانها الأرثوذكسي، فـــتاة تتسم بالفضيلة وتفوق من هن في مثل عمرها في نقاء الروح وجمال الهيئة، لذلك أرســـلت مبعوثيها إلي كافة أنحاء الإمبراطورية لاختيار الفتيات اللاتي تتوافر فيهن هذه الخصـــال، ومـــن ثـــم فقـــد تهافت المواطنون من شتي الأنحاء علي إرسال بناتهم إلي العاصـــمة، وكـــان مـــن بينهن إيريني، الفتاة المشهود لها بصفاء الروح وفتنة الجسد، والتـــي أرســـلها والداهـــا مـــع شقيقتها من موطنهما في قبادوقيا Cappadocia إلي القسطنطينية[٢٤].

ويـــبدو مـــن رواية كاتب السيرة أن الإمبراطور ثيودورا كانت حريصة علي تمـــيز عـــروس ولدها بالفضيلة ونقاء الروح، وأن تكون من أسرة مشهود لها بإيمانها الأرثوذكســـي، وهـــي بذلك تعبر عن ميولها الدينية ورغبتها في إبعاد يودوكيا إنجرينا عـــن المشاركة في هذا العرض، إذ أنها كانت تعي تماماً أن مثل هذه الشروط المتعمدة لا يمكـــن بأي حال أن تنطبق علي يودوكيا وأسرتها، حقيقة أن الإمبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦ – ٩١٢م) يشـــير فـــي مديحه لباسيل الأول Basil I (٨٦٧ – ٨٨٦م)، إلـــي أن ميخائـــيل الثالـــث كان لديه قدر من التأثير علي مجريات الأمور بحيث أتاح ليودوكـــيا فرصة المشاركة في هذا العرض[٢٥]، غير أن هذه المشاركة كانت غير ذات جـــدوي لأن نتيجـــتها كانـــت معـــروفة مقدمـــاً، حيـــث يشير سيميون اللغثيب إلي أن الإمـــبراطورة ثـــيودورا لعبت دوراً رئيسياً في رفض يودوكيا إنجرينا، والضغط علي ولدهـــا لقـــبول المرشـــحة الفائـــزة يودوكـــيا – أخري – والتي تنتمي إلي أسرة غير مشهورة[٢٦].

٢٤- *The Life of St. Irene Abess of Chrysobalanton*, ed. & trans.M.O.Rosenqvist (Uppsala, 1986), 8-10.

انظر نص تلك السيرة على الموقع التالي، http//www.fordham.edu;

Treadgold, *Bride-Shows*,405; Kazhdan, A., Irene of Chrysobalanton ,*ODB*, 2 (New york .1991),1010.

٢٥- Vogt,A., & Hausherr, I.,'Oraison funebre de Basil I', *OCP*, 26 (1932), 54.

٢٦- *Leo Grammaticus*, 229-30; *Pseudo-Symeon*, 655.

وفي عام ٨٨٢م، اقامت يودوكيا إنجرينا أخر عروض العرائس الإمبراطورية المعـــروفة لــتزويج ابـــنها لـــيو السادس، الذي كان قد بلغ السادسة عشر من عمره، ومصـــدرنا عنه هو كاتب سيرة القديسة نيوفانو[٢٧] St. Theophano، الذي يخبرنا بقصته قائلاً:

"لقــد بــدأت عملـــية البحـــث عن الفتيات الجميلات، المتألقات في فضائلهن، لاختـــيار عروس للإمبراطور ليو الحكيم، فأرسل الإمبراطور باسيل[٢٨] مبعوثيه إلي كل مديـــنة ومقاطعـــة للبحث عن فتاة تليق بالإمبراطور الأكثر وسامة، فجلبوا معهم فتيات كثـــيرات من شتي الأنحاء كذلك قررت الإمبراطورة يودوكيا زوجة الإمبراطور باسيل اختـــيار بعض الفتيات الجميلات من مسقط رأسها للمشاركة في هذا العرض، وكان من بينهـــن الـــرائعة ثـــيوفانو، وعلـــي ذلك تم إختيار إثنتي عشر فتاة حشدت في الجناح الإمـــبراطوري لقصـــر ماجـــناورا Magnaura الشـــهير، وبقيـــن هـــناك في انتظار الإمبراطور وزوجته"[٢٩].

ويستكمل كاتب السيرة روايته قائلاً:

٢٧- Kurtz, E., (ed.), *Zwei Griechische Texte uber die Heilige Theophano, die Gemahlin Kaisers Leo VI*, St. Petersbourg, 1898.

تعذر علي الباحث الرجوع الى هذا المصدر، ومن ثم فقد اعتمد علي النصوص المقتبسة منه والتى ترجمها كل مـــن تـــريدجولد و جـــرلاند في بحثيهما .وكاتب هذه السيرة كان صديقا لعم ثيوفانو، العروس الفائزة في هذا العرض.

٢٨- واصل ميخائيل الثالث علاقته مع يودوكيا انجرينا رغم زواجه، حيث حملت منه ابنهما ليو السادس، وحتي يضـــمن اعـــتلاء ابنه العرش كامبراطور شرعي ، زوج يودوكيا من باسيل المقدوني ورفعه الى جواره على العرش كإمبراطور شريك . انظر ،

Mango, C., 'Eudocia Ingerina, the Normans and the Macedonian Dynasty', ***Zbornik Radova Vizanto-Loskog Instituta***, 14-15 (1973), 17-24.

٢٩ Kurtz, *Zwei Texte*, 5 (tr. Treadgold, 407.)

عـــند هـــذه النقطة يسجل كاتب السيرة انه كان من بين المرشحات فتاة اثينية اشتهرت بالعرافة و التنجيم ، تنـــبأت بـــان الفتاة التى سترتدى حذاءها اولا وقت وصول الإمبراطور وزوجته هى التى ستفوز بهذا العرض، وبطبيعة الحل كانت ثيوفانو هى تلك الفتاة. Treadgold, *Brid-shows*, 407.

" وعـــندما رأتهـــا الإمبراطورة أسرت بجمالها وخفة روحها، فتركت الباقيات وتقدمـــت نحوهـــا، وعـــندما أصبحت علي مقربة منها شدهت لسحر طلعتها، وعندما ســـألتها عن أسرتها ومكان مولدها، علمت أن الدماء الإمبراطورية تجرى في عروقها، فأخذت يدها وتوجهت نحو زوجها الإمبراطور"[٣٠].

وعـــند هـــذا الحـــد يوحي كاتب السيرة بأن اختيار الإمبراطورة قد وقع علي ثيوفانو، لكنه سرعان ما يستطرد حديثه قائلاً:

"غير أن الإمبراطورة تفحصت الأخريات وأنتقت منهن فتاتين، وقدمت الهدايا للباقـــيات وأمرتهـــن بـــالعودة إلـــي ديارهـــن، ثـــم اقتادت الفتيات الثلاث إلي الحمام الإمـــبراطوري، وعـــندما كشـــفت عن أجسادهن لاحظت تفوق جمال ثيوفانو، فغطتها بثـــياب إمبراطورية وأخذتها من يدها اليمني إلي الإمبراطور الزوج، وأعلنتها عروس لابنها، وقد بهر الإمبراطور ليو نفسه بها فأخرج من عباءته خاتماً صغيراً مصنوع من اليشب ووضعه في إصبعها"[٣١].

عـــند هذا الحد يختتم كاتب السيرة قصة أخر عروض العرائس الإمبراطورية المعـــروفة بـــزواج ثيوفانو من الإمبراطور ليو السادس، ويتضح من خلالها – كما هو الحـــال فـــي العـــروض الســـابقة – أن ليو لم يكن له دوراً مؤثراً في اختيار عروسه، فالإمـــبراطورة الأم يودوكيا هي التي لعبت الدور الرئيسي في اختيار المرشحة الفائزة دون أن تضـــع اعتـــبارا لـــرأي ولدها، ويبدو أن هذا الاختيار قد صدق عليه من قبل الإمـــبراطور باســـيل المقدونـــي، وهـــو الأمـــر الـــذي يؤكده كاتب سيرة يوثيميوس Euthymios عـــندما ســـجل عن لسان الإمبراطور ليو السادس قوله: "إن كافة أعضاء السناتو يدركون جيداً أن هذه الزيجة تمت ضد رغبتي، وإنما خشية غضب والدي"[٣٢].

وعـــند هـــذه النقطة يتبادر إلي الذهن سؤال هام، أنه إذا كانت يودوكيا إنجرينا هي أول من أكتوي بنار عروض العرائس الإمبراطورية حينما استخدمته الإمبراطورة

٣٠- Kurtz, *Zwei Texte*, 6 (tr. Treadgold, 407) .

٣١- Kurtz, *Zwei Texte*, 6 (tr. Garland, 110) .

٣٢- '*Vita St.Euthymii*,' ed.& tr. P. Karlin-Hayter, *B*,25-27(1955-57), 1-72;747-78.

ثـيودورا كوسـيلة لفصلها عن معشوقها الإمبراطور ميخائيل الثالث، فما الذي يدعوها إلـي إقامـة هـذا العرض؟ وإذا عرفنا أن ليو السادس في هذا الحين كان متورطاً في علاقـة غير شرعية مع إحدى فتيات القصر تدعي زوي زاوتزينا[٣٣] Zoe Zautzaina، فمـا هـي الدوافـع الحقيقية وراء تدخلها الواضح في إختيار العروس الفائزة وفرضها علي ابنها ليو بنفس الأسلوب الذي اتبعته ثيودورا مع ابنها ميخائيل الثالث؟.

يـري تريدجولد أن يودوكيا لم يكن لديها سبباً وجيهاً للاعتزاز بمثل هذا التقليد سـوي أنـه قـد أتخذ صفة الثبات في ذلك الحين[٣٤]، بينما تري جرلاند أن العداء الذي نشـب بيـن ليو وأمه يودوكيا، خاصة بعد أن تورطت مع باسيل المقدوني في مؤامرة اغتـيال والـد ليو، الإمبراطور ميخائيل الثالث، هو السبب الذي دفعها إلي الانتقام منه بفرض الزواج عليه من فتاة لا يرغبها[٣٥]، أما شرينرSchreiner فقد ذهب إلي القول – منسـاقاً وراء روايـة كاتـب سيرة القديسة ثيوفانو – بأن جمال العروس كان العامل الأساسي في اختيارها[٣٦].

وربمـا يكون من الأفضل البحث عن الدافع الحقيقي من وراء اختيار يودوكيا للعـروس ثيوفانو في ضوء الأهمية السياسية لذلك الاختيار، ويعد مانجو Mango هو أول من ألقي الضوء علي أهمية أسرة ثيوفانو في اختيارها كعروس لليو[٣٧]، فهي تنتمي إلـي أسرة مارتيناكيوسMartinakios، التي كانت يودوكيا نفسها أحد أفرادها، ومن ثم رأت فـيما مؤيـداً أهلاً للثقة، كما أن هذه الأسرة ترتبط مباشرة بصلات وثيقة بالأسرة العموريـة، وكمـا يشـير كاتـب سـيرة ثـيوفانو إلي أنها تحمل في عروقها الدماء

٣٣- كـان لـيو السـادس على علاقة بزوى ابنة ستيليانوس زاوتزس Stylianus Zautzes مستشار باسيل المقدونـي ، واستمرت هذه العلاقة حتى بعد زواجه من ثيوفانو ، وقد تزوجها بعد وفاة زوجته مباشرة ، لمزيد من التفاصيل ، انظر،

Tougher, Sh., *The Reign of Leo VI, 886-912 :Politics and People*, Brill, 1997, 136-8.

وسام عبد العزيز فرج ، الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس ، الإسكندرية ، ١٩٩١، ٣٥-٣٦

٣٤- Treadgold, *Bride-Shows*, 406.

٣٥- Garland, *Women and Power*, 110-11.

٣٦- Schreiner, P., 'Reflexions sur la famille imperiale à Byzance (VIII^e- X^e)', *B*,61(1991),181-93,esp.189.

٣٧- Mango, *Eudocia Ingerina* , 17-27.

الإمـــبراطورية وأن ذلـــك كان أحد العوامل التي دفعت يودوكيا إلي اختيارها من بين العذاري الصغيرات، ومن المؤكد أن يودوكيا كانت تعرف ثيوفانو مقدماً وأنها خططت مـــنذ الـــبداية لاختـــيارها، ولاشك كذلك في أنه كان من الأهمية بمكان بالنسبة لباسيل المقدونــــي أن يوثق صلات أسرته المقدونية الناشئة بالأسرة العمورية السابقة من خلال أسرة مارتيناكيوس[٣٨].

وممـــا ســـبق يمكـــن القول بأن عروض العرائس الإمبراطورية كانت وسيلة إتـــبعها أباطـــرة بـــيزنطة منذ أواخر القرن الثامن وطوال القرن التاسع لتحقيق أهداف سياســـية ودينـــية معيـــنة مـــن خلال تزويج ورثة العرش القصر بعرائس يخدمن هذه الأهـــداف، ولذلك فقد أقيمت تحت إشراف كامل من قبل الأوصياء سواء كانوا نساءاً أو رجـــالاً، وظهـــرت خلالها رغباتهم واضحة دون اكتراث برغبات الأبناء، وربما كان جينكينز Jenkins محقاً في قوله "إن عروض العرائس الإمبراطورية لم تكن إلا اجراء أو تقلـــيداً شكلياً، إذ المعروف أن العروس تكون معروفة مسبقاً ومتفق عليها[٣٩]"، وعلي ذلك لـــم يكـــن الجمـــال هـــو العـــامل الأساســـي في اختيار العروس كما ذهب بعض الباحثين[٤٠]، بل كان أحد الشروط الأساسية التي ينبغي أن تتوافر في زوجة الإمبراطور المقـــبل، خاصـــة وأنـــه لا يتناقض مع الاعتبارات السياسية والدينية التي سبق ذكرها، وبالإضـــافة إلـــي الجمـــال وضـــعت الصفات الأخلاقية أيضاً في الاعتبار عند اختيار العروس، وأخيراً كانت نبالة الأصل أحد الشروط الضرورية في اختيار العروس، ففي العـــروض الخمسة تم اختيار العرائس من الأسرة الإمبراطورية وطبقة النبلاء المحليين فـــي الأقاليم، ولكن إذا كانت نبالة الأصل أحد المؤهلات الرئيسية للعروس، فإن الثروة لـــم تكـــن كذلـــك، ففي العرض الأول كانت أسرة ماريا الأمنية نبيلة وفقيرة في الوقت نفســـه، ولم يكن من بين الفائزات في هذه العروض واحدة يبدو عليها الثراء الفاحش أو تنتمي إلي أسرة ذات سلطة ونفوذ، وربما كان ذلك أمراً حرص عليه الأوصياء أنفسهم لتحقيق أهدافهم السياسية والدينية السالفة الذكر.

٣٨- Tougher, *Leo VI*, 134-135.

٣٩- Jenkins,R., *Byzantium : the Imperial Centuries ,A.D. 610-1071*, Newyork,1966,98.

٤٠- Treadgold, *Bride-Shows*, 410 . Schreiner, *Famille imperiale*. 189.

إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل

محمـــود إســـماعيل

مصـــر

معلــوم أن الخــلاف بين المؤرخين يكمن أساساً حول مسألة التفسير أو الـــتأويل، أي معــرفة الأســباب والعلل الكامنة وراء أحداث التاريخ ووقائعه، ذلك أن المــؤرخ حيــن يؤرخ لموضوع ما عليه أن يجيب علي أسئلة ثلاثة أساسية هي: ماذا حــدث؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ والإجابة عن السؤالين الأولين لا تثير أي خلاف، إنمــا يشــجر الخلاف أصلاً في الإجابة علي السؤال الثالث، لا لشيء إلا لأنها تعكس مــنظور أو "مخيال" المؤرخ الذي هو نتاج ثقافته وأيديولوجيته. ومعلوم أن الأيديولوجيا تفت في مصداقية المعرفة وتلونها بألوان قد تكون مجافية للحقيقة.

ولعــل هــذا يفســر دعوة بعض المدارس التاريخية إلي التغاضي عن تفسير الوقــائع التاريخية والاهتمام فقط بتحقيق مصداقية الأخبار. لكن هذه الدعوة تنقص من قــدر المــؤرخ. كــذا مــن نتاج عمله وتجعله "إخبارياً" ليس إلا، وتحكم علي جهوده بالقصور، لأن علماً بلا تعليل ناقص في التحليل الأخير.

فغايــة العلــم هي الوقوف علي الأسباب والعلل التي تحرك الظواهر الطبيعية والإنسانية على السواء. ومن ثم أصبح قانون "السببية" أهم قوانين العلم علي الإطلاق.

وفــي مجــال العلــوم الإنسانية -- ومن ضمنها التاريخ بطبيعة الحال -- جري الاهــتمام بالتعلــيل أو الــتأويل أو التفســير، إلي حد ظهور علم لهذا الغرض هو علم "الهرمينيطــيقا". وتعاظم دور هذا العلم إلي درجة الطموح إلي التنظير باعتباره أقصي درجات العلم وأسماها.

معلــوم أن نشأة علم التاريخ عند المسلمين كانت نشأة عملاقة، بشهادة جمهرة الدارســين والباحثيــن، لذلــك اهتم المؤرخون الرواد بالتعليل والتفسير باعتباره مطلباً أساســياً لاكــتمال عملــية كتابة التاريخ، وتطورت جهود الأجيال التالية من مؤرخي الإسلام لتصل مرموقة في هذا المجال بولوج باب "فلسفة التاريخ".

مـــن هنا تطمح هذه الدراسة إلي معالجة إشكالية التفسير – التي لطالما اختلف القدمـــاء والمحدثـــون بصـــددها – عند المؤرخين المسلمين الأوائل بهدف إثبات خطأ الأحكام المتواترة عن تبني هؤلاء المؤرخين جميعاً الرؤية الدينية للتاريخ، بما يعني أن العـــناية الإلهية هي التعليل الأول والأخير لوقائع التاريخ وأحداثه. كذا إثبات خطأ زعم القائلين بأن فلسفة التاريخ لم يطرقها مؤرخ قبل ابن خلدون.

ما سنحاول إثباته بالفعل هو أن المؤرخين المسلمين الرواد ولجوا باب التفسير إلـــي حـــد التنظير منذ نشأة علم التاريخ الإسلامي حول منتصف القرن الثاني الهجري وحـــتى منتصـــف القرن الخامس الهجري، حيث بلغ تطور الفكر التاريخي ذروته، لقد مـــر الفكـــر التاريخي الإسلامي خلال هذه الفترة بحقب ثلاث، تمثل الأولي منها طور النشأة، وتبدأ من منتصف القرن الثاني إلي منتصف القرن الثالث الهجريين، وهي فترة شـــهدت ســـيادة نمط الإنتاج البورجوازي علي الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، ونشأة العلـــوم وتدويـــنها، كانعكاس للمد الثقافي المتعاظم والمعبر عن عطاء الطبقة الوسطي. وفـــي مجـــال علم التاريخ، وضعت مناهجه، وتحددت موضوعاته، وطرق المؤرخون باب التفسير علي استحياء.

أمـــا المـــرحلة الثانـــي: وتشمل الفترة ما بين منتصف القرنين الثالث والرابع الهجريـــن، فقـــد سادها نمط الإنتاج الإقطاعي الذي عكس تأثيره علي سائر الأصعدة ومـــنها الصـــعيد الثقافـــي بطبـــيعة الحال. إذ انتكست النهضة العلمية و الثقافية بغلبة الاتجاهـــات الغيبـــية والنصـــية علي حساب المد العقلاني الذي لازم مرحلة التأسيس. وبديهي أن ينتكس الكر التاريخي، موضوعاً ومنهجاً ورؤية، بغلبة الرؤية اللاهوتية.

أمـــا المرحلة الثالثة: وتشمل الفترة ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، فقـــد ســـادها النمط البورجوازي في الإنتاج مرة أخري وأخيرة، الأمر الذي أسفر عن تأثـــيرات إيجابـــية سياســـياً واجتماعيا وثقافيا، وبديهي أن يتأثر الفكر التاريخي، بتلك الـــتحولات، ليصـــل إلي أوج ازدهاره ! حيث بلغ التفسير العلمي العقلاني للتاريخ مداه بحيث شهد العصر بواكير فلسفة التاريخ.

تلــك تقدمه عامة، تعرض لغاية الدراسة وتحدد معالمها، تعد توطئة لبسط هذه المعالم مفصلة موثقة.

فــي طــور نشــأة علم التاريخ الإسلامي، يتفق الدارسون علي أن هذه النشأة الإيجابــية كانت تعبيراً عن مد ثقافي مزدهر، باعتبار التاريخ من أهم مقومات الثقافية العربــية والإســلامية[1]. وقد أسهم في تلك النشأة جيل من المؤرخين الأفذاذ، كالطبري، والــبلاذري، وابــن طــيفور، واليعقوبــي، وابن قتيبة، وابن عبد الحكم وغيرهم ممن اعتبرهم ابن خلدون رواد علم التاريخ في الإسلام[2].

وبتتــبع منحــي ســير هؤلاء المؤرخين[3] نجد أن معظمهم ينتمون إلي الطبقة الوســطي التــي تبنــت النهضة العلمية والفكرية في الإسلام، فكانوا موسوعي الثقافة ليبرالي التفكير[4]، بما أهلهم لتأصيل ركائز علم التاريخ موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

ومــا يعنينا في هذه الدراسة هو الوقوف علي طبيعة هذه الرؤى، أو بالأحرى موقفهــم مــن إشــكالية التعلــيل والتأويل، وفي هذا الصدد، يخطئ من أن تصور الحديــث عــن هذه الرؤى عند هذا الجيل من المؤرخين أمر سابق لأوانه[5]، صحيح أن جــل اهتمامهم انصب علي الأخبار وتحقيقها، لكنهم لم يغفلوا تعليلها وتحليلها، وفي هذا المعنــي ذكــر اليعقوبي: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا إلي اعتمادي في كل ما أخطرت ذكــره فــيه ممــا شرطت أني راسمه فيه إنما هو علي ما رويت من الأخبار التي أناد ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلي روايتها، دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل".

---

[1] جب (هاملتون) دراسات في حضارة الإسلام، الترجمة العربية، ص١٥٣، بيروت ١٩٦٤.

[2] مقدمة ابن خلدون، ص٤، القاهرة، ب .ت.

[3] راجــع: محمــود إســماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، جــ١، ص٢٨٦، ٢٨٧، الدار البضاء ١٩٨١.

[4] روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، الترجمة العربية ص٩٢، بغداد ١٩٦٤.

[5] أنظر: علي أدهم، بعض مؤرخي الإسلام، ص٣٣، القاهرة، ب . ت .

والـدارس لأخبار اليعقوبي[6] لا يعدم وجود رؤية خاصة للتاريخ فحواها الربط بيـن حركة الأحداث وحركة الأفلاك، وعند غيره من معاصريه نقف علي رؤي أخري وضـعانيه وعلمـيه، فالـبلاذري – مـثلاً– عول علي تأثير الاقتصاد في الصيرورة التاريخـية في كثير من الأحيان. أما ابن قتيبة فهو يمحور وقائع العصر الراشدي حول مسـألة الصـراع علـي الخلافة، واتخذ بعض المؤرخين من ذكر عبارات بعينها في مواضـع بعيـنها أيضاً – مثل والله أعلم – ما يدل علي موقف مضمر للمؤرخ يفهمه القـارئ اللبيب، نظراً لوجود محاذير وإكراهات تحول دون الإفصاح ولا غرو، فمعلوم أن الحنابلة رجموا دار الطبري بالحجارة[7].

ولعـل تلـك المحاذيـر والإكـراهات كانت من وراء تبني بعض المؤرخين تفسـيرات أسـطورية أو تيولوجية أوردوها من باب التقية[8]. كذا تعويل البعض الآخر علـي التفسـيرات العنصـرية[9] والطائفـية تحـت تأثير تواجد الشعوبية والصراعات المذهبية[10].

وقـد تعاظمت هذه الرؤى اللاعلمية خلال المرحلة التالية التي شهدت ظواهر التمزق والفرقة السياسية وتفاقم النعرات العصبية والعنصرية وانتكاسة الفكر العقلاني، كنتيجة لغلبة الإنتاج الإقطاعي، مع تواجد شاحب للبورجوازية.

بديهـي أن يتأثر الفكر التاريخي بتلك المعطيات السلبية، ولا أدل علي ذلك من تدهـور مكانـة علـم الـتاريخ في نظر مصنفي العلوم فأسقطوه بالكلية من مصنفاتهم باعتـباره يفـتقد إلي صفة العلمية[11]. وهو أمر لفت نظر مؤرخ فذ كالمسعودى، حين اعتـبر مؤرخـي العصـر مسـئولين عـن تدهور علم التاريخ "وإبادة وآثاره وطمس

---

[6] كتاب البلدان: ص٣٥٨، ليدن ١٨٩١.

[7] ياقوت: معجم الأدباء، ج١٨، ص٩٥، طهران ١٩٦٥.

[8] عن مزيد من المعلومات في هذا الصدد، راجع: محمود إسماعيل سوسيولوجيا، جـ١، ص٢٩٣ – ٢٩٤.

[9] راجع علي سبيل المثال: أبو العرب تميم: طبقات علماء إفريقية، ص١٤ وما بعدها، تونس ١٩٦٨.

[10] عن المزيد من المعلومات: راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، جـ١، ص٢٩٧، ٢٩٨.

[11] روزنتال: المرجع السابق، ص٤٨.

منارة[12]"، خصوصاً من أصبح منهم من "مؤرخين البلاط"، أو ممن أشتغل بالتاريخ خدمة لعلم الحديث بالأساس[13]، فكانوا لذلك محدثين أكثر منهم مؤرخي، بشهادة ابن النديم[14] لذلك لم يخطئ باحث ثقة حين اعتبرهم "أنصاف مؤرخين[15]"، فهموا غاية التاريخ فهما قاصراً مؤداه التبرير للسلاطين وإمتاعهم في مجالس السمر، حيث غدت "الأسمار مرغوباً فيها ومشتهاة .. فصنف فيها الوراقون وكذبوا[16]".

لقد أفسد "مؤرخو السلطة" علم التاريخ إلي حد تطويع الدين لخدمة السلطان، فها هو جعفر بن محمد المروزي (ت ٢٧٤ هـ) يصنف في هذا المعني كتاب "تاريخ القرآن لتأييد كتب السلطان[17]"، بينما أغفل تاريخ الشعوب ووصمها بأقبح النعوت، وفي هذا الصدد ألف الكثير عن "مساوئ العوام وأخبار السفلة والأغنام[18]".

وجري اعتبار ثوراتهم الاجتماعية من قبيل "المحن" و "الفتن[19]" التي يجب أن يقمعها السلطان دون هوادة.

بديهي والأمر كذلك، أن تنزلق رؤى المؤرخين إلي التفسيرات الأسطورية والإثنية والطائفية وتقديس الأبطال المؤيدين بالعناية الإلهية[20]، كما فشت الرؤى التهويمية التي تربط حركة الأحداث بالطوالع والنجوم[21].

---

[12] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١، ص٥، بيروت، ب.ت.

[13] بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الترجمة العربية، جـ٣، ص٦٨، القاهرة ١٩٩١.

[14] الفهرست، ص٢٣١، ٢٣٢، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

[15] أنظر: شاكر مصطفي: التاريخ والمؤرخون العرب، جـ١، ص٢٠٤، بيروت١٩٨٣.

[16] ابن النديم: المرجع السابق، ص٣٠٨.

[17] نفسه، ص١٥٠.

[18] نفسه، ص١٥٢.

[19] صنف الشيباني (ت ٢٧٣هـ) كتابين يحملان هذين العنوانين.

[20] سالم أحمد محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي، ص١٢١، قطر ١٩٩٧.

[21] روزنتال: المرجع السابق، ص١٥٩.

أمـا عـن مؤرخي المعارضة فقد احتفظ بعضهم بالكثير من إيجابيات مرحلة التأسـيس، فكتبوا التاريخ علي أساس "الدراية" لا "الرواية" معولين في التعليل والتفسير علي العقلانية والمنطق، منددين بمفاسد السلطة ورجالاتها[22].

ومـع ذلـك تأثر البعض الأخر سلباً بمعطيات العصر السياسية والثقافية، فلم تخـل مصنفاتهم من تهويم الرؤية والشطط في الرأي. لقد كتب هؤلاء في الغالب الأعم وفـق مـنطق "الدفـاع" عـن مذاهـبهم وأيديولوجـياتهم، فاتسمت كتاباتهم بالسجالية والتعصب، كما روجوا لأفكار تهويمية أسطورية كفكرة "المهدي" أو "المخلص" مما فت في قيمة ما صنفوا من تواريخ دارت معظمها حول عقائد مذاهبهم ورجالاتهم[23].

فعلـي سبيل المثال أرخ شليمة محمد بن الحسن (ت ٢٨٠هـ) لبعض حركات المعارضـة، لكـن كتابه صودر وأحرق، كما دون سعد بن عبد الله القمي (ت ٢٩٩ هـ) كتاباً عن الشيعة لاقي نفس المصير، وإذ أفلت كتاب "مقاتل الطالبين" للأصفهاني، مـن المصادرة فيعد أنموذجاً للكتابات ذات الطابع المأساوي "البكائي" التي تتعالى فيها التشنجات العاطفية علي التفسيرات العقلانية والواقعية.

وفـي نفـس المنحي صنف مؤرخو المعتزلة عن مذهبهم ورجالاته وأعلامه، كما هو حال البلخي (ت ٣١٩هـ) في كتاب "طبقات المعتزلة"، أما مصنفات المتصوفة فـاتخذت فـي الغالب الأعم طابعاً أخلاقياً، إذا استهدف مصنفوها تغيير الواقع بالنصح والوعـظ أو الدعـاء مـن أجل الخلاص، يفهم هذا من مصنفات صوفية مثل "مواعظ الخلفاء" و "ذم المنكر" و " الفرج بعد الشدة" .. الخ وكلها تتنكب طريق العقلانية وتعول علي الخرافات والكرامات والخوارق.

علـي أن الـرؤى العقلانـية لم تختف تماماً خصوصاً عند نفر من مؤرخي المعارضـة. بـل لا نعـدم وجـود ثلـة من المؤرخين الذين ارتقوا بالكتابة التاريخية موضـوعاً ومنهجاً، تعليلاً وتحليلاً وتأويلاً. ويرجع ذلك فيما نري إلي أن الصراع بين

---

22 عن نماذج لهذا الصنف من المؤرخين: راجع: ابن النديم: المرجع السابق، ص١٤٦، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١.

23 نفسه،ص١٨٢،١٢٧.

البورجوازية والإقطاع، ومن ثم بين العقل والنقل لم يحسم حسماً قاطعاً، مما أتاح للقوي البورجوازية وفكرها العقلاني النقدي التجريبي مكاناً في الساحة وإن كان ضيقاً ومحاصراً. وفي هذا الصدد يعد المسعودى (ت٣٤٦ هـ) المؤرخ أنموذجاً معبراً عن هذا التيار الأمر الذي يجعلنا نتوقف عنده ملياً للوقوف علي رؤيته العلمية للتاريخ.

ولعل في حياة المسعودى إبان أواخر عصراً "الإقطاعية المرتجعة" وأوائل عصر "الصحوة البورجوازية الثانية" ما يلقي الضوء علي عقلانيته وموسوعيته[24]. يضاف إلي ذلك كذلك كونه تاجراً ينتمي إلي الطبقة الوسطي اجتماعياً، وإلي الاعتزال الزيدي مذهبيا[25]، مما أهله ليتسم مكانة مرموقة بين مؤرخي عصره. ولعل اشتغاله بالجغرافيا ومزجه إياها بالتاريخ وتعويله علي الرحلات طوال أربعين عاما[26] كان من وراء اتساع منظوره ورحابة مخياله ومن ثم اتسام رؤيته التاريخية بالعقلانية والواقعية والشمول.

في كتابه "مروج الذهب" تأريخ عالمي متطور بالقياس للتواريخ العالمية السابقة، ففي عرضه الأحداث مزج بين التاريخ وعمل الكلام فالعالم في نظره "مخلوق"[27] كما يذهب المعتزلة وفي وصفه للأمم والشعوب مزج بين الإثنوغرفيا والثقافة أو وقوفه علي ما يمكن تسميته بـ "الأنثروبولوجيا الثقافية" ومعلوماته الجغرافية حافلة بالتأويلات والتفسيرات التي تربط بين حركة التاريخ وحركة الكواكب، كذا بينه وبين الجغرافيا الطبيعية، وفي هذا الصدد وقف علي تأثير التربة في الإنتاج الغذائي، وتأثير الأخير في طبائع وأمزجة البشر[28].

---

[24] شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ٢، ص ٤٧، ٤٨.

[25] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١، ص٤ من مقدمة المحقق، بيروت، ب. ت.

[26] المسعودي، التنبية والإشراف، ص٧، ليدن، ١٨٩٣.

[27] مروج الذهب، جـ١، ص٢٦.

[28] نفسه، ص٨٤، ٨٥

وحين عرض للعرب رصد أنماط حياتهم مميزاً بين مرحلتي البداوة "التوحش" والحضـــارة، مقدماً تصوراً متطوراً لطبيعة العمران البشري[٢٩] تأثر به ابن خلدون فيما بعد، وفي تأريخه للعالم الإسلامي اتسمت رؤيته بالشمول فجمعت بين التاريخ السياسي والحضـــاري في آن، كما أعمل ميزان النقد في الروايات قبل اعتمادها. بنفس الدرجة التي عول فيها علي الاستقراء والاستنباط في مجال التفسير[٣٠].

ولا نبالغ إذ نقرر أنه طرق باب "التنظير" حين عول علي شمول النظرة خلال الأزمـــنة الطويلة، فأتيح له "استخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه" علي حد قوله[٣١].

وفـــي كتابه "التنبيه والإشراف" نجد بدايات مقاربة "فلسفة التاريخ" ذلك أن هذا الكـــتاب يعد أخر ما صنف المسعودى، كما وأنه بمثابة "بانوراما" عامة لتاريخ البشرية، أفـــاد فـــيه من مؤلفاته السابقة، فلم يحفل بالأخبار وتحقيقها بقدر استنطاقها لتتبلور في صـــورة أحكـــام ومقولات أفاد في صياغتها من سائر المعارف المتاحة فقد أبرز مثلاً تأثـــير الجغرافيا في التاريخ السياسي فعرض لمباحث أشبه ما تكون "بالجيوبوليطيقا[٣٢]" كمـــا عـــرض لتاريخ العقائد في مباحث ذات صلة بالانثروبوجيا الثقافية وعلم الأديان المقـــارن، حيـــث تـــابع ورصـــد المشترك الإنساني العام في مجال الدين مبرز اسمه "التواصـــل" و "الاستمرارية[٣٣]" في صورة أقرب ما تكون إلي "الإنسانيات" المعاصرة، ولا غـــرو فقـــد تـــابع تأثـــيرها في التاريخ والحضارة الإسلامية[٣٤]، بما ينم عن نزعة "هيومانية" بعيدة عن التعصب والتحجر.

---

[29] نفسه، ص١٣٧ – ١٧٠.

[30] شاكر مصطفي، المرجع السابق، جـــ١، ص٥٢.

[31] مروج الذهب، جـــ١، ص٦.

[32] التنبيه والإشراف، ص٥،٦.

[33] نفسه، ص١٣٧ وما بعدها.

[34] نفسه، ص٢١٤، وما بعدها.

وفــي عرضــه للــتاريخ الإسلامي أبرز الأسباب والعلل المباشرة والعامة[35]، فطــرق مجال الرأي والرؤية في آن، فإذا أضيف إلي ذلك إحكامه الصلة بين المعارف المخــتلفة لــتدخل ضــمن موضــوع التاريخ، نؤكد صدق حكم بعض الباحثين[36] بأن المسعودى قدم الرؤية الحضارية للتاريخ.

ونذهــب نحن إلي أبعد من ذلك فنعتبر المسعودى من رواد فلسفة التاريخ ولا مبالغة في ذلك ألبته، إذ نجد في مصنفة ما يشي بالرؤية البيولوجية للتاريخ حين تحدث عــن "نشــأة الــدول وشبابها وهرمها وعلل جميع ذلك[37]" ودعوته إلي ضرورة معرفة المــؤرخ "كيف تدخل الآفات علي الملك وتزول الدول. وتبيد الشرائع والملل، والآفات الخارجــية المفترضة لذلك[38]"، لقد وقف بحق علي ما أسماه فلاسفة التاريخ المحدثون "بالظــروف الموضــوعية" التي هي نتاج عوامل داخلية وأخري خارجية تتضافر معاً لإحــداث "حركــية" الــتاريخ وصيرورته. هذا فضلاً عن شمول هذه الصيرورة لسائر الظواهــر الماديــة[39] والروحية التي توحدت في مخيال المسعودى وتأطرت في ذهنه تأطيراً عقلانياً.

كانت جهود المسعودى في مجال التفسير والتنظير مدخلاً أساسياً لازدهار الفكــر التاريخــي خــلال القــرن التالي من منتصف القرن الرابع إلي منتصف القرن الخــامس الهجريــن الــذي شهد "صحوة بورجوازية" تركت أثراً إيجابياً في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة.

وبديهــي أن يــتطور علم التاريخ خلال قرن الازدهار هذا موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

---

35 نفسه، ص٣١، وما بعدها.

36 أنظر: شاكر مصطفي: المرجع السابق، جــ٢، ص٤٧.

37 التنبيه والإشراف، ص٣.

38 نفسه، ص٤.

39 روزنثال: المرجع السابق، ص١٨٧.

ولعـل من أسباب ومظاهر هذا الازدهار اكتساء الكتابة التاريخية طابعاً دنيوياً بعد اختفاء المؤرخ المحدث وظهور الكاتب والتاجر والوراق والأديب وحتى الطبيب.

مـنها أيضاً الازدهار الذي عم سائر أصناف العلوم والفنون والآداب المختلفة سـواء علـي الصعيد المنهجي أو المستوي المعرفي، وكما كان معظم مؤرخي العصر ذوي ثقافة موسوعية، فقد أفادوا منها في مجال الكتابة التاريخية، ولعل من أهم جوانب تلـك الإفادة اقتباس المشتغلين بالتاريخ الكثير من قواعد "المنهج العلمي التجريبي" الذي ترسـخ فـي هـذا العصر بفضل ابن الهيثم وابن سينا والبيروني وغيرهم كبديل عن اقتـباس مـنهج أهل الحديث، كما كان الحال إبان القرن السابق، بفضل ذلك كله أحتل علـم الـتاريخ مكانة جلي في كتب تصنيف العلوم[٤٠]، فقد أفرد الخوارزمي بابا "لأخبار الـتاريخ" فـي مصـنفه "مفاتـيح العلـوم[٤١]" كما خصص ابن النديم فصلاً مطولاً عن "المؤرخين والتاريخ والنسابة[٤٢]" في كتابة "الفهرست" واعتبر إخوان الصفا علم التاريخ من العلوم الأساسية التي وظفوها لتثقيف الأتباع والأعوان.

ولـيس جـزافاً أن يعترف جل دارسي علم التاريخ الإسلامي بهذه النقلة التي أكتمل بفضلها العلم "فبلغ سن الرشد[٤٣]" واختلط المؤرخون طرائق وقواعد جديدة أثرت العلـم موضـوعاً ومـنهجاً ورؤية[٤٤]، فتحول من الرواية إلي الدراية[٤٥] ولا غرو، فقد تطـورت موضـوعات الـتاريخ المطـروقة من قبل واستحدثت موضوعات جديدة،

---

40 جب: المرجع السابق، ص٧٧.

41 ص٦٠ – ٨٠، القاهرة ١٩٣٠.

42 الفهرست، ص٣٧ وما بعدها.

43 شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ١، ص٢٠٣.

44 ياسر نور، التأثير المنهجي لعلوم الحديث في مناهج المؤرخين المحدثين ص١٠١، ١٤٩، رسالة ماجستير، مخطوطة، المنصورة، ١٩٩٩.

45 عفت الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، ص٧٦، بيروت، ١٩٧٣.

كالاهـتمام بالـتاريخ الاقتصـادي ومفـرداته[46]، ومـزج التاريخ بالجغرافيا والسياسة والفلسفة[47] والعقائد والذهنيات وغيرها من مقومات التاريخ الحضاري.

وشـهدت المظـان التاريخـية تطـوراً مماثلاً، فجري الاعتماد علي الوثائق والمذكـرات الخاصـة والآثـار والـنقود وغيرها، كما جري الاهتمام بنقد المصادر المكتوبة[48]، فصنفت كتب خاصة في نقد الروايات والرواة، وغدت الأخبار المستقاة من المشاهد والعيان حجر الزاوية في المادة التاريخية المعول عليها.

وأفضـي مـناخ التسـامح والحـرية الذي ساد العصر إلي كسر الإكراهات والمحاذيـر التـي كانـت تغل يد المؤرخ في الكتابة، وتحول بينه وبين التزام الصدق والموضـوعية، كما تقلصت السخائم العصبية والصراعات المذهبية والنعرات الإقليمية أو كـادت لـنجد بعـض مؤرخي الفرس كحمزة الأصفهاني علي سبيل المثال ينصف العرب ويكتب بموضوعية عن أهل السنة رغم تشيعه[49]، وحين صنف ابن النديم كتاب "الفهرسـت" خصصـه لمـا وقـف علـيه من مصنفات "عن جميع الأمم من العرب والعجم[50]".

في ضوء تلك المعطيات الإيجابية وغيرها تطورت الكتابة التاريخية، وانصب الاهـتمام علـي التحليل والتعليل والتنظير خصوصاً بعد "استقرار الرواية"، واستهدف المؤرخون الوصول إلي الحقائق وتوظيفها في شحذ الوعي عن طريق التثقيف والتربية والتـنوير[51]، كمـا جمـع بعض المؤرخين بين التاريخ وفلسفة الأخلاق، كما هو حال مسـكوية علـي سـبيل المثال حرصاً علي توخي الصدق وتحاشي الكذب[52]. وفي هذا

---

46 روزنتال: المرجع السابق، ص١٦٣.

47 ابن النديم: المرجع السابق، ص١٢٠.

48 ميتز (آدم) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جـ١، ص٢٤٠. القاهرة ١٩٥٧.

49 بروكلمان: المرجع السابق، ص٦٠.

50 الفهرست، ص٣.

51 محمود إسماعيل: إخوان الصفا، ص٦٧ وما بعدها، القاهرة ١٩٩٨.

52 شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ١، ص٤٥٤.

الـباب كتب أحد مشاهير مؤرخي العصر يقول: "إن التاريخ تجارب..... والرأي لقاح العقل، والتجربة نتاجه، والخير مقصد الحجى، والاجتهاد منهاجه[٥٣]".

ويشـي هـذا النص المقتصب بالكثير من خصائص الكتابة التاريخية في هذا العصـر، ومـا يعنيـنا هو الوقوف علي تطور الفكر التاريخي خلاله في مجال الرأي والرؤية والتأويل والتنظير.

وأول ما يلاحظ في هذا الصدد، التعويل علي العقل في مجال التفسير[٥٤] بحيث عـرف الـبعض علم التاريخ بأنه "علم علل الأحوال[٥٥]" واشتهر البعض الآخر بإرداف ذكـر الحـدث "بذكر السبب[٥٦]" كما هو حال هلال الصابي ومسكويه علي سبيل المثال ولا غـرو. فقـد أخضـع مؤرخـو العصر الكثير من الموضوعات اللاهوتية والغيبية لسـلطان العقـل[٥٧] فقد اتسعت رؤاهم لتجمع الكون برمته في وحدة كلية واحدة، يقول أحدهـم "فالـناظر في كتابنا هذا كالمشرف المطلع علي العالم مشاهداً حركاته وعجيب أفعالـه[٥٨]" ولـم يجـد جلهم غضاضة في الجمع بين الدين والعلم[٥٩]، فتناولوا الكثير من القضـايا الدينية دون خوف أو وجل. وحسبنا أن حمزة الأصفهاني[٦٠] علي سبيل المثال جمـع بيـن الـتاريخ الدينـي والتاريخ الدنيوي في مصنف واحد، كما جمع أيضاً بين التاريخ والفلسفة، وكان ذلك إيذانا بظهور التاريخ المفلسف، وفي هذا الصدد قام إخوان الصـفا بـدور بـارز أفاد منه المعاصرون واللاحقون، وحسبنا الإشارة إلي بعض ما سطروا في رسائلهم عن قيام الدول وسقوطها.

---

53 أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص٤، القاهرة ب. ت.

54 عبد العزيز عزت، ابن مسكوية، ص٩٢، القاهرة ١٩٤٦.

55 أبو شجاع: المرجع السابق، ص٥.

56 هلال الصابي: تاريخه، ص٣٣٦، القاهرة، ب. ت.

57 سالم أحمد محل: المرجع السابق، ص١٢٢.

58 المطهر المقدسي، البدء والتاريخ، جـ١، ص١٧.

59 روزنتال: المرجع السابق ص٢٠١.

60 أنظر: حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص٢٧، برلين ١٣٤٠هـ.

يقــول الإخوان[61] "أعلم يا أخي بأن أمور هذه الدنيا دول ونوب تدور بين أهلها قــرناً بعد قرناً ومن أمة إلي أمة، ومن بلد إلي بلد... واعلم بأن كل دولة لها وقت منع تبــتدئ وغاية إليها ترتقي، وحد إليه تنتهي، فإذا بلغت أقصي غاياتها، ومدي نهاياتها، تســارع إلــيها الانحطــاط والنقصــان، وبدأ في أهلها الشؤم والخذلان، واستأنف في الآخريــن مــن القوة والنشاط والظهور والانبساط، وجعل كي يوم يقوي هذا ويضعف إلي أن يضمحل الأول المقدم، ويستمكن الآتي المتأخر.

ونحــتقد أن الكثيريــن[62] من صفوة مؤرخي العصر كانوا ضمن هذه الجماعة ولعــل مــن أشــهرهم مســكويه (ت ٤٢١هــ) الذي ترأس مدرسة ضمت أبا شجاع والصابي والبغدادي والبيروني وغيرهم. ونظراً لأهمية ما تضمنه كتابه "تجارب الأمم" من آراء ورؤى في تفسير التاريخ، نتوقف عنده لرصد بعض مقولاته وتنظيراته.

يجمــع الدارسون علي أن مسكويه اختط للكتابة التاريخية مساراً جديداً قوامه تحويــل الوقــائع إلي أحكام ومقولات تبدأ بالتدبير الذي يسبق الحدث، ثم ذكر الحدث كتجربة إنسانية، ثم تعليل تلك التجربة، وأخيراً ما تمخضت عنه من دروس وعبر، لقد اعتــبر مسكوية التاريخ مستودعاً للتجربة الإنسانية، وعنوان كتابة "تجارب الأمم" شاهد أمين علي ذلك.

ومــا يعنيــنا إثباته أن رؤية مسكوية للتاريخ من نتاج عوامل شتي، منها كونه زيدياً اعتزالياً جمع بين عدل واعتدال المذهب الزيدي وبين عقلانية المعتزلة.

مــنها أيضــاً حظــه العريض من تحصيل علوم عصره الطبيعية والرياضية والفلســفية والأدبية والاجتماعية، والإجتماعية، وإفادته منها جميعاً في صياغة منظوره التاريخي.

---

[61] رســائل إخــوان الصفا، جــ١، ص١٨٠، بيروت، ب. ت. وعن مزيد من النصوص في فلسفة التاريخ عند الإخوان، راجع: محمود إسماعيل: نهاية أسطورة، ص٥٩ وما بعدها، القاهرة ٢٠٠٠.

[62] أنظر: روزنتال: المرجع السابق، ص١٩٧، عبد الله العروي العرب والفكر التاريخي، ص٣٥٠، بيروت ١٩٧٣.

والجديــد الــذي قدمه هذا المنظور يكمن في اطراح كل ما لا يقبله العقل حتى ولــو كان مقدساً والإلحاح علي "ما كان تدبيراً بشرياً لا يقترن بالإعجاز[٦٣]" لقد أثبت أن الأحداث والوقائع التاريخية نتيجة فعاليات بشرية مسبوقة بالتفكير والتدبير[٦٤].

وقــد ساقته هذه النظرة إلي الاهتمام بالجوانب الاقتصادية بمفرادتها الدقيقة هو "ما لم يلفت إليه غيره، وقد يقف علي أمر صغير قد يكون فيه درس كبير[٦٥]"، ومن هنا عول علي النظرة النقدية للمرويات، واعتمد فيها ما يقبله العقل، كما اعتمد علي حصاد مشــاهداته وصــلاته واســتخلص منها جميعاً مادة كتابه الذي اعتبره البعض[٦٦] أهم ما كتــب فـــي التاريخ الإسلامي، لقد نظر مسكوية إلي الروايات التي حوتها كتب التاريخ باعتبارها محض "أخبار تجري مجري الأسمار والخرافات لا فائدة منها غير استجلاب الــنوم بهــا[٦٧]"، ومـــن هنا حرص اشد الحرص علي قياس الأخبار علي العقل المنوط بتمحيصها أولاً، ثم استكناه عللها بعد ذلك.

مـــن الجديــد الــذي تفــرد بـــه مسكويه أيضاً، إدماج الراي في التجربة[٦٨]، واســتخلاص العوامــل المؤثرة من هذا الدمج في صياغة الأحداث الكبري، وفي هذا الصـــدد أولي مسكويه السياسات الاقتصادية اهتماماً كبيراً بأعتبارها العامل المؤثر في السياسة[٦٩] بل في العمران كله[٧٠].

وحـــق لنا أن نسجل له سبقاً فريداً حين فطن إلي مسئولية الطبقة الوسطي عن خــراب العمـــران فـــي العالم الإسلامي الوسيط[٧١]، وتفسير حركات العيارين وثورات

---

[63] مسكويه: تجارب الأمم، جـ١، ص٣، طهران ١٩٧٨.

[64] نفسه ص١٥٠.

[65] أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـــ١، ص٢٠٨، القاهرة ١٩٦٦.

[66] روزنتال: المرجع السابق، ص١٩٦.

[67] تجارب الأمم، جـ١، ص٢٢.

[68] مرجويوث: المرجع السابق، ص١٢٣.

[69] نفسه، ص١٤٣.

[70] تجارب الأمم، جـــ٢، ص٦٩، القاهرة، ب. ت.

[71] نفسه، ص١٤٣.

العـــوام بالسياسات والإجراءات الإقتصادية المشتطة[٧٢]. وفق نفس الرؤية فسر استقرار الأحـــوال السياســـية وازدهار العمران بالسياسات الإقتصادية الرشيدة[٧٣]، لقد كان بحق أول مؤرخ إسلامي يفطن إلي أهمية التفسير المادي للتاريخ.

فـــي نفس المكانة نضع أبا لريحان البيروني (ت٤٤٠هـــ) كمؤرخ طفر بالفكر التاريخي طفرة كبري، خصوصاً في مجال التفسير والتنظير.

كـــان البيروني كمسكويه والمسعودي شيعياً زيدياً إعتزالياً، إشتغل بالسياسة ثم لفظهـــا إلـــي العلـــم والمعـــرفة[٧٤]، فحـــاز قصب السبق في الإلهيات والمنطق والفلك والجغرافـــيا إلـــي جانب التاريخ بطبيعة الحال، وأسهم إسهامة كبري في تطوير المنهج العلمي التجريبي، وحسبه أن كان أول من تحدث عن "القانون" العلمي كمصطلح[٧٥].

كتب البيروني عدداً من المؤلفات في التاريخ، لم يبق منها سوي كتاب "تحقيق مـــا للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة" وكتاب " الآثار الباقية عن القرون الخالية"، وما يعنيـــنا هـــو الوقـــوف علي رؤية البيروني للتاريخ أو بالأحري ما أضافه من جديد في مجال التفسير والتنظير.

يعد الكتاب الأول تاريخاً حضارياً للهند، مقارناً بحضارات الأمم الأخري، بما يشـــي بأتساع "المخيال" التاريخي لمؤلفه، فضلاً عن ثقافته العريضة والموسوعية التي تتمثل في احتواء الكتاب علي دراسات معمقة في العقائد والإتنولوجيا والأنثروبولوجيا، إلـــي جانب أبحاث أخري في الميتافيزيقا والطبيعة، مزج البيروني بينها جميعاً، وصاغ هذا المزيج صياغة فلسفية معمقة[٧٦].

---

[72] نفسه، ص٩١.

[73] نفسه، ص١٢٨،١٢٧.

[74] البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة، ص١٠، ١١ من مقدمة المحقق، بيروت ١٩٨٤.

[75] راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، جـــ٢، مجلد٢، ص ٤٠، ٤١، القاهرة ٢٠٠٠.

[76] البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، ص٤ وما بعدها.

وبـــرغم وفرة وزخم تلك المعلومات إلا أن البيروني صنفها وبوبها في تسلسل واتســـاق يـــنم عن إدراك ووعي بالصلة الوثيقة بين المعارف المختلفة، وقدرة في فهم اصطلاحاتها.

والأهـــم مـــن ذلك ما قدمه من رؤية "أنطولوجية" تجمع كل ظاهرات الوجود المحســـوس والمعقـــول في وحدة واحدة، كذا النظر إلي الأمم والشعوب المختلفة نظرة مـــتوحدة أيضـــاً، تأسيســـاً علـــي وجود "مشترك إنساني عام" في القيم والحضارة، فقد تساوت في هذا المعني جميع الأمم[٧٧]، لذلك يعد الكتاب شاهداً علي منهجية جديدة تعالج موضوعات جد مبتكرة في صياغة فلسفية منطقية.

ولا جـــدال فـــي أنـــه قـــدم رؤيـــة فلسفية تجمع بين إنجازات العلوم المختلفة والتجارب البشرية التي أفرزتها في منظومة واحدة.

وفـــي هذا الصدد يقف الدارس علي مقولات هامة في فلسفة التاريخ، منها أن قـــيام الدول لا يتحقق "إلا بأجتماع الملك والدين[٧٨]"، منها أيضاً الوقوف علي تأثير البعد الطبقـــي بمعـــناه العلمـــي في صياغة الوقائع والأحداث، تأسيساً علي أن الطبقات نتاج "عمـــل أو صـــناعة أو حـــرفة[٧٩]"، مـــنها أيضـــاً وجود علاقة عضوية بين المحسوس والمعقول[٨٠] انطلاقاً من فلسفة "وحدة الوجود" فالعالم نتاج أفعال بشرية تصنع "العمران" وهو "معمور بالحرث والنسل[٨١]" والحضارة "مشترك إنساني عام[٨٢]".

نستخلص مما سبق استناد فلسفة التاريخ عند البيروني علي العقل النقدي أولاً، والوجـــود المـــادي ثانياً، والفعل البشري أخيرا[٨٣]، لذلك كان علي وعي تام بتفرده فيما توصـــل إليه، كما كان حريصاً علي تقديم دروس تعليمية للمؤرخين عن شروط الكتابة

---

77 نفسه، ص١٣٨.

78 نفسه، ص٥٥.

79 نفسه، ص٧٠.

80 نفسه، ص٧٨.

81 نفسه، ص٣٥.

82 نفسه، ص١١٩.

83 نفسه، ص١٠٧.

وإشكالياتها ومرجعياتها ومناهجها، وهي دروس تفرد بها عن رؤية ووعي، يقول في ذلك "لقد أعيتني المداخل فيه (أي ما توصل إليه) مع حرصي الذي تفردت به في أيامي[٨٤]".

ومن أهم ما استحدث البيروني في مجال المنهج بخصوص "المرجعيات" حكمه بأن ما يحصله المرء عياناً أهم بكثير مما يعرفه سماعا "فليس الخبر كالعيان.. لأن العيان هو إدراك عين الناظر المنظور إليه في زمان وجوده ... أما الخبر فيكون عن الشيء الممكن الوجود[٨٥]" وفي حديثه عن الأسباب التي تحول دون الموضوعية في الكتابة التاريخية يقول: "وللخبر آفات.. وفيه الصدق والكذب"، ورد الكذب إلي "تفاوت الهمم وغلبه الهراش والنزاع علي الأمم" فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه فيعظم به جنسه... ومن مخبر عن متقرب إلي خبر بدناءة الطبع أو متقياً لشر.. ومن مخبر عن جهل وهو المقلد للمخبرين[٨٦].

ونعتقد أنه وقف بذلك علي الأسباب الذاتية والموضوعية التي تحول دون المصداقية. والأهم من ذلك أن البيروني طبق القواعد المنهجية هذه حين صنف كتبه في التاريخ.

أما عن رؤيته التاريخية في كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية" فكانت أكثر تفلسفاً وأعمق نظراً، لأن الكتاب مصنف في التاريخ العالمي، قدم فيه البيروني صورة للتاريخ البشري والحضارة الإنسانية وفق منهج يرصد النتائج الهامة والآثار العميقة التي وجهت التاريخ الإنساني كله، وغالبت الزمان والمكان لتقف شاهداً علي عظمة الإنسان، وفي هذا الصدد فطن المؤلف إلي ما يمكن أن نطلق عليه "الزمان التاريخي" إذ نقف عليه من خلال جدل الزمان مع الأحداث، حيث يفرق بين الغث منها والثمين، أما الغث فيذهب جفاء، وأما الثمين فيبقي لينفع الناس، وهذا الثمين هو الذي

---

[84] نفسه، ص١٢.

[85] نفسه، ١٣.

[86] نفسه، ص٦٤.

عــرض له البيرونـــي في كتابه بدلاً من "أعمال الملوك وأفاعليهم مما تمجه الأذان ولا تقبله العقول[٨٧]".

وبصـــدد التميــيز بين الغث والثمين في وقائع التاريخ، توسل البيروني بمنهج "الاســتدلال بـــالمعقولات، والقـــياس بما يشاهد من المحسوسات" بعد "تنزيه النفس عن التعصب والتظافر وابتاع الهوي والتغالب بالرياسو[٨٨]".

لقــد عــول علي المحسوس في معرفة المنقول، ووقف علي الغائب من خلال معــرفة الشــاهد، تأسيســاً علــي وحــدة الوجود المعرفي، وقياساً علي وحدة الوجد الأنطولوجي. ومن خلال ذلك قدم البيروني تأريخاً مصفي بعيداً عن التحريف والزيف الذي "هو خداع للأمم[٨٩]".

هــذا المنهج القويم – فيما أري – جاء نتيجة ثقافة عريضة ودراسة في العلوم الطبيعــية والرياضة، فضلاً عن نتاج جهوده للأرتقاء بالمنهج العلمي التجريبي، ولعله تأثر كذلك بهذا المنهج، حين انفرد بين مؤرخي العصر الوسيط بالوقوف علي أهمية ما نســميه الآن "بالمــنهج الكمــي" "الكوانــتوم" المؤســس علــي الجداول والإحصاءات والمعــادلات الرياضــية وتوظيفها في دراسة العلوم الإنسانية[٩٠]، لذلك كله وغيره حق للأستاذ "سخاو" القول بأن البيروني يعد من أعظم العقول التي أنجبتها البشرية.

خلاصة القول، أن نشوء وتطور منهجية التفسير التاريخي كان مرتبطاً بتاريخ العلــم والــثقافة فــي الإســلام، وكلاهما كانا بالمثل نتيجة معطيات سوسيو تاريخية، اقتصادية واجتماعية وسياسية.

---

87 البيروني: الآثار الباقية، ص١٠٠.

88 نفسه، ص٤.

89 نفسه، ص٢٠٤ وما بعدها.

90 عن نماذج في هذا الصدد: راجع: الآثار الباقية، ص١٠٥ علي سبيل المثال.

الألقاب والكنى الشعبية الساخرة فى عصر سلاطين المماليك

٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م

محاسن محمد على الوقاد

مصر

يشكل تاريخ المماليك في مصر تراكماً للمصنفات والسجلات المليئة بالغموض والتناقض، الناجمين عن طبيعة تكوين طوائف المماليك، وطريقة تربيتهم وأسلوبهم في الحكـم، وعـن طبـيعة تقالـيدهم البدائـية التي لم تكد تتهذب وتتأقلم بالبيئة المصرية المتحضـرة، حتـي تغذيها موجات مغولية جديدة بعقليتها البدائية، وأمزجتها وطبيعتها غـير المصـقولة ، وقـد ترتـب علـي ذلـك أن الموجات اللاحقة أخذت في إفساد مـا اكتسـبته الموجـات السـابقة علـيها مـن ألوان الثقافة والتحضر والتأقلم بالبيئة المصرية[١]، ولا جدال في أن طبيعة المماليك الذين حكموا مصر زهاء قرنين ونصف مـن الـزمان (٦٤٨ - ٩٢٣ هـــ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م) لـم تتح لهم أدراك المفهوم الصـحيح للأسـرة ، بـل لم يكن لديهم حياة عائلية بالمعني المعروف، رغم أن غالبية أفـرادها حرصـوا علـى الزواج وعلى إنجاب الأطفال ، ذلك أن أسلوب المماليك في الحياة لم يقم على أساس وحدة الأسرة بأركانها المعروفة وهى : الأب والأم والأولاد ، بقدر ما قام على أساس الرقيق والمماليك[٢] .

أضـف إلى ذلك أن الدولة المملوكية كان يسودها النظام الإقطاعي الذي يميزه وجـود طبقتيـن إحداهما أرستقراطية تمثل الثراء والبذخ، والأخرى وهى طبقة العوام التـي كانـت مـتردية في الفقر والعوز ، نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية [٣] .

---

(١) نظير حسان سعداوي ، صور ومظالم من عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٤ .

(٢) أحمـد عبد الرازق ، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم ، مجلة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، العدد الثاني ١٩٧٧ م ، ص ١٨٨ .

(٣) HOLT (P.M), Scenes of Daily life from Mamluk Miniatures, The Eastern Mediterranean Lands, in the Period of the Crusades, Worminster, England, 1977, P. 79; Poliak (A.N), Some Notes on the Feudal System of The Mamluk, Jras, 1937, pp. 97-107; Feudalism in Egypt, Syria Palestine and The Lebanon, 1250 – 1900,

وفـــي ظـــل هذا النظام استأثر المماليك بكل خيرات البلاد، ولم يتركوا لأهلها سوى الفتات[١] وحياة الفقر والفاقة[٢] .

ومـــن مظاهر القهر الاقتصادي الذى تعرض له العامة فى ذلك العصر احتكار الدولة لتجارة بعض السلع الأساسية وتحديد سعرها بما لا يتناسب مع القدرات الشرائية لهذه الطبقة[٣].

كانــت العلاقــة بيــن السلطان والعامة ترتبط بالأحوال الاجتماعية والظروف السياســية والاقتصـــادية التي تمر بها الدولة ، ذلك بالإضافة إلى طبيعة السلطان ذاته وميوله واتجاهاته فى الحكم ، وكانت الضرائب مؤشراً هاماً يعكس طبيعة هذه العلاقة، وغالــباً ما كان فرض الضرائب سبباً من الأسباب الأساسية في إثارة العامة، حتى وإن كان فرضها مرتبطاً بتجهيز الجيش للدفاع عن البلاد [٤].

علـــى أن خضوع مصر لأرستقراطية حاكمة من المماليك تفننت في استغلال الــبلاد وأهلها ، لم تفقد المصريين روح المرح التي عرفوا بها في كل زمان ومكان ، ولــم تضعف هذه الروح حرمان الأهالي من المشاركة في حكم بلادهم أو قسوة الحكام فـــي عقــاب من يخرج عن طاعتهم من أبناء البلاد أو حتى الأوبئة التي تعرضت لها مصر بين حين وأخر في عصر المماليك[٥].

The Royal Asiatic Society, London, 1939, pp. 1-17; Lane – Poole, History of Egypt, pp. 252-253.

(١) محمــد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر فى عصور المماليك ، مجلة عالم الفكر ، م ١٤ ، العدد (١) ١٩٨٣م ، ص ٢٠٦ .

(٢) محاســن محمــد الوقــاد ، الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية (٦٤٨ – ٩٢٣ هــ/١٢٥٠ – ١٥١٧م) القاهرة ١٩٩٩م ، ص ١٢٥ .

(٣) Sobernheim (M), Encyclopedia of Islam, art. Mamluks, Leiden, 1987, Vol. 7, p. 217;
محاسن الوقاد ، الطبقات الشعبية ، ص ١٢٥ .

(٤) عــلاء طه رزق ، عامة القاهرة فى العصر المملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الزقازيق، كلية الآداب ، ١٩٨٩م ، ص ٨٦ .

(٥) ســعيد عاشــور ، المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ، ط (١) القاهرة ١٩٦٢ م ، ص ١٠٠ وما بعدها .

والشـــعب المصـــري مـــن أكـــثر الشـــعوب الإسلامية مواجهة لظلم الحكام وطغـــيانهم، فهـــو يقاومـــه وإن خضــــع له على مضض ومقاومته له قد تصل إلى حد الثورة[1].

وبالـــرغم مـــن ســـوء الأحـــوال الاقتصادية والاجتماعية للعامة في ظل حكم المماليـــيك ، إلـــى جانـــب تفشى الأوبئة والمجاعات التي حدثت من وقت لآخر، والتي كانـــت تحصـــد أغلبهم ، رغم كل ذلك لم تفقد العامة روح المرح والتسلية بالاستمتاع بـــبعض وســـائل الترفيه عن النفس ، وهذه السمة ظلت عزاء للعامة المصرية الكادحة ومتنفســـاً لهـــا فـــى الاحتفالات الكثيرة التي حظي بها العصر المملوكي[2] ، فقد أطلق الـــرحالة ابـــن بطوطـــة وصفه لأهل مصر على اختلاف طبقاتهم بأنهم " ذوو طرب وسرور ولهو "[3].

وقـــد تجلـــت روح المقاومة الشعبية في التراث الأدبي الشفاهى أو الشعبي ، ولا ســـيما فـــي فـــترات حكم السلاطين المستبدين ، وإذا كان هؤلاء قد نجحوا في وأد روح المقاومـــة الإيجابـــية أو العســـكرية التي كانت تشكلها هبات العامة، وانتفاضاتهم المســـتمرة، بـــزعامة الحرافيش والشطار والعيارين والزعار وأشباههم من البطالين أو العاطليـــن ، فـــإنهم لـــم يـــنجحوا أبـــداً في سلب هؤلاء العوام روح السخرية المريرة المشـــهورة الـــتى توســـلوا بها أدبياً وفنياً واجتماعياً ونفسياً، فى التنفيس عن معاناتهم وآلامهـــم وآمالهم وأحلامهم، في الخلاص من بطش هؤلاء المستبدين المغرورين الذين مسهم الرق يوماً ما[4].

---

(1) عـــبد المـــنعم ماجد ، موقف المصريين من حكم المماليك فى العصور الوسطى ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، م١٢ ، ١٩٦٩ م ، ص ٤٩ .

(2) محاسن الوقاد ، الطبقات الشعبية ، ص ٢٤٧ .

(3) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ١٩ ؛ نقولا زيادة ، الرحالة العرب ، القاهرة ، ١٩٥٦م ، ص ١٣١ .

(4) رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٧٧٩ .

إن الأدب الشــعبي والأدب العامي كان يمس كل منهما الحياة الاجتماعية من جمــيع جوانــبها ، فهمــا تعبــير عــن خلد القطاع الاجتماعي الغفير، بما يعتريه من مؤشــرات اجتماعية أو هزات سياسية أو طبقية ، وما إلى ذلك مما ينتاب الشعوب من تغير في السلوك(١).

لقــد اضــطر المجــتمع الشــعبي إزاء المحن التي ألمت به، وفشله الدائم في مواجهــتها مــن ناحية، وعجزه عن تحقيق شخصيته ووجوده تحقيقاً إيجابيا، من ناحية أخري، بعد أن جرده ظالموه من إمكانيات الرد ، إلى أن يلوذ بالسلاح الوحيد الذي لا يمكــن لأحــد أن يجــرده مــنه – وهو لسانه – وإن قطعوه أحياناً ، ولكن عبثاً حاولوا القضــاء على روح السخرية أو الفكاهة عنده، كما اضطر إلى الخروج النفسي من هذه المحــن والكــوارث بالفكاهــة والتــندر والسخرية متخذاً منها ملاذاً ومهرباً ومخرجاً ومتنفســاً وعــزاء واستنكاراً ، فقد أدركت العامة بفطرتها وفطنتها أن المأساة يمكن أن تتحول إلي ملهاة (٢).

ولا يعــدم الباحــث فــي الــتاريخ المصــري المملوكــي أن يعثر في زحمة المتناقضــات وفــى غلبة الأحداث اليومية الصاخبة على طرفة من الطرف الجميلة أو نــادرة من النوادر الشيقة، أو أعجوبة من الأعاجيب المثيرة ، التي لا تخرج عن كونها مجموعــة مــن المرايا الصافية التي تصور حياة المجتمع المصري المملوكي سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً ، والتي تلقى ضوءاً كاشفاً على ما يجرى بداخله(٣).

إن العامــة حيــن اتخذت من الفكاهة سلاحاً تطعن به طبقة المماليك تفننت فى إبداعهــا الشعبي في ابتكار ما يمكن أن نسميه أدب السخرية والفكاهة، باعتباره إحدى الوســائل الفنية والنفسية البارعة، في محاربة السلطة الجائرة وكشف ألاعيبهم، وفضح جورهــم وبطشهم وأنانيتهم وجشعهم واستغلالهم وصراعهم الدموي ، إن هذا اللون من

---

(١) صادق الجمال ، الأدب العامى ، ص ٧٥ .
(٢) رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٧٨١ .
(٣) نظير حسان ، صور ومظالم ، ص ٥ .

الأدب الشـعبي قد زود العامة بقدر من المناعة أو الحصانة النفسية ، وعمل على رفع روحهـم المعـنوية وتـزويدهم - ولـو إلى - حين بجرعة من الشجاعة والقدرة على المجابهـة والصمود والتحدى ، هذا الأدب الموجه ضد بعض القيود المفروضة عليهم فى ظل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة[1].

بل إن هذا الأدب الشعبي - في كثير من نماذجه الأصلية - تجاوز فى وظيفته التعبـير عـن روح الشـماتة والتشفى من حكامه المماليك، إلى تحقيق الشعور بالتفوق والاستعلاء والأصالة والانتصار[2].

وقد ظهرت هذه الروح بوضوح في بعض الألقاب والكنى التي أطلقها العامة، علـى بعض سلاطين المماليك والأمراء وكتاب الدواوين على سبيل التهكم والسخرية ، أو مـودة وحـباً فـى السلطان مثل السطان " ركين "[3] أو السلطان يلباى "المجنون"[4] والسـلطان "بخشـى"[5] ، و "سـلطان لـيلة"[6] و " سـلطان الجزيرة "[7] و" السلطان أبـو عيشـة "[8] ، وهـذه الألقاب والكنى إنما تشير إشارة ساخرة إلى سلوكهم أو إلى كونهـم العوبـة فـي أيدي الأمراء ، أو إلى أنهم لم يلبثوا في السلطة غير ليلة واحدة أو تسلطن بعضهم في الجزيرة - بالنيل - لا العاصمة أثر انقلاب دموي .

---

(١) رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٧٨٧ .

(٢) رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٧٨٧ وما بعدها .

(٣) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشره محمد مصطفى زيادة ، جـ٢ ق١ ، لجنة التأليف والنشـر ، ١٩٤١م ص ٥٥ ، ابـن إيـاس ، بدائـع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، جـ١ ق ١ ، القاهرة ١٩٨٢ م ، ص ٤٢٥ .

(٤) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٤٦٦ .

(٥) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٤٣٦ وما بعدها .

(٦) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٧ .

(٧) ابـن تغـرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، بدون تاريخ ، جـ ١١ ، ص ٣٧ .

(٨) المقريـزى ، السـلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٣٨٦ ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٨١ وما بعدها ، ص ٧٩٣ وما بعدها .

وبـادئ ذي بـدء يتوجب علينا هنا تعريف الألقاب والكنى لغة واصطلاحاً : يخـتلف المعـنى اللغـوي للقب عن المدلول الشائع، فاصل اللقب في النّبزّ ، وهو ما يخاطب به الإنسان من ذكر عيوبه ، وما يحب ستره ، وقد ورد فى القرآن الكريم بهذا المعـنى في قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّـنْهُمْ ولا نِسَـاء مِّـن نِّسَـاء عَسَـى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ولا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَـابِ "[1] ثم أجيز استعمال اللقب في موضع النعت الحسن ، وكثرا استعماله بهذا المعنى حتى اصطلح على مدلوله: التشريف والمدح[2].

على أن الكتاب فى عصر المماليك قد اصطلحوا فيما بينهم على مدلول خاص للقـب ، وفـرقوا بيـنه وبين ما سموه بالنعت؛ فسموا صفات المدح التي ترد بصيغة الإفـراد، أي التـي تـتكون مـن لفظ واحد، مثل الفاضل والشيخ ونحو ذلك ، ألقاباً ؛ وصفات المدح التي ترد على صورة التركيب ، أي التي تتكون من أكثر من لفظ واحد مـثل مولـى أمير المؤمنين، ونصير الإسلام والمسلمين، وعضد الملوك والسلاطين، ونحـو ذلـك نعوتـاً ، والنعت في اللغة: الصفة ؛ وكان يطلق على ما يختاره الإنسان ويـزيد في إجلاله، وهو بهذا المعنى عكس اللقب بمعناه الأول ، غير أنه استعمل أيضاً فـي الـذم ، وعلى هذا اتفق مع اللقب في جواز استعماله للمدح أو للذم ، وأخيراً غلب العرف استعمال كلاً من النعت واللقب لصفات المدح والتكريم[3].

وفـيما يـتعلق بالكـنى : كـنى عن كذا كنايةً : تكلم بما يستدل به عليه ولم يصرح، كُني و – الرجل بأبي فلان وابا فلانة كُنيةَ أطلق عليه هذه الكنية[4].

---

(1) قرآن كريم سورة الحجرات آية رقم ١١ .

(2) حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ١ ؛ مجمع اللغـة العربـية ، المعجم الوجيز ط ١ القاهرة ١٩٨٠ م ، ص ٥٦١ ؛ الفيروزابادى ، القاموس المحيط ، جـ ١ ١٩٧٧ م ، ص ١٢٨ .

(3) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص١.

(4) مجمع اللغة العربية ، المعجم الوجيز ، ص ٥٤٣ .

أمـــا بحثنا هذا فنعنى بالألقاب؛ ما يطلق من الصفات رسمياً على سبيل المدح والتشـــريف أو الـــذم، بحيث يخرج من نطاقه الألقاب الشعبية التي لم تمنح لأصحابها بطريق رسمي .

وقـــد وجـــدت بعـــض الألقاب والكنى لم تفسر لنا المصادر المملوكية المعاصرة سبب إطـــلاق هذه الألقاب فبقيت بلا معنى ، في حين وصلتنا تفسيرات لأغلب الألقاب التي أطلقت على السلاطين وبعض الأمراء إبان العصر المملوكي .

أمـــا عن الألقاب التي أطلقتها العامة على الأمراء مثل الأمير عز الدين ايغان المعـــروف بســـم المـــوت[١] والأمـــير طشتمر المعروف بحمص أخضر [٢] ، والأمير قطلوبغـــا الفخـــري المعروف بالفول المقشر[٣] ، والأمير سيف الدين ملكتمر الناصرى المعـــروف بـــالدم الأســـود[٤] والأمـــير ناصر الدين فأر السقوف[٥] ، والأمير طشتمر طلـــيلة[٦] ، والأمير شمس الدين محمد أبى رقيبة[٧] ، والأمير أزدمر العزى المعروف بـــأبو دقـــن[٨] ، والأمير الطنبغا العلاى المعروف بفرفور[٩] ، والأمير على بن أيدمر المعـــروف بالمـــزوق[١٠] والأمـــير اســـندمر الديـــاح[١١] ، والأمـــير يلـــبغا الأحمدى المجـــنون[١٢] ، والأمـــير أبـــو زلطة[١٣] ، وطشتمر المحمدى اللفاف[١٤] ، وعز الدين

---

(١) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ص ١٨٧ وما بعدها .
(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٢١٩ .
(٣) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٤ ، ص ١١٢ وما بعدها .
(٤) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٥ ، ص ٤٤٨ .
(٥) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق٢ ، ص ٤٢٠ .
(٦) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق ٣ ، ص ٦٧٨ .
(٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ٧٦٦ .
(٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق ٢ ، ص ٥٨ ، ٧٨ .
(٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ١٨٣ .
(١٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق١ ، ص ٤٠٠ .
(١١) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ق ١ ، ص ١٨٣ .
(١٢) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ، جـ ٢ ، ص ٣٣٥ .
(١٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ٢ ، ص ٥٧٤ .
(١٤) ابن تغرى بردى ، بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٦ ، ٣٩٤ .

أيدمــر أبو درقة[١] ، والأمير ناصر الدين محمد بن الضانى[٢] ، والأمير سن إبرة[٣] ، والأمــير جمال الدين المعروف بأصفر عينه[٤] ، والأمير أقبغا الطولوتمرى المعروف باللكــاش[٥] ، والصاحب علم الدين يحيى المعروف بأبو كم[٦] ، ومحمد محنى ذقنه[٧] ، وشــمس الديــن محمــد بن عبد الخالق المناوى المعروف بالطويل وبالبدنة [٨] ، وتاج الديــن ابــن أحمد بن على المعروف بابن المكللة[٩] ، والأمير يشبك الساقى المعروف بالأعرج[١٠] ، وفخر الدين بن السكر والليمون[١١] ، والأمير خاير بك المعروف بخاين بــك[١٢] ، والأمــير أزدمــر تمســاح[١٣] ، والأمير قانصوه المعروف بهات لبن[١٤] ، والأمير المعروف بروح له باشا[١٥] ، والأمير المعروف بالفاجر[١٦] ، والأمير قانصوة الســيفى أبــو ســنة[١٧] ، والأمــير جان بلاط المحمدى المعروف بالموتر ، والأمير

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ٢ ، ص ٦٠٨ ، ٨٦١ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ٢ ، ص ٧٧٠ ، ٨٠١ . من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان كثير الأكل خاصة لحم الضأن بالإضافة إلى أنه كان سم .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ .

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ ، ٣٢٣ .

(٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ٢ ، ص ٨٩٤ . يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يتخبط فى تصرفاته وسلوكه أمام الآخرين .

(٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٢ ، ٦٤٤ ، ٦٧٩.

(٧) المقريــزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ق ٣ ، ص ١١٤٠ ، ١١٧٣ . ربما أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يميل إلى وضع الحناء على ذقنه .

(٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ق ١ ، ص ١٤٩ ، ١٧٠ .

(٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق ٢ ، ص ٧٦٦ .

(١٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ق ٢ ، ص ٧٦٣

(١١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٢٥ .

(١٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٧٦ ، ١١٠.

(١٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢٠١ .

(١٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٢٥ . من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب لوجود سنه فى فمه مختلفة عن باقى الأسنان .

(١٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(١٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٤ .

(١٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص وما بعدها .

قانصـــوة كرت[1] ، والأمير مصرباى المعروف بالأقرع[2] ، والأمير ارزمك المعروف بالناشـــف[3] ، والأمير برسباى حداية ، والأمير حاصل ماتم[4] ، والسنجق أو الصنجق أبـــو نـــبوت ، والصنجق سبع بنات ، والصنجق غليظ الرقبة ، ، وصنجق (سُتّة) ، لأنه حصل على الثراء من سيدته بعد أن تزوجها[5] ، وهى أسماء وألقاب وكنايات ونعوت، وجـــه الهزء فيها مستمد من لوازم سلوكية أو حركية أو قولية ، كانوا يقومون بها على شـــكل آلي جامد ، فارتبطت بهم ، فالتقطتها العامة ، ولصقوها واكتفوا باسم " الشهرة " الساخر الذى أطلقته العامة عليهم .

ويمكن تصنيف الألقاب والكنى الشعبية الساخرة فى العصر المملوكي إلى الآتى :-

- ألقـــاب وكنى تدل على المدح مثل لقب الأعرج الذى أطلق على السلطان الناصر محمـــد، وعلي الرغم من أن هذا اللقب يعنى الذم، فإن العامة أطلقته على الناصر لأن بـــه عـــرجاً خفيفاً، إلي جانب أنها كانت تكن له حباً ومودة ، سم الموت الذى أطلـــق علـــى الأمير عز الدين ايغان ، وحمص أخضر (طشتمر) والفول المقشر (قطلوبغا).

ألقـــاب وكـــنى تدل على السخرية والاستهزاء مثل الأمير طللية ، الأمير أبو دقن، الأمير اللفاف ، الأمير أصفر عينه .

---

(1) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٤ ، ٥ .

(2) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ١١٠ ربما اطلق عليه هذا اللقب لأن رأسه كانت خالية من الشعر .

(3) أنظـــر ابـــن اياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٤٥ وما بعدها ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٨ ، ٨٠٩ من المرجع أنه أطلق عليه هذا اللقب لضئالة ونحافة جسمه الزائد عن العادة .

(4) أنظـــر ابـــن اياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٤٥ وما بعدها ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٨ ، ٨٠٩ من المحتمل أنه لقب بهذا لكثرة كلامه دون أن يفعل شيئاً .

(5) أنظـــر ابـــن اياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٤٥ وما بعدها ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٨ ، ٨٠٩ .

- ألقاب الذم والتقبيح مثل رِكَيْن ، دقين ، المجنون ، سلطان ليلة ، الدم الأسود ، فأر السقوف ، سن إبرة ، أبو زلطة ، أبو كم ، الطويل ، المؤذى ، ابن المكللة ، الدباح ، الفاجر .
- ألقاب تدل على مدى ما وصل إليه بعض الأمراء من ضعف مثل هات لبن ، روح لو .
- ألقاب تدل على الخيانة مثل لقب خاين بك .
- ألقاب وكنى فكاهية ساخرة مثل سلطان الجزيرة ، فرفور ، المزوق ، الضانى، اللكاش ، محنى ذقنه ، السكر والليمون ، تمساح ، أبو سنة ، الموتر ، الأقرع ، حداية، سلام عليكم ، الأمير حلاوة ، حاصل ما تم ، الأمير أبو نبوت ، الأمير الصنجق سبع بنات ، الأمير سنجق ستّه .

والآن ينبغى التعرض بالتفصيل لكل لقب ودلالته التاريخية، على حده وفقاً للتصنيف التالى :-

أولاً : ألقاب المدح :

الأعرج :

أطلق هذا اللقب على السلطان الناصر محمد بن قلاوون،[1] أثناء سلطنته الثانية ٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م حين تحكم كل من الأميرين سلار وبيبرس فى تصرفاته ، فضاق بهما وبتصرفاتهما[2] ونفذ صبره وشكا من ضيق يده وحرمانه من أبسط الحقوق الشخصية دون أن يجد معيناً له ، فتظاهر برغبته فى الحج

---

(1) Amalia Levanoni, A Turning Point in Mamluk History: The Third Reign of al-Nasir Muhammad Ibn Qalawun (1310 - 1341), *Mamluk Studies Review*, Vol. I, The Univ. of Chicago, 1997, p. 179 Sato Tsugitaka , The Proposers and Supervisors of al-Rawk, al-Nasiri in Mamluk Egypt, *Mamluk Studies Review*, Vol II, Chicago, 1998, pp. 75, 85, 91.

(2) محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٧ م ص ٤٣ وما بعدها ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، العصران الأيوبى والمملوكى ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ص ٦٥ ، ٢٢٦ .

حـــتى يســمح له بمغادرة البلاد ، ولكنه لم يكد يصل إلى قلعة الكرك حتى أعلن عزمه على اتخاذ ذلك المكان محلاً لإقامته وكتب إلى الأميرين بيبرس وسلار باعتزاله الحكم فـــي ســنة ٧٠٨ هــــ / ١٣٠٨ م[١] ، فـتم تنصيب بيبرس سلطاناً وعين سلار نائباً للسلطنة[٢] .

بـــيد أن ســلطنة بيــبرس لم تدم غير سنة واحدة ، حيث لم تستقر له الأمور خلالهـــا فقد نقص فيضان النيل وارتفعت الأسعار ، ونسبت العامة هذا كله إلى بيبرس وكـــرهوه وكرهوا عهده ، خاصة أنه اتبع سياسة العنف فى معاملته للناس والأمراء ، فقـــد كان يخشى أن يتصل المماليك بالناصر أو أن يتآمروا على خلعه ، وأعلنت العامة ســخطها بالـــتظاهر فـــي شوارع القاهرة وهم يضحكون ويهزلون ، ويصنعون كلاماً ويلحنونه ، وصاروا يغنونه في أماكن التفرجات وفى الحدائق والطرقات بقولهم :

سلطاننا رُكَيْن

ونائبه دقين

يجبنا الماء من أين

هاتو لنا الأعرج

يجي الماء يدحرج[٣]

---

(١) ابـــن تغـــرى بـــردى الـــنجوم الزاهرة ، جـــ ٨ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ط (٢) القاهرة ١٩٧٦ م ، ص ١١٧ ، ١١٨ ؛

Urbain Vermeulen. Some Remarks on A Prescript of An-nasir Muhammad B. Qala'un on the Abolition of Taxes and the Nusyris Mamlaka of Tripoli, 717/1317, *Orientalia Lovaniensia Periodica*, 1970,p. 198; David Ayalon, Discharges from service banishments and imprisonments in Mamluk Society, *Israel Oriental Studies*, Vol II, Tel Aviv, 1972, p. 40; idem, The Wafidiya in the Mamluk Kingdom, *Islamic Culture*, Vol. XXV, 1951, pp. 100, 101.

(٢) أحمد صادق الجمال ، الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ص ٧٤ وما بعدها ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١١٨ .

فـــوزى محمـــد أميـــن ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول ٦٤٨ – ٧٨٤هـــ/ القاهرة ١٩٨٢م ، ص٣٠ وما بعدها ؛

The Encyclopedia of Islam, art. Baybars II, New Edition, Leiden 1960, Vol. 1, p.1126.

(٣) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـــ ٣ ، ص ٤٦٧ وما بعدها ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ١ ق (١) ، ص ٤٢٥ .

وكـــان لقب السلطان بيبرس الجاشنكير هو ركن الدين فسماه العوام " رُكَيْن " احـــتقاراً ، وكان الأمير سلار - نائب السلطنة أجرد ، فى حنكه بعض الشعيرات لأنه كـــان مـــن التتار فسموه دُقَيْن ، أما الملك الناصر محمد فقد كان به عرج خفيف فأطلق عليه العوام الأعرج[١] .

خلاصـــة القـــول أن العامـــة تعللـــت بعدم وفاء النيل ، وأعلنت رفضها لحكم بيـــبرس وتأيـــيدها للملـــك الناصر ومطالبتها بعودته من منفاه الى عرشه ، الأمر الذى ثارت معه ثائرة بيبرس حين رأى العامة تنشد هذه الأغنية ، فأمر بالقبض على جماعة مـــنهم ، فضـــرب بعضـــهم بالمقارع وأشهرهم فى القاهرة، ورسم بقطع السنة البعض الأخـــر ، وازدادت معارضـــة العامة لحكم بيبرس ، وقد سارع بالهرب بعد أن وصل الناصـــر محمد إلى القاهرة قادماً من الكرك ، وعندما سمعت العامة خبر هروبه تبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجموه بالحجارة[٢] .

سُمّ الموت :

أطلـــق هذا اللقب على الأمير عز الدين أيغان بن عبد الله الركنى ، واصلة من ممالـــيك ركـــن الديـــن بيبرس[٣] ، وقد أطلق عليه هذا اللقب لجسارته وفتوته وسرعة انقضاضـــه على العدو[٤] ، وكان من أعيان الأمراء وأكابرهم وشجعانهم ، كما كان من

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ق ١ ، ص ٥٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٢٥ وما بعدها ، على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٤ م ، ص ٩٠ ، ٩١ .

Donald Little, An Introduction to Mamluk Historiography An Analysis of Arabic Annalistic and Biographical Sources for the Reign of al-Malik an-Nasir Muhummud Ibn Qalaun, Wiesbaden, 1970, pp. 11, 14, 94, 111; David Ayalon, Names, titles and "nisbas" of the Mamluks, *Israel Oriental Studies*, Vol. V, Tel. Aviv Univ. 1975, pp. 208. 209.

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٢٤٤ ؛ المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ص ٤٦ ؛ ابـــن إيـــاس ، بدائـــع الـــزهور ، جـ ١ ق ١ ص ٤٣٠ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى . ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ص ١٨٧ وما بعدها .

(٤) نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

أبطـــال المسلمين ومشاهيرهم، وله المكانة العظيمة والحرمة الوافرة والكلمة المسموعة فــى عهــد الظاهر بيبرس، الذى اعتمد عليه فى المهمات ، وقد تولى عز الدين وظيفة تقدمـــة العســاكر ، ولكـــن ما لبث أن قبض عليه السلطان الظاهر بيبرس مع عدد من الأمراء وسجنوا بالقلعة(١) وتوفى فى سنة ٦٧٥ هـــ / ١٢٧٦ م وكان أحد الموصوفين بالشجاعة والكرم مع شدة البأس(٢) .

حمص أخضر :

هو الأمير سيف الدين الساقى الناصرى ، المعروف بطشتمر حمص أخضر ، وقـــد اختلفــت المصـــادر فى أسباب تسميته بهذا اللقب فقيل لأنه كان يحب أكله فلقب بـــه(٣) ، على حين ذكر البعض الأخر أنه لقب به لكثرة صدقاته على الأيتام المعروفين بالحرافــيش(٤) ، كمـــا زعمـــوا أيضـــاً أنه عرف بهذا لأنه كان يوزع الفول والحمص الأخضــــر علـــى الحرافيش وفقراء الصوفية فى محاولة منه لاجتذابهم إلى جانبه حتى تقـــوى بهم شوكته تمهيداً لتحقيق مطامعه(٥) ، وقيل كذلك إنه عندما كان فى الطباق كان لا يأكل سواه ، فسماه خشداشيته بذلك(٦) ، أما فيما يتعلق بلفظة طشتمر فقيل أن معناها الصخر أو الحديد(٧) .

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـــ ١ ق ١ ، ص ٥٢٣ وما بعدها ، ص ٦٢٣ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـــ ٧ ، ص ٧٠ .

(٢) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـــ ٣ ، ص ١٨٨ .

(٣) ابـــن حجـــر ، الـــدرر الكامـــنة فى أعيان المائة الثامنة طـــ ١ حيدر أباد ١٣٤٩ م ، جـــ ٢ ، ص ٢١٩ .

(٤) نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

(٥) رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٩ .

(٦) الصفدى ، أعيان العصر ، جـــ ٢ ، ص ٥٨٧ .

(٧) Sauvaget (J), Noms et Surnoms de Mamelouk, *Journal Asiatique* ,Tome CCXXXV III, Année 1950, p. 50.

وقـد اشتراه السلطان الناصر محمد صغيراً، فرباه وحظى بمكانة كبيرة لديه ، ثـم قـبض علـيه وعلى جماعة اتهموا بإثارة فتنة ، ثم أفرج عنه لما ظهرت براءته ، فاطلقه وذهب إلى الحج ثم اصبح من الأمراء الخاصكية[1] .

تـدرج فـي سلك الوظائف فتولى نيابة[2] صفد [3] ، ثم نقل إلى نيابة حلب[4] ، وقـد كـان طشتمر شديد البأس ظالم الصورة ، مرّ اللسان صعب الخلق ، كثير الشر وفيه يقول جمال الدين إبراهيم الأديب المعمار[5]

لما طغى طشتمر واعتدى

---

(1) ابن حجر ، الدرر الكامنة جـ ٢ ، ص ٢١٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ١٠١ ؛

The Encyclopaedia of Islam, Art KHASSAKIYYA, New Edition, Leiden, 1978, Vol. IV, p. 1100.

(2) تأتى النيابة فى مقدمة الوظائف على اعتبار أن نائب السلطنة كان بمثابة الرجل الثاني فى الدولة المملوكية بعد السلطان مباشرة ، ولذا فقد وصفته المصادر المعاصرة بأنه سلطان مختصر لقيامه مقامـة السلطان أثناء غيابه ، ولاشتراكه معه فى توزيع الإقطاعات، وفى تعيين الموظفين ، بل والحكـم فـى كـل ما يحكم فيه السلطان ، ومن ثم فقد كان النواب يشكلون خطراً على بعض السلاطين ، بل استطاع بعضهم بالفعل اغتصاب السلطنة لأنفسهم مثلما فعل كل من كتبغا فى عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م ، ولاجين المنصورى عام ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م ؛ مما دفع ببعض السلاطين إلـى العمل على إضعاف هذا المنصب بل وتعطيله فى كثير من الأحيان ، أحمد عبد الرازق ، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧١ م ص ٤٣ .

(3) اليوسـيفى ، نزهة النظار فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق ودراسة أحمد حطيط ، بيروت ط ١ ١٩٨٦م ، ص ٣٢١ ، ٣٤٣ ؛ المقريـزى ، السـلوك ، جـ ٢ ق ٢ ، ص ٤٠٣ ؛ ابن تغرى بـردى ، الـنجوم الزاهرة ، جـ١٠ ، ص ١٠١ ، المنهل الصافى جـ ٦ ، ص ٣٩٢ ؛ حياة ناصـر الحجـى ، أنمـاط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى سلطنة المماليك فى القرنيـن الثامن والتاسع الهجرى الرابع عشر والخامس عشر الملاديين ، الكويت ١٩٩٥م، ص ١٥١ وما بعدها .

(4) الشـجاعى ، تـاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ، تحقيق بربارة شيفر ، فيسـبادن ١٩٧٨م ، ص ٦٣ ، ١٦١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ١٠١ ؛ المنهل الصافى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، القاهرة ، بدون تاريخ . جـ ١٤ ، ص ١٨٧ وما بعدها .

(5) توفى عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م ، انظر ابن تغى برمى النجوم الزاهرة ، جـ١٠ ، ص ٤٨ .

تفاعل الناسلُ بأقوالها

دنا حصاد الحمص المعتدى

ولم تزل مصر بأقوالها[١]

وفى عام ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م تقلد نيابة السلطنة فى مصر[٢]، فاستغل صغر سن السلطان الناصر أحمد وتسلط وتحكم إلى درجة أنه عندما خلع السلطان أحمد على ناصر الدين المعروف بفأر السقوف وجعله إماماً للسلطان وناظراً للمشهد النفسى بدون علمه ، بعث إلى فأر السقوف بعدة نقباء ونزع عنه الخلعة وأمر بضربه وألزمه بحمل مائة ألف درهم وضربه عرياناً ، وأخذ منه المبلغ ، ثم أفرج عنه بعد أن تعهد بالا يطلع إلى القلعة[٣] .

ويدرك الحس الشعبى ، بعفويته وصدق فراسته أن المؤامرة لم تتم فصولاً فيقول شاعر شعبى مجهول ، لم تحفل ذاكرة التاريخ باسمه ، فى طشتمر عندما عاد من حلب لتولى نيابة مصر ، وبدأت مظالمه تترى :

لما رجعت إلينا ∴ من بعد ذا البعد والبين

خلناك تحنو علينا ∴ يا حمص أخضر بقلبين[٤]

وقد أمر السلطان الناصر أحمد بالقبض على حمص أخضر ، وأخذه معه إلى الكرك ، وهناك أمر بقتله[١]. عرف الناس بمقتله فرحوا جميعاً بذلك فقد كان كما

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٥٨ ، حياة الحجى ؛ دراسات فى تاريخ سلطنة المماليك فى مصر والشام ، ط ١ ، الكويت ١٩٨٦ م ، ص ٢٦٦ وما بعدها .

(٢) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٠٥ ؛ المقريزى السلوك ، جـ ٢ ق ٣ ، ص ٦٠٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ٦١ ؛ الصفدى ، أعيان العصر . جـ ٢ ، ص ٥٩٠ .

(٣) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢١١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ق ٣ ، ص ٣٠٦ وما بعدها ؛ محمد عبد الغنى الأشقر ، نائب السلطنة المملوكية فى مصر ، القاهرة ١٩٩٩م ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٩٨ .

ذكرنا سابقاً "ظلوماً عسوفاً سيء الخلق جائراً على أهل مصر فى أفعاله ، حتى قال فيه إبراهيم المعمار :-

أوردت نفسك ذلاً
ورد النفوس المهانة
وبالرشا حزت مالاً
ملأت منه الخزانة
وكم عليك قلوب
يا حمص أخضر ملآنة

وقوله فيه أيضاً :

جننت بالملك لما
أتاك بالبسط ماجن
وقد أمنت الليالى
يا حمص أخضر وداجن

وقول فيه آخر من الشعراء :

طوى الردّى طشتمر بعدمّا
بالغ فى دفع الأذى واحترس
عهدى به كان شديد القوى
أشجَع من يركبُ الفرس
ألم تقولوا حُمصاً أخضرا

---

(1) ابن حبيب ، تذكرة التنبيه فى أيام المنصور وبنيه ، القاهرة ١٩٨٦م ، جـ ٣ ، ص ٦ : ؛ الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ص ٢١٢ ؛ العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٠٦ ، ٢١٧ .

تعجـــبوا بـــالله كـــيف إنـــدرس[1]

وقد قام طشتمر بتشييد العديد من المنشات مثل الدار العظيمة التى ذكرها المقريزى فى خططـــه باسم دار البقر[2] ، كما عمر جامعاً بالصحراء ، والمئذنة الحلزونية والجامعين بالزريـــبة والـــربع بالحريريين ، كما أنشأ قبة بشارع العفيفى بجبانة المجاورين شرقى القاهرة[3] .

الفول المقشر :

لقـــب أطلق على الأمير سيف الدين الساقى الناصرى ، المعروف بقطلوبغا[4] الفخـــرى، والملقـــب بـــالفول المقشر كناية عن لين عريكته وضعفه[5] ، اشتراه الملك الناصـــر محمـــد وأصبح من الأمراء الخاصكية[6] ، ولم يكن لأحد من الخاصكية سواه ولا من غيرهم حظوة لدى السلطان ، ولم يزل عند السلطان أثيراً عالى المكانة ، وكان يشـــتم السلطان فى اللعب ، ويقول له : " يا أعرج ! " وكان السلطان ينسبه إلى الجنون

---

(1) ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ٣ ، ص ٤٧ ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٢ ، ص ٥٩١ ؛ ابـــن أبـــى حجلة ، سكردان السلطان ، ص ٤٠٠ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٩٧ وما بعدها ؛ فوزى أمين المجتمع المصرى ، ص ٣٤ ، ٣٦

(2) تقـــع هذه الدار خارج القاهرة بالنحاسين بجوار قلعة الجبل وبركة الفيل بخط حدرة البقر أنشأها الملك الناصر محمد داراً واصطبلاً للأبقار التى برسم السواقى السلطانية ، وعرفت بدار الأمير طقتمر الدمشقى ، ثم عرفت بدار الأمير طشتمر حمص أخضر ، أنظر المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦٨ .

(3) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ٢ ، ص ٥٨٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق٢ ، ص ٥٤٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ١٠ ، ص ١٠٢ ؛ المنهل الصافى ، جـ٦ ، ص ٣٩٤ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٢٢٠ ؛ الأشقى ، نائب السلطنة ، ص ٢٩٩ .

(4) قطلوبغا أى سعيد الحظ أنظر

Sauvaget. Noms et surnoms de Mamlouk, P. 53

(5) ابـــن تغـــرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ٣٤ ؛ نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

(6) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٤ ، ص ١١٢ ، وما بعدها ؛ ابن حجر الدرر الكامنة ، جـ٣ ، ص ٢٢١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ١٠٣ ؛ حياة الحجى ، دراسات فى تاريخ المماليك ، ص ٢٦٦

ويقول : " هذا مجنون " وكان فيه هرج ورهج، خفيف العقل كثير الشغف بالفسق ، لذا كرهه السلطان ونفاه إلى الشام ، ثم عاد وأفرج عنه[١] .

كـــان الفخـــرى وطشـــتمر أخوين، تربوا جميعاً وتأمروا جملة فى بداية دولة الناصـــر محمد عند عودته من الكرك[٢] ، وقد أراد السلطان إمساكه هو وأخاه طشتمر حمص أخضر ، وكان يدعوه " أخى " فوقف الحرافيش تحت القلعة واستغاثوا ، ودخل خشداشيته على السلطان ، فأفرج عنهما ، وعرف أنه لا قبل له بهما[٣] .

وقـــد عيـــن قطلوبغـــا فى نيابة دمشق فى سلطنة الناصر أحمد[٤] ، ولما انفرد طشتمر بأمور الدولة دون السلطان فكر الناصر فى القبض عليه وهو وطشتمر ، وبعد خـــروجه إلـــى دمشـــق أرسل الناصر للقبض عليه ، ولما أحس بذلك فرق ما معه من الأموال وهرب ، ثم أمسك به وقيده ، ولما بلغ الناصر أحمد إمساكه خرج إلى الكرك، وأخذ معه طشتمر ، واعتقل الفخرى وطشتمر بالكرك مدة يسيرة ، ثم أمر بقتلهما[٥] .

ولما تم القبض عليه وقتل، قال الأديب خليل بن أيبك الصفدى شعراً :-

سَـــمَت هِمَّـــةُ الفخـــرى حـــتى ترفعت

علـــى هَامَـــةَ الجوزاء والنسر بالنصر

وكـــــان للملـــــك فخـــــرٌ فخانـــــه

---

(١) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٤٩ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٢٢١ .
(٢) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٤٩ وما بعدها .
(٣) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٢ ، ص ٥٨٧ .
(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ق ٣ ، ص ٦٠٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ٦٢ .
(٥) الشـــجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٠٩ وما بعدها ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٤ ، ص ١١٨ ، ١١٩ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ٣ ، ص ٤٦ ؛ المقريزي ؛ السلوك ، جـ ٣ ق ٣ ، ص ٦٠٧ وما بعدها ؛ ابن أبى حجلة ، سكردان السلطان ، ص ٤٠٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ص ١٠٣ ؛ حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

الـــزمان فأضحى ملكُ مصر بلا فخر[1]

ثانياً ألقاب الذم والقدح :

المجنون :

أطلـــق هذا اللقب على يلبغا الأحمدى المجنون ، ففى عام ٧٧١ هــ/ ١٣٦٩م أنعـــم عليه السلطان الأشرف شعبان بتقدمة ألف ، وفى عام ٧٩٣ هــ/١٣٩٠ م استقر فـــى كشـــف الوجـــه الـــبحرى[2] ، وفى عام ٧٩٨ هــ/ ١٣٩٥ م نقل إلى نيابة الوجه القـــبلى ، ثـــم فى عام ٧٩٩ هــ / ١٣٩٦م عين أستاداراً للسلطان خلفاً للأمير قطلوبك العلائـــى ، ومـــارس العمل فى الاستادارية والكشف ، وأمر بالقبض على ناصر الدين محمد بن محمود الاستادار وألزم بسداد ثلاثة آلاف دينار بعد موت أبيه[3] .

كما أطلق هذا اللقب أيضاً على سودون المحمدى المعروف بتلى أى المجنون، وكـــان من أعيان خاصكية مماليك السلطان الظاهر برقوق ، ومن ثم رقى فى أيام ابنه الناصــــر فرج إلى أمير مائة ومقدم ألف ، ثم قبض عليه وحبس بسجن الإسكندرية ، ثم أفرج عنه فى سنة ٨٠٧ هــ / ١٤٠٤ م ، واستقر فى الأخورية الكبرى[4] ، وبعد ذلك اســـتقر فى دمشق على إقطاع ، ولما رجع إلى القاهرة تم القبض عليه بسبب عصيانه للناصـــر فرج وحبس بسجن الإسكندرية ، وبقى هناك إلى أن قتل فى عام ٨١٨ هــ /

---

(١) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٠٦ ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٤ ، ص ١٢٠ ؛ ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ص ١٠٣ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ١٨٣ ، ١٩٦ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات م ٩ جـ ٢ ، ص ٣٣٥ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٢، ص٤٩٣ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ق ١ ، ٢٠ ، ص ١٨٥ ن ٧٣٤ ، ٧٨٤ ، ٨٥٠ ، ٨٨٠ .

(٤) وظـيفة يقـوم صـاحبها بالإشـراف على اسطبل السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من خيل وحـيوانات ، انظـر المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق٢ ، ص ٤٣٨ هامش ٣ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١٤ .

١٤١٥ م ، وقــد ذكــره العيــنى بقوله : " سودون المحمدى المجنون كان شاباً شجاعاً مفرطاً فى الجهل "[١] .

وأطلقــت المصــادر المملوكــية هذا اللقب على بعض السلاطين ، فقد ابتلى العصــر المملوكــى بســلاطين ضعاف، لا يعرفون من أمور السلطنة أى شيء ، ولا يحســنون تدبــير الأمور، فى وقت كانت فيه أحوال السلطنة متدهورة مفتتة ، فقد ولى الســلطنة بعد السلطان خشقدم يلباى المقلب بالمجنون وذلك فى عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م ، وكــان أرشل قليل المعرفة ، فاطلقت عليه العامة لقب المجنون ، وقضى وقته على حــد تعبــير ابن إياس " فى غلاسة هو ومماليكه ، وكان ملبسه غلس وسماطه غلس ، وشــكله ســمج وتدبــيره ســيء ... فجمع بين قبح الفعل والشكل وسوء الطباع ومقت اللســان، وكــان عنده شح زائد ، وبخل كثير ، سيء التدبير فى سائر أفعاله ؛ كما قيل فى المعنى :

وفــظّ غلــيظ الطــبع لا ودّ عــنده
ولــيس لديــه للأخِــلاّء تأنــيس
تواضــعه كــبر وتقريــبه جفــا
وترحيــبه مقــت وبشــراه تعبــيس[٢]

وكانت أيام سلطنته شر أيام مع قصرها ، وكان مع خايربك الدوادار فى غاية الضــنك ، لــيس له فــى السلطنة إلا مجرد الاسم فقط ولا يتصرف فى شئ من أمور المملكــة إلا بمشورة خايربك ، فكان إذا سئل فى شئ يقول : " إيش كنت أنا " قُل له ،

---

[١] السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٢ ، ص ٢٨٥ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٦ ، ص ١١٨ وما بعدها ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٨٣١ .

[٢] ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٤٦٦ ؛ صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١ م ، ص ١٩٤ .

يعـــنى قُــل لخـــيربك حــتى ســمته العــوام " قُـــل له " [1] . وذلك من قبيل السخرية والاستهزاء ، ويعتبر قل له من الألقاب التى تتسم بالفكاهة والسخرية .

شيطان[2] :

أطلـــق هـــذا اللقـــب على الأمير علاء الدين أقبغا بن عبد الله الظاهر ، وفى سـلطنة المؤيد شيخ جمع بين ولاية القاهرة وحسبتها وشد الدواوين فى وقت واحد ، ثم قـــبض علـــيه وحـــبس ثم قتل وذلك فى عام ٨٢١ هـــ/ ١٤١٨م[3] ، وكان عنده نباهة ومعـــرفة مع ظلم وعسف ، إلا أنه كان عفيفاً عن المنكرات حسب شهادة المؤرخ ابن تغرى بردى[4] .

الدم الأسود[5] :

أطلـــق هـــذا اللقـــب أيضاً على الأمير سيف الدين ملكتمر الجمالي الناصري المـــتوفى عـــام ٧١٤ هـــــ / ١٣١٤م ، وكان ظلوماً غاشماً في الظلم المسرفين على أنفســـهم ، وكـــان له إقطاع بدمشق ، فأخذ منه الخراج خمس مرات على مدار السنة ، ففعل ذلك شركاؤه ومن جاء بعده[6] .

فأر السقوف :

أطلـــق هذا اللقب على ناصر الدين، متولى حسبة مصر ، أثناء سلطنة الناصر أحمد لكونه فَتنِي[7] .

---

(1) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٢ ، ص ٤٦٦ وما بعدها ؛ صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، ص ١٨٨ .

(2) ربما أطلق عليه هذا اللقب لتصرفاته التى تتسم بالشيطانية .

(3) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـــ ٢ ، ص ٤٨٤ .

(4) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـــ ١٤ ، ص ١٥١ .

(5) يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يحقد على الناس .

(6) ابن أبى الفضائل ، تاريخ سلاطين المماليك ، باريس ١٩١٩ م ، جـــ ٣ ، ص ٢٤٤ ؛ الصفدى ، أعـــيان العصـــر ، جـــ ٥ ؛ ص ٤٤٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـــ ٢ ق ١ ، ص ١٤١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـــ ٩ ، ص ٢٢٨ ؛ المنهل الصافى ، جـــ ٣ ، ص ١٨٨ .

(7) نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

وتــروى المصادر أنه فى عام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م وقفت العامة للسلطان فى الفــأر ضــامن[١] المعــاملات ، وشكوا مما أحدثه على القصب والمقانى وصاحوا : " يكفيــنا النشــو ، فلا تسلط علينا الفأر !! وتحسبه ، وتكتب على قيده مُخَلداً ، ويضمن غــيره بــناقص عشرة آلاف درهم ، فطلب السلطان النشو وأنكر عليه ، ورسم لسنجر الحمصــى أن يضرب الفأر ويحبسه ، ويكتب على قيده مخلداً ، ويضمن غيره بناقص عشرة آلاف درهم ، ففعل ذلك ، ومشت أحوال الناس[٢] .

وفــى عــام ٧٤٤ هـــ / ١٣٤٣ م رســم السلطان أن يعاد إلى ناصر الدين المعــروف بفأر السقوف ما أخذ له من نيابة الأمير طشتمر ، وخلع عليه بحسبة مصر عوضــاً عن ابن بنت الأعز ، بشفاعة الأمير ملكتمر الحجازى ، فأعيد له مبلغ أربعين ألف درهم من بيت المال[٣] .

---

(١) نظــام الضــمان الذى يمثل جانباً من مسئوليات الجهاز الضرائبى فى الدولة، حيث كانت مهمة الضامن تنحصر فى تعهد أحد الأشخاص للمسئولين فى هذا الجهاز بتحصيل الضرائب المقررة علــى أى نشاط اقتصادي أو عمل حرفى ، ومن ثم توكل إليه مهمة القيام بهذه المسئولية بعد أن يدفع مبلغاً معيناً من المال وعلى ذلك يبدأ هذا الضامن ممارسة عمله فى جمع الضريبة المقررة من الناس المعنيين . ولكن فى سبيل استعادة ذلك المبلغ الذى دفعه مقدماً فإن الضامن يولى عناية خاصة بتحصيل أولاً – قدر مناسب من المال لجيبه الخاص ثم بعد ذلك تحصيل الضريبة المقررة رسمياً للحكومة ، فكأن المواطن مجبر على دفع مبلغين من المال ، أو بالأحرى ضريبة مضاعفة نصفها لديوان المكوس ، ونصفها الأخر للضامن . مما يعنى مضاعفة المعاناة النفسية والخسارة الماديــة نتــيجة لهاذ النظام الضرائبى السيئ ، وقد تطاول الضامن ظلماً على حقوق الرعية ، وتغاضى أصحاب السلطة أو الحكومة عن الصور المختلفة من الظلم والتعسف والاضطهاد الذى يمارســه هــؤلاء الضــمان ضد الرعية وعلى حساب حقوقهم وحريتهم وأموالهم دون رقيب أو حسيب . أنظر حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٢٦٧ .

(٢) اليوســيفى ، نــزهة النظار ، ص ٣٧١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٢ ، ٤٢٠ ؛ حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٢٤٠ .

(٣) Ahamd Abd ar-Ráziq, Les Muhtasibs de Fostat au temps des Mamlūks, pp. 127, 146 5-P. 130 fōr al–Suqūf, Nāsir ad-Din; La Hisba et le Muhtasib en Egypt au temps des Mamlūks, pp. 115-178 – 138;
المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٤ ؛ اليوسفى ، نزهة النظار ، ص ٣٩١ .

وفـــى عام ٧٥٠ هـــ / ١٣٤٩ م أعيد فأر السقوف إلى ضامن جهات القاهرة ومصــــر بأجمعها ، وكان قد سجن فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، وكتب على قيده مخلـــد ، بعد ما صودرت أمواله وضرب بالمقارع لقبح سيرته ، فلم يزل مسجوناً إلى أن أفـــرج عـــنه فـــى أيام الصالح إسماعيل ، وانقطعت أخباره إلى أن اتصل بالوزير مـــنجك فســـلمه الجهات بأسرها وخلع عليه ، وقد منع مقدمى الدولة من مشاركته فى الـــتحدث فـــى الجهات ، ونودى له فى القاهرة ومصر فزاد فى المعاملات [١] ثلاثمائة ألف درهم فى السنة[٢] .

وفـــى عام ٧٥١ هـــ / ١٣٥٠ م أصبح الناس فى بلاء عظيم من فأر السقوف ضـــامن المعـــاملات ، فقد أحدث حوادث قبيحة فى دار البطيخ ودار السمك ، وكثرت الشـــكوى مـــنه ، ووقفت العامة تشكوه للسلطان ، فلم يتغير الوزير عليه ، ولكنه قبض عليه بعد قليل وضرب بالمقارع وأخذت منه جملة من الأموال وسجن[٣] .

وفـــى نفـــس العـــام أفرج ابن زنبور عن الفأر الضامن بسفارة الأمير ملكتمر المحمـــدى ، وضـــمنه الجهـــات بـــزيادة خمســـين ألف درهم ، وضمن الفأر معاملة الكيزان[٤] من الأمير طيبغا المجدى بزيادة ثلاثين ألف درهم [٥] .

---

(١) أشـــار المقريـــزى فى كتابه المواعظ ، والاعتبار ط ١ ص ١٠٥ إلى المعاملات بأنها المكوس الســـلطانية الـــتى فرضـــتها دولـــة المماليك على الناس فى مصر منذ أيام السلطان المعز أيبك الـــتركمانى ، لكنه لم يدل على هذه المكوس بتعريف واضح أنظر المقريزى ، السلوك ، جـــ ١ ص ٣٨٤ ، ٥٤٤ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـــ ١ ق ٢ ، ص ٥٤٤ .

(٣) المقريـــزى ، السلوك ، جـــ ٢ ق ٣ ، ص ٨٤ ، ٨٢٣ ، ٨٤٩ ؛ حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٢٥٠ .

(٤) عـــرف Dozy, Supp. Dict هـــذا اللفـــظ ومفرده كوز بأنه قدح لحفظ اللبن ويبدو أن المقصود بمعاملـــة الكيزان هنا أن صناعة هذه الكيزان كانت مما يقوم به أحد العاملين – أى المتعهدين – علـــى قـــاعدة احـــتكار هذه الصناعة ، مقابل مبلغ ضمان يدفعه المعامل – أى المتعهد لصاحب الأرض التى تصلح طينتها لصنع هذه الأقداح ، أنظر المقريزى ، السلوك ، جـــ ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٢٩ .

(٥) المقريزى ، السلوك ، جـــ٢ ، ق٣ ، ص ٨٢٩ وما بعدها .

ركين ودقين: [١]

أبو زلطة: [٢]

أطلـــق هذا اللقب على أيدمر الشمسي نائب الوجه القبلى[٣] ثم الوجه البحري ، ومـــا لبـــث أن شغل نيابة البحيرة فى عام ٧٩٣ هــ / ١٣٩٠ م ، ويبدو أن أبو زلطة كـــان شرهاً في جمع الأموال ، فقد أصدر السلطان برقوق أوامره بالقبض عليه ، ولما أحضـــر بين يد السلطان ضرب بالمقارع مع مجموعة من الأمراء ثم سلمهم إلى والى القاهرة ليدفعهم على حمل المال الذي اغتصبوه.[٤]

أبو كُم: [٥]

أطلق هذا اللقب على علم الدين يحيى بن أسعد الدين الأسلمى الذى كان يباشر نظـــر الأسواق ثم استقر فى الوزارة ونظر الخاص ، عوضا عن الصاحب فخر الدين مـــاجد بـــن غـــراب وذلـــك فـــى عام ٨٠٣ هــ / ١٤٠٠م ، وكان يريد الانتقاء من النصرانية ، فذهب إلى مكة للحج ، وأكثر من زيارة الصالحين . [٦]

وفى عام ٨٠٤ هــ / ١٤٠١م صرف من الوزارة وتم القبض عليه وسلم إلى شـــاد الدواوين حيث صودرت أملاكه . [٧] وفى عام ٨٠٦ هــ/ ١٤٠٣م اختفى الوزير

---

(١) أنظر لقب الأعرج ص ١١ من هذا البحث .

(٢) من المرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يتكلم بقسوة وتجهم وكأنه يلقى بزلطة فى وجه محدثه .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ق ١ ، ص ٤ .

(٤) المقريزي، السلوك، جـــ٣ ق٢، ص٥٧٤، ٧٥٢ ؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م٩ ق١، ص ٢٩٦.

(٥) ربما أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يرتدي ملابس ذات أكمام واسعة .

(٦) المقريزى ، السلوك ، جـــ ٤ ق ٢ ، ص ٨٧٧ ؛ العينى ، السيف المهند ، ص ٣٤٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ١ ق ٢ ، ص ٦٢١ ، ٦٤١ ، ٦٧٩ .

(٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ١ ق ٢ ، ص ٦٣٢ ، ٦٤٤ .

أبـو كــم من داره ولم يعرف موضعه ، بسبب عجزه عن سد تكاليف الوزارة ، فأعيد إليها التاج بن البقرى [1] .

سن إبرة: [2]

أطلـق هـذا اللقـب علـى علم الدين عبد الوهاب الطنساوى الذى استقر فى الوزارة عوضاً عن كريم الدين بن مكانس ثم سلم ابن مكانس وإخوته وأقاربه وحاشيته إلى شاد جهات الدواوين فقام بتعذيبهم [3] .

وقـد تغـير خاطر السلطان على علم الدين ، وقام بضربه ضرباً مبرحاً ، ثم أخلع عليه وأعاده إلى الوزارة [4] ، ويبدو أن سن إبرة كان يحب الأموال ويقوم بجمعها مـن الناس ، ففى عام ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م أمر السلطان بالقبض عليه وسلمه إلى شاد الدواوين لمعاقبته على الأموال المغتصبة من الناس [5] .

الطويل : [6]

نعـت لشـمس الديـن محمد بن عبد الخالق المناوى ، الذى استقر فى حسبة القاهرة عام ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م وصرف الهُوَّى ، ثم أعيد الهُوَّى إلى الحسبة وعزل الطويل ، ثم أعيد وعزل ابن شعبان [7] .

---

(1) السـخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٠ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٦٧٩ .

(2) يـرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأن جسمه كان رفيع مثل سن الإبرة نحيلاً ، أو ربما كان يتدخل فى كل شئ .

(3) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ ؛
Ahamad Abd ar-Ráziq, Les vizirs Egypte au temp des Mamlūks, pp. 183 – 239.

(4) المقريـزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ق ٢ ، ص ٨٩٤ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٣٢٣ .

(5) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٣٢٦ .

(6) يحتمل أنه أطلق عليه ذلك بسبب طوله الفارع .

(7) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق١ ، ص ٢٩ وما بعدها ؛
Ahmad Abd Ar-Razice, La hisba et le muhtasib en Egypt, p. 156.

وفي عام ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م تولى الطويل حسبة القاهرة ووكالة بيت المال ونظر الكسوة ونظر الأوقاف وكان فى غاية الجهل وقد توفى فى عام ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م [١] .

إبن المكللة : [٢]

أطلق على تاج الدين بن أحمد بن على الذي استقر في حسبة القاهرة في سنة ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦ م[٣] .

المؤذى :

كنية عرف بها سيف الدين تغرى بردى بن عبد الله البكلمشى[٤] الدوادار الكبير المعروف بالمؤذى ، وربما كان إطلاق هذا اللقب عليه بسبب إضراره بالناس لقيامه بمصادرة كثير من الأموال والأملاك ، وهو أحد مماليك بكلمشى العلائى الذى صار من جملة المماليك السلطانية ، إلى أن ترقى وصار من جملة أمراء العشرات فى دولة الناصر فرج ، وظل على ذلك نحو عشرين سنة الى أن أنعم عليه الملك الأشرف برسباى بإمرة طبلخاناة فى عام ٨٣٤ هـ / ١٤٣٠ م ، وكان قد جعله قبل ذلك بمدة يسيرة من جملة رؤس النوب ، ثم صار رأس نوبة ثانية ، فلما ولى هذه الوظيفة

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ق ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) نوع من أنواع الأفاعى يطلق عليه الصل ، أو المكللة ، لأنها مكللة الرأس ، وهى شديدة الفساد ، تحرق كل ما مرت عليه ولا ينبت حول حجرها شئ من الزرع أصلاً . وإذا حاذى مسكنها طائر سقط ، ولا يمر بقربها حيوان إلا هلك ، وتقتل بصغيرها على غلوة سهم ، وضربها فارس برمحه فمات هو وفرسه ، انظر كمال الدين الدميرى ، حياة الحيوان الكبرى ، طبعة القاهرة بدون تاريخ ، جـ ١ ، ص ٣٨٤ ؛ ثناء أنس الوجود ، رمز الأفعى فى التراث ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ١٩ وما بعدها .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٣ ؛
Ahmad Abd Ar-Ráziq, La hisba Le muhtasib en Égypt, P. 157.

(٤) ابن حجر ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، جـ٤ تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٩٨م ، ص ٢٠٢ ؛ ابن تغرى برملى ، النجوم الزاهرة ، جـ١٥ ، ص ٤٩٦ ؛ الدليل الشافى ؛ جـ١ ص ٢١٧ ، ترجمة رقم ٧٢٣ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص ٢٧ ، ١٣٣ ؛ التبر المسبوك ، ص ٤٤ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢٣٥ .

ومسـك العصـا في يده ، صار يضرب هذا وينهر هذا ، ويدفع هذا ، وأظهر ما كان خفياً عن الناس من شهرته بالمؤذى[1] .

وفـى عـام ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م أصبح أمير مائة ومقدم ألف إلى أن ولاه الملـك الظاهـر جقمق حجوبية الحجاب عوضاً عن يشبك المشد ، ولم تطل مدة تغرى بـردى فـى الحجوبـية ، وتم نقله إلى الدوادرية الكبري ، وقد باشرها بحرمة وافرة وعظمـة زائـدة ، بحيـث لم يدع لأرباب الدولة شيئاً من الأمر والنهي وكان محمود السـيرة فى أحكامه إلا أنه كان فظاً غليظاً بذيء اللسان شرس الخلق ، يخاطب الرجل بمـا يكـره غير بشوش ، متكبراً وعنده جبروت ، ولما عظم أظهر ما كان مخفياً من لقـبه فانطـبق الاسم على المسمى ، وقد توفى فى عام ٨٤٦ هـ / ١٤٤٢[2] ، بعد أن عمـر مدرسته بالقرب من جامع أحمد بن طولون ، وجعل فيها خطبة ومدرساً وشيخاً وصوفية ، ووقف عليها أوقافاً كثيرة[3] .

السكر والليمون : [4]

فـى عـام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م استقر شخص من الكتبة يعرف بابن السكر والليـمون ناظـراً فى ديوان المفرد ، وفى عام ٨٥٩ هـ / ١٤٥٤ م ضرب السلطان الملـك الأشرف فخر الدين الملقب بابن السكر والليمون ناظر ديوان المفرد علقة كبيرة بسبب تعويق جامكية المماليك السلطانية[5] .

---

(١) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، جـ ١ تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ، ١٩٩٠ م ص ٥٤ وما بعدها ؛ السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ، ١٣٥٤ ، جـ٣ ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٤ ، ص ٥٤ وما بعدها .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ١٦٣ ؛ منتخبات من حوادث الدهور ، جـ١ ، ص ٥٥ ؛ على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٨٠ ، جـ ٢ ، ص ١١٥ .

(٤) من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب ، لأنه كان يحب شرب الماء بالسكر والليمون ، وربما كان كلامه مثل حلاوة السكر والليمون .

(٥) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، جـ ١ ، ص ٣٨٩ .

وفـــى عـــام ٨٦٠ هــ / ١٤٥٥ م أخلع السلطان على فخر الدين واستقر فى وظيفة ناظر الدولة بعد عزله عن ديوان المفرد[١] .

الدباح[٢] ، الفاجر: [٣]

ضـــنت علينـــا المصادر المملوكية المعاصرة بالمعلومات عمن تلقب بكل من الدباح والفاجر ، ولم يذكر ابن إياس المناسبة التى ذكر فيها هذان اللقبان .

ثالثاً : ألقاب السخرية والاستهزاء :

طلليه :

لقـــب أطلـــق على الأمير سيف الدين طشتمر ، وقد أطلق عليه هذا اللقب لأنه كـــان إذا تكلـــم بشيء قال فى أخر كلامه طلليه كأنه يغنى بها ، وقد كان من المماليك الناصـــرية ، عظم شأنه فى أيام المظفر حاجى ، وجعله أمير سلاح ، ولم يزل فى هذه الرتبة إلى أن صار ربع الحياة من طلليه طللاً ، وحمل إلى قبره ، وقد نشرت الرحمة عليه ظللاً ، وقيل أنه توفي فى طاعون مصر سنة ٧٤٩ هــ / ١٣٤٨ م[٤] .

أبو دقن : [٥]

لقـــب أطلـــق على الأمير عز الدين أزدمر العزى أمير سلاح الذى ولى إمرة الســـلاح مرتيـــن الأولى فى عهد السلطان حسن ، والثانية فى دولة السلطان الأشرف شعبان ، كما تولى أيضا نيابة حلب وطرابلس وصفد ، وغير ذلك من النيابات ، وكان

---

(١) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، جــ ١ ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤٥٣ ، ٤٩٦ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جــ ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٢) المقريـــزى ، الســـلوك ، جــ ٣ ق ١ ، ص ٢٨٨ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جــ ١ ق ١ ، ص ١٩٠ . ربما أطلق عليه هذا اللقب لما عرف عنه الفتك بالأعداء وكثرة سفك الدماء .

(٣) ابـــن إيـــاس ، بدائع الزهور ، جــ ٥ ، ص ٤٠ ، ٤٧ . يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب نتيجة لتصرفاته التى تتسم بالفجور والمجون .

(٤) الصفدى ، أعيان العصر ، جــ ٢ ، ص ٥٩١ ، المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٦٧٨ .

(٥) من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب بسبب طول لحيته ولذلك عرف بها .

أمـــيراً معظمـــاً مـــبجلاً وـــله بر ومعروف توفى فى سنة ٧٦٩ هـــ / ١٣٦٧ م منفياً بالشام[١] .

اللفاف : [٢]

لقـــب أطلق على الأمير طشتمر المحمدى ، الذى كان يجلس رأس الميمنة فى أيـــام السلطان نور الدين على بن الأشرف شعبان والذى أنعم عليه بجميع أملاك الأمير صير غتمش بعد القبض عليه[٣] .

وطشـــتمر اللفاف المحمدى أحد أمراء العشرات ، وقد خلع عليه واستقر أمير مائـــة مقـــدم ألف ، ثم قبض عليه وهموا بضرب عنقه لولا شفاعة الأمير قرطاى الذى ضمن لهم أن ينفق فيهم ما وعد به ، وما زال يتطلف بهم حتى أطلقوا سراحه ، وتوفى فى طاعون سنة ٧٧٩ هـــ / ١٣٧٧م[٤] .

أصفر عينه : [٥]

لقـــب أطلـــق علـــى جمال الدين محمود بن على صاحب المدرسة المحمودية الواقعـــة فى القربين[٦] ، وقد استقر شاد الدواوين[٧] ، ثم عمل فى وظيفة الأستادارية فى عـــام ٧٩٠ هـــــ/ ١٣٨٨ م ، وبعـــد ذلك غضب السلطان الظاهر برقوق عليه وأمر بمعاقبـــته حـــتى يموت ، وتوفى فى عام ٧٩٩ هـــ / ١٣٩٦ م ودفن بمدرسته ، وكان

---

(١) المقريـــزى ، الســـلوك ، جـــ ٣ ق ١ ، ص ١١٨ ، ١٦٤ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـــ ١ ق ٢ ، ص ٥٨ ، ٧٨ .

(٢) ربما أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يلف ويدور فى الكلام .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ١ ق ١ ، ص ١٩٠ .

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـــ ٣ ق ١ ، ص ٢٨٧ وما بعدها ؛ ابن تغرى بردى ،المنهل الصافى ، جـــ٦ ، ص ٣٩٤ .

(٥) يرجح أنه لقب به لأنه كان كثير الحسد للآخرين .

(٦) انظر فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، أثر رقم ١١٧ مصلحة المساحة ١٩٥١م، ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـــ١ ، ص ٣٤٩ ، ٣٧٤ .

(٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ١ ق٢ ، ص ٣٢٣ .

كثير الصلاة والعبادة إلا أنه كان شحيحاً شرهاً فى الأموال ، وأكثر من ضرب الفلوس بمصر حتى فسد بكثرتها حال مصر(١) .

سلطان ليلة :

بعد يلباى المجنون تولى السلطنة الظاهر تمربغا الرومى سنة ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م ولم يستطع تمربغا إرضاء المماليك الخشقدمية وزعيمهم خيربك فعزله بعد شهرين ، ومن الواضح أن خير بك عندما دبر عزل تمربغا ، إنما كان يبغى الاستئثار بالعرش لنفسه ، وفعلاً صعد خيربك إلى دست السلطنة أثناء الليلة ولقب نفسه بالظاهر تشبهاً بأستاذه الظاهر خشقدم ، ولكن الأتابك قايتباى أسرع إلى القلعة وسيطر علي الموقف ، وتولى السلطنة بعد عزل خير بك الذى أطلق عليه لقب " سلطان ليلة ، لأنه لم يبقى فى كرسى السلطنة سوى ليلة واحدة ، فكما قيل فى المعنى :

" كلام الليل يمحوه النهار " وقد سمته العامة سلطان ليلة ، وتم القبض عليه وسجن بالإسكندرية(٢) .

سلطان الجزيرة :

لم يختلف عصر أحفاد الناصر عن عصر أولاده فى صفاته العامة(٣) وسلطاننا الذى نتحدث عنه من عصر أحفاد الناصر ، فبعد خلع الملك الأشرف شعبان من السلطنة تولى أنوك (٧٦٥ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦م) ، ولقب بالملك المنصور ، ونودى باسمه فى شوارع القاهرة ، فعند ذلك اضطربت أحوال الناس ، وأغلقت أسواق القاهرة ، وكانت سلطنته بجزيرة أروى فصارت العوام يرقصون

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٥ وما بعدها ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، جـ١٢ ، ص ١٥٨ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٧ .

(٣) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١٣٤ .

ويقولــون " ســلطان الجزيرة ، ما يساوى شعيرة " يعنى يهزأون بالسلطان أنوك الذى تمت سلطنته علي يد الأمير يلبغا بجزيرة أروى[١] .

من هذا العرض يتضح لنا أن هذه المجموعة من الألقاب السابق الإشارة اليها تشير إشارة ساخرة إلى سلوك السلاطين والى كونهم ألعوبة فى أيدى الأمراء .

رابعاً : ألقاب الضعف :

هات لبن :[٢]

كنــية أطلقت على الأمير قانصوه بن سلطان جركسي ، أمره السلطان قانصوة الغوري بــأن يتوجه إلى الشرقية ، فلما وصل هناك امتنع عن مقابلته العربان وازدادوا عصياناً فــوق عصــيانهم ، ولقــبوه بهات لبن ، ومكث هناك نحو أربعين يوماً ثم رجع بدون طائل[٣] .

روح لو :[٤]

فــى عــام ٩١٦ هــ / ١٥١٠ م خُلع علىٰ الأمير قانصوه روح لو باشا أحد الأمــراء المقدميــن بنيابة قطية ، وكان قبل ذلك نائب غزة وحلب ، إلى أن تولى نيابة قطية وهذه درجة سفلى إلى الغاية ، فعد ذلك من النوادر الغريبة[٥] .

---

[١] المقريــزى ، الســلوك ، جــ ٣ ق ١ ، ص ١٣٥ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جــ ١ ق ٢ ، ص ٤٧ وما بعدها .

[٢] عن المرجح أنه كان يعشق شرب اللبن ، بالإضافة إلى أنه كان لا يرى أحداً إلا ويقول له : هات لبن .

[٣] ابن إياس ، بدائع الزهور ، جــ ٤ ، ص ٢٥ .

[٤] ربما أطلق عليه هذا اللفظ لضعف شخصيته واعتماده على الآخرين فى تصريف أموره .

[٥] ابن إياس ، بدائع الزهور ، جــ ٤ ، ص ١٩٢ وما بعدها .

وفـــى عـــام ٩٢٢ هــ / ١٥١٦ م خلع السلطان الغورى على الأمير قانصوه روح لو وقرره كاشف الشرقية عوضاً عن قجماس الذى كان بها[١] .

وفـــى عـــام ٩٢٣ هــــ / ١٥١٧ م عثر على جثة الأمير روح لو أمام سبيل السلطان والكلاب تنهش فى مصارينه وشحم بطنه ، فقد كان رجلاً جسيماً[٢] .

خامساً : ألقاب الخيانة :

خاين بك :

هـــو خايـــر بك[٣] نائب حلب ، كان موالسا على السلطان فى الباطن ، ويعتبر أول من كســـر عسكر السلطان وهرب عن ميسرته حتي انهزم السلطان الغورى ، ثم هرب إلى حمـــاة ، فمـــا دخل ابن عثمان حلب خلع عليه وأصبح من جملة أمرائه ، وارتدى زى الـــتراكمة العمامـــة المدورة والدلامة ، وقام بقص ذقنه ، وأطلق عليه ابن عثمان لقب خاين بك لأنه خان السلطان الغورى[٤] .

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٤ ، ٣٩ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ١٥٦ .

(٣) Mohamed Mostafa, Háir Báj Sultán Laila, Studien Geschichte und Kultur des nahen und fernen ostens, pp. 125 – 132 Leiden 1935; Lindas Northrup, Letters de Hair Beg, dérnier vâid Mamlouk d'Alep, à al porte Ottomane, *Journal Asiatique*, 1993, pp. 235 – 315 vol 281 No. 3 – 4; David Ayalon, Egypt as a Dominant Factor in Syria and Palestine During the Islamic Period, 1984, pp. 38; 39. The Encyclopaedia of Islam, New Edition Vol. (4) Leiden 1978. Art Kánsawh al Ghawri, pp. 552 – 553.

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٧٦ ؛

Daivd Ayalon, The End of the Mamlúk Sultanate, *Studia Islamica*, Vol. 3, 1978, pp. 134, 138, 139; Names titles and "nisbas" pp. 224, 225-226.

P.M. Holt, The Last Mamlūk Sultan: Al-Malik Al Ashraf Tūmān Bāy, Jerusalem Studies in Arabic and Islam Vol. 25, 2001, pp. 234, 246.

جدول بالألقاب والكني الشعبية الساخرة فى العصر المملوكى

ألقاب المدح	ألقاب الذم والقدح	ألقـاب السخرية والاستهزاء	تـابع ألقـاب السـخرية والاستهزاء	ألقـاب الضعف	ألقـاب الخيانة
- الأعرج	- ركين	- سلطان الجزيرة	- سلام عليكم	- هات لبن	- خا بك
- سم الموت	- دقين	- طللية	- حلاوة	- روح لو	
- حمـص أخضر	- المجنون	- أبو دقن	- حاصل ما تم		
- الفـول المقشر	- سـلطا ليلة	- اللفاف	- أبو نبوت		
	- الـد الأسود	- أصفر عينه	- الصنجق سبع		
	- فـأ السقوف	- فرفور	- بنات		
	- سن إبرة	- المزوق	- صنجق سته		
	- أبو زلطة	- الضاني			
	- أبو كم	- اللكاش			
	- الطويل	- محنى دقنه			
	- المؤذى	- السكر والليمون			
	- ابن المكللة	- تمساح			
	- الدباح	- أبو سنة			
	- الفاجر	- الموتر			
		- الأقرع حداية			

من هذا العرض يتبين لنا أن هذه الألقاب والكني إن دلت على شيء فإنما تدل علـى تفـاعل الشـعب مع سلاطينه وأمرائه فى كل العصور ومراقبته لهم فى كل ما

يفعلونـــه فى فترة حكمهم من تصرفات شخصية أو عامة تمس الحكم وهذا أيضاً يعكس تمتع هذا الشعب بروح الفكاهة والدعابة التى صاحبته فى كل الأزمنة ، والتى قد تكون مخــرجه مما يعتريه من أزمات ومشاكل ينفرد بها عن شعوب العالم ، كما أن إطلاق هذه الألقاب الشعبية الساخرة يعكس أدباً شعبياً نضالياً وثقافة فطرية تتمتع بها العامة .

وممــا لا شك فيه فإن لهذه الألقاب والكنى دلالات سياسية وإدارية واجتماعية واقتصـــادية تتبين لنا على الوجه التالي : فلقب الأعرج مثلاً والذى أطلقته العامة على الســلطان الناصــر محمــد له دلالة سياسية لدى شعب مصر في العصر المملوكى ، فالعامــة ترفض حكم السلطان بيبرس الجاشنكير لأن الناصر مازال يتمتع بعطف كثير مــن الناس داخل مصر وخارجها ، بالإضافة إلى أن أمراء حلب وطرابلس وحماة كان هدفهــم القضــاء علــى المظفــر بيبرس وإعادة الناصر محمد إلى عرشه مرة ثالثة ، وأخــيراً يخرج الناصر محمد من دمشق قاصداً القاهرة ، ويستقبل فى جميع البلاد التى مر بها بالترحاب والسرور والحب والمودة حتى دخوله قلعة الجبل .

كمــا أن هــذا اللقــب كشف عن ثقافة العوام باعتبارها دالة على أدب شعب فطرى ذى طابع نضالى كما سبق القول .

أمــا لقــب سم الموت كما نعلم فقد أطلقته العامة على الأمير عز الدين حيث يعرف العامة عنه تحليه بالشجاعة والجسارة والفتوة والقوة .

وبالنســبة للقــب حمص أخضر فله دلالة اجتماعية فكاهية ساخرة لدى عامة شــعب مصر فالأمير طشتمر كان يحب الفقراء والأيتام والحرافيش ويكثر من صدقاته لهم ، ولذلك أطلق عليه هذا اللقب .

أمــا لقــب الفــول المقشــر فله دلالة اجتماعية فهو من الألقاب الفكاهية التى أطلقــتها العامــة علــى الأمــير قطلوبغا الفخرى ، لما كان يتميز به من لين عريكته وضعفه وتسامحه .

أمـــا لقب ططلية فله دلالة اجتماعية فكاهية ساخرة ، فقد أطلقته العامة على هذا الأمـــير لأنـــه كمـــا سبق وأن ذكرنا إذا تكلم قال فى أخر كلامه ططلية كأنه يغنى بها ، فالعامة بثقافتها المحدودة عبرت عن سلوك هذا الأمير بإطلاق هذا اللقب .

وركيـــن الدين يعتبر من الألقاب التى لها دلالة سياسية ساخرة ، فالعامة أطلقته علـــى الســـلطان بيـــبرس الجاشنكير لما فيه من تحقير واستهزاء به ، ولأنه اغتصب الســـلطنة مـــن الناصـــر محمد ونفاه إلى الكرك ، ولذلك تعللت العامة بعدم وفاء النيل وأطلقت هذا اللقب عليه .

أما دقين فقد أطلقته العامة على الأمير سلار احتقاراً له ولشخصه ولمناصرته لبيبرس الجاشنكير مغتصب عرش الناصر محمد .

ولقـــب المجنون ورد فى مصادر العصر المملوكى أكثر من مرة ، فقد اطلقت العامة هذا اللقب على يلباى بسبب سوء سلوكه وتصرفاته وسوء تدبيره وبخله الشديد ، وهـــذا اللقـــب له دلالـــة اجتماعية لدى العامة ، فقد عبرت عن سلوك هذا الأمير بلقب المجنون الذى أساء التصرف تجاه الآخرين .

وقـــد أطلقـــت العامة هذا اللقب أيضاً على الأمير سودون المحمدى المجنون ، وكانـــت له دلالـــة سياســـية وإدارية ، فالأمير يلبغا استقر فى عدة وظائف إدارية مما ســـاعده على ظلم الناس منهم ناصر الدين محمود الاستادرا وابن الطبلاوى إلى جانب اضـــطهاده للعامـــة مما أدى بهم إلى رجمه بالحجارة وإطلاق لقب المجنون عليه وذلك لتصرفاته السيئة تجاههم .

أمـــا لقب الدم الأسود فهو من الألقاب ذات الدلالة السياسية فالأمير سيف الدين أكلتمر الناصرى كان ظالماً فى تصرفاته وسلوكه .

أمـــا فأر السقوف فهو من الألقاب ذات الدلالة الاقتصادية والإدارية ، فقد كان ناصـــر الدين متولى حسبة مصر أثناء سلطنة الناصر أحمد ، وقد أدت تصرفاته وسوء ســـلوكه تجـــاه العامـــة ومعاملته السيئة المستمرة إلى أن وقفت العامة تشكوه للسلطان فقبض عليه وسجن بعد مصادرة أمواله .

أما عن لقب اللفاف فقد ضنت علينا المصادر المملوكية المعاصرة بالمعلومات التى تفيد سبب إطلاق هذا اللقب .

وسـن إبـرة مـن الألقـاب التى أطلقت على علم الدين ، ويعتبر من الألقاب الإداريـة الفكاهـية السـاخرة ، فعلم الدين كان يحب الأموال ويقوم بجمعها من الناس سواء عن طريق المصادرة أو الاغتصاب بالقوة .

ويـأتي لقـب إدارى فكاهي ساخر آخر وهو لقب أبو زلطة الذى أطلق على أيدمـر الشـمس الـذى تولى نيابة الوجه القبلي ثم البحرى وأخيراً البحيرة ، وفى مدة ولايته أظهر شراهة كبيرة فى جمع الأموال واغتصابها من الناس .

وهـناك ألقاب إدارية فكاهية ساخرة مثل لقب أبو كم والطويل والمؤذى وابن المكللـة ، هذا بالإضافة إلى الألقاب ذات الدلالة الاجتماعية الساخرة والتى أطلقت على بعض الأمراء نتيجة لضعفهم واستهزاء الناس بهم مثل لقب هات لبن وروح لو .

وهـناك ألقـاب لهـا دلالة سياسية فقط مثل لقب خاين بك الذى خان السلطان الغوري وتسبب فى هزيمته أمام الجيوش العثمانية.

وكمـا سـبق أن ذكـرنا، فقد كانت الألقاب والكنى سلاح الفكاهة فى محاولة للتغلـب علـى المتناقضـات ومقاومة الانحراف والتسلط وهذه واحدة ، أما الثانية فإن اللقـب قد عبر عن السخرية من العصر المملوكى وما كان يحدث فيه من ظلم وفرض للضـرائب على المجتمع المصرى ، بالإضافة إلى أن اللقب رسم صورة لحياة المجون واللهو التى كان يحياها سلاطين المماليك والأمراء إبان تلك الحقبة من الزمان .

والثالـثة توضح كيف رسم مفهومُ اللقب صورة لحياة الريف المهمل من قبيل سلاطين المماليك .

وتوضـح الـرابعة كـيف عَبر مفهوم اللقب عن كيفية تغيير سلطان بآخر ، وأخيراً فإن الخامسة بينت أن اللقب كان يعبرعن مدى تسلط الموظفين وظلمهم للشعب المصـرى إبـان العصر المملوكى ، والذى قد يمتد أثره حتى اليوم متمثلاً فى الروتين الوظيفى عند تقديم الخدمات للمواطنين .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المطبوعة :

- **شهاب الدين بن أبى حجلة**

  – سكردان السلطان،القاهرة بدون تاريخ

- **ابن أبى الفضائل (مفضل ابن أبى الفضائل ت ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٨ م) .**

  تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه :

  E. Blouchet, *Patrologia Orientalis*, XII, XIV, XXII, Paris, 1919.

- **ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤)**

  بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، خمسة أجزاء ، ط ٢ ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٤ .

  صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١ م .

- **ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .**

  تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الاسفار ، بيروت ١٩٦٠ م .

- **ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م)**

  النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية حتى جـ ١٢ ، جـ ١٣ تحقيق محمد فهيم شلتوت ، جـ ١٤ تحقيق جمال محرز ، فهيم شلتوت القاهرة ١٩٧١ ، جـ ١٥ تحقيق إبراهيم طرخان، القاهرة، ١٩٧١ م .

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي جـ ١ ، ٢ تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤ م جـ ٣ ، تحقيق نبيل محمدعبد العزيز ١٩٨٦ م ، جـ ٤ تحقيق محمد محمد أمين ١٩٨٦ م جـ ٥ تحقيق نبيل محمد عبد العزيز ١٩٨٨ م ، جـ ٦ تحقيق محمد محمد أمين ١٩٩٠ م .
- الدليل الشافي على المنهل الصافي ، تحقيق فهيم شلتوت ، منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، السعودية ١٣٧٥هـ .
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٩٠ م .

- **ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .**

- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه جـ ١ ، ٢ ، ٣ تحقيق محمد محمد أمين ، مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ م ، ١٩٨٢ م ، ١٩٨٦ م .

- **ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م)**

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ط ٢ ، حيدر أباد ١٩٥٤ م .
- أنباء الغمر بأنباء العمر ، الأجزاء من ١ – ٣ تحقيق حسن حبشي القاهرة ١٩٦٩ م ١٩٧٢ .

- **ابن الصيرفي (علي بن داود الصيرفي المعروف بالخطيب الجوهري ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م)**

- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان الأجزاء من ١ – ٣ تحقيق حسن حبشي دار الكتب المصرية ١٩٧٠ – ١٩٧١ ، ١٩٧٣ م

- **ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م)**

- تـاريخ الـدول والملـوك جـ ٧ ، ٩ (أربع مجلدات) نشره قسطنطين زريق ، ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٩ م .

- **ابـن كثـير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقى ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .**

- البداية والنهاية ، ط ١ القاهرة ١٩٦٦ م .

- **الدميرى كمال الدين الدميرى .**

- حياة الحيوان الكبرى ، القاهرة بدون تاريخ .

- **السـخاوى (شـمس الديـن محمـد بن عبد الرحمن بن أبى بكر عثمان السخاوى ت ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٧ م)**

- التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، المطبعة الأميرية ١٨٩٦ م
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ١٢ جزء القاهرة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .

- **الشجاعى (شمس الدين الشجاعى)**

- تـاريخ الملـك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده تحقيق بربارة شيفر فيسبادن ١٩٧٨ م .

- **الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) .**

- أعـيان العصـر وأعـوان النصـر ، تحقيق على أبو زيد وآخرون ط ١ ١٩٩٨ م

- **العينى (بدر الدين محمود العينى مولده ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)**

- السـيف المهـند فـى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٧ م .

- **الفيروز آبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م) .**

- القاموس المحيط ٤ أجزاء جـ ١ ط ١٩٧٧ م جـ ٢ ط ١٩٧٨ م جـ ٣ ط ١٩٧٩ م جـ ٤ ط ١٩٨٠ م .

- **القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) .**

– صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزء – نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية) .

- **المقريزى (تقى الدين أحمد بن على المقريزى ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م).**

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة لبنان ١٩٥٩م .
- السلوك لمعرفة دول الملوك نشره محمد مصطفى جـ ١ جـ ٢ ستة اقسام ونشره سعيد عاشور جـ ٣ جـ ٤ فى ستة أقسام عن دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٠ م ، ١٩٧٢ م ، ١٩٧٣ م .

- **اليوسفى :**

- نزهة النظار فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق ودراسة أحمد حطيط ، ط ١ بيروت ١٩٨٦ م .

ثانياً : المراجع العربية :

- **أحمد عبد الرازق**

- دراسات فى المصادر المملوكية المبكرة ، القاهرة ١٩٧٤ .
- المماليك ومفهوم الأسرة لديهم ، مجلة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، العدد الثانى ١٩٧٧ م .
- البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك القاهرة ١٩٧٩ م .

- **أحمد صادق الجمال**

- الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي ، القاهرة ١٩٦٦ م .

- ثناء أنس الوجود

– رمز الأفعى في التراث العربي ، القاهرة ١٩٩٦ .

- جمال الدين الشيال .

- تاريخ مصر الإسلامية ، العصران الأيوبي والمملوكي ، القاهرة ١٩٦٧ م .

- حسن الباشا

- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ م .

- حياة ناصر الحجي

- أحوال العامة في حكم المماليك ٦٧٨ – ٧٨٤ هـ / ١٢٧٩ – ١٣٨٢م دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الكويت ١٩٨٤ .

- دراسات في تاريخ سلطنة المماليك في مصر والشام ط ١ الكويت ١٩٨٦م .

- أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجري الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين الكويت ١٩٩٥ م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور

- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٥ م .

- العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ م .

- **عبد المنعم ماجد**
- موقف المصريين من حكم المماليك فى العصور الوسطى ، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس م ١٢ ، ١٩٦٩ م .
- **على إبراهيم حسن**
- دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٤ م .
- **على مبارك**
- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٨٠ .
- **علاء طه رزق**
- عامة القاهرة فى العصر المملوكى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الزقازيق ، كلية الآداب ، ١٩٨٩ م .
- **فوزى محمد أمين**
- المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول ٦٤٨ – ٧٨٤ هـ / القاهرة ١٩٨٢ م .
- **محاسن محمد على حسين الوقاد**
- الطبقات الشعبية فى القاهرة الملوكية ٦٤٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م .
- **محمد جمال الدين سرور**
- دولة بنى قلاوون فى مصر الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٧ م .
- **محمد رجب النجار**
- الشعر الشعبى الساخر فى عصور المماليك ، مجلة عالم الفكر ، م ١٤ ، العدد الأول ١٩٨٣ م .
- **محمد عبد الغنى الأشقر**

نائب السلطنة المملوكية فى مصر ، القاهرة ١٩٩٩ م .

- **مجمع اللغة العربية**

المعجم الوجيز ط ١ القاهرة ١٩٨٠ م .

- **نظير حسان سعداوى**

صور ومظالم من عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٦ م .

- **نقولا زيادة**

الرحالة العرب ، القاهرة ١٩٥٦ م .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

- **Ahamd 'Abd Ar-Rāziq,**
  - Les Muhtasibs de Fostāt au temps des Mamlāks pp. 127 – 146 – 5 P. 130 fōr as Suqūf Nāsir ad-Din.
  - La Hisba et le Muhtasib en Egypte au temps des Mamlūks, pp. 115 – 178 – 138.
  - Les vizirs Égypte au temp des Mamlúks pp. 183 – 239.

- **Amalia Levanoni,**
  - A Turning Point in Mamluk History: The Third Reign of Al-Nāsir Muhammad Ibn Qalāwūn (1310 – 1341), *Mamlūk Studies Review*, Vol I, The Univ. of Chicago, 1997, p. 179.

- **Ayalon (D)**
  - The Wefidiya in the Mamluk Kingdom, Islamic Culture, Vol. XXV, 1951.
  - Discharges from Service' Banishments and Imprisonments in Mamluk Society, *Israel Oriental Studies*, Vol. II, Tel. Aviv, 1972.
  - Names, titles and "Misbas" of the Mamluks, *Israel Oriental Studies*, Vol. V, Tel Aviv Univ, 1975.
  - The End of The Mamluk Sultanate, *Studia Islamica*, Vol. 3, 1978.

- Egypt as a Dominant Factor in Syria and Palestine During The Islamic Period, 1984.

- **Donald Little,**
  - An Introduction to Mamlūk Historiography An Analysis of Arabic Annalistic and Biographical Sources for the Reign of Al Malik An-Nāsir Muhammad Ibn Qalā'un, Wiesbaden, 1970.
- **Holt (P.M)**
  - Scenes of Daily Life from Mamluk Miniatures, The Eastern Mediterranean Inds in The Period of the Crusades, Worminster, England, 1977.
  - The Last Mamlūk Sultan: Al-Malik Al Ashraf Tūmān Bāy, *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, Vol. 25, 2001.
- **Lane Poole,**
  - History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.
- **Lindas Northrup,**
  - Letters de Hair Beg, dérnier nâid mamlouk d'Alep, à al Porte Ottomane, *Journal Asiatique*, 1993.
- **Mohamed Mostafa,**
  - Hāir Bāj Sultān Laila, Studien Geschichte und Kultur des nahen und fernen ostens, Lieden 1935. pp. 125-132.
- **Poliak (A.N),**
  - Some Notes on the Feudal System of The Mamlūk Jras, 1937.
- **Sauvaget (J),**
  - Noms et surnoms de Mamelouk, *Journal Asiatique*, Tome CCXXXV III, Année 1950.
- **Sato Tsugitak,**
  - The Proposes and Supervisors of Al-Rawk Al-Nāsiri in Mamlūk Egypt, *Mamlūk Studies Review*, Vol. II, Chicago, 1998.
- **Sobernhetm (M),**

- Encyclopedia of Islam. Art. Mamlūks, Leiden, 1987.

- **Urbain Vermeulen,**
  - Some Remarks on A Prescript of An-Nasir Muhammad B. Qalā'ūn on the Abolition of Taxes and the Nusayris Mamlaka of Tripoli, 717/1317, *Orientalia Lovaniensia Periodica*, 1970.
- **The Encyclopaedia of Islam,** art Khassakiyya, New Edition, Leidem, 1978.
- **The Encyclopaedia of Islam**, Art Baybars II, New Edition, Leiden 1960.

السياسة المالية للفاطميين بين النظرية والتطبيق

نريمان عبد الكريم

مصـــر

نجح الفاطميون فى أن يحكموا مصر ما يزيد عن القرنين من عام ٣٥٨ - ٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م . فكان هدفهم بعد إقامة خلافتهم بالمغرب ، هو وراثة الخلافة العباسية وحكم العالم الإسلامى ، لذلك كان انتقالهم إلى مصر ، التى اتخذوها مركزاً لإمبراطورية كبرى ، شملت معظم ملك العباسيين ، كما دخلوا بغداد نفسها ، واستمروا فيها لمدة أربعين أسبوعاً ، ولم يكن من السهل تحقيق ذلك إلا من خلال تقوية مركزهم فى الداخل والخارج ، معتمدين على موقع مصر المتميز وثرائها وكسب المصريين إلى جانبهم ، ولذلك قدموا من البداية عرضاً شاملاً لسياستهم العامة ، من خلال الأمان الذى أعطاه جوهر لأهل مصر ، فضلاً عما حوته كتب الدعوة الفاطمية وما ألقى فى مجالسها من شرح لبعض الأمور الحيوية ، التى تخص المصريين .

فمع وصول جوهر إلى تروجه بالقرب من الإسكندرية[١] ، قام المصريون بندب الوزير جعفر بن الفرات للمفاوضة وطلب الأمان ، وتم اختيار أحد العلويين ليرأس الوفد ، الذى مثل جميع فئات وطبقات المصريين[٢] ، فكتب لهم جوهر أماناً وجدده عدة مرات[٣] ، وحوى كتابه بعض الأمور المتعلقة بالناحية المالية منها ما هو عام وما هو خاص أو حتى ذكر بشكل ضمنى ، محاولاً إظهار ما للفترة السابقة من سلبيات ، كما مهد لفترة جديدة استهدفت الإصلاح .

وجاء فى هذا الأمان : «هذا كتاب من جوهر عبد أمير المؤمنين لجماعة أهل مصر .. أنكم التمستم كتاب يشمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم .. إذ تخطفتكم الأيدى واستطال عليكم المستذل ، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم والتغلب على من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم .. ولكم على أمان الله التام

---

[١] المقريزى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

[٢] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

[٣] النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، حققه محمد محمد أمين - محمد حلمى محمد ، القاهرة ١٩٩٢ ، جـ٢٨ ، ص ١٢٨ .

العام الدائم على مر الأيام وكرور الأعوام فى أنفسكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم ، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن"[٤] .

وارتباطاً بذلك ذكر النعمان[٥] فيما ينبغي للوالى من أهل الخراج : "انظر كل ما يصلحهم ، فإن صلاحهم صلاح من سواهم ، فانظر فى عمارة أرضهم وصلاح معايشهم، أشد من نظرك فى زجاء خراجهم ، أجمع أهل الخراج من كل بلد ، ثم مرهم فليعلموك حال بلادهم ، والذى فيه صلاحهم وحال أرضهم ، فإن شكوا إليك ثقل خراجهم أو غلة دخلت عليهم من انقطاع شرب أو فساد أرض ... فأكفلهم مؤنة ما كان من ذلك ولا تثقلن شيئاً خففته عنهم ، فإن العدل يحتمل ما حملت عليهم وعمران البلاد أنفع من عمران الخزائن ، فإن خربت انقطعت مادة الخزائن ، فخربت بخراب الأرض" وفى موضع آخر[٦] : "ولا بأس بالمزارعة بالربع والنصف على ما أتفقا عليه ، ولا بأس باستئجار الأرض بالعين وقتاً معلوماً" .

وشمل أمان جوهر أيضا : "وما أمره به مولاه المعز من اسقاط الرسوم الجائرة، التى لا يرتضى بإثباتها عليكم ، وأن أجيركم فى المواريث على كتاب اللّه وسنة نبيه ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى فيها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ... والزكاة على ما أمر اللّه فى كتابه ... وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه ... ثم تجويد السكة وصرفها على العيار الذى عليه السكة الميمونة المباركة وقطع الغش منها ... ولكم على الوفاء بما التزمته وأعطيتكم أياه»[٧] .

وما ورد أيضا : "لا بأس باستئجار الدور والأرضين فيما يحل ، ولا يحل الفصل فى الدور والحوانيت ، وأشباه ذلك ، ومن أكترى مشاهرة على أنه سكن يوماً لزمه الشهر»[٨] .

---

[٤] المقريزى ، اتعاظ ، حـ٣ ، ص ص ١٠٤ – ١٠٥ .
[٥] دعائم الإسلام ، حققه آصف بن على فيظى ، القاهرة ١٩٥١ ، جـ٧ ، ص ص ٤٢٤-٤٢٥ .
[٦] النعمان ، الاقتصار ، حققه ميزرا ، دمشق ١٩٥٧ ، ص ص ٨٩ – ٩٠ .
[٧] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٠٣
[٨] النعمان ، الاقتصار ، ص ص ٩٠ – ٩١

إلى جانب ذلك ذكرت كتب الدعوة[٩] ، عدة أمور وثيقة الصلة بالنواحى المالية ، منها : "ونهوا عن الحكرة ، إذا عز الطعام وعن التسعير" .

فضلاً عن ذلك ، فقد عرض لكيفية اختيار العمال : "أنظر فى أمور عمالك ، الذين تستعملهم ، فليكن استعمالك إياهم اختياراً ، ولا يكن محاباه ، ولا إيثاراً ، فإن الأثرة بالأعمال والمحاباة بها شعب الجور وادخال الضرر على الناس ، وليست تصلح أمور الناس ولا أمور الولاة إلا بصلاح من يستعينون به على أمورهم"[١٠] .

وبذلك قدم الفاطميون ، صورة عامة لطبيعة السياسة المالية ، التى سوف ينتهجونها مع المصريين ، بينوا فيها مساوئ الحكم السابق ، مستفيدين من الأحوال السيئة ، التى وصلت إليها مصر فى أواخر حكم الإخشيديين ، ولما كانت السياسة المالية تشكل جزءاً لا يستهان به من السياسة العامة للدولة ، بل هى العمود الفقرى لها ، فلابد أن تتسق مع أهدافهم ، التى أتوا إلى مصر من أجل تحقيقها . فهل سيتعارض الأمران ؟ فى الوقت الذى كان على الفاطميين أن يؤكدوا فعالية مع ما أعلنوه وما صرحوا به وأن يسيروا على منهاج قد رسموه بأيديهم . لذلك فهى محاولة للوقوف على طبيعة السياسة المالية ، التى نفذها الفاطميون بالفعل ، وإلى أى حد قد توافقت أو اختلفت أو حتى حدث توازناً بين الإطار النظرى والإطار التطبيقى ؟ .

ولما كانت الأرض تمثل أحد المحاور التى شملها أمان جوهر ، فهذا الأمر يرتبط بعدة أمور : منها ضريبة الأرض ، سياسة الدولة تجاه تحسين وسائل الزراعة ، احترام الملكية الخاصة ، وعدم انتزاعها من أيدى أصحابها ، وهذا يقودنا إلى وضعية الأرض فى عصر الفاطميين ، ومدى هيمنة الدولة عليها ، وإلى أى حد شكل الإقطاع جزءاً من سياستهم ، فضلاً عن أشكاله التى وجدت آنذاك ، وهل كان هناك ملكية خاصة ومدى ارتباطها بمتغيرات السياسة الفاطمية ؟

أما الخراج ، فهو الضريبة المفروضة على الأرض ، وهى إما مقداراً من مال أو حصة معينة مما تخرجه الأرض . وقد فرض مع بداية الفتح الإسلامى على أراضى غير المسلمين ، وبمضى الزمن أصبح الخراج إيجاراً دائماً للأرض سواء ظل صاحبها

---

[٩] النعمان ، الاقتصار ، ص ٨٤ .

[١٠] النعمان ، دعائم الإسلام ، ص ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

على دينه أو كانت ملكاً لأحد المسلمين[١١] . وفى العصر الفاطمى كان الخراج المقدر على الأرض فى الوجه البحرى يجبى بالدنانير ، على كل فدان ثلاثة دنانير ونصف بينما كان خراج الوجه القبلى يجبى عيناً ، لا سيما الحبوب ، فكان يفرض على كل فدان ثلاثة أرادب ، تبعاً لما ذكره ابن مماتى[١٢] ، الذى خدم فى دواوين الفاطميين فى أواخر أيامهم ، بينما يذكر ابن حوقل[١٣] : "أنه عند مجئ الفاطميين ، قام جوهر بمضاعفة قيمة الخراج إلى سبعة دنانير للفدان" ، وكان هذا الإجراء ليس فقط بسبب احتياج جوهر للأموال بقدر ما كان تغطية لنفقاته المباشرة ، التى قام بها قبل صدور هذا القرار ، وبطبيعة الحال ، قد أدى ذلك إلى ارتفاع ما جباه جوهر عام ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م إلى أكثر من ثلاثة ملايين من الدنانير[١٤] .

ومن اللافت للنظر أن ارتفاع هذه القيمة جاء فى وقت عانت فيه البلاد من أزمة اقتصادية طاحنة بسبب قصور مياه النيل وانتشار الوباء والغلاء ، وما نتج عن ذلك من قيام الجند بالسلب والنهب ، مما حدا بالبعض[١٥] أن يتساءل كيف يمكن للمصريين دفع هذا الخراج المضاعف ، فى الوقت الذى يستبعد فيه قيام جوهر بهذا الإجراء ، وهو يستهل عهداً جديداً ، ويسعى جاهداً لاستمالة المصريين[١٦] ، وعلى ذلك يبدو أن هذا كان إجراءاً مؤقتاً ، وكان لابد من التفكير فى نظام أكثر استمراراً[١٧] ، لكن هذا الأمر جاء تدريجياً خلال وقت قصير ، فأبقى جوهر القائم بالخراج من أيام الإخشيديين وهو يحيى بن العرمرم ، ثم سرعان ما أشرك معه أحد المغاربة[١٨] ، وعندما استقر الأمر للفاطميين مع مجئ المعز . تم إقرار نظام جديد لتقدير الأملاك ،

---

(١١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٠٩ ، ص ص ١٥٢ ، ١٤٢ .
(١٢) قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٢٥٩ .
(١٣) صورة الأرض ، ليدن ١٩٣٨ ، ص ١٥٢ .
(١٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٥٢ .
(١٥) أيمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية فى مصر – تفسير جديد ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٨١ .
(١٦) راشد البراوى ، حال مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٣٠ .
(١٧) انظر : Shaban, Islamic History. A New Interpretation. A.D. 756-1055 A.H. 132-448, Cambridge 1976, p. 200.
(١٨) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٩ .

وتحديد الضرائب التى تفرض على كل منها وجمعت مصادر الضرائب على اختلافها[١٩] وكان الخراج يشكل جزءاً منها .

واعتمد الفاطميون على يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن اللذين قاما بهذا الأمر ، وقد تشددا أيضاً فى تحصيل البقايا من الأموال على المالكين والمتقبلين والعمال[٢٠] . وحسبنا أن نشير إلى كيفية جباية خراج الغلات ، وعلى رأسها القمح والشعير والفول ، لنرى كيف كانت الدولة الفاطمية تنفذ سياستها المالية ، فكان مقدار الخراج يتفق مع غلة الأرض من حيث الزيادة والنقصان ، كما كان يختلف باختلاف المحاصيل ، فكانت النسبة المئوية للضريبة تصل إلى ٣٠% من إنتاج الأرض المزروعة قمحاً[٢١] أو شعيراً ، وكان على عمال النواحى أو الجهات التابعة لديوان الخراج ، أن يقدموا ما عليهم من ضرائب إلى الديوان ، وكذا يطالب الفلاحين بالحضور فى بعض الأحيان ، خاصة فى أيام الأزمات الاقتصادية ، ويسجل ذلك فى سجل الجهبذ مع مبلغ أو قيمة الغلة المقررة عليهم[٢٢] .

وفى إطار جهود الدولة لتحسين الزراعة ، قام الفاطميون بدور ملحوظ ، باعتبار أن الأراضى الزراعية تشكل أهم قوى الإنتاج ثباتاً وعطاء[٢٣] . فبدت بعناية جوهر فى إصلاح وتجديد ما فسد من الجسور والقناطر[٢٤] ، أما المعز ٣٦٢ – ٣٦٥ هـ/ ٩٧٢ – ٩٧٥م ففضلاً عن قيامه بتنظيم الإدارة المالية وجباية الخراج ، فقد عنى بعمارة الجسور[٢٥] ، كما أوجد الفاطميون مع خلافة الحاكم بأمر الله ٣٦٨ – ٤١١هـ / ٩٩٦ – ١٠٢٠م قصبة لقياس الأرض عرفت بـ "القصبة الحاكمية"[٢٦] وظلت إلى

---

[١٩] حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٩٨ .

[٢٠] المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ، جـ١ ، ص ٨٢ .

[٢١] حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٤٨ .

[٢٢] المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة – جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢١ .

[٢٣] محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، الدار البيضاء ١٩٨٠ ، جـ٢/١ ، ص ١٤٠ .

[٢٤] ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، حققه محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٧٥ ، جـ ١/١ ، ص ١٩٢ .

[٢٥] ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، حققه أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٦٧ .

[٢٦] القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، القاهرة ، جـ٣ ، ص ٤٤٢ . القصبة الحاكمية ٤٠٠ قصبة طول فى عرض ٢٠ قصبة ، انظر . المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

آخر دولتهم ؛ فضلاً عن ذلك قام الفاطميون فى عصره بمشروع كان له أهمية كبيرة ، وهو تطهير خليج الإسكندرية عام ٤٠٤هـ / ١٠١٣م[٢٧] ، بعد أن طم تقريباً ، خاصة فى قسمه الأول عند خروجه من رشيد ، وأدى ذلك التطهير إلى استفادة كثير من الترع خاصة فى البحيرة[٢٨] .

وحتى يقضى الخليفة الحاكم على المجاعات ، التى كان قصور مياه النيل أحد أسبابها ، سارع إلى استدعاء الحسن بن الهيثم ، الذى قال : "لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل النفع" ومن المحتمل أنه كان يريد أن يقيم سداً ينظم مياه النيل ، وقامت الدولة بتوفير الإمكانات المالية وتسيير الصناع معه فى طول الإقليم ، لكنه اعتذر عن عجزه للقيام بهذا الأمر[٢٩] ، ويشير المؤرخون[٣٠] إلى قيام الخليفة الظاهر ٤١١ - ٤٨٧هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥م بحفر ترعة كبيرة خارج القاهرة وعليها ثلاثمائة قرية ، تبدأ من فم الخليج فى الفسطاط حتى تصل إلى القاهرة .

ومع عصر المستنصر ٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م شهدت البلاد فى الفترة الأولى من خلافته استقراراً ، كان استمراراً للفترة السابقة ، بحيث ما سجله ناصر خسرو[٣١] ، حتى عام ٤٣٩هـ/١٠٤٧م يدل على ذلك ، ومنها : "أن النيل يتفرع منه ترع صغيرة وعليها تقع الولايات والقرى ، كما أقيمت بمصر أسواق كثيرة يصعب حصرها" وقد تبدلت حالة الرخاء بصفة عامة بعد ذلك على أثر المجاعات وفتن الجند ، لكن الأحوال تحسنت مع استدعاء بدر الجمالى عام ٤٦٦هـ/١٠٧٤م الذى قام بإطلاق الخراج للمزارعين لمدة ثلاث سنوات[٣٢] ، وكذلك العناية بالترع والجسور[٣٣] ، ومع الأفضل بن بدر الجمالى تم تنفيذ مشروعاً يخدم الرى ، وهو حفر خليج يخرج من النيل إلى الشرقية ، بسبب أن هذه المنطقة كان لا يصل إليها الماء إلا من خليج السويس أو من بعض المجارى المائية البعيدة ، مما أدى إلى أن تشرق البلاد فى أغلب أراضى

---

(٢٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧١ .
(٢٨) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٢٢٢ .
(٢٩) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، تحقيق صالحانى ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ٣١٦ وما بعدها .
(٣٠) ناصر خسرو ، سفر نامه ، تحقيق يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ١٠٧ .
(٣١) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٧ .
(٣٢) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٥٣ .
(٣٣) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٤ .

الشرقية فى معظم السنوات[٣٤] . وقام بهذا الأمر أبو المنجا بن شعيا فى عام ٥٠٦هـ/ ١١١٣م ، الذى كان على رأس الإدارة الزراعية فى هذه المنطقة ، وقد استغرق حفر هذا الخليج ، الذى أخذ اسم "أبى المنجا" عامين وإن كان قد تكلف أموالاً طائلة ، فقد قدم خدمة جليلة للزراعة بسبب امتداد الرى لهذه المناطق فى الدلتا"[٣٥] .

كذلك يبدو حرص الأفضل الشديد على النهوض بالزراعة بإصداره أمراً على ألا تكون هناك بئراً معطلة أو أرضاً بائرة أو خرابا[٣٦] . وبسبب هذا الاهتمام تم حفر الخلجان حتى أصبحت الأراضى المصرية تشقها شبكة من الخلجان والترع وصلت فى الوجهين البحرى والقبلى إلى أعداد كبيرة[٣٧] .

كما قام الوزير المأمون البطائحى[٣٨] الذى تولى للآمر الوزارة من ٥١٥-٥١٩ هـ/١١٢٢-١١٢٥م ، بدور آخر حاول من خلاله أن ينظر فى مصالح الرعية ، فعفى عن أراضى الديوان المغتصبة من قبل بعض الملاك فى الصعيد ، حيث وصله من الوالى والمشارف[٣٩] ، أن من بيده السواقى كثيرون وأن واضعى اليد عليها لم يستطيعوا أن يثبتوا ملكيتها ؛ لأنها انتقلت إليهم عبر الزمن وكان تحصيل ما عليهم كثير ، فكتب بذلك منشوراً قرئ بالصعيد بإقرار جميع الأملاك والأرضين والسواقى بأيدى أربابها من غير انتزاع وأن يقرر الخراج عليهم ، كما تضمن المنشور أيضاً دعوة كل من يريد عمارة أرض بائرة أو إدارة مهجورة معطلة فى أن يسلم إليه ذلك ولا يؤخذ منه خراج إلا فى السنة الرابعة ، وأن يكون خراجه مؤبداً[٤٠] .

---

(٣٤) ابن المأمون ، أخبار مصر ، حققه أيمن فؤاد السيد ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١١ .

(٣٥) انظر ، Mann, J., The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, Oxford 1967. 1, p 215.

(٣٦) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، حققه محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٤٣ .

(٣٧) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ص ٢٠٥-٢٠٦ بلغت عدد الخلجان ثمانية وعدد الترع ١١٧

(٣٨) هو أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدين أبى شجاع فاتك ، اتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش عام ٥٠١هـ/١١٠٧م وسلم إليه خزائن أمواله وكسوته ، ونعته بالقائد ، فلما قتل الأفضل عام ٥١٠هـ/١١١٦م قام المأمون بخدمة الخليفة الآمر واطلعه على أموال الأفضل إلى أن عين وزيراً له . انظر الخطط ، جـ١ ، ص ٤٦٢ وما بعدها .

(٣٩) المشارف : وهو يزيد على الناظر بأن يكون الحاصل من المستخرج فى مودعه وتحت حوطته ، بعد أن يكون مختوماً عليه . انظر ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٢ .

(٤٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٤ .

ويبدو أن المأمون أقدم على هذا الإجراء ليقينه بأن أملاك الديوان جميعها لا تقدم ما يجب عليها[٤١] . لذلك استطاعت السياسة الجبائية للفاطميين فى الفترات التى شهدت اهتماماً من قبل الدولة أن تجمع بين مصلحة الدولة والعدل فى الرعية[٤٢] ، حقيقة أن هذه الإجراءات التى تمت منذ خلافة المستنصر مع بدر ثم استتبعت بعد ذلك مع الأفضل والمأمون ، تدل على جهود الدولة فى العناية بشئون البلاد ، خاصة من قبل الوزراء أصحاب السيادة العليا من دون الخلفاء والتى سوف لا نسمع عن مثلها حتى نهاية العصر الفاطمى .

كذلك يذكر المؤرخون[٤٣] ، أن الفاطميين رصدوا لعمارة الجسور ثلث الخراج لما فيه مصلحة الرى والرعية ، لكن ليس هناك شك فى أن هذا الرقم مبالغ فيه[٤٤] ، حتى المقريزى نفسه استهل هذه العبارة الواردة بهذا الشأن بكلمة "وقد حكى" كما ذكروا أيضاً ، أن الدولة كانت تصرف من خزينة السلطان عشرة آلاف دينار مغربى لتجديد عمارة الجسور فى الولاية[٤٥] ، حيث كان هناك نوعين من الجسور : السلطانية التى تقوم بإنشائها الدولة لتنظيم الانتفاع بمياه النيل والجسور البلدية ، والتى يقيمها الفلاحون فى القرية أو الناحية[٤٦] . وحرص الفاطميون على عدم اضطراب المزارعين بمنع النداء على زيادة النيل أو نقصانه ، حتى لا يؤدى هذا إلى الغلاء ، ولا يسمح به إلا إذا وصل النيل إلى ستة عشر ذراعاً[٤٧] . لكن يطالعنا ناصر خسرو[٤٨] بنص يستلفت النظر فيذكر : «ما لم يصل الارتفاع إلى ثمانية عشر ذراعاً ، لا يأخذ السلطان الخراج» صحيح أنه قد زار مصر فى وقت تألق خلافة المستنصر ، وضمن كتابه تلك المشاهدات التى بهرته ، لكن يتضح أنه قد بالغ فى الوصف لهذه المشاهدات فى بعض الأحيان .

---

(٤١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٥ .
(٤٢) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ١/٢ ، ص ١٥١ .
(٤٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٦١ .
(٤٤) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٠٥ .
(٤٥) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٨ .
(٤٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠١ ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٣٨ .
(٤٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٦١ ، وكان هذا المنع مع الخليفة المعز ، عام ٣٦١هـ/ ٩٧٢م.
(٤٨) ناصر خسرو ، سفر نامه ص ٩٧ .

كما عملوا على إدخال شجرة البلسان التى أتوا ببذرتها من بلاد المغرب وزرعوها فى إحدى حدائقهم بعين شمس ، وكانوا يستخرجون منها دهن البلسان[٤٩] ، فضلاً عما قاموا به من الاهتمام بقصب السكر والتوسع فى زراعته[٥٠] . واهتموا بالإشراف على الزراعة بشكل عام من خلال الدواوين التى أنشئت فى عهدهم ، فجعلوا على الخراج وسائر وجوه الأموال موظفاً باسم «متولى الخراج»[٥١] ويرى البعض[٥٢] «أن جباية الخراج قد تطورت فى عهد الفاطميين ، حتى اشتملت على عدة دواوين ، وأكبر الظن أنها استحدثت خلال هذا العصر» ومنها ديوانين يقومان بالإشراف على جباية الخراج ، أحدهما يعرف باسم "ديوان الصعيد" والثانى "ديوان أسفل الأرض"[٥٣] ؛ بالإضافة إلى «ديوان الخاص» الذى ظهر فى خلافة الآمر ٤٩٥ - ٥٢٤هـ / ١١٠١ - ١١٣٠م . وكان يشرف أيضاً على الخراج المستخرج من الأرض[٥٤] .

لكن كان يقابل اهتمام الدولة بالزراعة بعض الفترات ، التى ساءت فيها أحوال البلاد ، بسبب التعرض للمجاعات أو الإهمال لسوء تدبير الوزراء العظام فى أخريات عهد الدولة .

وحسبنا أن نشير إلى قيمة الخراج ، الذى جبته الدولة لنقف على حقيقة الأمر من خلال ما ذكره المؤرخون[٥٥] . والذى وصل أقصاه إلى أربعة ملايين ديناراً فى أيام يعقوب بن كلس ، الذى تشدد فى الجباية ، كما بلغ أدناه إلى ٦٠٠،٠٠٠ دينار أثناء المجاعات خلال خلافة المستنصر ، بينما كان فى وزارة بدر الجمالى أكثر من ثلاثة ملايين ديناراً ، وهذا أمر طبيعى ، بسبب الإصلاحات الاقتصادية التى قام بها ، لكن

---

[٤٩] ناصر خسرو ، سفر نامه ، نفس المصدر ، ص ص ١١٣ - ١١٤ .

[٥٠] المخزومى ، المنتقى من كتاب المنهاج فى علم خراج مصر ، تحقيق كلود كاهن ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٥ .

[٥١] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٤٥ ، ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، القاهرة ١٩٧٣ ، جـ١ ، ص ٢٢ .

[٥٢] ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ٢٢ .

[٥٣] القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٤٩١ .

[٥٤] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٧٩ .

[٥٥] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٥٩ : المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٠ ، وإذا وفى النيل ستة عشر ذراعاً ، فقد وجب الخراج ، وإذا زاد عن ذلك ذراعاً ، زاد فى الخراج ماية ألف دينار ، فإن نقص ذراعاً ، نقص الخراج ماية ألف دينار .

مع وزارة الأفضل ارتفع إلى خمسة ملايين ، وهذا المبلغ كان شاملاً المكوس ، مع الأخذ فى الاعتبار أن الأفضل كان أحد الوزراء الذين اهتموا بشئون البلاد ، وساعد حفر خليج أبى المنجا على زيادة الخراج ولم يكن المأمون البطائحى أيضاً أقل اهتماماً من الأفضل ، لا سيما أنه كان بمثابة ساعد الأفضل الأيمن[٥٦] . وجاء الخراج فى عهده أقل وهذا يرجع إلى أن المأمون سامح الناس فيما عليهم من بقايا[٥٧] ، لكن بعده إلى نهاية الدولة ، كان لابد أن يحدث انخفاضاً ملحوظاً فى الخراج بسبب الظروف التى ألمت بالبلاد من تصارع الوزراء وتقلص ممتلكات الخلافة .

أما فيما يخص الأرض ، فإن هذا الموضوع يعد من الأمور الملغزة فى تاريخ مصر الإسلامية ، لذلك فتناول أشكال ملكيتها أو حيازة الدولة لها وكذلك وجود الإقطاع لا يكون بالأمر السهل ، خاصة وأن هناك أشكالاً مختلفة للإقطاع من إقطاع تمليك وإقطاع استغلال فضلاً عن الارتفاع ، فكانت هناك قبالة الأراضى والمزارعة والملكية الخاصة ، مما لا تعطى صورة واضحة ومحددة ، كما أنها تطرح كثيراً من التساؤلات بشأن خصوصية كل فترة ، ومدى امتلاك الدولة للأرض ، وتواجد الملكية الخاصة .

ومعلوماً أن الدولة الفاطمية ظهرت على المسرح السياسى ، خلال فترة اتسمت بشكل عام بوجود تحولات على كافة الأصعدة فى العالم الإسلامى ومنها الاقتصادية ، فوقفنا معها على أعتاب فترة جديدة ، حملت فى طياتها بعض سمات الفترة السابقة فى ذات الوقت ، وبخصوص الإقطاع الذى قامت هذه الدولة فى ظله ، والذى كان منتشراً فى العصر الإخشيدي[٥٨] ، فحسبنا على ذلك المصادرات فى أواخر هذا العصر ، لذا لم يستأصل الإقطاع دفعة واحدة ، إنما راعت الدولة فيه المرحلية[٥٩] .

ولأن الفاطميين ورثوا أملاك الإخشيديين ، وصادروا الإقطاعات القديمة التى كانت فى الغالب إقطاعات تمليك ، ونظرياً كان الإمام يملك الأرض فى منطقة

---

(٥٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .

(٥٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .

(٥٨) ملك أبو بكر المارذانى الذى وزر للأخشيد عام ٣٢٨/٩٤٠م ، ضياعاً بلغ دخلها أربعمائة ألف دينار فى كل سنة ، وتعرض لمصادرة الأخشيد هو وغيره من أسرة الماذرائيين وكذلك كبار رجال الدولة . انظر: سيدة كاشف ، مصر فى عهد الأخشيديين، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ص ١٦٠ ، ٢٤٤

(٥٩) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ١٤٢ .

نفوذه[٦٠] . وعلى ذلك قام الفاطميون باقطاع المغاربة ، الذين أتوا معهم الاقطاعات[٦١] ، كما منح الخليفة العزيز ٣٦٥ – ٣٨٦هـ / ٩٧٥ – ٩٩٦م ، الوزير يعقوب بن كلس الاقطاعات فى الشام ومصر بلغت ثمانى آلاف ديناراً سنوياً[٦٢] ، كما قام برجوان أثناء وصايته على الخليفة الحاكم بإقطاع قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى مبلغه خمسة عشر ألف ديناراً فى السنة[٦٣]، وغيره من رجال العلم[٦٤] .

وكانت الأسرة الحاكمة نفسها تملك كثيراً من الاقطاعات ، فاقطعت ست الملك ارتفاع لبعض ضياع الصعيد والوجه البحرى[٦٥] . وفى إطار سياسة الحاكم التى هدفت فى البداية إلى الإصلاح وهب وأقطع الضياع والأعمال والعقارات والأملاك السلطانية[٦٦] ، لكن بعد وفاته قبضت أخته على جميع هذه الأقطاعات[٦٧]. وعلى ذلك استمرت الدولة فى منح هذه الاقطاعات ، فمنح الخليفة الظاهر إقطاعات لشمس الملك مسعود بن طاهر الوزان رئيس ديوان الكتاميين عام ٤١٥هـ / ١٠٢٤م[٦٨] .

ومما سبق يتضح أنه كان هناك إقطاعاً خلال العصر الفاطمى الأول وكان يمنح لكبار رجال الدولة من الوزراء ورؤساء الدواوين بدلاً من الرواتب[٦٩] ، كما أن ما يمنحه الخليفة هو نعمة ، وله حق الملكية والمنح[٧٠] ، كما كان هذا الإقطاع ، إقطاع

---

(٦٠) انظر Shaban, Islamic History, p. 200.

(٦١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، حققه إحسان عباس ، بيروت ، جـ١ ، ص ص ٣٧٧-٣٧٨ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ١٧٣ .

(٦٢) ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٠٩ ، ويختلف معه المقريزى فى مبلغ هذا الاقطاع ويجعله ثلاثمائة ألف دينار ، انظر ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٦ .

(٦٣) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٠٧ .

(٦٤) ابن حجر ، رفع الأصد عن قضاة مصر .

(٦٥) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٣٣ . اقطعت سيدة الملك اقطاعاً مبلغه مائة ألف دينار منها ضياع فى الصعيد وأسفل الأرض ثمانية وستون ألفاً وأربعمائة وخمسون ديناراً منها بوتيج ستة آلاف وسبعمائة وخمسون ديناراً وصهرشت سبعة عشر ألف ديناراً .

(٦٦) المقريزى ، اتعاظ ، ص ص ٧٤ ، ٩٢ ، ١٠٢ .

(٦٧) يحيى بن سعيد ، تاريخ أو صلة تاريخ أوتيخا ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٢٣٧ .

(٦٨) المسبحى ، أخبار مصر فى سنتين ، تحقيق وليم ج ميلورد ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٥٠ .

(٦٩) انظر : Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt A.H. 564-741 A.D. 1169-1341, London 1972, p. 26.

(٧٠) وأنفذ شمس الملك إلى الحضرة يسأل فى تسليم إقطاعه ، فقيل له : هذه نعمة أمير المؤمنين عليك وعلى أمثالك ليس تنزع منهم ، انظر . المسبحى ، أخبار ، ص ٥٠

ارتفاع[٧١] ، وهو ما يستفيد به المقطع من خراج بعض النواحى مقابل دفع العشر إلى الخزانة ، وبذلك يعد الإقطاع خلال هذه الفترة إقطاعا مهمشاً .

ولابد أن وضع الاقطاعات خلال عصر المستنصر ووصول وزراء السيف إلى السلطة بداية من بدر الجمالى ، الذى يعد فاتحة للوزراء المستبدين قد تغير ، وذلك من حيث اتساع هذه الاقطاعات ونوعيتها أى انتقالها إلى شكل آخر من أشكال الإقطاع وهو "اقطاع التمليك"[٧٢] وهذا يتضح مما قام به بدر الجمالى من حبس بعض الأراضى على عقبه ، حيث كان هذا الحبس يشتمل على مناطق واسعة فى بهتين والأميرية والمنية ، وكان أيضاً ناحية الجيزة فى سفط ووسيم[٧٣] ، فهى إذ لم تكن إقطاعاً له ويملكه ، فكيف يكون له الحق فى توريثه لذريته ؟ كما أقطع أبو على بن الأفضل شاهنشاه الطائفة الحجرية إقطاعات بسبب وقوفها بجانبه للوصول إلى الوزارة عام ٥٢٤هـ/١١٣٠م[٧٤] . أما بهرام فقد اقطع أخيه المعروف بالباساك ولاية قوص وولاه عليها ، وكانت تعتبر من أعظم ولايات مصر أنئذ[٧٥] . ويبدو أنه أقطع الجند الأرمن بعض نواحى الصعيد ، حتى أنه بعد هزيمته أمام رضوان بن ولخشى عام ٥٣٣هـ/١١٣٩م ، خير هؤلاء الجند فى البقاء كفلاحين فى هذه الأراضى أو العودة إلى بلادهم[٧٦] . كما وردت كلمة الضياع فى المصادر[٧٧] خلال هذه الفترة لتدل على شيوعها . ففى العصر الفاطمى الثانى أصبح كبار رجال الدولة يحصلون على الاقطاعات إلى جانب الرواتب[٧٨] .

---

[٧١] الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٩٤ .

[٧٢] واقطاع التمليك إما موات وأما عامر وأما معدن ، والموت ما كان كذلك على مر الزمان أو كان عامراً فخرب وصار مواتاً عاطلة ، وأما العامر ، فالذى لم يتعين مالكوه ، فإن كان الإمام اصطفاه لبيت المال من الفتوح بحق الخمس أو برضاء الفاتحين ، لم يجز اقطاع رقبته وصارحكم الوقف وللسلطان استغلاله لبيت المال أو اختيار من يقوم بعمارة رقبته . انظر . الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٩٠ وما بعدها .

[٧٣] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢٩ .

[٧٤] المقريزى ، المقفى الكبير ، القاهرة ١٩٩١ ، جـ١ ، ص ٣٩٦ .

[٧٥] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١٦٥ .

[٧٦] المقريزى ، المقفى ، جـ٢ ، ص ٥١٥ ؛ نفسه ، ص ص ١٦١-١٦٢ . وأفرد للجند الأرض جهات منها سملوط وأتلوسنا وإيوان والبرجين فى صعيد مصر وضيعة أخرى بالمحلة .

[٧٧] المسبحى ، أخبار ، ص ص ١٧٦ - ٢٢٥ .

[٧٨] القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٥٢١ .

وتطالعنا المصادر[٧٩] ، بأن الفاطميين اتبعوا نظام قبالة الأرض ، الذى كان سائداً في مصر قبل مجيئهم ، باعتبار أن الأرض ملكاً للدولة ، فتقوم بتأجيرها إلى كبار المزراعين بوصفهم متقبلين يقومون بدفع ما عليها من ضرائب مقابل استغلالها ، من خلال المزايدة وحصول المتقبلين للنواحى على خراجها مقابل إصلاح جسورها وعمارتها وسد ترعها ، ثم دفع حصة الدولة من خراجها على أقساط بعد خصم تكاليف المرافق السابقة . وكانت مدة القبالة فى أول الأمر أربع سنوات مراعاة لظروف الأرض ومياه النيل ، أو ما عبر عنه بالظمأ والأستبحار[٨٠] ، حتى يعوض المتقبل النقص فى حالة المحصول السيئ ، معنى ذلك أن الفلاحين قاموا بزراعة الأرض مقابل ما يدفعون من خراج للدولة ، ويعتبر البعض[٨١] : "أنه بذلك لم يوجد فى مصر سوى مستأجرين من الدولة وليس فيها أرض خراج بالمعنى الصحيح ، لأن الخراج الذى يؤديه الفلاحون آنئذ ما هو إلا أجرة حكرية ، التزم بها المزارعون تجاه الحكومة" ونظام القبالة على ذلك يؤكد فى حد ذاته أيلولة غالبية أرض مصر للدولة ، التى أصبحت حرة فى توزيعها كيفما تشاء .

كذلك بخصوص القبالة ، التى حددت بأربع سنوات ، فهى فى الواقع لا تزيد عن نظام الالتزام ، كما يعبر عنه البعض[٨٢] بأنه إقطاع استغلال ، فالمقطع يدفع مبلغاً من المال يذكر فى الأمر الصادر بإقطاعه عن جهة ما ، وهذا المبلغ يقل بطبيعة الحال عما يجبيه المقطع من أهل الناحية والفارق بينهما هو الفائدة التى تعود على المتقبل .

بدأ نظام القبالة مع خلافة المعز استمراراً لما كان موجوداً فى مصر الإسلامية ، فقد عهد الخليفة به إلى يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن عام ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م ، وجلسا فى جامع ابن طولون ، ولم يقوما فقط بالمزايدة على الضياع وتوزيعها على المتقبلين ، بل طالبا بالبقايا[٨٣] . ومن الواضح أن هذا الأمر كان متاحاً لجميع الناس فى القرى والمدن ممن يستطيعون القيام به ، ومع عصر المستنصر ، الذى اتسم

---

[٧٩] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٢ .
[٨٠] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٢ .
[٨١] كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية بدر الدين القاسم ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٢٣ .
[٨٢] البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٥٨ .
[٨٣] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٢ .

بوقوع الأزمات الاقتصادية وزيادة سطوة الجند ، كنتيجة للصراع بينهم ، الذى فسره البعض[٨٤] أنه بسبب احتياز الأرض ، والأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى مصادرة الخليفة نفسه ، ثم تقاسموا الأعمال ، وكانوا ينتقلون فيها بحكم من تغلب عليها على حد قول المقريزى[٨٥] . ولما طالب الأتراك الوزير ابن كدينه عام ٤٦٠هـ/١٠٦٧م بالأموال ، قال : "وأى مال بقى الريف فى يد فلان والصعيد فى يد فلان"[٨٦] . وهذا يؤكد عجز الدولة عن دفع الرواتب والأعطيات ، فجاء اغتصاب الجند للأراضى أمراً واقعاً ، مما مهد الطريق لسطوة العسكر الأرمنى ، خاصة بعد تولى بدر الجمالى واستبداده بالسلطة[٨٧] .

وكان طبيعياً أن تستشرى هذه الظاهرة ، حتى إذا وصلنا إلى بداية القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى، وجدنا غالبية الأرض فى يد القادة والجند ، وبسبب تسلط قادة الجند ، بدأت شكوى الجند مع وزارة الأفضل من قلة ارتفاع اقطاعاتهم فى الوقت الذى تضاعفت فيه اقطاعات الأمراء وازدادت عن غيرها[٨٨] . ويبدو أن الأمراء وكبار المقطعين انتهزوا فرصة الاضطراب أيام المستنصر فزادوا اقطاعاتهم ، ثم أخذوا فيما بعد يجيرون على ما فى أيدى صغار المقطعين ، ويحتمل أنهم ارغموهم على التماس الحماية مقابل رسم مقرر ، ولهذا ازدادت اقطاعاتهم[٨٩] .

ولذلك أمر الأفضل بحل الاقطاعات جميعها وروكها أى مسحها ثم إعادة توزيعها من جديد ، وكان هذا الإجراء الفورى من قبل الدولة ، بقدر ما يحقق انصافاً للجند ، فكان لابد أن يعود بفائدة مالية على الدولة ، بسبب وجود بقايا لأموال الديوان لدى المقطعين ، الذين كانوا لا يدفعون للدولة كل ما عليهم . وأعيد توزيع الأرض من جديد بالمزايدة ويتضح أن المقطعين الجدد كانوا من الأقوياء ، الذين هم فى الغالب أما قادة الجند أو كبار رجال الدولة من العاملين بالدواوين ، فضلاً عن الأجناد ، فلم يكن

---

(٨٤) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ٢٣٩

(٨٥) المقريزى ، اغاثة ، ص ص ٢٢ - ٢٣ .

(٨٦) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٢٧٥ .

(٨٧) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٨٨) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .

(٨٩) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٦٠ .

من السهل على عامة المصريين الاشتراك فى المزايدات ، التى كانت تعقد بشأنها[٩٠] ، وهذا لا يرجع فقط بسبب سوء الأحوال الاقتصادية ، لكن أيضاً بسبب تطاول العسكر وتصدرهم السلم الاجتماعى آنئذ .

كما زادت فترة القبالة إلى ثلاثين عاماً ، وهذا معناه أنها تحولت إلى الإقطاع ، لكنه مع ذلك لا يتشابه مع ما ستشهده البلاد فيما بعد ، فعلى الرغم من إطالة الفترة ووقوع الأرض فى أيدى الأجناد فإنه لا يشترط فى حيازة الأرض أى التزام بالخدمة العسكرية ، لكنه ملزم بأداء العشر الواجب على كل مسلم ، كما كان المالك يخضع لإشراف الدولة[٩١] ، وبعد هذه الفترة يحق للدولة نقله إلى غيره ، ويصبح المحصول من نصيب المقطع الجديد ، ويرد الأرض المقطعة ، فلا ينقل شيئاً من المنشآت المقامة فيها ، ولا يتصرف فى التبن المودع بمخازنها[٩٢] ، كما كان هناك جمعاً بين الرواتب والإقطاع ممثلاً فى الأسطول ، فكان من يعمل به يصل راتبه إلى عشرين أو خمسة عشرة ديناراً وكان له اقطاعا يعرف «بأبواب الغزاة»[٩٣] . ومع ذلك فهذا التحول قد مهد لنظام الاقطاعات الحربية الذى أدخله الأيوبيين[٩٤] ، أو بمعنى آخر كانت هذه الفترة السابقة إرهاصا لسيادة الإقطاع فى العصر الأيوبى[٩٥] .

ويتضح من العرض السابق أن الاقطاعات كانت قليلة فى بداية الدولة ، كما كانت بمثابة تعويضاً من الدولة عن الرواتب ، لكنها تزايدت فى أواخر حكمهم وأخذت أشكالاً أكثر ثباتاً أسلمت البلاد فيما بعد إلى الإقطاع العسكرى .

كما كانت الدولة تؤجر الأراضى التابعة لبيت المال للفلاحين ، ويدفعون عنها إيجارا محدوداً أو يزرعوها وفق نظام المزارعة أو المقاسمة فى المحصول[٩٦] ، فضلاً

---

(٩٠) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٦١ .
(٩١) كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص ١٢٤ .
(٩٢) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .
(٩٣) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ١٩٣ .
(٩٤) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٦١ .
(٩٥) عبد العزيز الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١٠٢ .
(٩٦) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٥٣ .

عن ذلك ، كان للخلفاء أملاكاً واسعة مثل الخليفة المستنصر ، الذى كان له ثلاثمائة قرية فى ساحل الخليج[٩٧] . وكان من ممتلكات الخليفة الآمر قرية من قرى قليوب تعد متنزهاً له ، عرفت باسم «قصر الورد»[٩٨] ، فضلاً عما حازه الوزراء من ممتلكات مثل ما حبسه أمير الجيوش أو ما تركه ابن رزيك من أملاك موقوفة[٩٩] .

وارتباطاً بما سبق لنا أن نتساءل ، هل كانت هناك ملكية خاصة للمصريين بعيداً عما ملكه القطاع الحاكم ؟ يذكر المقدسى[١٠٠] : "ليس فى مصر خراج ، ولكن يعمد الفلاح إلى الأرض يأخذها من السلطان ويزرعها ، فإذا حصدت .. يخرج الخازن وأمين السلطان فيقطعون كرى الأرض ويعطيا ما بقى للفلاح ، وفيهم من يأخذ من السلطان تقوية ، فيرد علته فى كرى الأرض بمقدار ما أقطعه ، فلا يكون لأحد ملك وضيعة ، قال : اللهم أن يكون رجل قد اشترى ممن أقطعه السلطان فى القديم ووهبها ، فاحتاج هو وذريته إلى ثمنها ، فباعها لعامة الناس» .

فهذا النص فضلاً عن أنه يجمل ما اسلفناه ، فهو يؤكد على أن الملكية الخاصة تكاد أن تنعدم من خلال احتياز الدولة للأرض ، وتوجد فى نطاق ضيق ، ولا تأتى إلا عن طريق إقطاع الأرض ولا سيما التمليك ، فتنتقل بالبيع لعامة الناس . ومن المعلوم أن المقدسى زار مصر خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وأن كانت هذه المعلومات لم يستقها من مصر نفسها ، بل سأل أحد المصريين ببخارى عن حال الأرض فى مصر ، فكان ما أوردناه . والبعض[١٠١] فند هذا الرأى وأكد على وجود الملكية الخاصة ، لكنه قد استند فى ذلك على نصوص ترجع إلى ما بعد زيارة المقدسى لمصر وحتى آخر عصر الفاطميين ، فالنص الذى أمامنا يبين حال الأرض فى بداية عصرهم وكانت الدولة لا تزال مالكة للأرض ، وهى التى تمارس توزيعها أما بالقبالة أو بالمزارعة مع وجود الملكية الخاصة فى نطاق ضيق .

---

[٩٧] ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٧ .
[٩٨] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٨٨ .
[٩٩] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٤ .
[١٠٠] أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٢١٢ .
[١٠١] البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ص ٥٣ – ٥٦ .

لكنها ازدادت بمضى الزمن ، حتى كان الوقف معبراً عنها ، لأنه لا يمكن أن يمنح شخص حق الاستفادة فى أرض ليس له فيها سوى حق الانتفاع ، ولا معنى إنه يوقف إيرادها ، لأنه بذلك يسلب المالك الأصلى حق الاستفادة من ملكه(١٠٢) . ومن خلال أحد عقود الوقف الذى يرجع إلى عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م(١٠٣) نتبين ذلك ، كما أورد المقريزى(١٠٤) خلال وزارة الأفضل : «قد طالع المجلس الأفضلى بحال أرباب الأملاك هناك وأنهم قد استضافوا إلى أماكنهم من أملاك الدواوين أراضى اغتصبوها ومواضع مجاورة لأملاكهم تعدوا عليها وخلطوها وحازوها» ويبدو أن هؤلاء استفادوا من فترات الاضطرابات السابقة واغتصبوا أراضى الدولة مع بقاء الملكيات الخاصة .

كذلك عندما أراد الأفضل أن يحل الاقطاعات ، أخذ كل من الأقوياء والمميزين يتضررون ويذكرون أن لهم بساتيناً وأملاكاً ومعاصر فى نواحيهم ، فقال : "من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الأقطاع وهو محكم إن شاء باعه وإن شاء أجره» فهذا النص تقرير صريح عن وجود الملكية الخاصة واعترافاً من الدولة بحق وحرية صاحبها فى التصرف فيها ، لكن هؤلاء أو أولئك قد ظهروا فى أخريات العصر الفاطمى ، حتى سمحت لهم الظروف بالظهور بهذه الكيفية ، كما وصف الآخرين بأنهم من الأقوياء أو المميزين ، فيبدو أنهم كانوا من قادة الجند أو أمراء النواحى ، الذين ظهروا فى أخريات عهد الدولة ، وكان لهم شأناً فيها ، وهذا معناه أن المالكين للأرض كانوا يرتبطون بشكل أو بآخر بالدولة ، أو من المحتمل أنهم كانوا بقايا فلول جند السودان ، الذين أجبروا على التقهقر إلى الصعيد أبان فتن الجند .

خلاصة القول ، أن الملكية الخاصة قد وجدت فى بداية عهد الفاطميين فى نطاق ضيق ، لكنها ازدادت بمضى الوقت ، ولم يقف الأمر عند حد الامتلاك ، بل تعداه إلى اغتصاب الأرض ، كما أن المالكين لم يكونوا من عامة المصريين ، وأن كان ذلك ربما يرجع إلى الافتقار إلى نصوص متعلقة بهذا الشأن .

---

(١٠٢) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٥٥

(١٠٣) انظر : Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, Le Caire Tome VI. No. 2148.

(١٠٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٥

وقد تضمن الأمان ، الذى أعطاه جوهر للمصريين أيضاً : «اسقاط الرسوم الجائرة» وهذا يشير إلى وجود بعض التجاوزات لسياسة الإخشيديين المالية ، والتى عانى منها المصريون[١٠٥] ، فإلى أى حد استطاع الفاطميون أن يؤكدوا فعالية هذا التصريح خلال حكمهم لمصر ؟

تطالعنا المصادر[١٠٦] بأنه مع الفتح الإسلامى لمصر فرضت ضرائب على الصناع والأجراء ، لكنها كانت تقسم عليهم فى كل قرية بقدر احتمالهم ، وفى نهاية عصر الولاة ، فرض أحمد بن المدبر عامل الخراج ضرائباً عرفت باسم «الهلالى»[١٠٧] منها ما فرض على الكلأ وعرف بـ «المراعى» أو ما يخرج من البحر وعرف بـ «المصايد» وعلى الرغم من أن هذه الضريبة فرضت على نطاق ضيق ، فإنها أثقلت كاهل الرعية ، ولذلك عمل أحمد بن طولون عندما ولى مصر على إسقاطها[١٠٨] رغبة منه فى التقرب إلى المصريين .

وعلى الرغم من التجاوزات المالية ، التى أشار إليها المؤرخون خلال العصر الإخشيدي ، فإنها فى الغالب ارتبطت أولاً بشخص الإخشيد ، الذى قام بمصادرة كبار موظفى الدولة أو ممن كانت لهم معاملات معها وأصابوا منها مالاً كثيراً ؛ فضلاً عن استيلائه على جزء من تركة كبار التجار والموظفين وثانياً جعفر بن الفرات ، الذى تولى الوزارة فى نهاية عصر الإخشيديين وقام بمصادرة الكثيرين من وجوه القوم[١٠٩] ، منهم يعقوب بن كلس ، الذى هرب إلى المعز يحرضه على المجئ إلى مصر ، فضلاً عن البراطيل[١١٠] التى عرفت آنذاك .

---

(١٠٥) اشتد الغلاء فى مصر من عام ٣٥٢هـ/٩٦٣م واستمر تسع سنوات متتابعة ، وكان سببه الرئيسى يرجع إلى النقص فى فيضان النيل مما أدى إلى اختفاء القمح واضطراب الأحوال وكثرة الفتن ونهب الضياع ، ثم مات كافور ، فكثر الاضطراب وتعددت الفتن ، سيدة كاشف ، مصر فى عهد الأخشيديين ، ص ٣٤٦ .

(١٠٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ١٧٩ .

(١٠٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

(١٠٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٠٩) سيدة كاشف ، مصر فى عهد الإخشيديين ، ص ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(١١٠) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٧ .

ومع الفاطميين بعد أن استقر الأمر لجوهر ، طاف صاحب الشرطة السفلى[111] ، يصحبه رسول جوهر وأمنا الناس وأعلنا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مؤنة[112] ، كما قام جوهر فى نفس العام ، الذى دخل فيه مصر بإسقاط البراطيل[113] . وبعد مجئ المعز إلى مصر ، أمر يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، بوضع نظاماً جديداً للضرائب ، جمعت أقسامه فى مكان واحد . كما كان من بين الأعمال التى تقلدها الأثنان السواحل والأعشار[114] ، وفى خلافة العزيز أقر الوزير عيسى بن نسطورس ضرائباً ومكوساً زائدة[115] . وهذا يبين أن الضرائب التى فرضها الفاطميون كانت منذ بدء خلافتهم وأنها عرفت باسم "المكوس" مما حدا بالبعض[116] أن يذكر أن الفاطميين وضعوا المكوس على الناس ، وأنهم أحدثوا شيئاً لم يكن على الأقل موجوداً فى العصر السابق عليهم .

وإن كانت هناك إشارات بأن العرب ، كانوا يفرضون ضرائب على التجارة ، وكانت تعرف هذه الضرائب بالمكوس ، استمراراً لما كان معروفاً أيام البيزنطيين[117] ، وكذلك أن ربيعة بن شرحبيل كان والياً لعمرو على المكوس ، واستمرت هذه الوظيفة بحيث ورد اسم زريق بن حيان فى خلافة عمر بن عبد العزيز[118] ، وليس هناك شك فى وجود هذه الضرائب وهذه الوظيفة ، لكن الخلاف حول المسمى ، فمن المعلوم أن المقس أنشأ فى القاهرة ، فعند مجئ المعز ، رأى أن المدينة الجديدة لا ساحل لها فلم يعجبه ، وقال يا جوهر : «فاتك عمارتها ههنا ، يريد

---

(111) لما أنشئت العسكر على يد أول الولاة العباسيين فى مصر أنشئت فيها شرطة جديدة سميت بـ "الشرطة العليا" تميزاً لها عنا الشرطة السفلى فى الفسطاط وترجع هذه التسمية إلى الموقع وحدود الاختصاص ، وكان صاحب الشرطة السفلى عظم شأناً من زمينه بوصفه صاحب القسم الرئيسى . انظر سيدة كاشف ، مصر فى عهد الإخشيديين ، ص ص ١٧٢ - ١٧٣.

(112) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٠ .

(113) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٧ .

(114) ابن ميسر ، أخبار ، ص ١٦٣ .

(115) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ١٨٠ .

(116) أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، جـ١ ، ص ٢١ .

(117) سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٦٢ .

(118) المقريرى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢٣

المقس»[١١٩] ثم حرفت بعد ذلك إلى كلمة المكس ، حيث كان الماكس يجلس ليستخرج المكس[١٢٠] . فمن المرجح أن هذه الكلمة «مكوس» قد عرفت مع الفاطميين ، ولأن ما كان يجبى من ضرائب منذ الفتح لم يكن سوى عشور التجارة التى حددت للمسلمين بربع العشر ومن أهل الذمة بنصف العشر ومن أهل الحرب بالعشر[١٢١] ، فضلاً عن ضرائب التجارة الداخلية التى كانت تفرض داخل البلاد[١٢٢] . وكذلك لأن الكلمة كانت تفيد الضرائب ، وبذلك انسحبت على الفترات السابقة على الفاطميين .

والمكوس[١٢٣] ، ضرائب تفرض على كل نشاط حرفى يمارس فى مصر الفاطمية ، فإذا كان الخراج ضريبة تفرض على الأرض ويدفعها القطاع الفلاحى ، فالمكوس تفرض على الصناعة والتجارة ويدفعها الصناع والتجار ، وتختلف المكوس عن الخراج أيضاً فى وقت جبايتها ، فبينما الخراج يجبى حسب السنة الشمسية[١٢٤] ، كانت المكوس تجبى حسب الشهور الهلالية[١٢٥] ، ولذلك عرفت أيضاً باسم الهلالى والمرافق والمعاون . وقد استمرت هذه الأسماء فى بعض الأحيان مع الفاطميين[١٢٦] . وقد أصبحت المكوس تفرض على نطاق واسع ولم تترك شاردة ولا واردة إلا وفرضت عليها الدولة رسوماً وضرائب . وقد ذهب البعض[١٢٧] ، إلى إنها ضريبة تفرض على الانتاج .

وفيما يخص الضرائب المقررة على الصناعة ، فكانت كثيرة ، منها ما يفرض على صناعة الفاخور والنبيذ ومعاصر الزيت والخل[١٢٨] ، فمثلاً كان يفرض على زق

---

[١١٩] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٢ .
[١٢٠] القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٣٥٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢١ .
[١٢١] أبو يوسف ، الخراج ، القاهرة ، ١٣٩٧هـ ، ١٢٣ .
[١٢٢] سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص ٦٣ .
[١٢٣] انظر : Dozy, Supplément aux dictionnaire arabe, 1927, 11, p. 606.
[١٢٤] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٧٥ .
[١٢٥] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٧٦ .
[١٢٦] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ١٠٤ ، ١٠٧ .
[١٢٧] ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١١٧ .
[١٢٨] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ١٠٤ – ١٠٥ .

الزيت ديناراً[١٢٩] ، بالاضافة إلى ما يفرض على مطابخ السكر ودار الجبن وبيوت الغزل ، فكانت الضريبة المقررة على صناعة الحرير فى الفسطاط ٣٣٤ دينار[١٣٠] ، وبالمصادقة ، هناك وثيقة ترجع إلى عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م[١٣١] من المحلة تعطى نفس القيمة ، ومن وثيقة أخرى[١٣٢] ، تتوافق الضرائب الخاصة بصناعة الحرير تبعاً لمراحلها المختلفة ، والتى يتم مباشرتها من قبل الصناع والحرفيين المشار إليهم عند المقدسى[١٣٣] ، حيث الرسوم ، التى كانت تحصل فى تنيس ودمياط ، مقابل حمل المنسوجات وشدها وحزمها ، بالإضافة إلى ما كان يفرض من ضرائب على صباغة الحرير[١٣٤] ، بل تعدت الضرائب إلى حضانات الفراريج[١٣٥] كسائر الحرف والصناعات ، وكذلك استمرت الضريبة المقررة على المصايد[١٣٦] وغيرها مما ذكره المؤرخون وكان يوجد فى كل سوق من الأسواق على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم[١٣٧] .

وفيما يخص النشاط التجارى ، فقد فرضت الدولة كثيراً من الضرائب سواء على التجارة الخارجية أو الداخلية ، لا سيما أن التجارة شهدت تقدماً ملحوظاً مع قيام الدولة الفاطمية ، كما لعبت مصر دور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب ، وعلى الصعيد الداخلى ، تأثرت التجارة فى مدن مصر بهذا النشاط فضلاً عن التقاليد الاجتماعية التى أرستها طبيعة الحكم الفاطمى من ميل إلى الترف وحب المظاهر ، فشهدت الأسواق الداخلية لذلك حركة دائبة .

---

(١٢٩) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ ، والزق ، كل وعاء أتخذ للشراب ونحوه ، انظر ، ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ١٩٨٨ ، جـ٦ ، ص ٦٠ .

(١٣٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٥ .

(١٣١) Goitein. S.D., A Mediterranean Society, Economic Foundations, Los Angeles, 1967, 1, p. 116.

(١٣٢) انظر : Goitein, Med Soc., 1, p. 116.

(١٣٣) أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

(١٣٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٥ .

(١٣٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٧ .

(١٣٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٣٢ .

(١٣٧) المقريزى ، إغاثة ، ص ١٨ .

أما التجارة الخارجية ، أو ما يقصد بها الصادر والوارد فى موانى ومدن مصر المختلفة مثل الإسكندرية وتنيس ودمياط ورشيد وعيذاب[١٣٨] وغيرها . فكانت الضرائب تستأدى من الروم فى الإسكندرية والفسطاط واخميم[١٣٩] ، أما أسوان فيدفع فيها الضرائب على السلع الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن[١٤٠] . ولقد اختلفت قيمة الضرائب ، بسبب أن القائمين بالتجارة كانوا ينتمون إلى طوائف مختلفة من مسلمين وغير مسلمين ، لذلك نجد أن هذه الضرائب ارتبطت بالطائفة التى فرضت عليها مثل العشر ، الذى فرض على التجار المسلمين والخمس على التجار الغير مسلمين والأجانب ، خاصة الروم وعرف بهم[١٤١] . وإن اختلف الخمس أيضاً من فئة إلى أخرى حسب أنواع السلع وقيمتها وكذا جنسيات التجار . فكان يحصل من بعض تجار الروم الخمس ومن بعضهم العشر ، ومن هنا جاءت كلمتا العشر والخمس كمرادف لكلمة مكوس . كما كانت تخفض الضرائب على التجار الأوروبيين ، خاصة تجار المدن الإيطالية . فضلاً عن حصولهم على بعض الامتيازات بسبب ما يحملون من مواد خام يحتاجها الفاطميون مثل الخشب والحديد[١٤٢] .

ولقد وضع الفاطميون كثيراً من الضوابط لأحكام تحصيل هذه الضرائب ، فعندما تأتى السفينة ، يصعد إليها الأمناء ، وهم موظفون من قبل الدولة ومهمتهم تسجيل جميع ما جلب من بضائع ، ويتم نقل هذه البضائع إلى الفنادق حيث تقدر أثمانها بواسطة سماسرة تابعين للدولة أيضاً ، ثم يساق التجار بعد ذلك إلى مكان التفتيش[١٤٣] ،

---

(١٣٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٦٤ .

(١٣٩) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٩ .

(١٤٠) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٣٣ .

(١٤١) المخزومى ، المنهاج ، ص ٤٥ . والخمس عبارة عما يستأدى من تجار الروم الواردين على الثغر بمقتضى ما صولحوا عليه ، وربما يستخرج عما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين ديناراً وإنما انحط عن العشرين ديناراً وسمى كلاهما خمساً ، انظر . ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦ .

(١٤٢) هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٩١، جـ٢ ، ص ٣٤ .

(١٤٣) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٧ .

فضلاً عن الأمناء المسئولين عن تحصيل الضرائب المستحقة على القوافل ، التى تأتى إلى حدود البلاد[١٤٤] .

أما السلع التى تصدر من مصر عبر الموانى المصرية ، فيدفع صاحب السلعة رسوماً معينة إذا حملت السلعة إلى المراكب ، كما تحمل سلعة كل تاجر علامة خاصة به ، ثم يتم التفتيش قبل التحرك ، وتوكل الدولة لتحصيل هذه الضريبة موظفاً يسمى «ضرائبياً» يكون مسئولاً فى كل ميناء من موانئ مصر عن جباية الأموال المختلفة[١٤٥] . وكان يؤخذ مثلاً فى القلزم على كل حمل درهم ، وكان يؤخذ فى الإسكندرية والفسطاط واخميم دون بقية البلاد ضرائب بتقرير الديوان[١٤٦] . ولكثرة ما كان يجبى من ضرائب ، أوجدت الدولة ديواناً سمى بـ «ديوان الثغور» ليقوم بالإشراف على الثغور الساحلية[١٤٧] .

كما كان لنشاط التجارة الكارمية ، أثر فى تحصيل هذه الضرائب ، خاصة أن الفاطميين قد دفعوا بهذه التجارة قدماً ، عندما زاد اهتمامهم بالبحر الأحمر وتجارة الشرق[١٤٨] . حتى أصبحت كلمة كارم مع القرن ٦هـ/١٢م ، شائعة فى بيوت الفسطاط[١٤٩] . وكانت رسوم هذه التجارة تحصل فى أربعة سواحل ، فى عيذاب والقصير والطور والسويس[١٥٠] ، وعلى ذلك قامت الدولة بحماية سفن التجارة الكارمية من خلال إقامة أسطول فى عيذاب[١٥١] ، مما يبين أنه كان هناك أسباباً مالية من وراء هذه الحماية ، فقد كان كبار التجار قادرين على الدفع ، أما صغار التجار فكانوا مضطرين إلى أن يتحملوا تقلبات القراصنة ، التى كانت تشكل خطراً فعلياً وقتذاك فى

---

(١٤٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٤٥) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

(١٤٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١١٠ .

(١٤٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٣٩١ .

(١٤٨) بعد فقدان الفاطميين للمغرب وصقلية أفل نجمهم فى البحر المتوسط ، وكان عليهم أن يؤكدوا وجودهم فى مكان آخر ، فاتجهوا إلى البحر الأحمر ، لاسيما تجاه اليمن والهند ، وبذلك أصبح البحر الأحمر خلال ق٥هـ/١١م طريق التجارة الرئيسية إلى الهند والبحر المتوسط ، انظر : Shaban, Islamic Hiswtory, P. 203.

(١٤٩) انظر : Goitein, New lights on the beginning of the Karimi Merchants (JRAS), p.181.

(١٥٠) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ص ٤٦٤ – ٤٦٥ .

(١٥١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ص ٥٢٠ .

جنوب البحر الأحمر[١٥٢] ؛ فضلاً عن قيام الخلفاء أنفسهم وغيرهم من كبار رجال الدولة بالمشاركة فى هذه التجارة ، من خلال السفن التى أعدت لهذه التجارة ، مستفيدين من انتعاش هذه التجارة[١٥٣] ، مما يدل على ارتفاع الرسوم المقررة على تجارة الكارم . وكانت دار مانك الصغرى ، التى كانت تقع فى الفسطاط مكاناً لدفع المكوس[١٥٤] على السلع المصدرة ومنها تجارة الجملة مثل الكتان والتوابل[١٥٥] .

ولحاجة الفاطميين إلى تحصيل الأموال فى موانى مصر سواء التى تربطها بأوروبا أو بالشرق ، عمل الفاطميون على تشجيع التجارة ، فأنشأت الأساطيل التجارية ، كما أعيد حفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر فيما عرف بـ «الخليج الحاكمى»[١٥٦] ، كذلك أعيد حفر خليج الإسكندرية ٤٠٤هـ/١٠١٣م[١٥٧] ، فضلاً عن تشجيع التجار الأجانب على المجئ إلى مصر من خلال تخفيض الرسوم وإقامة الفنادق فى الموانئ الهامة وفى غيرها من المدن ، حيث انتشرت من الإسكندرية حتى أسوان[١٥٨] ، إلى جانب تعهد الدولة فى بعض الأحيان ببسط حمايتها على التجار الموجودين فى أنحاء البلاد[١٥٩] . كما أمر الآمر ببناء دار الوكالة لمن يصل من العراق والشام من التجار ، ولم يسبقه إلى ذلك أحد[١٦٠] .

أما الضرائب المقررة على التجارة الداخلية ، فكانت كثيرة ، منها ما يفرض على عبور السلع من القناطر والمعديات . أو التوابل والقطن والصوف والأبقار والحنة والفحم وغيره[١٦١] . وقد أوردت وثائق الجنيزة[١٦٢] قيمة بعض هذه الضرائب ، منها

---

(١٥٢) انظر : Goitein, New Lights, p. 182.

(١٥٣) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ٣٠١ .

(١٥٤) المسبحى ، أخبار ، ص ١٨٩ ؛ ودار مانك تقع بشارع الزياتين ، انظر . ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص ٥-٦ .

(١٥٥) انظر : Goitein, Med. Sec. IV, p. 27.

(١٥٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٧١ .

(١٥٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧١ .

(١٥٨) ابن جبير ، الرحلة ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٣٧ ؛ هايد ، تاريخ التجارة ، جـ٢ ، ص ٤٣ .

(١٥٩) هايد ، تاريخ التجارة ، جـ٢ ، ص ٤٠ .

(١٦٠) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٩٢ .

(١٦١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٦٢) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, pp. 194, 276.

درهمين على الحمار ، بينما كان ثمنه ما بين دينارين وخمسة دنانير وثلاثة دنانير للمتوسط ، والجمل يباع بخمسة دنانير وضريبته خمسة دراهم أى حوالى ٢،٥% ـ ثمنه . كما كانت الدولة تفرض الضرائب على الأسواق المتخصصة مثل سوق السكر والدقيق والجمال والدواب والسمك والذبائح وغيرها(١٦٣) ، بالإضافة إلى ما يدفعونه مقابل ما يباع وما يشترى(١٦٤) ، أما تجارة المنسوجات ، فقد فرضت عليها رسوماً باهظة كما راقبتها الدولة رقابة شديدة سوف نشير إليها فيما بعد .

وكانت هناك أيضاً بعض الضرائب التى تفرض على السلع ، منها مكس حقوق الساحل أو الغلة ، وهى ضريبة مقررة على القمح المجلوب إلى ساحل القاهرة والفسطاط(١٦٥) حيث كان يفرض عليه الضريبة قبل أن يباع ، ويبدو أن هذه الضريبة فاطمية الأصل أو حتى مبكرة(١٦٦) ، إلى جانب ما كان يفرض على الكتان والقطن وعما يحصل فى ساحل السنط بالفسطاط على الأخشاب ، التى تنقل إليه والمباعة للتجار بالوجه القبلى(١٦٧) ، كما كانت تؤخذ الرسوم بشكل عينى على بعض السلع وهذا يتضح مما سومح به فى وزارة المأمون البطائحى عام ٥١٥هـ/١١٢٢م(١٦٨) ، وكذلك ما كان يؤخذ من الجاموس للديوان على كل رأس من الراتب نظير ما يتحصل منه فى كل سنة من خمسة إلى ثلاثة دنانير ، فضلاً عن الضرائب المقررة عليه(١٦٩) ، وبذلك أمدت ضرائب السوق الفاطميين بأموال ضخمة(١٧٠) ، وفى الغالب كانت تجمع الضرائب من خلال الضمان بمقدار معين لكل جهة إن زادت فله وإن نقصت فعليه(١٧١).

---

(١٦٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٦٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٧٥ .

(١٦٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٦٦) انظر : Rabie, The Financial System, pp. 103 - 104.

(١٦٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١١١ .

(١٦٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ٨٣ – ٨٤ . ومقدار ما سومح به إلى آخر عام ٥١٠هـ/١١١٦م تسعمائة وثلاثة عشر قنطاراً من الشب ومن الحديد خمسمائة رطل ، ومن الملح الفان وسبعمائة وثلاثة وتسعون أردباً وثلث ومن الشمع أربعمائة وأربعون لاطلاً .

(١٦٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ٨٣ – ٨٤ .

(١٧٠) انظر : Ashtor. E., Social and economic History of the Near cast in Middle Ages. London 1976, p. 200.

(١٧١) القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٤٦٦

ومن الملاحظ أيضاً ذكر مناطق متعددة لجباية ضرائب التجارة الداخلية فى ساحل الفسطاط والقاهرة ، كما خصصوا أماكن معينة يرد إلى كل منها نوع معين لتقرير الضريبة عليه ، وأن هذه الضرائب اختلفت من حيث ورود كلمات تعبر عنها مثل رسوم ، مكس ، حماية ، واجب ، سمسرة السلع ، سمسرة الدلالة(١٧٢) . وكان هناك ديواناً يشرف على التجارة الداخلية يسمى «ديوان الهلالى»(١٧٣) ويوجد أيضاً فى كل ناحية متولى المال ، حيث يوجد ديوان الحكومة فى الناحية ، أما الحسابات النهائية ، كانت توجد فى المركز الرئيسى بالقاهرة(١٧٤) ، ولعله الديوان السالف الذكر .

لذا نجد الفاطميين يهتمون بالأسواق لتشجيع التجارة الداخلية ، فكان أغلبها مغطى بالسقائف وتضاء ليلاً بالقناديل ، خاصة فى عهد الحاكم بأمر الله ، الذى أمر بإضاءة الشوارع والأسواق والحوانيت فى مصر والقاهرة ليلاً(١٧٥) . كما كانت معظم الأسواق مبلطة(١٧٦) . إلى جانب توفير الدواب للركوب للانتقال بين الأسواق(١٧٧) . وكان هناك موظفاً مسئولاً عن الإشراف على التجار(١٧٨) ، ربما يكون أحد العرفاء الذين استعان بهم المحتسب(١٧٩) ، أو أنه كان يهتم بشئون اليهود وحدهم .

ولحرص الفاطميين على تشجيع التجارة ، استطاع القاضى النعمان أن يجد حلاً لممارسة الربا بشكل شرعى ، فمع عدم شرعية الربا كما هو معلوم ، فقد تمت ممارسته ، لكن خلال تحديداً خاصاً بهم قام على التفاضل فى عملية الدين ، وهو : «لا بأس باقتضاء الفضة من الذهب والذهب من الفضة ، إذا اتفقا على ذلك ، ومن أسلف دراهم فأعطى أجود منها فلا بأس»(١٨٠) وهذا الأمر ينسحب على السلع أيضاً .

---

(١٧٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٧٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٩٢ .

(١٧٤) انظر : Goitein, Med Soc., p. 267.

(١٧٥) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٣٩ .

(١٧٦) الشيزرى ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١١ .

(١٧٧) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ص ١٢٠ – ١٢١ .

(١٧٨) انظر : Mann, The Jews in Egypt. 1. p. 81.

(١٧٩) المقريزى ، إغاثة ، ص ١٨ .

(١٨٠) النعمان ، الاقتصار ، ص ٨٤ .

وإضافة إلى الضرائب التى فرضت على النشاط الصناعى والتجارى ، كان هناك نظام التصاريح أو التراخيص ، الذى كان من الأمور المعمول بها خلال العصر الفاطمى ، فكان على كل حانوت أن يستخرج رخصة شهرية مقابل واجبات مالية يجب أن تؤدى ، وهذا الأمر لم يكن مطبقاً فقط على المصانع ، لكن أيضاً على حوانيت بيع المواد الغذائية أو غيرها من السلع الأخرى ، وهذه الواجبات كانت تجمع تبعاً للشهور الهلالية ، وهى لم تكن إيجارات لما تؤجره الحكومة ، وهذا النظام ، بالإضافة إلى أنه يعد مصدراً للدخل ، فهو يجعل الحكومة قادرة على أن تشرف على أوجه النشاط الصناعى والتجارى لرعاياها(١٨١) .

ومع ذلك ، قد تجاوزت المكوس فى بعض الأحيان هذين المجالين ، ففرضت على الحجيج فى البحر الأحمر إلى مكة عن طريق عيذاب ، وهى سبعة دنانير ونصف عن كل إنسان(١٨٢) ، إلى جانب ما يدفعونه عن كل حمل طعام من ضريبة معلومة(١٨٣) . ومن لم يؤد هذه الضريبة منع من الحج وعذب(١٨٤) ، وهذا الأمر لا يخلو من المبالغة ، فإذا كان الفاطميون حريصين كل الحرص على فرض الضرائب وجبايتها ، فلا يمكن أن يشوهوا صورتهم بهذه الكيفية ، فى الوقت الذى كانوا يتطلعون فيه إلى حكم العالم الإسلامى ، وإذا كانت فرضت بالفعل ، فلعلها ارتبطت بالعصر الفاطمى الثانى ، حيث ضعفت موارد الدولة وبدأت تبحث عن موارد أخرى لتغطى نفقاتها ، كذلك كان المكس يؤدى على شرب مياه النيل(١٨٥) ، حتى من يغرق فى النيل كان على أهله أن يدفعوا واجب الصناعة للدولة مقابل اخراجه ، وبلغ هذا الواجب دينارين وقيراطين(١٨٦) . وبذلك لم تترك الدولة شيئاً إلا وفرضت عليه رسوماً وضرائب وأن الهواء وحده أخلى سبيله وبقى حراً(١٨٧) .

---

(١٨١) انظر : Goitein, Med Soc., pp. 269 - 270.
(١٨٢) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٥٦ ، جـ١ ، ص ٦٤ .
(١٨٣) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٧٤ .
(١٨٤) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٦٤ .
(١٨٥) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٥ .
(١٨٦) المسبحى ، أخبار ، ص ٦٠ "غرق فى دار النيل حدث يعرف بابن الاسكاف ، وطرحة النيل على الشط ، .وصار أهله إليه ليحملوه ، فمنعهم أصحاب الشريف متولى الصناعة من حمله وطالبوهم بدينارين وقيراطين واجب الصناعة من حق من غرق فى النيل ، فدفع ذلك إليهم" .
(١٨٧) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١١٧ .

واعتبر البعض[188] ، أن هذه الضرائب جائرة وغير قانونية ، حيث كانت قيمة المكس تتراوح بين ١٠ – ٢٥% من قيمة السلعة ، فكانت الضرائب ثقيلة خاصة فى تنيس ودمياط على ساحل النيل[189] ، واستطاعت الخلافة الفاطمية أن تحصل من المكوس الشيئ الكثير ، منها ألف دينار يومياً بساحل تنيس ، ونفس القيمة من الفسطاط ، فضلاً عما كان يجبى فى الموانى من التجارة الواردة ، وكانت أكثر الجهات وأشدها ما هو مقرر على التجار الآتين من الشام والعراق ، حيث كانت تتحصل منهم الضريبة فى الفرما[190] . كما تشير وثائق الجنيزة[191] إلى ثقل هذه الضرائب بشكل عام ، عندما جاءت سفينة من بيزنطة وعليها أسرى كثيرين ، فطلب يهود الإسكندرية المساعدة من ابراهام ، الذى لم تحدد الوثيقة وضعه ولعله من أغنياء الإسكندرية ، أو أحد المسئولين عن الجالية اليهودية فيها ، لعجزهم عن توفير الأموال ، إذ الأوقات صعبة والضرائب ثقيلة ، كما أن ضريبة الختم على البضائع قد لوحظ أنها ثقيلة جداً ، فكان يدفع لكل خمسين ديناراً ، دينار أى بواقع ٢% ، وتشير الرسائل إلى احساس التجار بثقل هذه الضريبة ، وأنه لا يستطيع معها أن يحصل أى فائدة ، وربما كان ارتفاع هذه الضرائب من وراء استخدام التجار الرسائل الشفوية ، لأن الدولة كانت تفرض رقابة اقتصادية على الرسائل[192] .

بداية ، تعتبر المكوس ضرائب غير شرعية ، كما أنها فى الأصل غير مباشرة ، وهى بذلك تخضع لظروف الدولة وحاجتها للأموال أو رغبتها فى التخفيف لمراعاة ظروف خاصة بها لحاجتها مثلاً فى التعامل مع تجار إحدى الدول من أجل سلعة معينة ، وعلى الرغم من أنها فى الأصل تتفق وما عرف بالعشور كما أسلفنا ؛ لكنها مع الفاطميين شملت نواح أخرى كثيرة ، كما أنها كانت متجاوزة عن الحد فى بعض الأحيان كما بينا . ومع ذلك لم يكن الفاطميون أول من بالغ فى قيمة هذه

---

(١٨٨) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١١٨ .
(١٨٩) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .
(١٩٠) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٩٢ .
(١٩١) انظر : Mann, The Jews in Egypt, 1, p. 91.
(١٩٢) انظر : Goitein, Med Soc., 1, p. 271.

الرسوم ، بدليل ما أورده أبو يوسف[١٩٣] من ضرورة إصلاح الجهاز الجمركى للعباسيين إبان خلافة الرشيد .

ولما كانت المكوس قد بدأت مع المعز وزادت مع ابن نسطورس . ومع استمرارها طوال العصر الفاطمى ، مع ذلك كانت هناك بعض الفترات التى شهدت فيها البلاد إسقاط لهذه الضرائب . فعندما وزر ابن عمار للخليفة الحاكم اسقط الرسوم الغير مقررة لابن نسطورس ورد الأمور إلى ما كانت عليه[١٩٤] ، كما قام الخليفة الحاكم بإسقاط المكوس والمؤن التى تؤخذ من المسافرين عن الغلال والأرز[١٩٥] ، وبدأ ذلك فى عام ٣٩٨هـ/١٠٠٧م ثم تلاه بإسقاط مكوس الساحل[١٩٦] ، فضلاً عن إصدار سجلاً بالمنع من تفتيش المسافرين وأن تخلل هذه السنوات إعادة المكوس التى ألغيت[١٩٧] ، وفى عام واحد يسقط الخمس ثم يعيده ، ولذلك ، فمهما قيل فى سياسة الحاكم وما قام به من إلغاء بعض الضرائب ، فقد ارتبطت بقتل برجوان والتخلص من وصايته ، أو أنه أراد من وراء ذلك تنفيذ سياسة إصلاحية ، بسبب نزعة التصوف أو رغبة فى التقرب من الناس بعد اتهامه بادعاء الألوهية[١٩٨] . ولذلك فسياسة الخليفة الحاكم كان يشوبها عدم الاستقرار .

ولما كانت سياسة الدولة المالية ترمي إلى فرض الضرائب ، فكان طبيعياً أن تقوم ست الملك ، التى أصبحت وصية على الخليفة الظاهر ، بإعادة المكوس إلى ما كانت عليه ، قبل إسقاطها[١٩٩] . لكن بعد وفاتها فى عام ٤١٥هـ / ١٠٢٤م أصدر الخليفة الظاهر أمراً بإسقاط جميع المكوس عن سائر أصناف الغلات الواردة إلى سواحل الفسطاط ، وهذا الإجراء ارتبط بالغلاء الذى وقع فى نفس العام[٢٠٠] . كما كان حرص الخليفة الآمر على الضرائب عند توليته للمأمون البطائحى ، فاشترط عليه بألا

---

(١٩٣) الخراج ، ص ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(١٩٤) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ١٨٠ .

(١٩٥) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٩٣ .

(١٩٦) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٩٣ .

(١٩٧) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٨٧ .

(١٩٨) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ٢٢٢ .

(١٩٩) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٧٤ .

(٢٠٠) المسبحى ، أخبار ، ص ١٩٦ .

يجبى الأموال ، إلا بالقصر[٢٠١]، وهذا الأمر مرتبط بما عرف عن الآمر من إنه ظلم الناس وأخذ أموالهم[٢٠٢] . وما حدث فى وزارة رزيك بن الصالح طلائع من إسقاط رسوم الظلم على حد قول المقريزى[٢٠٣] ، على الرغم من أنه تولى الوزارة بعد أبيه الصالح ، الذى تولى الوزارة للخليفة الفائز ثم العاضد ٥٥٠-٥٥٦هـ/١١٥٤-١١٦١م، كان أشد الناس تطلعاً إلى ما فى أيدى الناس من أموال ، وباع الولايات[٢٠٤] ، وفرض على الولاة والقضاة والمحتسبين أموالاً مقررة ، وجعل مدة كل متول ستة أشهر وعرفت هذه الأموال باسم "البراطيل"[٢٠٥] ، مما أدى إلى ضرر الناس .

وهناك إشارات إلى أن المكوس ، قد ازدادت فى أخريات الدولة الفاطمية ، ولابد أن هذا الأمر ارتبط ببداية حالة الضعف التى ألمت بالبلاد خلال عصر المستنصر ، الذى اسلم البلاد لحالة سيئة ، فيذكر المقريزى : «ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية ، عندما ضعفت وصارت تعرف بالمكوس»[٢٠٦] وهذا ليس معناه أن المكوس فرضت مع نهاية الدولة ، فمن المحقق أنها عرفت معهم من البداية ، لكن الذى يفهم من هذا النص إنها زيدت فى العصر الفاطمى الثانى من حيث تنوعها ومقدارها وعددها[٢٠٧] ، لأن ضعف الدولة الفاطمية قد اقترن بهذه الفترة المتأخرة . ولهذا فإن كلمة "أعيدت" قد جاءت مرتبطة بما قام به أحمد بن طولون فى النص من إسقاط الأموال الهلالية .

وابن خلدون ، يلقى الضوء على هذا الأمر ويربط زيادة الجباية مع آخر الدولة بأسباب الترف ، وأن الدولة عندما يصيبها الهرم وتضعف عصبيتها عن جباية الأعمال ، فتثقل الجباية : «فيستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدراً معلوماً»[٢٠٨] وهو بالفعل يعطى أمثلة منها الدولة الفاطمية .

---

[٢٠١] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٤١ .

[٢٠٢] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٣ ، جـ٥، ص ١٧٥ .

[٢٠٣] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٢٥٣ .

[٢٠٤] ابن ظافر ، أخبار ، ص ١١١ .

[٢٠٥] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

[٢٠٦] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

[٢٠٧] البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٣٤٢ .

[٢٠٨] المقدمة ، بيروت ، صفحات ، ٢٨٠ - ٢٨١ .

وإذا حاولنا أن نطبق هذا النص ، نجد أن زيادة رغبة الدولة فى الانفاق على الحفلات والمواكب والأسمطة[٢٠٩] وغيرها ، خاصة مع خلافة الآمر ، والتى اكتملت فيها الرسوم الفاطمية ، فكانت الدولة فى حاجة دائمة إلى الأموال ، فضلاً عن انقطاع موارد التجارة ، فلم تجد الدولة ، مخرجاً من الضائقة المالية غير الإسراف فى فرض الضرائب والمكوس[٢١٠] . وعلى ذلك لا نستبعد أن القائمة ، التى أوردها المقريزى[٢١١] ، ربما ترجع إلى هذه الفترة أو بعدها بقليل ، لا سيما أن الضرائب قد انخفضت خاصة المفروضة على التجارة الخارجية خلال هذه الفترة مما أدى إلى هبوط المتحصل بشكل عام[٢١٢] ، ويعد ما كان يؤخذ من التاجر ٣٥ دينار عن كل مائة دينار انخفضت إلى عشرين ، حتى وصل ارتفاع ثغر الإسكندرية عام ٥١٧هـ/١١٢٣م فى الشهر إلى خمسمائة دينار[٢١٣] ، وكذا بسبب اضطراب أحوال البلاد من جراء الصراع الدائر بين الوزراء العظام فيما بعد ، حتى وصل المتحصل منها مائة ألف دينار فى السنة[٢١٤] ، ومقارنة بما كان يجبى فى السابق فى تنيس والاشمونين وحدهما ووصل إلى مائتى ألف دينار فى السنة ، نجد أن السبب ربما يرجع أيضاً إلى تشجيع التجار الأجانب على المجئ إلى مصر ، فقامت الدولة بتخفيض الضرائب المقررة عليهم . وعلى أية حالة قد وصلت قيمة الضرائب مع صلاح الدين قبل إلغائها إلى ما يقرب من مليون دينار فى السنة[٢١٥] .

ومن خلال ما أوردناه يتضح أن المكوس كانت تشكل عبئاً ثقيلاً على الرعية «حتى أنها خرجت فى التزيد عن الحد ودخلت الشبهة فى أموال الكثير من الناس بسببها»[٢١٦] . كما أنه بسبب زيادة الضرائب على الصناعة ، كانت أسعار الصناعات

---

(٢٠٩) والمواكب منها العظام فى أول العام - أول شهر رمضان - أيام الجمع من شهر رمضان - صلاة عيد الفطر والأضحى - تخليق المقياس - فتح الخليج . أما الأسمطة : سماط شهر رمضان - العيدين . انظر . القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٩٩ وما بعدها ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٧٠ وما بعدها .

(٢١٠) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ٢٤١ .

(٢١١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ ، وما بعدها .

(٢١٢) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦ .

(٢١٣) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٩٧ .

(٢١٤) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٩٧ .

(٢١٥) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٩٧ .

(٢١٦) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٦٦ .

المنتجة مرتفعة أيضاً ، ومع ذلك كان دخل الصناع منخفضاً[٢١٧] ، حتى أن العامل الماهر كان يكسب خمسة دراهم يومياً[٢١٨] ، وبخصوص الوضع الاقتصادى لمجموع العاملين ، فإن وثائق الجنيزة[٢١٩] تخالف الكتاب القدامى والمحدثين ، الذين وصفوا العصر الفاطمى بالازدهار ، فإذا كان هذا العصر يعتبر بداية العصر الذهبى للبرجوازية ، لكن العاملين كانوا أسوأ حالاً ، بسبب ارتفاع الضرائب . وهذا ليس فيه إنكاراً كاملاً للازدهار الاقتصادى ، الذى اتسم به العصر الفاطمى ، لكن الفاطميين استطاعوا أن يستفيدوا من كل الأوضاع المتاحة من سياسية واقتصادية ؛ فضلاً عن فرض الضرائب الباهظة مما كان له انعكاساً واضحاً على حالة الصناع ، أى أن هذا الازدهار لم يمس إلا الدولة برجالها والطبقة العليا من المجتمع .

وكان التلويح بإسقاط بعض المكوس أو بإلغائها نهائياً هدفاً سياسياً ، مثلماً حدث مع أهل الإسكندرية ، الذين رفضوا تسليم مدينتهم لشاور ، وسلموها لشيركوه ، الذى تركها لابن أخيه صلاح الدين ، فحاول شاور أن يساوم أهلها بأن يسلموه صلاح الدين مقابل أن يرفع عنهم الضرائب ، لاسيما المكوس ، ضريبة الأسواق البغيضة ويعطيهم الأخماس[٢٢٠] ، كما كان إلغاؤها على يد صلاح الدين عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م[٢٢١] ، يهدف أيضاً إلى التقرب من المصريين .

وبذلك لم يستطع الفاطميون أن ينجزوا ما جاء فى أمان جوهر ، لكنهم على العكس من ذلك تجاوزوه ، فيما فرضوه من ضرائب خرجت عن حدود العدل ، حتى ما قرره من إبطال المكوس فى فترات متباينة ، لم يكن وفق سياسة مرسومة ، أرادوا من ورائها التخفيف عن كاهل الرعية ، لكنها كانت تأتى بعد فترات اضطراب الحكم ، ومحاولة منهم لاحتواء وكسب الرعية ، بل وبسبب هذه المسامحات ضعفت الجباية ومن ثم زيدت فى أواخر عهد الدولة . ولم يكن ما أعلنه جوهر فى أمانة من إسقاط

---

(٢١٧) انظر : Ashtor. Social and Economic History, p. 200.

(٢١٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 97.

(٢١٩) انظر : Goitein, Med Soc, 1, p. 97.

(٢٢٠) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ٣٣٧ .

(٢٢١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ ، وما بعدها .

الرسوم الجائرة سوى هدفاً دعائياً من أهداف الفاطميين ، خاصة أن فرض المكوس كان ضرورة للفاطميين واستمراراً لما فرضوه فى بلاد المغرب من ضرائب(٢٢٢) .

وارتباطاً بسياستهم المالية ، لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أضافوا ضرائباً جديدة على الرعية مثل "النجوى" وهى ضريبة الدعوة ، التى يدفعها أتباع المذهب الاسماعيلى ، وهى ثلاثة دراهم وثلث ، وكان أغنياء الشيعة يدفعونها ثلاثة وثلاثين درهماً(٢٢٣) . وقد تبدو هذه الضريبة اختيارية ، لكنها حسب كتب الدعوة الاسماعيلية كانت إجبارية(٢٢٤) . كما كانت هناك «الفطرة» التى كانت تدفع فى عيد الفطر(٢٢٥) . ويرى البعض(٢٢٦) «إن هذه الضرائب المتعلقة بالمذهب لم تكن لها معنى ضرائب حقيقية ، إنما كانت أشبه بواجبات دينية أو مذهبية» وقد أصبحت هذه الضرائب بمضى الوقت كما تذكر المصادر(٢٢٧) : «صارت هذه الصدقات فرضاً واجباً على كل مؤمن العمل به ، ومن تركه كمن ترك فرضاً من فرائض الصلاة والصوم والحج والجهاد» وطالما كان هناك اهتمام بأمر الدعوة ونشر المذهب الاسماعيلى ، كان المتحصل منها الشيئ الكثير . وصحيح أن الحاكم أبطل أخذ هاتين الضريبتين عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م لكنه سرعان ما أعادهما فى نفس العام أيضاً(٢٢٨) .

كما حوى أمان جوهر «وأن أجيركم فى المواريث على كتاب اللّه وسنة نبيه صلى اللّه عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال» وهذا النص يطرح عدة أمور أولها ، الأخذ

---

(٢٢٢) النعمان ، المجالس والمسايرات ، بيروت ١٩٩٦ ، ص ص ٣٣٦ - ٣٣٧ . وعندما غادر الخليفة المعز حاضرة دولته فى المغرب متجهاً إلى مصر ، أخذ يوصى بلكين بن زيرى وقال له : "إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية" .

(٢٢٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٩١ .

(٢٢٤) النعمان ، الهمة فى آداب أتباع الأئمة ، تحقيق كامل حسين ، جـ١ ، ص ٧ .

(٢٢٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٩١ .

(٢٢٦) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١٢٠ .

(٢٢٧) السجلات المستنصرية ، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد ، القاهرة ١٩٥٤ ، سجل رقم ٢٣ ، ص ٨٤ .

(٢٢٨) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٨٧ .

بقانون الوراثة الذى وضعه الفاطميون وثانيها أن هذا النص يعد برهاناً غير مباشر على معارضة الفاطميين اعتباراً المواريث الحشرية كمصدر من دخل الدولة[٢٢٩] .

وقانون الوراثة لدى الفاطميين[٢٣٠] ، يقوم على أساس الرحم ولا يعول على التعصيب ، فهو يجيز للبنت إذا انفردت أن تأخذ الإرث جمعية بلا عصبة ولا بيت مال ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى إيجاد مبرراً لإثبات أحقية فاطمة الزهراء فى ميراث أبيها ، حتى يكون لهم الحق فى حكم العالم الإسلامى بدلاً من العباسيين . كما يوضح أيضاً ما كان سائداً قبل مجيئهم وهو أن من مات ولم يكن له من يرثه من عصبة أو ما يتبقى بعض إعطاء الأسهم يذهب إلى بيت المال ، وهذا الأمر لا غبار عليه ، إلا أنه من وجهة نظرهم غير مقبول . لكن ما كانت تأخذه الدولة الإخشيدية من التركات وكان معروفاً بـــ «ضريبة الإرث» كانت ضريبة غير شرعية[٢٣١] بيد أنه فى خلافة الظاهر حصلت الدولة على ثلث تركة إحدى المتوفيات ، اللاتى تمت بالقرابة لجوهر ، بسبب أن جوهراً كان عبداً للسلطان[٢٣٢] .

ولذلك تم الفصل فى القضايا الخاصة بالمواريث مع الفاطميين تبعاً لمذهبهم ، رغم امتعاض القاضى السنى والشهود على ذلك[٢٣٣] . وأصبح بعد ذلك من الأمور الملزمة ، الأخذ بمذهبهم فى الميراث لجميع الرعية[٢٣٤] ، ومع الوزير بدر الجمالى تغير هذا الوضع ، فأقر نظاماً جديداً يقوم على : «أن كل من مات يعمل فى ميراثه على حكم مذهبه»[٢٣٥] ومن المحتمل أن هذا التغيير يرجع إلى حاجة الدولة إلى الأموال ، لأن هذا النظام سوف يزيد من أموال الدولة مما يتحصل من أموال الأيتام

---

[٢٢٩] انظر : Rabie, The Financial System, p. 127.

[٢٣٠] يرى الشيعة أنه لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الذكر ، كان أو أنثى إلا الزوج والزوجة والأبوان والجدات ولا يرث مع الأم إلا من يرث مع الولد . وخاطب القاضى جوهراً فى بنت وأخ وأنه قد حكم قديماً للبنت بالنصف والأخ بالباقى فقال : "ما أفعل ، فلما ألح عليه قال : يا قاضى هذه عداوة لفاطمة عليها السلام ، انظر . النعمان ، دعائم الإسلام ، ص ص ٣٧٩-٣٨٠ ، المقريزى ، المقفى ، جـــ٣ ، ص ١٠٣ .

[٢٣١] أدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، جـــ١ ، ص ١٩٥ .

[٢٣٢] المسبحى ، أخبار ، ص ص ٥٤ - ٥٥ .

[٢٣٣] حسن ابراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

[٢٣٤] المقريزى ، اتعاظ ، جـــ٣ ، ص ٨٩ .

[٢٣٥] المقريزى ، اتعاظ ، جـــ٣ ، ص ٨٩ .

وهو ربع العشر أو ضريبة التركات ، خاصة أنه كان يحاول أن يخرج الدولة من أزماتها الاقتصادية المتعاقبة ، على الرغم مما وصف به من كونه متشيعاً متعصباً ضد السنة(٢٣٦) . وربما تم إنشاء ديوان المواريث الحشرية فى عهده وأن كان الترجيح لإنشاء هذا الديوان لأبنه الأفضل ، فقد ذكر المؤرخون(٢٣٧) أنه أفرد مال المواريث .

كما اتبع الأفضل سياسة مغايرة لأبيه بخصوص المواريث ، فمنع من أخذ شيئاً من التركات وأمر بحفظها بمودع الحكم ، حتى إذا حضر من يطلبها وتأكد القاضى بأحقيته أطلقت لمستحقيها(٢٣٨) ، لكن مع الوزير المأمون البطائحى ، طرح هذا الموضوع للمناقشة من قبل الفقيه أبى بكر محمد الطرطوشى فيما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام ، وانتهى الأمر بإصدار عدة قرارات منها : أن يخلص لحرم ذوى التشبع الوارثات جميع موروثهن ، وأن الناس على اختلاف مذاهبهم يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه فى حياته والمشهور به اعتقاده إلى حين وفاته ، ويشترك معهم بيت مال المسلمين فى موجودهم ، فضلاً عن عدم أخذ ربع العشر من أموال الأيتام ، وعلى ذلك يعرض أمناء الحكم عنه من مال المواريث الحشرية لمن يموت وليس له وارثاً سواء حاضراً أو غائباً ، فموجوده إلى بيت المال ، وأن كان للمتوفى وارث غائب فلتحفظ تركته ، وإذا حضر وأثبت استحقاقه على الأوضاع الشرعية فليخرج الأمر بتسليمه ذلك(٢٣٩) .

وهذه القرارات عبارة عن صورة توفيقية بين ما كان موجوداً قبل الفاطميين وأثناء عصرهم ، كما أنه أتاح الحرية للمذاهب السنية ، وربما ذلك يرجع إلى أن القاضى الذى استعان به الوزير كان سنياً والمأمون البطائحى رغم تشيعه لدولة متمذهبة(٢٤٠) ، فكان ينشد الاستقرار والإصلاح ، أو أن المذهب الفاطمى مع العصر الثانى لم يعد يحفل به بالقدر الكافى .

---

(٢٣٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٥ ، ص ١٢٠ .

(٢٣٧) ابن ميسر ، أخبار ، ص ص ٨٣ – ٨٤ .

(٢٣٨) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٧٢ .

(٢٣٩) القلقشندى ، صبح ، جـ١٠ ، ص ١٦٦

(٢٤٠) المقريزى ، اتعاظ جـ٣ ، ص ٨٩ .

وأما بخصوص الزكاة ، التى تعد الحق الشرعى الوحيد فى مال المسلمين «وليس فى المال حق سواها ، سواء كانت ظاهرة كالزروع والثمار والمواشى أو الباطنة من ذهب وفضة وعروض تجارة»[٢٤١] فهى لا تأتى بأموال كثيرة ، لأنها ضريبة شرعية مقدرة ، كما أنها تصرف فى المصارف الشرعية ، وعلى ذلك لم نسمع عن وجود والى للصدقات ، ويذكر المقريزى[٢٤٢] ؛ بأنها تركت للناس يدفعونها إلى أربابها دونما تدخل من الدولة ، وأن صلاح الدين أول من جبى الزكاة بمصر ، لكن هناك إشارة تفيد بأن أموال الزكاة كانت تدفع إلى الأئمة أو إلى بيت مال الخليفة شأنها شأن النجاوى والفطرة[٢٤٣] . كما أنه مع الخليفة الآمر هناك إشارة إلى تعيين أحد رجال الدواوين على الزكاة إلى جانب ضرائب أخرى[٢٤٤] ، لكننا لا نستطيع أن نقف على كيفية توزيعها أو تولى بيت المال لهذا الأمر كما أن ورود جملة «بيت مال الخليفة» تعطى إيحاءاً بأنها أموال شخصية أو ربما ارتباط اسم الخليفة ببيت مال المسلمين يرجع إلى اعتبار شخص الأمام الفاطمى . صحيح أن المصادر غاصة بما كان يقوم به الخلفاء من توزيع الصدقات والأموال أثناء المواكب أو أثناء الخروج إلى المناظر المختلفة[٢٤٥] ، لكن ليس من المؤكد أنها كانت من أموال الزكاة لأنهم كانوا ينفقون فيها الكثير وكان الغرض منها هو كسب قلوب المصريين .

أما ما جاء فى شأن أهل الذمة فى أمان جوهر : «أجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه» فمعلوماً أن سياسة الفاطميين تجاه الذميين اتسمت بالتسامح واطلاق الحريات الدينية والاقتصادية ، حتى وصل التسامح أقصاه مع الفاطميين ما لم نسمع عنه فى فترات أخرى سواء فى مصر أو غيرها من بلدان العالم الإسلامى ، لكن فى ذات الوقت بحيث لا يؤثر ذلك على سياسة الدولة المالية ، التى قامت بتحصيل الجزية المفروضة عل اليهود والنصارى والتى وعدوا أن تستمر كما هى فى العصر السابق مما يبين أنها لم تخرج عن الحد من وجهة نظر الفاطميين ، ومن خلال ما ذكرته

---

[٢٤١] الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١١٣ ، وما بعدها .

[٢٤٢] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٨ .

[٢٤٣] النعمان ، تأويل الدعائم ، تحقيق محمد حسن الأعظمى ، القاهرة ١٩٦٩ ، جـ٢ ، ص ص ٨٧ – ٩٠ ؛ السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٢٣ ، ص ٨٤ ، سجل رقم ٣٦ ، ص ١٢٢ ، سجل رقم ٥٧ ، ص ١٨٨ .

[٢٤٤] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ص ١١٥ – ١١٦.

[٢٤٥] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٧٩ وما بعدها .

المصادر أثناء العصر الإخشيدي نستطيع أن نقف على قدر الجزية ، وهل سار الفاطميون على منوالها لنبرهن عن مدى وفاء الفاطميين بما أعلنوه ، أو أنهم قد خرجوا عند هذا الحد مع الذميين ، لتتسق بذلك سياستهم المالية التى التزموا بها ومارسوها ، فهناك إشارة من وثيقة بردية(٢٤٦) ، ترجع إلى عام ٣٣٠هـ/٩٤١م تتضمن إيصالاً ، باستلام جزية قدرها ثلث دينار وثلثا قيراط . كما سجل فى الديوان فى عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٥-٩٥٦م أن أحد الأشخاص من الأشمونيين قد دفع أقل من دينار فى جزيته ، وفى وثيقة مؤرخة بعام ٤١٦هـ/١٠٢٥م أن أبو الياس بن مينا دفع ديناراً وثلثى قيراط ونصف قيراط فى الجزية عن عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م(٢٤٧) . كما كان الرجل لا يستطيع أن يترك مدينته قبل أن يتم كل واجباته ، فتشير وثيقة إلى ما تعرض له أحد الذميين من الشرطة ، وكان عليه أن يدفع درهمين غرامة ، حتى اضطر إلى مغادرة المركب(٢٤٨) . كذلك يشير أبو صالح الأرمنى(٢٤٩) أن الجزية وصلت فى عهد الأمر عن كل نفس ديناراً وثلث وأحياناً دينارين . وفى وزارة رضوان بن ولخشى أقر فى عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م الجزية . وهى تتفق مع ما ذكره المخزومى(٢٥٠) ، الذى عمل فى ديوان الفاطميين الأواخر فكان على الغنى أربعة دنانير وسدس والمتوسط ديناران وقيراطان ومن الفقير دينار واحد وثلث وربع وحبتان وابن مماتى(٢٥١) يذكر أيضاً نفس قيمة الجزية ، لكنه أضاف بأن كل جزية مضافاً إليها درهمان وربع عن رسم المشد والمستخدمين .

وهذه التقديرات تشير فى الغالب إلى نهاية العصر الفاطمى ، وما أشرنا إليه يخص الطبقة الدنيا من المجتمع . ويبدو أن غالبية أهل الذمة فى أواخر العصر الفاطمى كانوا من هذه الطبقة والغنى فيهم قليل(٢٥٢) ، ويبدو أنها كانت حالة المجتمع من مسلميه وذمييه . ومع ذلك فحتى بالمقارنة بين ما أوردناه فيما يخص العصر الإخشيدي والفاطمي وإذا كان كلاهما يشير إلى الطبقات الدنيا ، لكن يظل هناك فارقاً بينهما وعلى

---

(٢٤٦) سيدة كاشف ، مصر فى عهد الأخشيديين ، ص ١٧٧ .

(٢٤٧) انظر : Rabie, The Financial System, pp. 108 - 109.

(٢٤٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 300.

(٢٤٩) كنائس وأديرة مصر ، تحقيق Evetts ، اكسفورد ١٨٦٤ ، ص ١٢ .

(٢٥٠) المنهاج ، ص ٣٥ .

(٢٥١) قوانين الدواوين ، ص ٣١٨ .

(٢٥٢) المخزومى ، المنهاج ، ص ٣٥

الرغم من أن الجزية حتى قبل الإخشيديين قد ريدت فى القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى إلى نصف دينار ، فسبب ذلك الكثير من التذمر كما حدث فى تنيس عام ٢٠٠ هـ / ٨١٥م ، بينما مع بداية حكم الفاطميين بقليل زيدت إلى دينار أو نصف ومع ذلك، فلم يسبب هذا إلا تذمراً قليلاً[٢٥٣] . ويبدو أن الذميين قد نقص عددهم عن ذى قبل ، حتى كان يطلق على الجزية «الجوالى» وأنشأ لهم ديواناً خاصاً بهم[٢٥٤] .

ومما تقدم يتضح أن الفاطميين قد زادوا فى الجزية المقررة على الذميين . ومن المحتمل أن هذه الزيادة ارتبطت بقلة أعدادهم أو طبيعة الفترة التى حكم فيها الفاطميون ثم أن الزيادة التى حدثت فى أواخر أيامهم ترجع أيضاً إلى فقدان الدولة لبعض مواردها وبذلك تساير هذه الزيادة ما أسلفناه من زيادة المكوس فى أخريات عمر الدولة الفاطمية .

كما وعد جوهر أيضاً بتجويد السكة وصرفها على العيار المعمول به فى خلافتهم بالمغرب ومنع الغش فيها . ويبدو أن سوء الأحوال الاقتصادية فى أواخر العصر الإخشيدي قد أدت إلى تعطيل دار الضرب بها ، لذلك عندما جاء جوهر ، قام بضرب عملة جديدة وكانت العملة السارية عند مجيئهم ، الدينار الراضى والدينار الأبيض والدرهم الرباعى ، فقام جوهر بضرب الدينار المعزى عام ٣٥٨هـ/٩٦٩ م[٢٥٥] ، كما أدخل الفاطميون معهم الدينار المغربى ، الذى أصبح عملة سارية حتى عصر المستنصر[٢٥٦] أو حتى بعده .

ولم تقم الدولة الفاطمية بمنع العملة العباسية ، واكتفت بمنع العملة ذات الفئة القليلة مثل المثقال والقطع[٢٥٧]، لكن مع ذلك اتخذت بعض الإجراءات لمحاربتها ، فعمل جوهر عند ضربه للدينار المعزى على تثبيت قيمته إلى خمسة وعشرين درهماً ، بينما ثبت قيمة الدينار الراضى عند خمسة عشر درهماً والدينار الأبيض وصل إلى ستة

---

(٢٥٣) لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠هـ-١١٠٠م) ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ص ٣٢٨ .

(٢٥٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٩١ .

(٢٥٥) المقريزى ، المقفى ، جـ٣ ، ص ١٠٠ ؛ اتعاظ ، جـ١ ، ص ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢٥٦) سفر نامه ، ص ١٢٥ .

(٢٥٧) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٤ .

دراهم كما رفع المعاملة بالدنانير المتقية ، التى ترجع إلى عصر المتقى العباسى[٢٥٨] . وهذا التحديد لقيمة كل عملة تسبب فى ضرر الصيارفة ، لما لديهم من هذه الدنانير ، فقاموا بثورة ، إلا أن جوهراً هدد بحرق مكانهم[٢٥٩] . ومع الخليفة المعز قام يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن بجباية الخراج وامتنعا عن أخذ الخراج إلا بالدينار المعزى ، مما كان له أثر فى انحطاط قيمة الدينار الراضى بمقدار الربع[٢٦٠] ، وإن كان من الثابت أنه كان أكثر وزناً وأشد نقاوة[٢٦١] ، وهذا الإجراء قد أدى إلى سحب العملة الجيدة وشرائها بأقل من قيمتها الحقيقية ، مما عاد على الدولة بالربح وإلى سيادة العملة الفاطمية .

لكن من الملاحظ أن قيمة الدينار المعزى خلال العصر الفاطمى قد تراوحت بين ٤،٣٠٠ إلى ٤جرامات من عصر المعز حتى عصر المستنصر ، وارتفع خلال عصر المستنصر الطويل وسجل أعلى ارتفاع له عام ٤٨٢هـ/١٠٩٨م إلى ٤،٥٠٠ جرام ، والدنانير الفاطمية المضروبة فى مصر فيما بين عام ٣٥٨-٤٨٧هـ/ ٩٦٩-١٠٩٤م تتسم فى مجملها بارتفاع العيار[٢٦٢] . ومما يدل على حالة الاستقرار النسبى وصول وزن الدينار فى عام ٥٠٩هـ/١١١٥م إلى ٤،٥٠٠جرام ، كما أنه بسبب جهود الوزير المأمون البطائحى وإنشائه لأول دار ضرب بالقاهرة عام ٥١٦هـ/١١٢٢م بلغ الدينار نسبة عالية من النقاء[٢٦٣]، حتى صار الدينار المصرى يمثل أعلى عيار فى جميع ما يضرب لجميع الأمصار ، لكن من اللافت للنظر أن الدينار الفاطمى وصل مع

---

(٢٥٨) المقريزى ، المقفى ، جـ٣ ، ص ١٠٧ .

(٢٥٩) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٣٢ .

(٢٦٠) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٦ .

(٢٦١) الكرملى ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٨٥ .

(٢٦٢) مايسة محمد داود ، المسكوكات الفاطمية ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ص ٣٧٧ ، ٤٢٥ - ٤٢٦ ؛ أحمد السيد الصاوى ، المجاعات وتأثيرها على النواحى المالية والحضارية زمن الفاطميين ، دراسة أثرية حضارية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٣٢٣ . انظر :
La Voix, Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothéque National, Paris 1896, p. 88, 89, 163.

(٢٦٣) ابن المأمون ، أخبار مصر ، حققها ايمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٣٨ ؛ المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٤٥ .

خلافة العاضد عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م إلى ٤،٦٣٠ جرام[٢٦٤] ، على الرغم من سوء الأحوال السياسية للبلاد ، التي تأثرت بها الأحوال الاقتصادية بالتبعية .

كما تم صرف الدراهم فى خلافة الحاكم بأمر اللّه ورفع من سعر الفضة فى مواجهة الدينار وأصبحت مصر تعتمد فى نقدها على قاعدة المعدنين ، حيث تقرر أمر الدراهم الجدد على ثمانية عشر درهماً للدينار ، وعرف منها الدراهم القطع والمزايدة ، ويشير المقريزى إلى أن طرح هذه الدراهم أحدث أثراً سيئاً ، تزامن مع قصور مياه النيل ، ثم ارتفعت الأسعار ووقفت الأحوال في الصرف فى الدراهم المتداولة ، حتى وصل صرف الدينار إلى ستة وعشرين درهماً ، ثم تزايد حتى وصل فى عام ٣٩٧ هـ/١٠٠٧م إلى كل أربعة وثلاثين درهماً بدينار مما أدى إلى ارتفاع السعر واضطربت أحوال الناس ، فقامت الدولة بإنزال عشرين صندوقاً من بيت المال مملوءة دراهم فرقت على الصيارفة ، كما نودى فى الناس بالمنع من المعاملة بالدراهم القطع والمزايدة وأن يحملوا ما بأيديهم إلى دار الضرب ، وهذا الأمر أضر بالناس ، لأنهم كانوا يدفعون فى الدرهم الواحد من الدراهم الجدد أربعة دراهم من القطع أو المزايدة[٢٦٥].

وبذلك ، كان وفاء الفاطميين فيما وعدوا به المصريين بشأن تجويد العملة مرتبطاً بعدة عوامل منها : رغبة الفاطميين فى أن تكون لهم السيادة المالية من خلال إصدار عملة جديدة تحمل اسمهم وتشير إلى مذهبهم ، حتى تحقق لهم هدفاً سياسياً طالما سعوا إليه ، كذلك توفر الذهب ، فكان الفاطميون شأنهم شأن من حكم الشمال الافريقى مسيطرين على ذهب السودان ، حتى أن جوهرا عندما جاء إلى مصر كان محملاً بصناديق الذهب[٢٦٦] ، وفى مصر تم لهم استغلال الذهب الموجود فى الجنوب ، لاسيما

---

(٢٦٤) انظر : La Voix, Catalogue, p. 169.

(٢٦٥) المقريزى ، إغاثة ، ص ٦٥ ، الدراهم القطع دراهم غير كاملة لذهاب جزء منها بسبب القطع ، وكانت تلك الدراهم تقل فى معاملات الأفراد حسب الوزن ، غير أن الحكومات كانت ترفض التعامل بها وتسمى الدراهم الغلة ، أما الدراهم المزايدة ، فهى التى كانت تزيد عن الدراهم الجيدة فى الحجم وليس فى الوزن ، انظر : المقريزى ، إغاثة ، ص ٦٤ هامش ٣ ، ص ص ١٤ - ١٥ ؛ أحمد الصاوى ، المجاعات ، ص ٣٢٨ .

(٢٦٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٤ ، ص ٢٨٨ .

فى العلاقى[٢٦٧] ، فضلاً عن المكوس التى قاموا بتحصيلها ، والتى أثقلت كاهل الناس ، سواء من أهل البلاد أو من الوافدين عليها فى طريق الحج والتجارة إلى جانب ما صاحب المجاعات من شيوع ظاهرة الاكتناز للاستفادة من قيمة الدنانير بعد انتهاء المجاعات ، حتى أن الشدة المستنصرية وغيرها من الأزمات لم تؤثر كثيراً فى وزن الدينار الفاطمى[٢٦٨] ، فكل ذلك قد وفر لهم حصيلة من الذهب وقاعدة نقدية استطاعوا من خلالها أن يقوموا بإصلاح العملة وتجويدها وأن كان ما قاموا به أدى إلى اضطراب أحوال الناس الاقتصادية وأوقع الضرر بهم كما أسلفنا .

أما الرباع السلطانية ، فقد جاء بصددها : «لا بأس باستئجار الدور والارضين ، فيما يحل ، ولا يحل الفصل فى الدور والحوانيت وأشباه ذلك ، ومن أكترى مشاهرة على أنه أن سكن يوماً لزمه الشهر» وكذلك ما شمله أمان جوهر بخصوص «الرباع» والفرق هنا يتضح فيما تقوم الدولة بتأجيره وحرصها على الحصول على الإيجار كاملاً ، أما كلمة الرباع الثانية فهى تتعلق بما يملكه المصريون من آدر وحمامات وحوانيت وغيرها ، ويطلق على ما يتحصل منها «المال الهلالى» لذلك فهناك من يربط بينها هى والزكاة والجوالى والمواريث وبين المكوس[٢٦٩] ، من حيث جبايتهم حسب الشهور الهلالية ، لكن هناك اختلاف بينهما ؛ لأن ما يؤخذ من الزكاة والجوالى يعتبر أموالاً شرعية ، أما المكوس على عكس ذلك بينما الرباع السلطانية ما يؤخذ منها يعتبر إيجاراً ويستخرج مشاهرة ، لكن ينظم حسابها بالحول .

وكانت الرباع السلطانية مما يملكه الخليفة من الآدر والحمامات والحوانيت والمعاصر والطواحين والقياسر وغيرها لا يمكن حصرها فكان للخليفة المستنصر يملك فى القاهرة وحدها ثمانية آلاف بيت معدة للإيجار وعشرين ألف دكان يؤجر الواحد ما بين دينارين وعشرة دنانير فى الشهر[٢٧٠] ، ولكثرة ما يملكه الخليفة كان هناك مسئولاً عن هذه الرباع يسمى «متولى الرباع» يقوم بالإشراف عليها وحمايتها واستخراج مالها من السكان مستخرجاً غاية الاستطاعة والإمكان[٢٧١] .

---

(٢٦٧) الأدريسى ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ١٩٨٩ ، ص ٣٢ .
(٢٦٨) أحمد الصاوى ، المجاعات ، ص ص ٣٢٠ ، ٣٣٣ .
(٢٦٩) المخزومى ، المنهاج ، ص ٣٤ .
(٢٧٠) سفرنامه ، ص ١٠٤ .
(٢٧١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ١٠ ، ص ص ٤٤٩ - ٤٥٠

ومع ذلك فقد أتاحت الدولة الملكية الخاصة ، لكن بضوابط أيضاً : «ليس لأحد أن يملك عقاراً أو بيتاً غير المنازل ، وما يكون قد بناه الفرد لنفسه»[٢٧٢] وعلى ذلك يقوم أصحاب المنازل بتأجيرها لمن يريد ، وناصر خسرو عندما أتى إلى مصر أجر منزلاً فى الفسطاط بخمسة عشر ديناراً فى الشهر[٢٧٣] ، كما قام أحد التجار فى عام ٤٩٦هـ/١١٠٢م بتأجير جزء من منزل فى القاهرة مقابل ثلاثمائة دينار فى الشهر لتقيم فيه أسرته[٢٧٤] ، كما كانت النساء فى هذا العصر مغرمات بالملكية العقارية ، خاصة المنازل ، كما تجاوزت ملكياتهن إلى الدكاكين ومطاحن الدقيق[٢٧٥] .

وهناك شكل آخر تتضح فيه الملكية الخاصة يتمثل فى الأحباس[٢٧٦] من رباع وقياسر أو غيرها ، والتى يقوم أصحابها بحبسها على جهة ما . ومع مجئ الفاطميين إلى مصر بطل تحبيس البلاد ، وصار قاضى القضاة يتولى أمر الأحباس من الرباع ، كما أصبح للأحباس ديواناً مفرداً ، وأمر المعز عام ٣٦٣هـ/٩٧٤م بحمل مال الأحباس إلى بيت المال ، كما طولب أصحاب الأحباس بالوثائق لإثبات أحقيتهم فيما يرتفع منها[٢٧٧] ، وكانت تلك خطوة من الفاطميين سيطروا من خلالها على مال الأحباس من ناحية ، كما تسنى لهم الحصول على مورد ثابت ينفقون منه على المساجد فى مصر ، ولذلك أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بحصر المساجد سواء التى ليس لها وقفاً ، أو التى لا يكفيها ريع ما يخرج مما هو مقرر لها ، وخصص لكل مسجد أثنى عشر درهماً فى الشهر[٢٧٨] .

وعلى الرغم من شيوع ظاهرة الأحباس فى العصر الفاطمى ، لكن لم تصلنا وثائق كثيرة بشأنها ، اللهم إلا ما حبسه الخليفة الحاكم بأمر الله عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م من قياسر وأملاك على الجامع الحاكمى والحجة التى ترجع إلى أواخر العصر

---

[٢٧٢] ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٤ .

[٢٧٣] ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٤ .

[٢٧٤] انظر : Goitein, From the Mediterranean to India, Documents on the trade to India, South Arabia, and East Africa from the Eleventh and twelfth centuries, Speculum, xxxix, 1954, p. 191.

[٢٧٥] انظر : Ashtor, Histoire des prix et des salaries dans l'orient médiéval, Paris 1969, p. 184; Goitein, Med. Soc, 111, pp. 189, 327.

[٢٧٦] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ ، اتعاظ ، جـ١ ، ١٤٨ .

[٢٧٧] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ .

[٢٧٨] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ .

الفاطمي ، وهى حجة وقف الصالح طلائع بن رزيك(٢٧٩) ، الذى أوقف فى بداية عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م بعض الرباع وغيرها على الأشراف المقيمين فى القاهرة والفسطاط وكذلك على اشراف المدينة ، وعلى ما يبدو أن الحبس الخيرى كان أكثر ثباتاً من الحبس الأهلى ، بحيث أن الدولة لم تستطع أن تتدخل أو تحل أو تبطل ما تم حبسه ، طالما كان يقوم على توفير الأموال لصيانة المساجد والمشاهد ، أما الوقف الأهلى ، فقد تأثر إلى حد كبير بالتغيرات السياسية ، إذ كان هذا الحبس يرتبط بكبار رجال الدولة(٢٨٠) ، لكن من المتوقع لو أنه كان هناك حبساً أهلياً للرعية ، ربما كان لا يتعرض لهذا الأمر ، ولا تكون السياسة عامل من عوامل حله .

ونظراً لما أسلفناه من ضرائب فرضتها الدولة على كافة أوجه النشاط الاقتصادى أو الإيجارات المقررة على أملاكها ، كان لابد أن تكون جباية هذه الأموال بشكل يضمن للدولة القدرة على تحصيلها ، مع بقاء الضوابط التى وضعتها ووجود العاشر أو الماكس فى الموانى والمدن فى كافة أنحاء مصر ، لكن كان هناك أيضاً نظام الضمان ، اذى يتعهد من خلاله الضامن أن يدفع مبلغاً من الماء سنوياً للدولة عن قيمة الضرائب المفروضة على جهة ما ، ولما كان المبلغ الذى يقوم بدفعه أقل من المتحصل ، كانت هناك الفائدة وكان العسف أيضاً .

وبدأ هذا النظام مع خلافة المعز ، إذ قام القاضى أبو طاهر الذهلى بضمان الأحباس بمبلغ ألف ألف وخمسمائة درهم(٢٨١) ، وفى عهد العزيز قام جماعة من كبار رجال الدولة بضمان أوجه الأموال المختلفة ، حيث ضمن على بن عمر بن العداس

---

(٢٧٩) المقريزى ، الخطط ، جـ٢، ص ص ٢٧٧ ، ٢٩٤ . أوقف الصالح طلائع بن رزيك ناحية بلقس ونصف بركة الحبش . سجلات المحكمة ، صندوق ١ ، وثيقة رقم ١ .

(٢٨٠) حبس أمير الجيوش على ذريته أثناء وزارته ، فكان فى البر الشرقى بهتين والاميرية والمنية وفى الغربى سفط ونهيا ووسيم ناحية الجيزة ، وظل بأيدى الورثة ، حتى وزارة المأمون البطائحى ، فلما توفى الخليفة الآمر واستولى أبو على الأفضل على الوزارة ٥٢٤هـ/١١٣٠م أعاد الجميع إلى الملاك لكون نصيبه فى ذلك الأوفر ، وبعد قتله أعيدت الأملاك إلى قبضة الدولة فى خلافة الحافظ بعد أن حلت هذه الأحباس ، لولا تدخل أحد غلمان الأفضل بأبقائها ، ولما انقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق سوى امرأة أفتى الفقهاء ببطلان الحبس ، فصار ماله يحمل إلى بيت المال . المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١١٠ .

(٢٨١) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ .

مال الدولة والنفقات عام ٣٨١هـ/٩٩١م[٢٨٢] ، وتكرر الأمر فى خلافة الحاكم بأمر اللّه عندما عين الأخوين الحسن وعبد الرحمن عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م فى الوساطة بعد أن ضمنا أموال الدولة وأجراءها على رسومها[٢٨٣] . كما كانت الرباع السلطانية تخضع أيضاً لهذا النظام سواء ضمناً لوجوه أموال الدولة أو منفردة[٢٨٤] ، وعلى ما يبدو أن هذا النظام الجامع للأموال ، كان فى البداية مع كبار رجال الدولة ، ثم أصبح بمضى الوقت منفرداً لكل باب من أبواب مالية مصر .التى اتسعت .

لكن هذا النظام كان يشوبه بعض الظلم والعسف كما أسلفنا سواء من قبل الديوان نفسه أو من القائمين عليه بين المدفوع للدولة والمتحصل من الرعية ، وقد ظهر هذا جلياً فى وزارة المأمون البطائحى ، من قيام الديوان بقبول الزيادات وفسخ عقود الضمان وأخذها ممن تعب فى تحصيلها ونقلها إلى من يتعهد ببذل زيادة فى قيمتها ، ولذلك أصدر المأمون منشوراً عام ٥١٦هـ/١١٢٢م[٢٨٥] يتضمن كافة الإجراءات ، التى من شأنها أن تبين مواضع الخلل ، وقرئ بالجامع الأزهر وجامع عمرو ، بإنكار ذلك ومنعه ، كما أعفى كافة الضمناء والمعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ، ما داموا قائمين بأقساطهم ، واشترط على الضمناء الامتثال لما جاء فى هذا المنشور ، كما حذرهم بعد ثبوت قيمته فى ديوانى المجلس والخاص من تجاوزه ، وإذا أصر أحد على المغالطة فسخ عقده . كذلك ألزم أرباب الدواوين والمتصرفين والمستخدمين بالعمل بهذا المنشور .

وهذا يبين أن ما حدث فى وزارة المأمون البطائحى من اختلال فى نظام الضمان ، لم يكن وليد ساعته ، لكنه يعبر عن استمرار الخلل خلال فترة طويلة قد وصلت قمتها معه ، أو أنه بحكم رغبته فى الإصلاح ، استطاع أن يوقف استمرار الظلم والعسف ، وبالنسبة للضمناء ، الذين كان يرهقهم الديوان بطلب الزيادة ، ولا يستطيعون الوفاء بما عليهم ، فكثرت البقايا والمتأخرات ، لذلك أمر المأمون البطائحى

---

[٢٨٢] ابن الصيرفى ، الإشارة إلى من نال الوزارة ، القاهرة ، ١٩٢٤ ، ص ٢٤ .

[٢٨٣] ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٣٠ .

[٢٨٤] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٤ ؛ كان الموفق الدمياطى بن قادوس ضامن الثغور كتنيس ودمياط وبعد وفاته عام ٥١٠هـ/١١١٦م تولى ابنه ضمانة الثغور بعده ، انظر : المقفى ، جـ ٢ ، ص ٩٦ .

[٢٨٥] ابن المأمون ، أخبار ، ص ص ٢٩ – ٣١ ؛ المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٨١ .

فى عام ٥١٥هـ/١١٢١م بكتابة سجل يتضمن المسامحة مما عليهم . نظراً لوجود البقايا لدى الضمناء والمتصرفين وهدف من وراء ذلك إلى شئ مهم ليس فقط رفع الظلم الواقع على هؤلاء الضامنين من الديوان ، لكن أيضاً إلى منع التعسف الذى نال الرعية ، لكن بشكل ضمنى فجاء فى سجل المسامحة[٢٨٦] : «إنما بما تضمنه هذا السجل من المسامحة قصداً فى استخلاص من طالبت غفلته وخربت ذمته وإنقاذ عامل أجحف من الديوان» .

ومن الواضح أن هذه المسامحة ، كانت الأولى من نوعها ، فقد ذكر فى السجل أيضاً «كان ذلك من جميل الأحدوثة التى لم نسبق إليها ولا شاركنا ملك فيها»[٢٨٧] وشمل هذا السجل عدد ومبلغ ما سومح به من العين والغلة . كذلك أصدر الخليفة الآمر فى عام ٥١٧هـ/١١٢٣م منشوراً بمسامحة كافة سكان الرباع السلطانية بالقاهرة والفسطاط ، بأجرة شهر رمضان ، وكان طبيعياً أن يقابل ذلك بالدعاء للآمر ، ومن الأمور النادرة ، أن تكون المسامحة فى بعض الأحيان بسبب نقص العائد وعدم قدرة الضامن على التسديد[٢٨٨] ، وحدث ذلك فى وزارة رضوان بن ولخشى عام ٥٣٠هـ/١١٣٦م ، عندما سومح هبة الله بن عبد المحسن الشاعر ، الذى انكسر مال فى ضمانه[٢٨٩] .

وعن مدى التزام الفاطميين بما ورد فى كتب الدعوى عن النهى عن الحكرة ، إذا عز الطعام وعن التسعير ، فهذا يجرنا إلى الحديث عن احتكار الغلات وعن سياسة التسعير ومدى ممارسة الفاطميين لها ، فضلاً عن ذلك ، فهو يفرض علينا تجاوزه إلى دراسة مدى ممارسة الدولة للسياسة الاحتكارية بشكل عام . باعتبار أن منظومة الاحتكار إن وجدت ، فلابد أن تنسحب على السلع والموارد الأخرى .

ولمصر ظروف اقتصادية مرتبطة بقصور مياه النيل أو زيادته عن الحد المطلوب مما ينجم عنه الغلاء ، وهذا الحد يتراوح ما بين ستة عشر وثمانية عشر ذراعاً وتكون معه الزراعة مستقرة فإذا قصر النيل أو زاد ، أضر بأحوال البلاد

---

[٢٨٦] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .
[٢٨٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .
[٢٨٨] القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٦٦ .
[٢٨٩] ابن ميسر ، أخبار ، ص ١٢٩ .

الاقتصادية ، حيث تنعدم الزراعة وتقل الأقوات ، وترتفع الأسعار ، ولذلك من يتحرى أسباب المجاعات في مصر يجد النيل يكاد أن يكون القاسم المشترك في هذه المجاعات ، بالإضافة إلى الحكام واختلال أحوال البلاد أو استيلاء الأمراء على الدولة وكذا وقوع الفتن ، وإجمالاً سوء تدبير الحكام(٢٩٠) .

وهذا الأمر قد واجه جوهراً عندما فتح مصر للفاطميين ، حيث كانت البلاد تعاني من المجاعات منذ أواخر أيام كافور الإخشيدي واستمرت حتى مجيئه(٢٩١) ، فاتخذ جوهر من الإجراءات التي استطاع بها أن يقضي علىهذه المجاعة ، وأن ظل خطرها فترة ، ومنها ، أنه جمع سماسرة الغلات وأنشأ مخزناً عاماً للحبوب لا يشترى إلا منه ويشرف عليه المحتسب ، وجلد بعض أصحاب المطاحن ممن لم يمتثل لأوامره(٢٩٢) . وبذلك منع من احتكار التجار للغلات ، خاصة أنه أتى ببعض السفن المحملة بالحبوب من المغرب(٢٩٣) .

وقد توالت المجاعات في مصر الفاطمية وارتفعت الأسعار بشكل ملحوظ واتخذت الدولة خلالها من الإجراءات ما استطاعت معها في الغالب أن تقضي عليها ، لكن من الملاحظ أن هناك أمراً قد تواتر خلال المجاعات من خلافة الحاكم إلى الفائز ، وهو لجوء الدولة إلى تحديد سعر الغلة ، ففي مجاعة عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م أمر الحاكم بأن يكون كل أثنى عشر رطلاً من الخبز بدرهم ، كما أصدر أوامره أيضاً بالنظر في الأسعار ، ثم تم جمع خزان الغلال والطحانين والخبازين وحدد سعر القمح ، كل تليس بدينار إلا قيراط ، والشعير عشر ويبات بدينار ، وسعر سائر الحبوب والمبيعات ، وكبست عدة حواصل للقمح وفرق ما فيها على الطحانين بالسعر المحدد(٢٩٤) . وكذلك في مجاعة ٣٩٨هـ/١٠٠٨م حيث قصر مياه النيل ، وخير أرباب الغلات في أن يبيعوا بالسعر الذي يقرره ، بما فيه الفائدة المحتملة لهم ، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ، ولا يمكنهم من بيع شيئ منها إلى حين دخول الغلة الجديدة ، فاضطروا إلى

---

(٢٩٠) المقريزي ، إغاثة ، ص ٢٤ .

(٢٩١) المقريزي ، إغاثة ، ص ١٢ .

(٢٩٢) المقريزي ، إغاثة ، ص ص ١٣ – ١٤ .

(٢٩٣) ماجد ، ظهور ، خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٦٢ .

(٢٩٤) المقريزي ، إغاثة ، ص ١٦ .

الاستجابة إلى ما حدده من سعر[٢٩٥] . كما أن السجل الذى أصدره الخليفة الظاهر عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م ، تضمن أيضاً : «ان يبيع الناس كما يؤثرون بما أطعم اللّه بغير تسعير»[٢٩٦] .

وفى عصر المستنصر ، الذى حدثت فيه مجاعات متوالية ، واستمرت لعدة سنوات وبلغت ذروتها عام ٤٦٢هـ/١٠٦٩م وعرفت بـ «الشدة العظمى»[٢٩٧] ، فقام الوزير اليازورى خلال المجاعة التى وقعت عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م بمطالبة الفلاحين ببيع غلاتهم قبل حصادها ، كما قرر ثمن التليس ثلاثة دنانير ، بعد أن كان ثمانية دنانير[٢٩٨] ، وفى خلافة الآمر ارتفع سعر القمح حتى بيع مائة أردب بمائة وثلاثين ديناراً ، فقام الوزير المأمون البطائحى ، بالختم على مخازن الغلات ، وكرر ما فعله الخليفة الحاكم بين الختم على الغلات أو البيع بالسعر المحدد ، الذى تحدده الدولة ، وهو مائة أردب بثلاثين ديناراً[٢٩٩] . أى أنه قام بتسعير القمح للتجار أو السماسرة ، كما أمر ببيع جزء من غلات الديوان للطحانين بالسعر الذى حدده السوق .

وإذا كان ما قام به الفاطميون من التدخل فى تحديد أسعار الغلال ، لا سيما القمح ، الذى يعتبر واحداً من السلع الحيوية واليومية ، فهذا يتعارض مع ما عرضوه فى كتب الفقه الخاصة بهم والتى تبين رفضهم لسياسة التسعير ، لكن مثل هذه الإجراءات التى أسلفناها ، كانت الدولة مدفوعة إليها بغرض التقليل من حدة الغلاء ومحاربة احتكار التجار ، كما أنها حينما تدخلت لتحديد الأسعار كانت تقوم بتخفيضها إلى معدل أقل من السعر الجارى آنذاك ، محاولة منها فى تخطى الأزمة ، ومن المحتمل أن هذا الإجراء يتفق مع غالبية فقهاء السنة بخصوص التسعير ، فهم لا يعارضونه لما له من نفع للناس ، فيرى الأمام أبو حنيفة «لا ينبغى للسلطان أن يسعر

---

[٢٩٥] المقريزى ، إغاثة ، ص ١٨ .

[٢٩٦] المسبحى ، أخبار ، ص ١٩٦ .

[٢٩٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٣٥ ، حدثت المجاعات فى عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢م و ٤٤٧ هـ/١٠٥٥م ، ثم ٤٥٧ – ٤٦٤هـ/١٠٦٤ – ١٠٧١م .

[٢٩٨] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢١ ، والتلبس ، والتليسة أيضاً وعاء يسوى من الخوص ، شبه قفة ، أنظر . أبن منظور ، لسان العرب ، بيروت ، جـ١ ، ص ٤٣٩ .

[٢٩٩] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢١ .

على الناس ، إلا إذا تعلق به حق ضرر العامة» أما الأمام الشافعى فيرى «جواز التسعير للناس ، إذا كان بالناس حاجة»[٣٠٠] .

وبذلك يكون الفاطميون مضطرين للتسعير فى وقت الأزمات ، فهل هذا السعر الذى تحدده الدولة يظل بعد انفراج الأزمة ، ويكون هو المعمول به من قبل الدولة ، وحين تتوالى الأزمات ، ترتفع الأسعار ، فتتدخل الدولة لتثبيتها إلى ما كانت عليه ؟ هناك إشارة لناصر خسرو[٣٠١] ، الذى زار مصر أثناء خلافة المستنصر : «بأن تجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعون ، وإذا كذب أحدهم على مشتر ، فإنه يوضع على على جمل ويعطى جرساً بيده ، ويطوف به فى المدينة ، وهو يدق الجرس وينادى قائلاً : قد كذبت وها أنا أعاقب» وهذا يبين أن التجار كانوا يبيعون بأسعار محددة ، من قبل الدولة وإذا خالفوها ، عوقبوا مما يدل على أن الفاطميين كانوا يتبعون سياسة التسعير بشكل عام ، بدليل وجود العرفاء ، وقيام المحتسب بمراقبة الأسواق ، كأحد اختصاصاته المنوط بها ، ومنها مراقبة الأسعار[٣٠٢]. صحيح أن هذا الإجراء يحمى الرعية من جشع التجار ، لكن يظل هذا الأمر متعارضاً مع ما ذكره الفاطميون عن التسعير ويبين أنه كان منفذاً ، فمثلاً كان هناك تحديداً لأسعار السوق عند ورود السلع الخاصة بتجارة العبور ، أو قبل رحيل القوافل وإرسال السفن[٣٠٣] .

وفيما يخص احتكار الغلات ، فهذا الأمر شائكاً ، إلى حد لا يمكن الدارس من الوقوف على حقيقته ، فقيام الفاطميين أثناء المجاعات بالضرب على أيدى التجار المحتكرين وتأديبهم ومحاربة الاحتكار بالختم على مخازنهم وإلزامهم بسعر محدد ، قد وضع حدا لاحتكار التجار ، أما فيما يتعلق بالفاطميين أنفسهم ، فهل احتكروا الغلات ؟ هناك إشارات غير مباشرة أثناء المجاعات منها : «وقبض على ما بالساحل من

---

[٣٠٠] ابن تيمية ، الحسبة ومسئولية الحكام ، تحقيق صلاح عزام ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٩ .

[٣٠١] سفرنامه ، ص ١٢٠ .

[٣٠٢] ودور المحتسب الاقتصادى يظهر فى ذهابه إلى الأسواق وتفتيشه على بضائع التجار من حيث الجودة والرداءة ومنعه لهم من الغش والتطفيف فى الكيل والميزان وإلزامهم البيع والشراء بالسعر المحدد والتفتيش على عيار الصنج والمكاييل والموازين للتأكد من سلامتها وصلاحيتها ، أنظر ، سهام مصطفى أبو زيد ، الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ص ١٦٥ – ١٦٦ .

[٣٠٣] انظر : Goitein , Med. Soc., 1, p. 218.

الغلال»[٣٠٤] وأيضا : «وحمل الغلال من النواحى إلى المخازن السلطانية بمصر»[٣٠٥] .

وإذا كانت رغبة الدولة فى جمع الغلال ، ربما محاولة منها لوضع حداً لاحتكار التجار من ناحية ، وحل الأزمة من ناحية أخرى ، خاصة أن النهى عن الاحتكار يتفق وحديث الرسول صلى اللّه عليه وسلم قال : «لا يحتكر إلا خاطئ»[٣٠٦] ، لكن الفاطميين أقاموا المتجر[٣٠٧] ، الذى كان فى الأصل لخزن الغلال ، فضلاً عن الأهراء[٣٠٨] ، التى كان يأتى إليها المتحصل من خراج الوجه القبلى ؛ الذى كان يجبى عيناً ، خاصة الحبوب ، ثم تحول المتجر بعد ذلك كأحد منافذ استثمار أموال الخليفة ، فكان يباع للخليفة المستنصر فى كل سنة غلة بمائة ألف دينار[٣٠٩] ليواجه بها احتكار التجار وقت المجاعات ؛ أو لأنها كانت تجارة مربحة ، خاصة أن الخلفاء أسهموا بأموالهم فى التجارة . هذا الأمر حتى عصر المستنصر يعد احتمالاً ، لا سيما أن هذا المتجر سرعان ما تحول مع عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢ ، إلى شراء وخزن سلع أخرى ليس منها ضرر ولا كلفة على الناس وأكثر فائدة . كما رأى اليازورى الذى حسن للخليفة المستنصر هذا الأمر وأخذ به[٣١٠] وهذا يوضح أثر آخر وأهم فى خزن الغلات وهو أنه يضر بأحوال الناس ، مما يبين أن المتجر ، كان يعد وسيلة مباشرة للاحتكار .

وبتوالى المجاعات بعد المستنصر ، نلمس محاربة الوزراء المسيطرين على البلاد ، لاحتكار التجار للغلات ، مع قيامهم باحتكارهم لها بالفعل ، فمع وزارة الأفضل ٤٨٧-٥١٥هـ / ١٠٩٤ - ١١٢١م ، وجد فى مخازنه بعد وفاته وتحت يد عماله

---

[٣٠٤] المقريزى ، إغاثة ، ص ١٦ .

[٣٠٥] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢١ .

[٣٠٦] أبو داود ، صحيح سنن المصطفى ، بيروت ، جـ٢ ، ص ٩٨ .

[٣٠٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ ، والمتجر عبارة عما يبتاع للديوان من بضائع تدعو إليها الحاجة ويقتضيه طلب الفائدة .

[٣٠٨] والأهراء هى الأماكن التى تخزن بها الغلال والاتبان الخاصة بالخليفة أو السلطان احتياطاً لأمثال الطوارئ الاقتصادية ، وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة ، المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٨ .

[٣٠٩] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٠

[٣١٠] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٠

والجباة وضمن النواحى أصناف الغلال والحبوب(٣١١) . وربما كان ذلك من أسباب المجاعة ، التى كانت فى عصر الآمر ؛ لأن المقريزى لم يذكر أنها كانت بسبب قصور مياه النيل ، كذلك احتكر الصالح طلائع بين رزيك أثناء وزارته ٥٤٩-٥٥٦هـ/١١٥٤-١١٦١م ، الغلات ، مما كان سبباً بالفعل فى ارتفاع أسعارها فى أيام الخليفة الفائز ٥٤٩-٥٥٥هـ/ ١١٥٤ -١١٦٠م ، مع قصور مياه النيل ، فأخرج الوزير ما كان بالأهراء من الغلات ما لا يحصى وفرقها على الطحانين(٣١٢) .

وكان طبيعياً أن تتضح سياسة الدولة الاحتكارية فى مجالات أخرى بشكل أوسع ، لكنها مع ذلك ، مارست سياسة شبه احتكارية وأخرى احتكارية خالصة لبعض الصناعات والسلع والموارد ، التى تمثل أهمية اقتصادية ، سواء التى تميزت مصر بإنتاجها ، أو التى افتقرت إليها وكانت عليها أحرص ، ومن الصناعات التى لم تصل إلى حد الاحتكار الكامل ، صناعة النسيج وتجارته وكذا السكر وغيره ، ثم احتكار بعض الموارد مثل الشب والنطرون ، وبعض السلع مثل الخشب والحديد والرصاص وزيت الزيتون وغيرها ؛ فضلاً عن بعض الصناعات السيادية المرتبطة بقوة الدولة مثل صناعة السلاح والسفن والعملة .

ولما كان ازدهار مختلف فروع الصناعة فى العصر الفاطمى ، ظاهرة اقتصادية ارتبطت بالتطور الكبير فى تجارة مصر الدولية وفتح أسواق جديدة لها ؛ فضلاً عن رفاهية البلاط الفاطمى(٣١٣) . لذلك فصناعة النسيج ، التى اشتهرت بها مصر فى ربوع العالم الإسلامى ، ظلت مع الفاطميين تمثل أهمية كبرى ، لذا عمل الفاطميون على إنشاء المصانع الحكومية ، التى تسمى «طرازاً»(٣١٤) فى طول البلاد وعرضها(٣١٥) ، وهذه الدور لم تنشأ مع الفاطميين ، بل وجدت منذ الفتح العربى ،

---

(٣١١) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ .

(٣١٢) المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٨ .

(٣١٣) انظر : Ashtor, Social and Economic history, p. 198.

(٣١٤) كان لفظ الطراز يعنى فى أول الأمر الكتابة الزخرفية ، التى توجد على الأقمشة وهو لفظ أعجمى مأخوذ من كلمة "طرازيدن" ومعناها التطريز ، ثم اتسع مدلولها فأصبحت تستعمل للكتابة على الورق والنسيج ، انظر : سعاد ماهر ، النسيج الإسلامى ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٥ .

(٣١٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤١٣ .

وظلت حتى مجئ الفاطميين تأثراً بالبيزنطيين[٣١٦] ، أو أن هذه المصانع نشأت فى العصر الإسلامى فى عهد الدولة الأموية مع خلافة الوليد بن عبد الملك[٣١٧] ، ومع الفاطميين عمت هذه المصانع أنحاء مصر فى تنيس ودمياط والإسكندرية[٣١٨] وطحا بالصعيد[٣١٩] وغيرها ، ويبدو أنه كان بالمدينة الواحدة أكثر من دار واحدة للطراز[٣٢٠].

وكان حرص الفاطميين على النهوض بالصناعة واضحاً مما وألجأهم فى بداية دولتهم إلى اختيار الصناع المهرة والحاقهم بخدمة الدولة فى الصناعات ، التى كانت تهتم بها ، ولذلك جعل المعز كل ماهر فى صنعة صانعاً للخاص ، وأفرد لهم مكاناً برسمهم ، كما شرط على ولاة الأعمال عرض أولاد الناس بأعمالهم ، فسيروا إليه بعضهم ، فأفرد لهم دوراً وأطلق على هؤلاء صبيان الحجر[٣٢١] . وتؤكد وثائق الجنيزة[٣٢٢] هذا الاتجاه ، حيث كان يجبر العمال المهرة على العمل فى مصانع النسيج الحكومية من خلال المسئول عن الجند ، بانتقاء الحرفيين المهرة ، وكانوا بذلك لا يستطيعون الخروج مطلقاً من القاهرة لسنوات عديدة ، إلا من خلال أمر خلافى يؤمنهم ، ومن خلال حالة التماس[٣٢٣] رفعت للخلافة تؤكد هذه الحقيقة ، وتبين إلزام هؤلاء العمال بالخدمة فى المصانع الحكومية ضد رغبتهم ، حتى أن أحدهم كتب يشكو بمرارة أنه غير قادر على المشاركة فى الحياة الاجتماعية والدينية مع أخوته .

وهناك اختلاف بين المؤرخين المحدثين ، حول وضعية هذه المصانع ، فمنهم من يرى[٣٢٤] : «أن إنشاء هذه الدور يعد احتكاراً لصناعة النسيج» ومن يرى أنه[٣٢٥] : «ينبغى ألا نظن أن الحكومة الفاطمية كانت تحتكر صناعة النسيج وتجارتها» ، وكل ما فى الأمر أن الحكومة الفاطمية كانت تنظر إلى تأجير ما تملك من مبان كمصدر إيراد

---

(٣١٦) زكى حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١١ .
(٣١٧) سعاد ماهر ، النسيج الإسلامى ، ص ص ٢٥ ، ٢٨ .
(٣١٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٧٢ .
(٣١٩) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٢ ، وكان يعمل بها ثياب الصوف الرفيعة .
(٣٢٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٩ .
(٣٢١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٤٣ .
(٣٢٢) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 82.
(٣٢٣) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 82.
(٣٢٤) زكى حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١١ .
(٣٢٥) لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٦٢ .

لها وليس لهذا علاقة بحرية الصناعة[٣٢٦] وهذا الرأى مرتبط بما أورده ناصر خسرو[٣٢٧] من قيام الحكومة الفاطمية بتأجير المخازن والمتاجر لصناع وتجار المنسوجات .

بداية لا نستطيع أن نقرر بأن الفاطميين احتكروا صناعة النسيج فى مصر ، لأنهم أعطوا الفرصة للمصريين لمزاولة هذه الصناعة ، بدليل انتشارها فى جميع أنحاء مصر ، فتذكر المصادر[٣٢٨] أن كثيراً من مدن الوجه البحرى اشتهرت بهذه الصناعة منها تنيس ، التى كان معظم أهلها حاكة ، ودمياط ودبيق وشطا فى الوجه البحرى ؛ فضلاً عن الإسكندرية ، وفى الوجه القبلى اشتهرت الأشمونيين واسيوط وأهناس والفيوم ، التى كان يسكنها الصناع وأرباب الحرف والنساجون وغيرها[٣٢٩] . كما تطالعنا وثائق الجنيزة[٣٣٠] ، بوجود مصانع للغزل والصباغة فى الفسطاط والمحلة . كذلك كشفت أوراق البردى[٣٣١] فى مدينة البهنسا عن قائمة تتضمن أشخاص يملكون أنوالاً للنسيج ، فمنهم من كان يملك أربعة أنوال ، ومنهم من كان يملك خمسة مما يدل على اشتغال أهل هذه المدينة بهذه الصناعة .

لكننا لا يمكن فى ذات الوقت أن نقول بحرية هذه الصناعة الأهلية ، حيث أنها كانت تخضع لإشراف الدولة من خلال فرض الضرائب ، ووضع الضوابط لإنتاجها ، فكان غير مسموحاً ، بإنشاء مصانع للغزل فى بيوت خاصة أو تصنيعها بدون دفع الضريبة[٣٣٢] ، وفى تحريم الدولة على النساجين فى تنيس ودبيق أن ينسجوا شيئاً إلا تحت إشراف الدولة عن طريق ختم ما يتم نسجه بختم السلطان[٣٣٣] ، الذى عرف بـــ

---

(٣٢٦) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٢٤ .

(٣٢٧) سفر نامه ، ص ١٢٢ .

(٣٢٨) مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ٨٧ .

(٣٢٩) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ص ١٥٦ – ١٥٧ .

(٣٣٠) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 362 - 366.

(٣٣١) جروهمان ، أوراق البردى العربية ، تحقيق عبد العزيز الدالى ، القاهرة ١٩٧٤ ، الجزء السادس ، بردية رقم ١٨٧ ، ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجريين – العاشر أو الحادى عشر الميلاديين ، ص ص ٧٠ – ٧٢ .

(٣٣٢) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 116.

(٣٣٣) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

«خاتم الشرب والدبيقى»[٣٣٤] ، الذى يبين أن هذه المنتجات قد استوفت الضريبة المستحقة عليها ، ولذلك كان ممنوعاً على مصانع النسيج والصباغة فى البيوت الخاصة ، أو التى تصنع خلافاً لذلك بهدف التحايل فى دفع الضريبة المستحقة ؛ لأنه يمكن التعرف عليها على الفور مع غياب الختم[٣٣٥] ، كما لاتباع هذه المنسوجات إلا على أيدى السماسرة المكلفين بهذا العمل من قبل الدولة ويناط بأحد كتاب الديوان تسجيل ما يباع ، وبعدها تحمل المنسوجات لمن يقوم بشدها وحزمها ، ثم تفتش المراكب التى تحملها مثلما يحدث للثياب المنتجة فى شطا[٣٣٦] ، والتى تعد مثالاً لما يحدث للمدن الأخرى المنتجة لهذه المنسوجات .

ولما كانت صناعة النسيج تمثل الصناعة الرئيسية فى إقليم البحر المتوسط فى العصور الوسطى[٣٣٧] ، وكانت مصر إحدى هذه الدول التى كانت مصانعها تنتج أنواعاً مختلفة من المنسوجات الجيدة ، من هنا جاء اهتمام الفاطميين بالخامات المنتجة لهذه الصناعة ، لاسيما الكتان ، حيث تتوفر فى زراعته فى الدلتا ، فى بنها وبوصير وسمنود والفيوم[٣٣٨] ، لذلك كان الكتان يجلب للدولة من مناطق زراعته من خلال الوكلاء الحكوميين ، وقبل سفرهم إلى هذه المراكز ، كان على التجار أن يجهزوا الخطابات ليقدموها إلى العامل أو متولى الأموال[٣٣٩] ، ويرجع حرصهم على الحصول على الكتان لاستخدامه فى مصانعهم الخاصة ، وتصديره للشرق والغرب[٣٤٠] ، خاصة تونس وصقلية[٣٤١] ومن هنا كانت الدولة أكبر مستهلك للكتان[٣٤٢] . أما الحرير الذى لم تكن مصر من البلاد التى تعنى بإنتاجه[٣٤٣] ، فكانت لذلك حريصة على استيراده

---

(٣٣٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(٣٣٥) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 117.

(٣٣٦) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

(٣٣٧) انظر : Goitein Med Soc, 1, p. 101.

(٣٣٨) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٩ ؛ المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ص ٢١ ، ٢٢ .

(٣٣٩) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 267.

(٣٤٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٩ .

(٣٤١) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 154.

(٣٤٢) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 267.

(٣٤٣) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٧٦ .

خاصة من صقلية وأسبانيا[٣٤٤] ، ومن خلال أحد الخطابات فى وثائق الجنيزة[٣٤٥] ، الذى يرجع إلى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، أن كل الحرير ، الذى وصل إلى الإسكندرية ، تسلمته الحكومة ، باستثناء كميات صغيرة ذات جودة أقل ، وعندما ينخفض سعر الحرير فى الفسطاط كان على التجار أن يبيعوا مخزونهم منه للحكومة ، ويتلقون المبلغ الذى يحدد علانية[٣٤٦] ، كما كان الحرير يصادر ويحتجز ومثال ذلك ما حدث فى الإسكندرية عام ٥٣٥هـ/١١٤٠م[٣٤٧] ، أما القطن ، فعلى الرغم من كونه أحد الخامات المنتجة لصناعة النسيج ، حيث يزرع فى مصر ، خاصة فى الفيوم[٣٤٨] وكانت الدولة تفرض عليه الضرائب[٣٤٩] ، وتصنع منه الثياب فى البهنسا[٣٥٠] ، فإنه لم يصل خلال العصر الفاطمى ، لما وصلت إليه الخامات السابقة .

ويرجع اهتمام الفاطميين بهذه الصناعة أيضاً إلى أن تجارة المنسوجات المصرية كانت رائجة وتمثل سلعة سوق فى العالم الإسلامى أو بيزنطة ، بسبب ما كانت تنتجه المصانع من أقمشة عالية الجودة ، ففى الوجه البحرى ، حيث صناعة الأقمشة الكتانية ، كانت تنيس تنتج القصب الملون والبوقلمون ، وكلاهما لا ينتج فى مكان آخر فى جميع العالم[٣٥١] ، أما دمياط فاشتهرت بإنتاج القصب الأبيض والشرب[٣٥٢] ، وليس أدل على شهرة دمياط من أن مدينة كازورون الفارسية قلدت المنتجات المصرية وعرفت بـ «دمياط الأعاجم»[٣٥٣] وتنتج دبيق وهى إحدى قرى دمياط قماش مزركش ؛ فضلاً عن مدينة شطا القريبة من تنيس ودمياط ، التى ينسب إليها الثياب الشطوية[٣٥٤] .

---

(٣٤٤) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 154.
(٣٤٥) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 268.
(٣٤٦) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 267.
(٣٤٧) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 268.
(٣٤٨) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ١٠٦ .
(٣٤٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .
(٣٥٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٣٧ .
(٣٥١) سفرنامه ، ص ٩٢ .
(٣٥٢) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٢ .
(٣٥٣) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٤٣٣ .
(٣٥٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٦٦ .

ويبدو أن هذه الصناعة قد تقدمت مع الفاطميين بحيث وجدت مناطق جديدة فى دبقو ودميرة[٣٥٥] وتونة ، حيث يغزل فيها الغزل الرفيع[٣٥٦] ؛ فضلاً عن منية الخصيب ومنية غمر ومنية زفتى[٣٥٧] ، كما استحدثت مع الفاطميين أنواعاً أخرى من الأقمشة مثل العتابى[٣٥٨] ، الذى ينسب إلى بغداد ، والسقلاطون من بلاد الروم فى خلافة العزيز ، بسبب العلاقات السياسية الطيبة بين الخليفة الفاطمى وعضد الدولة البويهى من ناحية والصلح الذى تم مع الروم عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م من ناحية أخرى وساعد بذلك الاتصال التجارى ، أيضاً على قيام الصناع المصريين بتقليد أنواع الأقمشة[٣٥٩] ، مثل الطبرستانى ، الذى تم تصنيعه فى تنيس ودمياط والأرمنى فى أسيوط[٣٦٠] أما الحرير فكان ينسج ويصنع ليس فقط فى الإسكندرية ، لكن أيضاً فى المدن الصغيرة فى ريف مصر ، ومنها المحلة ، حتى أن النساء كن مشغولات بحل ولف ونسج وصباغة الحرير فى كل مكان[٣٦١] .

لذلك لعبت صناعة النسيج دوراً ملحوظاً فى التجارة الخارجية ، خاصة المنسوجات الكتانية ، التى كانت تشكل للفاطميين الغاية الأساسية للتجارة الدولية[٣٦٢] ، فحملت منتجات تنيس إلى المشرق والمغرب وبيزنطة على وجه الخصوص ، أما العراق ، فكانت مصر تصدر إليها القماش الشرب ما بين عشرين إلى ثلاثين ألف ديناراً[٣٦٣] على الرغم من العداء السياسى ، الذى كان بين الخلافتين معظم الوقت ، وحظيت مدينة أسيوط بشهرة فائقة فى المشرق ، بسبب ما كانت تنتجه من منسوجات صوفية دقيقة ، حيث كانت تصدر إلى بلاد فارس منتجاتها ، التى عرفت هناك بـ «الصوف المصرى»[٣٦٤] .

---

(٣٥٥) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٥٦ ، حيث كان بها طرازاً للخاصة وطرازاً للعامة .

(٣٥٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧٧ .

(٣٥٧) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 198.

(٣٥٨) انظر ، نوع الثياب الحريرية نسب إلى ابن حفيد عميرة المسمى عتاب Dozy. Supplément, 11, p. 93.

(٣٥٩) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٣٣ .

(٣٦٠) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 198.

(٣٦١) انظر : Goitein, Med Soc. 1, p. 102.

(٣٦٢) انظر : Goitein, Med Soc. 1, p. 105.

(٣٦٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧٧ .

(٣٦٤) سفر نامه ، ص ١٣١ .

كما اهتم الفاطميون بصناعة النسيج من أجل الدعاية لدولتهم ، حيث حملت مصنوعاتهم عقائدهم الإسماعيلية ، وكذلك لتلبية حاجة البلاط الفاطمى الذى اتسم بالمبالغة والرفاهية ، ولحاجة الدولة أيضاً لما توزعه على العاملين بها من كسوة وخلع فى المناسبات المختلفة ، وحسبنا ما ذكره المؤرخون[٣٦٥] سواء عن القصر أو ما تركه الوزراء من الثياب . وبذلك حققت هذه الصناعة شهرة كبيرة ، لاسيما فى العصر الفاطمى الأول ، حيث كان الأمن مستتباً ، فأدى هذا الاستقرار السياسى إلى استغلال المقدرات المحلية والإقليمية فى إنتاج مصنوعات على درجة عالية من الجودة والدقة[٣٦٦].

وكل ما سبق يفسر حرص الفاطميين على صناعة النسيج وتجارتها ، بل واحتكارها لكل ما ينتج سواء فى دور الطراز الحكومية أو فى المصانع الأهلية ، فكان ما يصنع فى الدور الحكومية لا يباع ولا يعطى لأحد[٣٦٧] ، ويكفى أن نشير إلى أن هذه الدور ، كانت تنعت بـــ "مصانع السلطان[٣٦٨] صحيح ، أن هذه المصانع كانت مخصصة لإنتاج ملابس الخليفة وأهل القصر ، والخلافة كانت فى حاجة إليها لتسد مطالبها ، مما ألجأها مثلاً إلى أن تنشأ دار الديباج[٣٦٩] ، التى يصنع بها الحرير . أما المصانع الأهلية ، فكانت تخضع للحكومة أيضاً من خلال ما فرض عليها من ضرائب، إلى جانب الإشراف الدقيق عليها . ومن هنا كانت هيمنة الدولة الفاطمية على صناعة النسيج لم تصل إلى حد الاحتكار بل مارست الدولة عليها سياسة شبه احتكارية .

كذلك أشرفت الدولة الفاطمية على صناعة السكر بشكل يستلفت النظر ، حتى كادت أن تحتكرها أيضاً ، بدليل ما قامت به من إنشاء المعاصر ومراكز تصنيع السكر

---

[٣٦٥] احتوت خزائن الفرش والأمتعة على ألوان مختلفة من الأقمشة ، المقريزى ، الخطط ، جــ١ ، ص ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، وجد للأفضل بن بدر الجمالى من المقاطع والستور والمطارح والمساند الديباج والدبيقى الحرير والمذهب على اختلاف أجناسها ، ومن العتابى وغيره تسعون ألف ثوب ، وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها دبيقى وشرب عمل تنيس ودمياط ، ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٢ ، المقريزى ، اتعاظ ، جــ٣ ، ص ٧١ .

[٣٦٦] محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، جــ٢/١ ، ص ٢٦١ .

[٣٦٧] ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٢ .

[٣٦٨] ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٢ .

[٣٦٩] المقريزى ، الخطط ، جــ١ ، ص ٤٦٤ .

فى مختلف أنحاء البلاد ، ومنها الفسطاط ، التى اشتملت على مصانع كثيرة[٣٧٠] ، كذلك فى الوجه القبلى فى ترنوط وغيرها[٣٧١] ، كما عمت مصانع العسل أنحاء البلاد أيضاً[٣٧٢] ، ولذا أجبرت الدولة الفلاحين على أن يحملوا القصب الخاص بهم إلى هذه المعاصر الحكومية[٣٧٣] ، ونفس الشيئ بالنسبة لأراضى الاقطاعات ، فكان على المقطع أن يعصر القصب الخاص به فى معصرة الدولة[٣٧٤] ، وكان اهتمام الدولة بهذه الصناعة ربما يرجع إلى أنها كانت تجبى مقادير طائلة من خراج الأرض المزروعة قصباً[٣٧٥] ، ولذلك اهتمت بزراعته ، حتى أنه مع أواخر العصر الفاطمى ، كانت زراعته منتشرة على جانبى النيل من الصعيد حتى مصب النهر ، وكانت أصلح الجهات لزراعته ، تلك التى تقع بين فرعى رشيد ودمياط[٣٧٦] ، كما يشير ابن حوقل[٣٧٧] إلى الصافية من أعمال الغربية ، بأنها ضيعة كثيرة القصب .

ويرى البعض[٣٧٨] ، أن الحكومة الفاطمية احتكرت صناعة السكر ، ويعتبر الخليفة الحاكم أول من أدخل الاحتكار لهذه الصناعة فى مصر ، معتمداً على ما قام به الخليفة من إتلاف مقادير كبيرة من الزبيب والعنب وإلقاء العسل فى النيل[٣٧٩] ، لكن ليس لدينا ما ينهض دليلاً على أن الفاطميين احتكروا صناعة السكر فى عصره ، لأن الغرض مما قام به الخليفة هو منع شرب الخمر ، كما أن الفاطميين أتاحوا الفرصة للمصريين لإنشاء المصانع الخاصة المنتجة للسكر والعسل ، بيد أن ما قامت به الدولة من وضع الضوابط على هذه الصناعة وإحكام قبضتها عليها كاد أن يكون نهائياً .

---

[٣٧٠] ابن دقماق ، الانتصار ، بيروت ، جـ٤ ، ص ص ٤١ - ٤٢ .

[٣٧١] البكرى ، المغرب ، ص ٢ .

[٣٧٢] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٧٢ .

[٣٧٣] ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .

[٣٧٤] ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .

[٣٧٥] حسن ابراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٩٤ .

[٣٧٦] الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ص ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ .

[٣٧٧] صورة الارض ، ص ١٣٤ .

[٣٧٨] انظر : Mazuel, Jean, Le sucre en Egypte, Le Caire 1937, p. 11.

[٣٧٩] ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٤ ، ص ١٧٧ . اراق الخليفة الحاكم بأمر الله خمسة الاف جرة من العسل فى البحر خوفاً من أن تعمل نبيذاً .

وتطالعنا وثائق الجنيزة[٣٨٠] عن وجود هذه المصانع الخاصة فى الفسطاط ، حيث كانت تمثل أكبر صناعة فى هذه المدينة فى العصر الفاطمى ، حتى أن كثيراً من العاملين بهذه الصناعة قد ارتبطت أسماؤهم بها ، فكان اسم «السكرى» من أسماء العائلات الشائعة[٣٨١] ، ولم تكن هذه الصناعة وقفاً على مدينة الفسطاط ، فكان هناك أيضاً مطبخاً للسكر فى شرقى الدلتا فى منية زفتى[٣٨٢] ، ويظهر من هذه المصانع ما هو صغيراً ؛ بالإضافة إلى المصانع الكبيرة أو الفابريقات ، التى كان أصحابها من الأثرياء ، لأن هذه المصانع كانت تساوى فوق آلاف الدنانير ، ويعمل بها عدد كبير من العمال ، بينما كانت المعامل الصغيرة من الممكن أن يتم تشغيلها بعشرة دنانير[٣٨٣] ، وكانت هناك شريحة من المجتمع فى أواخر العصر الفاطمى وصفت بأنها من الأقوياء المميزين ، الذين كانوا يملكون المعاصر[٣٨٤] .

وهذا معناه أن هذه الصناعة قد مارسها المصريون على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ، من خلال امتلاك المعاصر أو مطابخ السكر أو المسابك ومصانع العسل سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، كما أن الأخيرة قد توائمت وروح العصر من حيث ضخامتها وكثرة عدد الصناع بها[٣٨٥] ، مما يدل على أن هذه الصناعة قد تمتعت بحرية العمل[٣٨٦] ، لكن لما كانت الدولة تجبر الفلاحين والمقطعين على عصر القصب بمعاصرها الخاصة ، التى انتشرت فى أنحاء البلاد ، فربما كانت تعود وتبيع لهذه المصانع القصب ، الذى يرد إليها ، ثم تفرض عليها الضرائب والتى بلغت على مطابخ

---

(٣٨٠) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 200.

(٣٨١) انظر : Goitein, Med. Soc, 1. pp. 266 - 267.

(٣٨٢) انظر : Goitein, Med. Soc, 1. pp. 126.

(٣٨٣) انظر : Goitein, Med. Soc, 1. pp. 81.

(٣٨٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .

(٣٨٥) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، جـ٢/١ ، ص ١٦٣ .

(٣٨٦) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.
وما يدل على حرية العمل فى هذه الصناعة إلى حد ما ، ما تشير إليه بردية من قيام تاجر بعمل حساب أسبوعى لسكر موزع ، انظر : جروهمان ، أوراق البردى العربية ، بردية رقم ٣٦٩ ، جـ٦ ، ص ١٢٦ .

السكر ١٣٥ دينار وعلى دار القند فى الفسطاط والقاهرة ٣٠١٨ دينار ، وعلى مرنعة العسل ٢٣٢ دينار[٣٨٧] ، فضلاً عما كان يدفعه أصحاب المعاصر لتكرير السكر[٣٨٨] .

ويرى البعض[٣٨٩] : «أن الضريبة على صناعة السكر فاطمية الأصل» وربما ذلك يرجع إلى أن زراعة القصب عرفت فى مصر فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلاد[٣٩٠] ، وشهدت تطوراً ملحوظاً فى العصر الفاطمى ، حتى ذكر المخزومى[٣٩١]: «وقد استوفينا من ذكر القصب قدراً لا يؤثر عنه التجاوز ، إنما ذكرنا هذا القدر منه لكون زراعته خطرة ولكونه أعلى أصناف المزروعات» ولذلك توفرت لزراعته الأسباب من اختيار الخولى العارف بالأرض والكرامين ، الذين يقومون بخدمة الأرض والوقافون المشرفون على إدارة السواقى ، كما يرتب الحراس لحراسة القصب[٣٩٢] .

ولقد اهتمت الدولة الفاطمية بهذه الصناعة أيضاً بسبب أهميتها التجارية مثل صناعة النسيج من حيث ما ذكرناه من كونها سلعة سوق ولسد حاجة البلاط الفاطمى ، بالإضافة إلى ما تحتاجه الدولة من كميات وفيرة لتفى بالتزاماتها فيما تقوم بتصنيعه من حلوى وتوزيعه على الرعية ، وليتوائم إنتاجه مع حاجة المجتمع الذى تعود على الرفاهية ، وعلى ذلك استخدمت وسائل وأساليب جديدة لتكريره ، وتحسنت الطريقة القديمة[٣٩٣] ، كما أنتجت عدة أنواع من السكر تبعاً لدرجة تكريره .

وتبدو أهمية السكر فى أنه كان من أهم الصادرات الضئيلة ، التى تمثلت فى فائض الإنتاج الزراعى والصناعى آنذاك[٣٩٤] . حتى أصبح السكر يمثل أهم منتج

---

(٣٨٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣٨٨) هناك وثيقة ترجع إلى عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م تبين أنه دفع ثلاثة عشر درهماً مقابل تكرير السكر ، انظر Goitein, Med. Soc., 1, p. 116.

(٣٨٩) انظر : Rabie, The Financial System, p. 82.

(٣٩٠) جروهمان ، أوراق البردى العربية ، جـ٦ ، بردية رقم ٢٣٢ ترجع إلى عام ٢٨٨هـ/٩٠٧م ، ص ٣٦ . ذكر فيها ما دفع إلى نواطير القصب ، وفى بردية أخرى رقم ٢١٦ ترجع إلى ق٣هـ - ٩م ، جـ٤ ، ص ٦ يذكر فيها ما زرع من قصب .

(٣٩١) المنهاج ، ص ٥ .

(٣٩٢) المنهاج ، ص ص ٤ - ٥ .

(٣٩٣) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٣٩٤) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، ١/٢ ، ص ١٨١ .

اقتصادى فى مصر خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وعرف فى الشرق الأقصى باسم "المصرى"[٣٩٥] وكانت له شهرة تفوق جنديسابور ، التى اشتهرت بالسكر[٣٩٦] . فقد راجت لذلك تجارته فى وقت كانت مصر تمثل أحد أقطاب التجارة الدولية ، ومعنى ذلك أن الإنتاج الزراعى قد كرس للسوق وليس لمجرد الاكتفاء الذاتى[٣٩٧] ، حيث أن هذه الصناعة كانت واسعة الانتشار لارتباطها بالمناطق التى تزرع قصباً[٣٩٨] ، ولذلك كانت مصر تنتج عسلاً وسكراً كثيراً[٣٩٩] ، كما كانت هذه الصناعة ذات طابع رأسمالى ، حيث أن الطرق المعقدة التى استخدمت فى إنتاجها ، لا يمكن استخدامها إلا فى المصانع الكبيرة ، التى كان يطلق عليها "مطابخ السكر"[٤٠٠] .

كذلك لسد حاجة البلاط الفاطمى ، حيث تذكر المصادر[٤٠١] الأسمطة التى كانت تعد ويستخدم فيها مقادير كبيرة من السكر ؛ بالإضافة إلى سياسة الدولة تجاه الرعية استلزمت إنشاء دار الفطرة[٤٠٢] ، لإنتاج حلوى عيد الفطر ، وما كان يستهلك فيها أيضاً ، وما حوته من أسماء الحلوى ، التى كانت توزع على العاملين فى الدولة فى مناسبات مختلفة ، ولابد أن الرعية تأثروا بهذه التقاليد ، حتى كان للحلوى سوقاً فى مدينة الفسطاط تشتمل على أنواع عديدة منها خاصة فى الأعياد[٤٠٣] .

---

[٣٩٥] انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

[٣٩٦] المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٤٠٨ .

[٣٩٧] محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ١٥٦ .

[٣٩٨] انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

[٣٩٩] سفر نامه ، ص ١١٨ .

[٤٠٠] انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

[٤٠١] ما كان يعمل فى سماط عيد الفطر ، قصران من حلوى فى كل واحد سبعة عشر قنطاراً من السكر ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٨٨ ، وكذلك ما تم عمله فى سماط عيد الأضحى فى خلافة الظاهر ، وصل السماط المعمول من السكر والقصور وعدد قطع تماثيله مائة وسبعة وخمسين قطعة ومن القصور السكر الكبار سبعة قصور ، انظر : المسبحى ، أخبار ، ص ٢٠١ . كذلك بلغ راتب السكر المستخدم فى سماط عيد الفطر خمسون ألف من ، وقد أعد على مائدة السلطان شجرة للزينة تشبه شجرة النارنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، انظر ، سفرنامه ، ص ١٢٣ .

[٤٠٢] قام الخليفة العزيز ببناء دار الفطرة وقرر ما يعمل فيها وما يحمل للناس ، وبلغ السكر المستخدم فى هذا اليوم سبعمائة قنطار ، انظر ، المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

[٤٠٣] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ٤٤٥ - ٤٤٦ ، جـ٢ ، ص ٦٩ ، ومن أصناف الحلوى الشائعة الخسكنانج والبسندود والفانيد .

ونظراً لما تقدم ، اهتمت الدولة بهذه الصناعة ، وعملت على تحسين وسائل تكرير عصير القصب فى مصانع السكر العديدة الموجودة فى مدن وقرى كثيرة في مصر ، حيث استخدم النطرون والشب في تنقية المواد المتخلفة ، عوضاً عن الغلى المتكرر[٤٠٤] ، وكان استخدام المادة القلوية فى التنقية يعد اختراعاً تم فى مصانع السكر المصرية[٤٠٥] ويرجع ذلك إلى تكريس النهضة العلمية لخدمة أغراض عملية[٤٠٦] .

وبناءاً على ما سبق ، فلا يمكن أن نؤكد أن الدولة احتكرت صناعة السكر وما قيل عن صناعة النسيج يصدق على صناعة السكر ، فعلى الرغم من سيطرة الدولة الكاملة عليها من حيث إنشاء المصانع السلطانية أو من خلال تشديد القبضة فى الإشراف عليهما وكذلك احتكار تسويقهما ؛ فإن إتاحة الفرصة لإنشاء المصانع الأهلية للصناعتين ، ترجح أنهما قد خضعتا لسياسة شبه احتكارية من قبل الدولة .

كما طبقت الدولة الفاطمية هذه السياسة على صناعات أخرى مثل الشمع والصابون ، فعلى الرغم من وجود مصانع الشمع المنتشرة فى الإسكندرية[٤٠٧] ، فإنه كان أيضاً يمثل أحد السلع الثابتة ، التى تأتى من تونس ، ولوجود مصانع أهلية لهذه الصناعة ، كان اسم الشماع أيضاً واحداً من أسماء العائلات اليهودية[٤٠٨] آنذاك ولأهمية هذه الصناعة ، كان يوجد لها سوقاً بالفسطاط عرف بـ "سوق الشماعين"[٤٠٩] ، كما كانت الدولة تفرض ضريبة على السلع تسمى "خاتم الشمع" تدل على استيفاء الصناعة التى تم ختمها للضرائب[٤١٠] . وقد خصص الفاطميون خزائن للشمع عرفت بخزائن دار أفتكين بسبب حاجتها له[٤١١] . وكانت الدولة لذلك تحتكر كل ما يرد إليها من بلاد المغرب[٤١٢] .

---

(٤٠٤) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٤٠٥) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٤٠٦) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ١٦١ .

(٤٠٧) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص ١٠٨ .

(٤٠٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 125.

(٤٠٩) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٩٦

(٤١٠) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٠٤

(٤١١) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٢٢

(٤١٢) انظر Goitein. Med. Soc 1, p. 60

أما الصابون ، فقد كثرت مطابخه في الفسطاط ، وكانت الدولة تعتمد على ما يرد إليها من زيت الزيتون من منطقة الفيوم ، كما أشار ابن دقماق[٤١٣] إلى قيسارية الصبانة ، التى كانت موجودة بالفسطاط وتضم العديد من الحوانيت لبيع الصابون ، كما كانت الإسكندرية إحدى المراكز الهامة لصناعة الصابون نظراً لزراعة أشجار الزيتون فى نواحيها الغربية[٤١٤] ، وقد أشار ابن جبير[٤١٥] إلى موضع الصبانة بها ، ولاشك أنها كانت تضم مطابخ أخرى للصابون خلال العصر الفاطمى ، ولما كانوا يستخرجون الزيوت من نباتات أخرى مثل اللفت والخس ، فكانوا يصنعون منه أنواعاً من الصابون عالية الجودة فى أنحاء مصر[٤١٦] . ومع ذلك كانت الدولة تقوم باستيراده من تونس ، لكنها كانت تضع الضوابط على التجار المستوردين له ، فإذا ارتفع سعر قنطار الصابون الوارد من تونس إلى حد كبير ، تسمح الحكومة لنفسها فقط بأن تبيعه بمثل هذا السعر[٤١٧] .

لكن الدولة الفاطمية قامت بالفعل باحتكار بعض الموارد والسلع إما بسبب أهميتها الاقتصادية فى الصناعة أو لاستخدامها فى ضبط الميزان التجارى لاستيراد سلع أخرى أو لافتقار الدولة فى إنتاجها أو لحاجتها الملحة والشديدة لتأكيد وضعها السياسى .

وبسبب القيمة الاقتصادية للشب والنطرون ، لاسيما فى الصناعة ، حيث يدخل الشب فى صناعتى المنسوجات والسكر كما سبق ، فضلاً عن أن الشب والنطرون كانا من السلع المهمة ، التى تشارك فى التجارة خاصة مع بيزنطة ، لذلك قامت الدولة الفاطمية باحتكارهما . ولم يبتدع الفاطميون احتكار هذين المعدنين ، فقد احتكرهما من قبل أحمد بن المدبر[٤١٨] .

ولما كان الشب يوجد بالصعيد ، خاصة فى أخميم وأسيوط والبهنسا ، فكانت الدولة تحصل عليه من خلال اتفاق بينها وبين العربان ، ويتم تسليم المستخرج منه إلى

---

(٤١٣) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص ١٠٨ .

(٤١٤) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٧ .

(٤١٥) الرحلة ، ص ٩٥ .

(٤١٦) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٢٩ .

(٤١٧) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 267.

(٤١٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .

الديوان ، ولا يستطيع أحد منهم ابتياعه لغير الدولة ، بل ويحظر عليهم وعلى غيرهم ذلك ، ولو عثر على أحد أنه اشترى منه الشب أو ابتاعه سوى الديوان ، صودر ما وجد عنده ، ونفس الشئ يقال عن النطرون ، الذى كان يوجد فى البر الغربى من أرض مصر ، وكانت تحصل منه الدولة فى كل عام عشرة آلاف قنطاراً[٤١٩] . كما اتبعت الدولة نظام الضمان للنطرون ، وكان على الضامن أن يقدم حصة مقدرة للديوان سنوياً وصلت إلى ثلاثين قنطاراً[٤٢٠] . كذلك خضع الشب لهذا النظام ، حتى أنه بلغ ما سومح به من الشب فى وزارة المأمون البطائحى فى عام ٥١٠هـ/١١١٧م ، ٩١٣،٥٠٠ قنطاراً[٤٢١] . وهذا يبين أن نظام الضمان مع الشب والنطرون قد اختلف عنه فى الموارد الأخرى ، بسبب اتباع سياسة الاحتكار .

وكانت ما تحصل عليه الدولة من الشب تقوم ببيعه لتجار الروم ، حيث تخصص مما يأتى إليها من هذا المعدن اثنى عشر قنطاراً[٤٢٢] ، وكان احتكار الشب يمثل للدولة أيضاً سلعة تجارية هامة ليس فقط من خلال مشاركتها فى التجارة الخارجية ، لكن أيضاً ، بسبب ما تحصل عليه من ربح من خلال الفرق بين سعر الشراء والبيع ، فهى تشتريه من العربان بالقنطار الليثى ، الذى يزن مائتى درهم بثلاثين درهماً ، بينما تبيعه لتجار الروم بالقنطار الجروى الذى يزن ٣١٢ درهم بين أربعة وست دنانير[٤٢٣] . وإذا وضعنا فى الاعتبار الفارق فى الوزن بين القنطارين[٤٢٤] لوجدنا أن الليثى يساوى ثلثى الجروى تقريباً ، وأن السعر المقرر للدينار ثمانية عشر درهماً[٤٢٥] . ومتوسط سعر البيع خمسة دنانير ، فكانت تحصل عليه الدولة من فائدة تصل إلى حوالى مائة فى المائة .

---

(٤١٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
(٤٢٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
(٤٢١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .
(٤٢٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
(٤٢٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
(٤٢٤) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٨ .
(٤٢٥) المقريزى ، إغاثة ، ص ٦٥ ، اختلفت قيمة الدينار من وقت لآخر حتى وصل فى القرن ٦هـ/ ١٢م إلى ستة وثلاثين درهماً وأحياناً أربعين درهماً : انظر :
Goitein, Med. Soc., p. 97

وفى نفس الوقت كان المخصص للمصريين من الشب ثمانين قنطاراً فقط وتباع بواقع ستة دنانير ونصف للقنطار[٤٢٦] ، فهذا معناه أن الدولة تخصص نسبة ضئيلة للصناعة المحلية ، وهذا الأمر لا يمكن قبوله ، لأن الصناعات التى اهتمت بها الدولة كانت تحتاج إلى الشب ، لكن لما كانت الدولة قد أسهمت بنصيب فى هذه الصناعات ومنها النسيج والسكر ، فمن المحتمل أنه كان يخصص فى الديوان السلطانى ما يستخدم فيهما من الشب . وربما كان الغرض من تخفيض ما يخصص للتصنيع المحلى يرجع لأهمية الشب فى التجارة الدولية بسبب احتياج الفاطميين لاستيراد بعض السلع الأخرى وعلى رأسها الخشب ، حتى نجد أنه إذا زاد ثمن المبتاع من التاجر عما يجب عليه من الخمس ، أعطى شباً بحق الثلث[٤٢٧] ، كما يشير هذا الإجراء إلى استغلال المصريين فى حالة الشراء من العربان والبيع للصناع .

كما احتكرت الدولة الفاطمية بعض السلع الأخرى ، التى حواها المتجر مع اليازورى ، بداية من عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢م ، عندما أشار على الخليفة المستنصر بشراء وخزن سلع أكثر فائدة[٤٢٨] ، حيث كان المتجر يستطيع أن يوفر ربحاً من خلال الفرق بين الشراء والبيع ، وكذلك ما وجد فى خزائن الأفضل بن بدر الجمالى بعد وفاته ومنها الخشب والحديد والرصاص والشمع والصابون وزيت الزيتون[٤٢٩] . أما الخشب الذى يعد أهمها على الإطلاق فقد تناولناه فى بحث سابق[٤٣٠] ، وانتهينا إلى أن الفاطميين قد احتكروه ، لكن سياستهم قد تلونت طوال العصر الفاطمى تبعاً لحالة القوة والضعف ، ففى العصر الفاطمى الأول كان احتكاره من أجل التوسع ، لذا فرضوا إرادتهم رغم الحظر البيزنطى ، بينما فى العصر الفاطمى الثانى حيث ضعفت الخلافة، مالوا إلى الدبلوماسية فى سبيل الحصول عليه من أجل التجارة ، كما أنهم قد احكموا قبضتهم على الخشب المحلى والمستورد بسبب الحاجة الشديد إليه .

---

[٤٢٦] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .

[٤٢٧] المخزومى ، المنهاج ، ص ص ٤٨ ، ٥٧ .

[٤٢٨] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٠ .

[٤٢٩] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٧١ .

[٤٣٠] انظر ، احتكار الخشب فى مصر الفاطمية ، فصلة من مجلة بحوث كلية الآداب جامعة المنوفية ١٩٩٧ ، العدد ٣٠ .

أما عن السلع الأخرى ، التى احتكرتها الدولة الفاطمية ، فإنها كانت تعتمد على استيرادها إما بسبب حاجتها الملحة لها فى الصناعة أو لنقص المنتج منها محلياً . ومنها الحديد ، الذى تبدو أهميته فى ارتباطه ببعض الصناعات الهامة مثل صناعة السفن والأسلحة وغيرها ، لذلك كان يرتبط استيراده دائماً بالخشب ، خاصة من المدن الإيطالية وغيرها ويخضع لما يتعرض له الخشب من قبل بيزنطة من فرض سياسة الحظر على تصديره إلى مصر[٤٣١] ، كما كان يحمل من صقلية وبلاد المغرب التى تعتبر الموطن الأصلى لإنتاجه[٤٣٢]. ومع ذلك قلما يرد ذكر الحديد فى وثائق الجنيزة[٤٣٣] «وعند الإشارة إليه نجد أن تجارته لم تكن حرة . ولم يخرج الرصاص عن نفس الاهتمام فى استيراده ، حتى ما كان يتم جلبه من الخارج كانت السلطات الحكومية تستحوذ عليه»[٤٣٤] .

أما الشمع ، فكان من السلع الثابتة ، التى تستورد من تونس[٤٣٥] ، وكان ما يأتى منه يستنفذ من قبل السلطات الحكومية فى الإسكندرية[٤٣٦] ، وكان التجار يبيعونه بأقل ما يشترونه[٤٣٧] ، كما كان يتعذر فى بعض الأحيان الحصول على الصابون بسبب القيود التى تضعها الدولة[٤٣٨] .

كذلك كان زيت الزيتون من السلع التى حرصت عليها الدولة الفاطمية ، على الرغم من قيامها باستخراج الزيوت من نباتات أخرى[٤٣٩] ، وكذلك برغم زراعته فى مصر ووجود معاصر له فى بعض المدن ، لاسيما فى صندقا بكورة البهنسا والفيوم

---

(٤٣١) لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ص ٣٠٢ ، ٣٣٥ .

(٤٣٢) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٦ ؛ الإدريسى ، ص ١١٧ ، متز ، الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٢٤ .

(٤٣٣) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

(٤٣٤) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

(٤٣٥) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 125.

(٤٣٦) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

(٤٣٧) عندما يكون سعر الشمع فى القيروان ٦ دينار لكل مائة رطل ، كان التاجر يبيعه بـ ٤ ، انظر : Goitein, Me. Soc. 1, p. 219.

(٤٣٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 184.

(٤٣٩) سفر نامه ، ص ١٢٠ .

والقسطاط[٤٤٠]، فكان يتم استيراده من تونس[٤٤١] خاصة سفاقس[٤٤٢] ، وربما لارتباطه على وجه الخصوص بصناعة الصابون . ويبدو احتكار الدولة له من خلال ممارسة الحظر عليه ، والتى تتضح من خلال خطابات الجنيزة[٤٤٣] ، ومنها خطاب يرجع إلى حوالى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ذكر فيه : «ان زيت الزيتون قد منع بواسطة الحكومة» كما نسمع عن منع تجار تونس من تصدير بضائعهم ، خاصة زيت الزيتون ، الذى يعد أهم صادراتها الزراعية ، وكذلك عن حرمان التجار من استيراده[٤٤٤] ، ولكثرة ما تحصل عليه الدولة سواء من المنتج محلياً ، أو الوارد من تونس بواسطتها كان سعره رخيصاً فى أسواق الفسطاط[٤٤٥] مقارنة بزيت السيرج المستخرج من السمسم ؛ لأن المعروض من زيت الزيتون كان كثيراً .

وفيما يخص اختيار العمال ، وما ورد بشأنهم فى كتب الدعوة : "على ألا تكون بمحاباه ، حتى لا تؤدى بالضرر على الناس ، والحرص على اختيار أهل الورع والفقه والعلم" وغيره من الصفات والواجبات التى تؤدى إلى صلاح الأحوال ، لكن يبدو أن الخلافة الفاطمية كانت حريصة ومنذ البداية على اختيار من ينفذ سياستها المالية بكل دقة . وما عرضناه سلفاً من تطبيق لهذه السياسة يتضح أن الدولة كانت تحتاج إلى رجال من طراز يختلف اختلافاً بيناً فى الغالب على ما تضمنه النص السالف الذكر .

فعلى الرغم من استياء جوهر من سياسة الإخشيديين الاقتصادية بشكل عام ، نراه يقر جعفر بن الفرات فى الإشراف على النواحى المالية . وربما يرجع هذا الإجراء لأنه كان لا يزال مشغولاً بإتمام الفتح ، حتى أنه أقر بقية المناصب بما فيهم القاضى السنى رغم الاختلاف المذهبى[٤٤٦] ، لكن بعد استقرار الأمور ومجئ المعز ، عرض على ابن الفرات أن يتولى الوزارة استمراراً لدوره أيام الإخشيديين ، لكن

---

[٤٤٠] المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٧ .

[٤٤١] الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٠٩؛ أنظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 154.

[٤٤٢] البكرى ، المغرب ، ص ٢٠ .

[٤٤٣] انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 268.

[٤٤٤] انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

[٤٤٥] سفر نامه ، ص ١٢٠ .

[٤٤٦] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٩ .

جعفراً اعتذر للخليفة[٤٤٧] . ثم قام المعز بتولية يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، كافة وجوه الأموال . صحيح أن اختيار ابن كلس على وجه الخصوص كان اختياراً موفقاً ، لأنه تمرس فى شئون مصر المالية والاقتصادية ، عندما كان يعمل فى خدمة كافور ، وتردد على الريف وعرض أخبار القرى ، حتى أنه أصبح خبيراً بالضياع وإذا سئل عن أمر غلالها ومبلغ ارتفاعها أجاب[٤٤٨] .

وقد استطاع يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن أن يستخرجا أكثر من مائتى ألف وعشرين ديناراً فى يوم واحد من مال تنيس ودمياط والاشمونيين ، وهذا لم يسمع بمثله قبلا[٤٤٩] . وكان ذلك لإرضاء المعز ، حتى يسترد ما أنفقه من أموال فى مصر[٤٥٠] ، لأن جوهراً عندما جاء إلى مصر ، كان محملاً بالأموال والخزائن[٤٥١] ، وظن المعز عند مجيئه أن الأموال مجتمعة لدى جوهر فوجدها قد أنفقت فى مؤن مصر وجندها[٤٥٢] . ومن هنا كان اختياره لهذين الرجلين اللذين استطاعا أن ينفذا مشيئته ويشتدا فى استخراج الأموال من المصريين .

ومع الخليفة العزيز ، حينما تولى على بن عمر بن العداس الأموال عام ٣٨١ هـ/٩٨٣م أمره : «بأن لا يرتفق ولا يرتزق ولا يضيع ديناراً ولا درهماً»[٤٥٣] . أى لا يقبل هدية ولا رشوة ، ومثل هذه الأوامر والوصايا ترتبط فى الغالب الأعم مع تولية المناصب ، ولا تعبر دائماً عن سياسة الحاكم بشكل عام . وكان ابن العداس أحد ضمان الأموال منذ أيام الخليفة المعز ، وأحد القائمين أيضاً على الخراج ، وضمن كورة بوصير ، لكن عندما نقص خراج البلاد ، قبض عليه واعتقل وذكر المؤرخون[٤٥٤] أن سبب ذلك أنه خانه الضمان والأسعار ، وعين بعده فى الوساطة عيسى بن نسطورس ، الذى استطاع أن يضبط الأمور ويجمع الأموال ويوفر كثيراً من الخراج[٤٥٥] ،

---

[٤٤٧] ياقوت ، ارشاد الأريب لمعرفة كل أديب ، القاهرة ، ١٩١١ ، جـ٣ ، ص ص ٤١٠ – ٤١٤ .
[٤٤٨] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٥ .
[٤٤٩] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧٧ .
[٤٥٠] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٤٦ .
[٤٥١] ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٤ ، ص ٢٨ .
[٤٥٢] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٤٦ .
[٤٥٣] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٣١ .
[٤٥٤] ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٢٤ .
[٤٥٥] ابن ظافر ، أخبار ، ص ٤٠ .

واستطاع بذلك أن يحظى برضا الخليفة العزيز ، لأن الغرض من تعيينه هو ومن سبقه تدبير وتوفير الأموال للدولة .

ونفس الشيئ يقال عن الخليفة الحاكم ، الذى أثنى على أحد رجال دولته ، وهو الوزير ابن عبدون النصرانى ، لأنه جمع له من الأموال ما هو خارج عن أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار(٤٥٦) . كذلك أقام الحاكم اثنين هما الحسن وعبد الرحمن أبنى أبى السيد معاً فى الوساطة عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م ، بعد أن ضمنا أموال الدولة وإجراءها على رسومها ووفرا ثلثمائة ألف دينار بعد ذلك سنوياً تحمل لبيت المال(٤٥٧) ، على الرغم من أن مدة وساطتهما لم تطل أكثر من اثنين وستين يوماً قتلا بعدها ، لكن يبدو أنهما قد وضعا من الإجراءات ما أدت إلى استمرار توفير هذه الأموال .

والوزراء الذين تولوا مع خلافة المستنصر ، لم يرتبطوا بالخليفة قدر ارتباطهم بأمة وسياستها العشوائية ، التى كانت تسعى فقط إلى الهيمنة على شئون البلاد من دون أبنها بدون سياسة مرسومة ، ومن هنا جاءت سياستها تجاه تعينهم حتى وصل الأمر إلى أن هناك عدد كبير منهم من تولى أشهراً أو أياماً أو من وصلت وزارته إلى يوم واحد(٤٥٨) .

ووصولاً مع العصر الفاطمى الثانى نجد أن الخليفة الآمر بعد تخلصه من وزيره المأمون البطائحى اعتمد على رجلين من رجال الدواوين ، أحدهما مسلم وهو جعفر بن عبد المنعم والآخر سامرى ، يقال له أبو يعقوب إبراهيم . وقد توليا استخراج ما يجب من زكاة ومكس وأقام معهما مستوف يعرف بأبى نجاح الراهب ، الذى تحكم فى الناس ، وطالب النصارى بالأموال(٤٥٩) . ولما كانت سياسته تسير وفق مشيئة الآمر لقبه بـــ "الأب القديس الروحانى النفيس ، أبى الأباء ، سيد الرؤساء ، مقدم دين النصرانية وسيد البطريركية"(٤٦٠) مما ساعده على التمادى فى عسفه تجاه الناس .

---

(٤٥٦) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٨٢ .
(٤٥٧) ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٣٠ .
(٤٥٨) ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ص ٣٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ .
(٤٥٩) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١٢٥ .
(٤٦٠) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١١٧ .

أما بهرام الأرمنى ، الذى وزر للحافظ ٥٢٩-٥٣٣هـ/١١٣٥-١١٣٩م ، فلم يكتف فقط بتوزيع الولايات والوظائف على أهله وبنى جنسه ، لاسيما قوص أهم ولايات مصر ، بل جاء على الناس واستباح أموالهم وبالغ فى أذيتهم[٤٦١] ، هذا فضلاً عن طلائع بن رزيك الذى أشرنا إليه سلفاً ، والذى ظلم الناس وباع الولايات[٤٦٢] .

وإذا كان عصر الوزراء العظام قد تقلصت معه سلطات الخلفاء حتى أصبحت أفعال الوزراء لا تحسب على الخلافة ، إنما هى نتيجة لضعفهم ، لاسيما أن هؤلاء الوزراء لم يهمهم على الأقل مصلحة الخلافة بقدر ما كانت تشغلهم مصالحهم الشخصية ، لكن هذا ليس معناه أن نرفع عن الخلافة المسئولية ؛ فضلاً عن أن العصر الفاطمى الأول قد أوضح أن الخلفاء المؤسسين للخلافة كانوا حريصين على اختيار رجالاً يستطيعون تنفيذ مشيئتهم وسياستهم المالية على خير وجه ، وبقدر ما يحسب لهم حسن الاختيار ، إذ أن غالبية الوسطاء والوزراء كانت لهم خبرة سابقة بشئون المال ، كالعمل فى ديوان الخراج أو بيت المال ، كان هذا الأمر له وجه آخر فى قدرة هؤلاء الرجال فى التحرى عن الأموال والحصول عليها بشكل يرضى الخلفاء .

لكن هناك بعض الفترات تخرج عن هذا الإطار ، حتى فى العصر الفاطمى الثانى مع وزارة المأمون البطائحى على وجه الخصوص ، والذى كان كل همه رفع المعاناة عن الرعية واتخاذ الإجراءات التى من شأنها أن تؤدى إلى إصلاح الأحوال ، وقد عرضنا لهذا سلفاً فيما قام به من المسامحات ، وحتى قبل تعينه فى الوزارة كان الساعد الأيمن للأفضل بن بدر الجمالى وكان من وراء ما قام به الأفضل من حل الاقطاعات وإعادة توزيعها ، لكن بوجه عام كانت السياسة الغالبة للفاطميين واحدة ؛ وهى اختيار الرجال ، الذين استطاعوا أن يحققوا لهم ما أرادوه . وهذا يختلف عما ذكرناه من اختيار العمال وفق صفات معينة صحيح أن هناك فرقاً بين العامل والوزير ، لكننا حاولنا أن نطبق هذا النص فى ضوء النصوص المتاحة ، طالما أنه ما يطبق على

---

[٤٦١] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١٥٩ .

[٤٦٢] ابن ظافر ، أخبار ، ص ١١١ .

العمال لابد أن يكون بالتبعية متأثراً بأعلى سلطة فى الخلافة ، كما أن كثيراً من الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى كانوا فى الأصل ولاة لبعض الأقاليم[٤٦٣] .

كما أن الخلفاء اتبعوا مع هؤلاء سياسة المصادرات ، التى تعد أحد أبواب الدخل المؤقتة لأنها تخضع للظروف السياسية ومدى قوة الدولة وقدرتها على تقليم أظافر كبار رجال الدولة . ولما كان أمان جوهر قد شمل بعض التلميحات عما كان يتم أيام الإخشيديين ومنها "الاحتواء على نعمكم وأموالكم" وأشار إلى أن الأمور سوف تتحسن بمجئ الفاطميين ، خاصة أن الإخشيديين طالما قاموا بمصادرة كبار رجال الدولة والتحوط على أموالهم[٤٦٤] ، بعد القبض عليهم أو بعد وفاتهم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى التجار ، كما أنه بعد وفاة كافور وتفاقم الأحوال الاقتصادية بسبب نقصان مياه النيل وغلاء الأسعار ، قام الوزير جعفر ابن الفرات بالقبض على بعض الأقوياء ممن التحق بخدمة الدولة وصادرهم وكان منهم يعقوب بن كلس[٤٦٥] ، مما كان سبباً فى هروبه إلى المعز وتحريضه على المجئ إلى مصر[٤٦٦] . بيد أن الفاطميين قد مارسوا هذه المصادرات فى بلاد المغرب ، حيث أن القاضى النعمان برر مصادرة الأئمة لأموال الناس والاستيلاء عليها بقوله : "إن للأئمة الحق فى امتحان الناس فى أموالهم بأخذها منهم بدون سبب"[٤٦٧] .

وكان ابن كلس أول من صودر مع الفاطميين فى خلافة العزيز عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٤م ، بعد أن عزله من منصبه ، وحمل من ماله خمسمائة ألف دينار ، لكنه سرعان ما أعاده إلى منصبه[٤٦٨] . كما صودرت أملاك عمر بن العداس ، عندما اتهمه الخليفة العزيز بتبديد أموال الدولة[٤٦٩] . وعندما قبض على عيسى بن نسطورس ، لم يعد إلى

---

[٤٦٣] ومنهم بهرام الأرمني كان والياً للغربية قبل أن يتولى الوزارة وكذلك رضوان بن ولخشى ، أما ابن رزيك فكان والياً على الأعمال الاسيوطية ، انظر ، ابن ميسر ، أخبار ، ص ص ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٤٩ .

[٤٦٤] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

[٤٦٥] سيدة كاشف ، مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ٣٤٥ .

[٤٦٦] النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ٦٠ .

[٤٦٧] الهمة ، ص ٦٩ .

[٤٦٨] ابن ميسر ، أخبار ، ص ١٥٩ .

[٤٦٩] ابن الصيرفى ، الاشارة ، ص ٢٤ .

عمله ، إلا بعد أن حمل إلى الخزانة ثلثمائة ألف دينار[٤٧٠] . ومع الخليفة الحاكم بأمر الله ، كثرت المصادرات ، ولم تقف عند حد كبار رجال الدولة بل تعدتهم إلى الرعية ، فصادر الحسين بن جوهر والقاضى عبد العزيز بن النعمان عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م[٤٧١]. كما قام بمصادرة الكتاب من مسلمين ونصارى وطالبهم بحساب ما كانوا يتولونه وصادر أموالهم[٤٧٢] . ومن كثرة ما تمت مصادرته ، أنشأ الخليفة ديواناً برسم من يقبض ماله من المقتولين من كبار رجال الدولة عرف بـ "ديوان المفرد"[٤٧٣] وهذا الديوان لم يكن أمراً مستحدثاً مع الفاطميين فقد سبقهم إليه العباسيون وصودر كثير من كبار رجال الدولة ، وأنشئ لهذا الغرض ديواناً عرف بـ «ديوان المصادرات» كان مسئولاً عن إدارة الأملاك التى يتم مصادرتها[٤٧٤] .

كما امتدت المصادرة إلى الرعية أيضاً ، فقام الخليفة الحاكم بمصادرة أملاك الكنائس[٤٧٥] ، وتزايد ضرره بأهل مصر ، من خلال الجند السودان ، الذين قاموا بنهب أموال الرعية وفتح دورهم ومخازنهم وأخذ أمتعتهم وفتح دكاكين البزازين ونهب ما فيها وتخللوا إلى الأسواق وأخذوا ما أرادوا منها وأفسدوا بقية ما فيها[٤٧٦] ، وإذا كان ما أورده المؤرخون بشأن سياسة الخليفة الحاكم ربما تعد حرباً شنها السنة ضد الشيعة للنيل منهم وعلى ذلك أوردوا روايات من المحتمل أن يكون مبالغ فيها . كما أننا لو اعتبرنا أن هدف الحاكم من هذه المصادرات هو القضاء على نفوذ رجال الدولة والاستئثار بالسلطة ، فإننا لا يمكن أن نعتبر سياسته بشكل عام مقياساً للعصر الفاطمى فى مصر ، لأن عصره قد اختلف فيه ، فما قام به من أعمال أكان يبغى من ورائها الإصلاح أم أنها كانت مرتبطة بشخصه ؟ ومهما كانت أهدافه من المصادرات ، فاستمرارها بعده ، توضح رغبة الفاطميين فى التحوط على الأغنياء سواء كبار رجال الدولة أو الرعية بشكل مستمر .

---

[٤٧٠] ابن ظافر ، أخبار ، ص ٤١ .

[٤٧١] يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ١٩٨ .

[٤٧٢] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ص ٨١ – ٨٢ .

[٤٧٣] القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٢ ، ص ٤٥٣ .

[٤٧٤] متز ، الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص ١٥٠ .

[٤٧٥] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٩٥ .

[٤٧٦] ابن ظافر ، أخبار ، ص ص ٥٥ – ٥٦ .

ففى خلافة الظاهر ، قام كبار رجال الدولة بمصادرة التجار ، وارتبط ذلك بوقوع الغلاء عام ٤١٥هـ/١٠٢٣م[٤٧٧] ، وكان من المنتظر أن تكون هذه المصادرات لتجار الغلة حتى يمنع من احتكارها ، لكن النص جاء عاماً ، حتى نفهم منه أنه شمل جميع التجار الذين كانوا يمثلون أول القائمة فى المصادرين من الرعية لخصوصية ارتبطت بهم خلال هذا العصر أو غيره حيث أن ازدهار التجارة يؤدى إلى تراكم للأموال فتشيع المصادرات ، خاصة مع اضطراب أحوال الجند ؛ فيورد المسبحى نصاً غاية فى الأهمية[٤٧٨] ، إبان عصر الظاهر من خلال مطالبة صاحب بيت المال بما عنده وامتناعه عن إعطائهم الأموال ، فقيل له : «فتقترض من التجار وتصادر من تحب من مصادرته ، فقال له الشيخ النجيب أبو القاسم الجرجرائى : وأى مال مع التجار ؟ وتجار مصر هلكى تحت التحمل بلاء» . وذلك يبين أن تجار مصر طالما تعرضوا للمصادرات خاصة من قبل الجند ، حتى أنه انتقل طائفة من التجار البزازين ، وجماعة أخرى ممكن تسكن بساحل الصعيد والوجه البحرى إلى وسط البلد خوفاً من نهب البلد ، كما اضطر الناس لنقل رحالاتهم وأموالهم من القياسر والحوانيت بمصر إلى منازلهم وأخلوا دكاكينهم من أمتعتهم خوفاً من وقوع فتنة أو نهب[٤٧٩] ، وكذلك تعرض المصريون خلال فتن الجند أيام المستنصر للنهب والمصادرة .

وقد قام الوزراء أيضاً بالمصادرات وسوف يتضح هذا الدور خلال العصر الفاطمى الثانى ، فالوزير بدر الجمالى ، الذى استطاع أن ينقذ الخلافة من كوارثها الاقتصادية المتلاحقة خلال عصر المستنصر ، قامت سياسته أيضاً على المصادرات ، حتى أنه لم يبن جامع العطارين بالإسكندرية إلا من مال وأملاك المصادرات[٤٨٠] . وربما تكون هذه الأموال ، تلك التى قام بمصادرتها من الأمراء والقواد الأتراك بعد مجيئه إلى مصر أو من الأموال التى أخذها من أهل الإسكندرية[٤٨١] ، بينما ابنه

---

[٤٧٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٥٤ .

[٤٧٨] المسبحى ، أخبار ، ص ١٦٩ .

[٤٧٩] المسبحى ، أخبار ، ص ٢٠٠ .

[٤٨٠] ابن ظافر ، أخبار ، ص ٧٧ .

[٤٨١] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٤٦ ؛ المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٣٢١ .

الأفضل ذكر المؤرخون أنه لم يعرف أنه صودر أحد فى زمانه ، سواء من كبار رجال الدولة أو الرعية(٤٨٢) .

كما شهدت خلافة الآمر مصادرات عديدة ، بدأها بوزيره المأمون البطائحى وأخيه المؤتمن وهما بالقصر ، فصودرت دورهما(٤٨٣) . كما صادر قوم من النصارى وأخذ منهم مائة ألف دينار وتجاوز الأمر إلى العمال والقضاة والكتاب والشهود والضامنين والتجار أيضاً قد تعرضوا للمصادرة والاعتقال حتى أن من كثرة هذه المصادرات فى مصر والقاهرة اضطر التجار إلى الخروج من البلد(٤٨٤) . وعامة الناس والسوقة ، حتى وصل الأمر إلى مصادرة رجلاً حمالاً ، أخذ منه عشرين ديناراً ثمن جمل ، الذى لم يكن له سواه(٤٨٥) . وكان الآمر يعتمد فى إنجاز هذه المصادرات على أبى نجاح الراهب ، الذى كان يجلس بجامع عمرو ويستدعى الناس للمصادرة ، وقيل أن الذى احتاط عليه من أملاك المسلمين كان كثيراً(٤٨٦) . وكان هذا الخليفة مدفوعاً للقيام بالمصادرات بدافع القسوة والطمع ، فقد عرف أنه كان قبيح السيرة مبالغاً فى ظلم الناس وأخذ أموالهم واغتصاب أملاكهم(٤٨٧) ، أو أن تناقص الإيرادات بشكل عام كانت أحد الأسباب التى دفعته إلى ذلك ؛ فضلاً عن اهتمامه البالغ بالترف واللهو ، خاصة أن الرسوم الفاطمية اكتملت فى عهده ، ولما كان الأفضل من قبل قد حجر عليه ومنعه من الظلم ، فبعد التخلص منه ، ولى المأمون البطائحى ومما اشترط عليه أن تكون جباية الأموال بالقصر(٤٨٨) ، ولم نسمع أن المأمون قد مارس سياسة المصادرات ، لكن بعد التخلص منه أيضاً ، استطاع الخليفة الآمر أن يمارس سلطاته التعسفية على النحو الذى أسلفناه ، ولما كانت هذه الممارسات زائدة عن الحد ، فبعد مقتله عام ٥٢٤-٥٢٥هـ / ١١٣٠م استطاع أبو على أحمد بن الأفضل بعد توليه الوزارة أن يرد على المصادرين ما أخذ منهم وأعاد أملاكاً كثيرة إلى أربابها(٤٨٩) .

---

(٤٨٢) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ .
(٤٨٣) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١١٤ .
(٤٨٤) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣ .
(٤٨٥) ابن ظافر ، أخبار ، ص ص ٨٨ - ٨٩ .
(٤٨٦) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٧١ .
(٤٨٧) ابن ظافر ، أخبار ، ص ٩١ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩١
(٤٨٨) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٧٧ .
(٤٨٩) ابن ظافر ، أخبار ، ص ٩٤ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ٢٩٧

ومع عصر الوزراء العظام ، كان طبيعياً أن نسمع عن جور وعسف هؤلاء ، فابن السلار ، الذى وزر للظافر ٤٤٠هـ/١١٥٠م ، ذكرت عنه المصادر[٤٩٠] : «أنه كان ذا سيرة جائرة وسطوة قاطعة» دون أن تشير صراحة إلى قيامه بالمصادرات ، وإن كان يفهم ضمنياً ممارسته لهذه السياسة ، كما قام الوزير طلائع بن رزيك بمصادرة الكثيرين ، والأمر لم يشمل فقط كبار رجال الدولة ، حتى تصفو له الساحة السياسية ، لكنها تعدت إلى مصادرة الرعية ، حتى أنه أفنى ذوى الآراء والحزم ، وكان أشد الناس تطلعاً إلى ما فى أيدى الناس من أموالهم وصادر أقواماً لم يكن بينهم وبينه معاملة ولا سبب يوجب التعرض[٤٩١] .

وفى آخر وزارة للفاطميين ، قام صلاح الدين ، الذى وزر للعاضد عام ٥٦٦ هـ / ١١٦٩م بمصادرة جزء من الأرض المزروعة حوالى ثلاثين فداناً ، كانت ملكاً لدير ناهيا بالجيزة ، والتى منحت للرهبان من قبل الخليفة الآمر بشكل دائم[٤٩٢] .

وما قام به هؤلاء الوزراء ربما لا يعبر إلا عن نزعات فردية رغبة منهم فى الاستئثار بالحكم وتعضيد مكانتهم بالأموال ، لكن ما تم طوال العصر الفاطمى ومن البداية يدل على أن الخلفاء قد مارسوا سياسة المصادرات بشكل سافر وكان من المنتظر أن تستمر هذه السياسة حتى أواخر أيامهم .

صفوة القول ، أن الفاطميين انتهجوا سياسة مالية محددة ، كلفت لهم ما أرادوه ، وجوهر هذه السياسة كان قائماً على الاستفادة من خيرات مصر والسيطرة على اقتصادها ، وهذا لا يتأتى إلا من خلال اتباع سياسة ضريبية محكمة تستهدف الحصول على أكبر قدر ممكن من أموال المصريين مع القيام ببعض الإجراءات الإصلاحية ، التى من شأنها تحسين هذا الدخل .

فالسياسة المالية أو على الأقل النظام الضريبى ، بدأ مع الخليفة المعز ، الذى قام بإرساء دعائم هذه الدولة ، وتبعه الخلفاء ، الذين أتوا من بعده حتى عصر المستنصر ، الذى يعتبر الحد الفاصل بين عصرين متمايزين ، حيث اتسمت الفترة الأولى بسياسة اعتمدت على مراقبة الأسواق وتخفيف الضرائب نسبياً وتحسين أوضاع

---

[٤٩٠] ابن ظافر ، أخبار ، ص ١٠٣ .

[٤٩١] ابن ظافر ، أخبار ، ص ١١١ ؛ المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٢٢١ .

[٤٩٢] أبو صالح ، كنائس وأديرة مصر ، ص ص ٧٨ – ٧٩ .

العملة مع اتباع السياسة المالية التى تحقق لهم أهدافهم ، وهذه الإجراءات أدت إلى دفع عجلة الصناعة والتجارة قدماً مما أدى إلى عالمية الانتاج حتى بلغت شهرة بعض المنتجات المصرية الآفاق ، عندما عرفت بـــ "المصرى" أما الفترة الثانية ، اتسمت باتباع الدولة لأسلوب الاحتكار لبعض السلع وفرض المكوس الباهظة ، التى أدت إلى تضييق الخناق على الصناع والتجار فلم يرتفقوا بهم وكانت سياسة المصادرات سواء من قبل الخلفاء أو رجال الدولة الذين نفذوا مشيئتهم قد أضرت بالناس جميعاً .

ثم الهيمنة على بعض الصناعات والموارد . فبينما كان المكوس تشكل عبئاً على الرعية ، عملت الدولة على تنفيذ سياسة شبه احتكارية لبعض الصناعات واحتكارية لبعض الموارد ، كما كانت من خلال المتجر تستطيع أن تسيطر على عجلة الاقتصاد مستفيدة من حالة هبوط الأسعار ، مما يجعل التجار مضطرين إلى بيع بعض السلع للدولة ، خاصة أن دور المتجر مع اليازورى انتقل من الحماية إلى الاحتكار .

ومسألة الاحتكار هذه ، تعتبر من الأمور الشائكة التى لا يمكن أن نحكم عليها بشكل مطلق صحيح أن الفاطميين احتكروا بالفعل بعض الموارد والسلع ، لكن بالنسبة لبعض الصناعات ، كانت هيمنة الدولة قوية ، حتى كان من الصعب القطع فيها برأى . لكن مع وجود المصانع الخاصة قللت من هذه السياسة وأصبحت بذلك شبه احتكارية . وكذلك ارتباط الاحتكار بوضعية العصر الفاطمى ووقوعه خلال منظومة اتسمت بتغير فى الأوضاع أو كما عبر عنها بـــ «الصحوة البرجوازية» ثم ما شهدته فيما بعد من انتكاسة لهذه الصحوة ، فقد تأثر الفاطميون بهذه المعطيات إلى حد كبير ، بل واسهموا فى هذه التغيرات ، فلم يخرج عصرهم عن هذا الإطار من حيث القوة والضعف .

وإن كانت هناك بعض الفترات التى شهدت محاولات للإصلاح مع بدر الجمالى وابنه الأفضل ثم المأمون البطائحى ، لكنها لم تستطع أن تحدث تأثيرات ذات شأن ، بسبب سير الدولة الفاطمية إلى منتهاها ارتباطاً بطبيعة الفترة التى شهدها العالم الإسلامى خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى .

ومقابل هذه السياسة المالية امتلأت قصورهم بالأموال ، وحسبنا على ذلك تلك الخزائن التى حواها قصر الخلافة ، كما أن المصادر لا تخلو من نصوص صريحة تؤكد هذا الثراء ، فضلاً عن مزاحمة الرعية فى كافة الشئون المتعلقة بالمال . وبذلك اختلفت الصيغة النظرية عن الواقع إلى حد كبير ، واختلف القالب النظرى الذى قدم

للمصريين مع الفتح ومن خلال كتب الدعوة عندما اصطدم بواقع التطبيق العملى ، فلم يتحقق ما وعد به الفاطميون أهل مصر ، لأنه يتعارض مع تحقيق آمالهم التوسعية ولم يكن سوى برنامجاً دعائياً لتحقيق ما هدفوا إليه ، وخالفت بذلك الدولة ما سطرته مع ما مارسته ، فجاءت الصورة فى أحسن الظروف مشوهة لمثالية لم تحدث !! .

المجريون فى منطقة الدانوب الأوسط وحملاتهم على مملكة الفرنجة *

(٨٩٦ ـ ٩٥٥م)

هانئ عبد الهادى البشير

مصر

يعتبر أصل المجريين من الألغاز التى حيرت المؤرخين أمدا طويلا وثار حولها كثير من الجدل ، وكل ما نعرفه عنهم أنهم بداة نشأوا فى جبال الأورال ، وكانت مفردات لغتهم ذات أصل فينو ـ أوجريان Finno-Ugrian . وهى لغة وثيقة الصلة باللغات الموجودة حاليا فى سيبريا Siberia ، ويتحدث بها عدد من الشعوب التى عاشت فى جبال الأورال الشمالية ، مما يدل على أن المجريين كانوا على صلة وثيقة بهذه الشعوب قرب جبال الأورال . ومع أن المجريين عندما وردوا لأول مرة بأحد المصادر البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى ، كانوا متسمين بخصائص تركية مختلفة وكانت بعض أسمائهم الشخصية والقبلية وألقابهم الشرفية ترجع لأصل تركى ، فضلا عن كون لغتهم غنية بعناصر تركية ، فإنهم لم تربطهم أى صلة قرابة بالشعوب السلافية والتركية المقيمة فى السهوب ، مما يعنى أن أقاربهم الوحيدين من الترك هم الفنلنديون الذين أصبحوا بمرور الوقت بعيدين عنهم من الناحية الجغرافية . لذلك من الضروري عند تحرى التاريخ الباكر للمجريين أن نأخذ فى الاعتبار فقط من الشعوب التركية تلك التى اتصلت بها خلال فترة هجراتهم وكان لها دور فى تكوينهم ([1]) .

---

* أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى كل من أستاذى الدكتور / وسام عبد العزيز فرج ، والأستاذة الدكتورة / ليلى عبد الجواد إسماعيل ، على تجشمهما عناء قراءة هذا البحث ، وعلى ما أبدوه من ملاحظات قيمة أثرت هذا البحث ، وجزاهما الله خيرا . وتجدر الإشارة إلى أن هذا البحث ألقى فى "سمنار" التاريخ الإسلامى والوسيط ، بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس عام ٢٠٠٢م .

([1]) قسطنطين السابع : إدارة ،ص ١٤٠ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص ٩٨ ، انظر أيضا :
The Russian Primary Chronicle,p.62 ;Macartney., Magyars,p.1 ; Moravcsik., Hungary,p.566 ; Fliche., Histoire,p.17.
تعتبر كلمة أونجر Ουγγροι " أى السهام العشرة أو القبائل العشرة " من أكثر الصيغ العرقية التى وردت فى المصادر البيزنطية عن المجريين ، واشتقت منها أسماء متنوعة موجودة حتى يومنا هذا بين شعوب أوربا ، منها فنجرى Vengri باللغة الروسية ، وأونجارن Ungarn بالألمانية ،ومجريون

كانــت المــنطقة الممتدة من حدود الأورال حتى القوقاز جنوبا ومنها غربا حتى جـبال الكربات هى المنطقة التى جرت فيها هذه الهجرات ؛ ذلك أنه فى تاريخ مجهول مــن القرون الأولى للتقويم المسيحى طردت هذه القبيلة البدوية من موطنها السابق فى جـبال الأورال وهاجــرت جــنوبا عبر السهوب وانتهى الأمر باستقرارها فى الإقليم الواقع بين نهرى الدون وكوبان وبالتالى جاوروا الخزر (1) . ثم أصبحوا بمرور الوقت

Hungarians بالإنجلــيزية ، ومجــرى Hongrois بالفرنســية وأونجــرس Ungheresi بالإيطالية وهكــذا... فــى حين أن لفظ مجرىMagyar هو الاسم الذى أطلقوه على أنفسهم منذ زمن سحيق ، ولعلهــا تكــون مشتقة من اسم طائفة مجريزMegeris إحدى طوائف الكاباروى Kabaroi الثلاث . ولكن متى سماهم البيزنطيون بالترك؟ فى حدود معلوماتنا، أطلق البيزنطيون عليهم هذا الاسم بدلا من اسم أونجر ، بدءا من القرن العاشر الميلادى (مثلما ورد لدى قسطنطين السابع)؛ذلك أن البيزنطيين أطلقوا اسم الترك على خمسة أمم هم،الأتراك الخلص(مؤسسى إمبراطورية الترك العظمى فى القرن الخامس الميلادى) ، والتوكيو Tu-kiue ، والسلاجقة ، والأتراك العثمانيين ، إضافة إلى المجريين ، الذين حملوا هذا الاسم بعد التحالف الذى جرى بينهم وبين قبيلة الكابار Kabars أو الكافار Kavars (من سلالة الخزر) التركية . انظر :

قسطنطين السابع : إدارة ، ص١٤٣ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص ٩٨، انظر أيضا :

Macartney ., Magyars , pp. 124-125 ; Lewiciki., Hongrois,p.49; Vernadsky.,Lebedia ,p.185 ;Bury., Eastern,p.492; Moravcsik,Hungary .,p.566.

أما عن الأسماء التى ورد بها المجريون فى المصادر العربية فمنها المجغرية ، والماجار ، والباشقرد ، والترك ، والهنكر ، وغيرها ، انظر :

الكرديزى : الأخبار، ص ٤٦٩-٤٧١ ؛ الأصطخرى : مسالك ، ص ١٣١ ؛ ليلى عبد الجواد : بلاد المجر ، ص ٣٩-٤٤ ، انظر أيضا :

Kaldy- Nagy., Madjar,pp.1010-1014: Bury., Eastern,p.492.

لمزيد من التفاصيل حول كلمة ترك ، انظر :

Macartney., Magyars,pp.124-134 .

(1) Moravcsik., Hungary,p.566.

انظر أيضا : كيستلر : القبيلة ، ص ٩٧ .

أخــذ الخــزر أسمهم من خزر بن يافث بن نوح عليه السلام ، وهم شعب تركى الأصل ينتمى إلى طــراز قــبلى أو شبه قبلى غير سامى نزح من أواسط آسيا إلى ما يسمى فيما بعد بخزريا أو أقلــيم الخــزر بيــن المجرى الأدنى لنهر الفولجا والمنحدرات الشمالية للقوقاز حول بحر آزوف وغربــا

مـــن رعايـــاهم . وتعتـــبر علاقـــة المجريين بالخزر من الأمور الصعبة التي زاد من تعقـــيدها أن المصادر لم تحدد تاريخاً معيناً لهجرة المجريين عبر الدون أو تحالفهم مع الخـــزر . لذلك بذل المحدثون جهودا مضنية لكشف الغموض ، أسفرت عن أن هجرة المجرييـــن إلـــى المـــنطقة الأخيرة كانت بين عامى ٨٢٥ ــ ٨٣٠م . أما تحالفهم مع الخـــزر فكـــان فـــى وقـــت ما بين عامى ٨٤٠ ــ ٨٦٠م (١) . أيضا اعترض بعض الباحثيـــن على مدة السنوات الثلاث التى ذكر قسطنطين السابع أنها الفترة التى قضاها المجـــريون فى التبعية للخزر ، وخلص إلى أن النص ربما حرف من ثلاثمائة سنة إلى ثلاث سنوات ، ولو صح هذا الافتراض لوجب إعادة النظر فى الدور الذى لعبه هؤلاء المجريين فى الناحيتين السياسية والاجتماعية فى جنوب روسيا (٢) .

علـــى أى حـــال ، يـــبدو أن انهماك الخزر والمجريين فى الصراع مع جيرانهم حال دون نشوب خلافات بينهم (٣) . وبلغ الوفاق بين الجانبين أن قام المجريون بجمع

حـــتى أطـــراف أوربا الشرقية وسواحل البحر الأسود. وما يزال أمر الخزر صعبا بالنسبة للمؤرخين لصعوبة التعامل مع مصادر تاريخهم لكونها مكتوبة بلغات مختلفة يصعب الإلمام بها، انظر :

محمد مرسى الشيخ : الخزر ، ص ٣٤٩-٣٥٣ ؛ بطرس البستانى : دائرة ، ج ٧ ص ٣٧١ ؛ هانئ البشير : بيزنطة ، ص ٢٧ حاشية رقم ١ ، انظر أيضا :

ODB,2,p.1127.

(١) Macartney., Magyars,pp.108-112.

انظر أيضا :كيستلر : القبيلة ، ص ٩٧.

رغم الغموض والاقتضاب الذى يغلب على معلومات قسطنطين السابع – أحد أهم المصادر بالنسبة للمجريين فى تلك الفترة – بشأن المجريين، فإن أمة المجريين تعتبر من أكثر الأمم التى أولاها بكثير من التفاصيل إذا ما قارناها بغيرها من الأمم التى تناول تاريخها المبكر ، انظر :

DAI,II,p.146.

(٢) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٠ ، انظر أيضا :

DAI,II,p.148 ; Vernadsky., Lebedia,p.180 ;Gregoire., Origine,636.

(٣) ينقسم البلغار إلى قسمين : الفولجا والدانوب ، عرف بلغار الفولجا أيضا بالبيض واعتنقوا الإسلام فى عام ٩٢٢م وأصبحت مملكتهم منذ القرن العاشر الميلادى مركزا هاما من المراكز الإسلامية فى المنطقة الشمالية ، أما بلغار الدانوب فهناك صعوبة كبيرة فى معرفة أصلهم ، والأرجح أنهم آسيويون ينـــتمون إلى أحد فروع الهون من السلالة التركية . ورغم ذلك لم يفطن المسعودى لهذا الانقسام بين

الإتاوة المفروضة على الشعوب السلافية القاطنة إلى الشمال من إقليم السهوب وغيرها نيابة عن الخزر وحققوا مكاسب كبيرة من وراء ذلك (١) .

غـير أنه فى حوالى عام ٨٣٠ م وبعد زحف الروس (٢) نحو الجنوب والجنوب الشـرقى ، قام الخزر بتوطين المجريين فى المنطقة الواقعة بين نهرى الدون والدنيير

الـبلغار وخلط وقائع هذه بوقائع تلك . وبالنسبة للبشناق فهناك أيضا اختلافات كثيرة حول أصلهم ، والأرجـح هو أنهم من الشعوب التركية المنتمية إلى قبائل الغز ، التى كانت تقطن التركستان (بلاد= =الـترك) ، وانتهى بهم المطاف فى هجرتهم إلى الاستقرار فى منطقة ليبيديا Lebedia عام٨٩٣ م ، وقد أوضح قسطنطين السابع لابنه رومانوس وهو يعظه مدى كثرة عددهم وقوة بأسهم . لمزيد من التفاصيل ، انظر :

قسطنطين السابع : إدارة ، ص٥٦-٥٧ ؛ المسعودى : مروج ، ج١ ص ١٥٤ ؛ الرمزى : الأخبار ، ج١ ص ٢٨٢-٢٨٣ ؛ ذكـى محمد حسن : الرحالة ، ص ٢٦؛ هانئ البشير: بيزنطة، ص ٢٠، ٢٧ حاشية رقم ١ ؛ المتولى تميم : البشناق ، ص ٤٤ ،انظر أيضا :

Hudud Al- Alam,p.443.

(١) Toynbee., Constantine,pp.418,454.

كيستلر : القبيلة، ص ٩٨.

(٢) الروس شعب من الشعوب الشمالية التى نزحت من شبه جزيرة سكنديناوة متجهة نحو البلاد التى تعرف اليوم باسم روسيا وروسيا الاتحادية وروسيا البيضاء . وقد ظهروا بهذا الاسم للمرة الأولى فى الغرب الأوربى فى حوليات بريتنيانى Bertiniani إبان حديثها عن السفارة التى أرسلها الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل Theophilus (٨٢٩ـ٨٤٢م) إلى الملك الفرنجى لويس التقى Louis the Pious (٨١٣-٨٤٠م) إبـان العقد الرابع من القرن التاسع الميلادى يطلب منه المساعدة ضد المسلمين . أما المصادر الإسلامية فجاءت أول إشارة عنهم لدى اليعقوبى أبان حديثه عن بلاد الأندلس ووصفه لمدنها ، انظر:

DAI ,II,p.22.

اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٥٤ ؛ طارق منصور : الروس ، ص٢ ؛ ليلى عبد الجواد : الروس، ص٦ ؛ هانئ البشير : بيزنطة ، ص ١٧٢ حاشية رقم ٢ .

يذكـر ماركتنى نقلاً عن حوليات بريتنياتى أن هناك سفارة روسية وصلت إلى مدينة القسطنطينية فى عام ٨٣٩ م ، وعند عودتها طلبت السماح لها بالمرور عبر ألمانيا خشية من الوقوع فى أيدى البرابرة المتوحشين (المقصود المجريين) . أنظر :

Macartney,Magyars,p.67 .

وعرفـــت باسم ليبيديا Λεβεδια لصد الخطر الروسى . ونجح المجريون فى مواجهة الزحف الروسى ، مما أدى إلى توطيد العلاقة بينهم وبين الخزر الذين انخرطت أعداد غفيرة منهم بين المجريين (١) .

لــم يستمر هذا الوفاق طويلا ؛ ذلك أن المصادر تخبرنا ــ دون ذكر أسباب ــ أن خاقان الخزر أرسل سفارة إلى القسطنطينية يطلب من الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩ – ٨٤٢م) بـناء قلعة ساركل (تعنى كلمة ساركل فى لغتهم البيت الأبيض) – بالقرب من مصـــب نهر الدانوب – لمواجهة غارات أمة قريبة (٢) . رأى البعض أن المقصود هم البشـــناق ، لكن البشناق كانوا ما يزالون يعيشون بعيداً عن الدون (٣) ، فى حين رأى الـــبعض الآخـــر أن المقصـــود هم الروس . غير أن أغلب الآراء ترجح أن بناء قلعة ســـاركل كـــان بهدف مواجهة غارات المجريين (٤) . وفى كل الأحوال لم تمض فترة

---

(١) DAI ,II,p148;Toynbee., Constantine,p.454.

انظر أيضا : كيستلر : القبيلة ، ص ٩٨-٩٩.

رغــم أن اسم ليبيديا يبدو أنه يونانى الشكل شأنه شأن غيره من الأسماء ــ كالانيا Αλανια وتركيا Τουρκια وخزريا Χαζαρια وغيرها ــ فالأرجح أن المجريين هم الذين أطلقوه على الإقليم الذى أقــاموا فيه بين نهرى الدون والدنيبر . وقد استقوا هذا الاسم من اسم زعيمهم ليبيداس تقديرا لمكانته ومنزلته الرفيعة بوصفه أول زعيم لهم . لمزيد من التفاصيل انظر :

قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٣٩ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص٩٨-٩٩ ،انظر أيضا :
DAI,II,p.147.

لمزيد من التفاصيل حول أصل هذا الاسم ، انظر :
Macartney., Magyars,pp.90-94.

لمعرفة موقع ليبيديا ، انظر الخريطة فى نهاية البحث .

(٢) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٧ ــ ١٤٨ ،انظر أيضاً :
Theophanes Cont,p.122 ;Cedrenus,Historiarum.II ,p.528;Macartney, Magyars,p.74; Obolensky., Crimea ,p.128.

(٣) DAI,IIp.155;Theophanes Cont,p.122. Cedrenus, Historiarum ,II,p.528 .

(٤) DAI,IIp.155;Bury., Eastern,p.417 ;Macartney., Magyars,p.74;Obolensky., Crimea .,p.128.

ذكر كدرينوس قلعة ساركل باسم قلعة ماركل Markel . انظر:
Cedrenus., Historiarum,II,p.528.

طويلـــة حتى وجد المجريون أنفسهم ــ تحت ضغط البشناق ــ مضطرين إلى الرحيل عـــن الســـهوب الأوراســـية ، وانقسموا إلى قسمين : الأول ذهب ليعيش فى القوقاز ، والـــثاني تحـــرك باتجاه الغرب وأقام عند مصب نهر الدون . غير أن البشناق أغاروا علـــى الأخيرين في عام ٨٨٨/٨٨٩م ودفعوا بهم غربا إلى المنطقة الواقعة بين نهرى الدنيـــبر وسرت التى أطلقوا عليها اسم أتل-كوز Etel-Koz " أرض ما بين النهرين " واستقروا بها (١) .

لا تـــزال ظـــروف هجرة المجريين على النحو السابق موضع جدل ، حـــاول بعـــض الباحثيـــن أن يثبـــت عن طريق التخمين أن اسم أتل-كوز وليبيديا كانا اسمين لمـــنطقة واحـــدة . لكـــن يصعب ــ من وجهة نظر الباحث ــ التسليم بذلك لأن جعل المنطقتيـــن مـــنطقة واحدة لا يتفق وسير الأحداث من ناحية ، إضافة إلى ما استنتجه بعـــض المحدثين من أن أتل-كوز ، كانت تقع إلى الغرب من ليبيديا ويفهم ذلك ضمنا مـــن عـــدد الأنهـــار الـــتى مـــروا بها داخل أتل-كوز وكذلك ترتيبها ؛ ذلك أن اتجاه المجريين خلال مرورهم كان من الشرق إلى الغرب ، من ناحية أخرى (٢).

كـــيفما كـــان الأمر ، لم تكن منطقة أتل-كوز هى المقر الأخير للمجريين ؛ ذلك أن الظـــروف السياسية المحيطة بهم دفعتهم لتركها بعد فترة قصيرة . ففى عام ٨٩٤-

---

(١) قسطنطين السابع : أدارة ن ص ١٤٠ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص ١٠١-١٠٢، انظر أيضا :
Macartney., Magyars,p.108.

(٢) DAI,II,p.148 ; Macartney,Magyars,pp.90-96; Vernadsky., Lebedia,p.186.
انظر أيضا : كيستلر : القبيلة ، ص ١٠٢؛ المتولى تميم : البشناق ، ص٦٥.
ذكـــر قســـطنطين السابع الأنهار الموجودة داخل أتل-كوز وهى ــ من الشرق إلى الغرب ــ باروخ Βαρουχ (الدنيـــبر) ، كوفـــو Κουβου (بـــوج Βυγ) ، ترولوس Τρουλλοσ (الدنيستر) ، بـــروتوس Βρουτοσ (بـــرت Πρυτ) ، سيرتوس Σερετοσ (سرت Σερετ) . ورغم ذلك فسرها البعض على أنها تتطابق مع منطقة ليبيديا . انظر :
قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٢ ، انظر أيضا :
Macartney., Magyars,p.82; Vernadsky., Lebedia,p.186.
لمزيد من التفاصيل عن جغرافية ليبيديا وأتل -كوز ، انظر :
المتولى تميم : البشناق ، ص ٦٢-٦٥.

٨٩٥م ، وفـــى غمــرة صراع بيزنطة مع جيرانها المسلمين فى الشرق، والبلغار في الشــمال ، أرســل الإمــبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦ ــ ٩١٢م) سفارة بقيادة المدعــو نيقــتاس ســكليروس Niketas Skleros ومعه العطايا الجزيلة كى يحرض المجرييــن علـــى مهاجمة البلغار من ناحية الشمال . ولم يجد المبعوث الإمبراطورى صــعوبة فـــى إقــناع المجرييــن بالقــيام بهذه المهمة . وبناء على ذلك قام الأسطول البــيزنطى بــنقل المجريين إلى شمال بلغاريا حيث أوقعوا بها خسائر فادحة وواصلوا الــزحف حــتى العاصــمة بريســلاف ، ولــم يــتركوا بلغاريا إلا بعد أن طلب منهم الإمبراطور ليو السادس ذلك إثر توصله إلى اتفاق مع العاهل البلغارى سيميون (٨٩٣ ــ٩٢٧م) . ولكــى ينــتقم الأخــير منهم ، تحالف مع البشناق ضدهم ، وانتهز فرصة خــروجهم فى عام ٨٩٦م فى إحدى الحملات وهاجم هو والبشناق بلادهم وطردوا من كــانوا يقومون بأعمال الحراسة وقضوا على الكثيرين من عائلاتهم . وبمجرد أن عاد المجــريون مــن حملتهم ورأوا ما حل ببلادهم من دمار هجروها واتجهوا نحو الغرب والشمال الغربى بقيادة زعيمهم أرباد Arpad ، فاجتاز بعضهم ممرات جبال الكربات ، والتف بعضهم الآخر حول هذه الجبال وعبر من خلال البوابة الحديدية Iron Gate وأقاموا فى سهل بانونيا (١)بين نهرى تيزا Tizza والدانوب الأوسط (٢) (ضمن دولة

---

(١)بانونيا : منطقة على نهر الدانوب يقع معظمها اليوم فى هنغارية (المجر) ، انظر :

اينهارد : سيرة ، ص ٩٠ حاشية رقم ١ .

(٢)ينبع نهر تيزا من جبال الكربات ويجرى من الشمال إلى الجنوب موازيا تقريبا للدانوب ، وهو يصرف مياه الجزء الشرقى للسهل الكبير . ويتميز مجراه بكثرة المنعطفات ، ويكتنفه الكثير من البحيرات المتقطعة . انظر :

جودة حسنين جودة وآخرون : الجغرافيا ، ص٤١٣ ، وانظر الخريطة أيضا .

أمــا نهــر الدانوب ، فهو ثانى أطول نهر فى أوربا ينبع من الغابة السوداء فى ألمانيا ويجرى عبر ثمانــية بــلاد (مــن بينها المجر وهو النهر الرئيس بها حيث يبلغ طوله بها زهاء ٤١٠كم ويجرى بأرضها باتجاه غربى شرقى) ويصب فى البحر الأسود . طول نهر الدانوب نحو ٢٨١٦كم ، وينقسم إلى ثلاثة أجزاء شبه متساوية : الأعلى (أسفل فيينا Viena) والأوسط (أسفل البوابة الحديدية، قرب أورسوفا Orsova رومانيا) والألسنة الجنوبية . وتصب بنهر الدانوب مجموعة من الأنهار مثل درافا=

المجر اليوم فى وسط أوربا) بين السكان هناك من السلوفينيين Slovenes والموراف ([1]) . وهـنا يتبادر إلى الذهن سؤال ، لماذا اتجه المجريون نحو بانونيا ؟ يؤيد الباحث مـا ذهـب إليه المؤرخ المجرى مورافسك Moravcsik ، من أن فتحهم هذه المنطقة جـاء نتيجة غير مباشرة للسياسة البيزنطية ([2]) ؛ ذلك أن القيصر البلغارى سيميون كـان قد تعلم الدرس من بيزنطة وهو تحريض قوة ضد أخرى ، وطبقه مع المجريين ونجـح فـى ذلـك . ولكنه دفع هو الآخر ثمن تصرفه هذا ــ فيما بعد ــ فاستقرارهم

=Drava وساڤا Sava وموراڤا Morava ؛ ذلك أن الأنهار فى شمال البلقان تجرى إما تجاه الشرق أو الشـمال الشرقى أو تجرى مباشرة لتصب فى نهر الدانوب . ويعتبر نهر الدانوب أعظم الأنهار أهمـية فـى وسـط وشرق أوربا ، وكان أوسطه مسرحا للصراع بين بيزنطة ومملكة الفرنجة نحو منتصف القرن التاسع الميلادى بغية السيطرة على السلاف القاطنين هناك . انظر :

اينهارد : سيرة ، ص ٩٧، حاشية رقم ٣ ؛ وسام فرج : قراءة ، ص ١٥١ ؛ جودة حسنين جودة ، وآخرون : الجغرافيا ، ص ٤١٣، انظر أيضا :

ODB,I,p.586.

([1]) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٣ ؛ هانئ البشير : بيزنطة، ص ١٢٩-١٣١؛ المتولى تميم : البشناق ، ص ٦٠-٦١، انظر أيضا :

DAI.,II,p.146 ; Symeon Magister .,p.702; Theophanes Cont.,p.359; Georgius Mon Cont., pp.854-855; Stephenson., Hungary,p.106; Fliche., Histoire,p.17 ; Oman., Ages,p.471; Obolensky., Commonwealth,pp106,154; Vasiliev., Empire,p.316.

تجـدر الإشارة إلى أن مسألة التحالف بين البلغار والبشناق ضد المجريين انفرد بها قسطنين السابع وحده، انظر :

DAI.,II,p.151.

ذكـر المؤرخ المجرى سيمون الكيزى أن المجريين حينما عبروا ممرات جبال الكربات كان عددهم نحو سبعة قبائل ، استقرت كل قبيلة فى المنطقة التى تراءت لها بالسهل البانونى . وكانـت أول قبيلة مـنهم بـزعامة أرباد بن ألموس Almos ابن إلود Elod ابن وجيك Ugyek ، لذا استـولت على أفضل منطقة من حيث الموقع والثروة (التى أقيمت عليها فيما بعد مدينة Sz ekesfehervar. وتمتع أرباد شأن أفراد عائلته من قبل بأعلى مكانة بين القبائل المجرية وكانت له القوامة عليهم ، انظر:

Simonis of Keza., Hungarorum,p.81-83.

لمزيد من المعلومات حول باقى القبائل المجرية السبع وأماكن استقرارها ، انظر :

Simonis of Keza., Hungarorum,pp.83-85 .

([2]) Moravcsik.,Hungary,,p.569.

وتوســـعهم ناحـــية الشـــرق ، أدى إلى تحكمهم فى مصادر إنتاج الملح فى ترانسلفانيا Transylvania فكانـــت خســـارة بلغاريـــا فادحـــة ، وجعلت سيميون يعيد النظر فى حســـاباته ولكن بعد فوات الأوان (١) .أيضا ربما كانت معرفتهم السابقة لبانونيا — لأنهـــا لـــم تكن المرة الأولى التى يزورنها ، فقد مروا بها أكثر من مرة أبان حملاتهم ناحـــية الغـــرب (٢) — ، سببا رئيسا لاختيارها ؛ لما تتمتع به من تربة خصبة ومناخ يلائـــم الإقامـــة والاســـتقرار (٣) . أيضـــا لا نستبعد دورا لعبته الدبلوماسية البيزنطية لتوجـــيه المجريين نحو بانونيا ، فبعد نجاح التحالف معهم ضد بلغاريا — العدو اللدود فـــى تلـــك الفـــترة — رأت أنهم من الممكن أن يلعبوا نفس الدور مرة أخرى ليس ضد بلغاريـــا فحسب ، بل ضد مملكة الفرنجة التى — أيضا — كانت تنافس بيزنطة السيادة على سلاف الدانوب الأوسط ، ولتحقيق ذلك لم يكن هناك — من الناحية الجغرافية — أفضل من بانونيا .

ســـاعدت الأوضاع التى كانت تمر بها كل من مملكة مورافيا العظمى ومملكة الفرنجة ، على استقرار المجريين فى وطنهم الجديد ونجاحهم فى تأسيس دولتهم الفتية فـــى العصـــور الوسطى ؛ ذلك أن إمبراطورية مورافيا العظمى ، التى سبق أن بلغت شـــأوا عظـــيما علـــى عهـــد عاهلها راستيسلاف Rastislav (٨٤٦-٨٦٩م) وامتدت حدودهـــا لتشمل ما يعرف اليوم بالنمسا والمجر وتشكوسلوفاكيا ، قد أخذت تعانى من بعض المشاكل الداخلية بعد وفاة حاكمها سفاتوبلك Svatoblk (٨٧٠-٨٩٤م) ، فبعد حوالـــى عام من وفاته نشبت خلافات على العرش بين أبنائه ، ولم يتمكن الابن الأكبر موجمـــير الثانى Mogmir II — الذى خلف والده على العرش — من تحقيق الوئام مع

---

(١) Stephenson., Hungary,pp.107-108.

(٢) لمعرفة بعض المرات التى اجتازوا فيها بانونيا من قبل على سبيل المثال ، راجع :
Simonis de Keza., Hungarorum,pp.75-77.

(٣) لمعرفة جغرافية بانونيا راجع :
جودة حسنين جودة : الجغرافيا ، ص ٤١١-٤٢٥.

إخوته ، مما دفع أخوه الأصغر سفاتوبلك الثانى إلى طلب مساعدة جيرانه الفرنجة عام ٨٩٨م ضده (١) .

فـــى غضـــون ذلك كانت مملكة الفرنجة الكارولنجيين تمر هى الأخرى بمرحلة حرجة من تاريخها ، منذ تقسيمها عام ٨٤٣م بين أحفاد شارلمان بموجب اتفاقية فردان الشـــهيرة ، الـــتى مزقـــت وحدة الإمبراطورية الكارولنجية وحملت فى طياتها ملامح بعـــض الـــدول الحديثة (٢). ثم جاءت وفاة شارل السمين عام ٨٨٨م لتقضى وبصورة نهائـــية على أى محاولة لإعادة الوحدة الكارولنجية ، لتنشأ على أنقاض الإمبراطورية الكارولنجـــية بعـــد ذلك الدول الثلاث ألمانيا (الشق الشرقى من مملكة الفرنجة)وفرنسا (الشق الغربى) وإيطاليا (٣) .

حيـــنما طلـــب ســـفاتوبلك الثانى مساعدة الفرنجة كان حاكمهم هو الإمبراطور أرنولـــف Arnulf (٨٨٧-٨٩٩م) ـ الملـــك السابق لبافاريا Bavaria ـ ، الذى كان يمقـــت المورافييـــن ، لمـــا ســـبق أن فعله إمبراطورهم سفاتوبلك ، حين استغل ما ألم بالســـلطة الملكـــية فى الجزء الشرقى من مملكة الفرنجة ـ ألمانيا ـ وضم إلى بلاده جـــزءا مـــن بانونـــيا الفرنجية ، فضلا عن انقلابه فى أخريات أيامه ضد رجال الدين

---

(١) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٦، انظر أيضا :
Dvornik., Les Slaves, p.97; Fliche.,Histoire,pp.17-18.
عن أصل كلمة مورافيا ، ومتى سميت بمورافيا العظمى ، انظر :
هانئ البشير : مورافيا ، ص ٦٠٦، حاشية رقم ١ .

(٢)قســـمت مملكـــة الفرنجة بموجب اتفاقية فردان إلى ثلاثة أقسام : قسم شرقى يحكمه الألمـــانى لويس ويشمل الأراضى التى كونت ألمانيا فيما بعد ، وأهم مقاطعاته (بافاريا ـ سوابيا ـ سكسونيا) ، قســـم غربى يحكمه شارل الأصلع ـ الابن الثانى للويس التقى ـ وشمل الأراضى التى كونت فرنسا فيما بعد وأهم مقاطعاته (نستريا،وأقطانيا) وقسم ثالث يقع بين القسمين الشـــــرقى والغربى ويشمل حوض الراين وإيطاليا ، وكان من نصيب لوثر الابن للويس التقى ، انظر :
محمد الشيخ : الفرنجة ، ص٢٦.

(٣) Mckitterick., Frankish,p.176.
انظر أيضا : محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٢٦-٢٧ ؛ هلستر : أوربا ، ص ١٢٦.

الفـــرنجة فى بلاده ، وقيامه بطرد كبيرهم وشنج Wiching ــ أسقف نيترا ــ متذرعا بأن مآربه أصبحت سياسية أكثر منها دينية . ولعل هذا ما جعل أرنولف يوجه حملتين ضـــد مورافيا فى عامى ٨٩٢، ٨٩٣م ، ثم جاء موجمير الثانى ليؤجج هذه العداوة ــ رغـــم حرصــــه هـــو وأخـــوه سفاتوبلك الثانى منذ البداية على عقد صلح مع أرنولف وأوشـــكا علـــى تحقـــيقه ــ حينما شرع هو الآخر فى إعادة تنظيم الكنيسة المورافية ، وطلـــب مـــن بابا روما ــ كخطوة على طريق الاستقلال الدينى ــ أن يعين له رئيس أســـاقفة ومجموعـــة من رجال الدين ليمارسوا مهمة التبشير بين أفراد شعبه ، وبالفعل وافـــق الـــبابا حـــنا التاســـع Jean IX (٨٩٨-٩٠٠م) ورسم لمورافيا رئيس أساقفة ومجموعـــة مـــن رجـــال الدين ، مما أدى إلى تراجع نشاط من تبقى من رجال الدين الفـــرنجة فـــى بلاده [١] . ولكل هذا رأى أرنولف أن الفرصة أصبحت سانحة لتفتيت مورافـــيا وإضـــعافها . وبـــناء علـــى أوامـــره قام اثنان من الـــMargraves (الحكام العســـكريين للأقالـــيم) وهمـــا ليتوبولد Luitpold وأريبون Aribon على رأس جيش بالتوغل فى مورافيا دون أن ينجحا فى إنقاذ سفاتوبلك الثانى من قبضة أخيه الذى ألقى بـــه فى السجن ، ولم يخرج سفاتوبلك الثانى من سجنه إلا فى عام ٨٩٩م حينما تمكن الـــبافاريون مـــن اقتحام القصر الذى سجن به وأخرجوه منه . وكان خطأ أرنولف أنه أســـاء التصـــرف تجـــاه مورافيا بسعيه باستغلال الحرب الأهلية لإضعافها ، وبتأجيره بعـــض المرتزقة المجريين ليحاربوا إلى جوار جيشه داخل مورافيا ؛ ذلك أنه بتصرفه هـــذا دل المجرييـــن على طبيعة الطرق المؤدية إلى بلاده وأوقفهم على الضعف الذى كانت تمر به مورافيا ، صحيح أنها لم تكن المرة الأولى التى يذهبون فيها إلى مورافيا

---

(١) Dvornik.,Les Slaves,pp.93,97; Vlasto.,Christendom,p.83; Fliche., Histoire, pp.16,note,no.7,17.

كانـــت دوقية بافاريا أشبه ما تكون بدولة مستقلة بأراضيها الواقعة فى وادى الدانوب، ما بين نهر إن Inn ونهر لخ Lech . وكان لها تنظيمها الكنسى المستقل وترانيمها الخاصة . وقد خضعت بافاريا لحكـــم الفـــرنجة منذ عهد بيبن القصير واعترف دوقها تاسيلو (٧٤٨-٧٨٨م) ببين القصير سيدا له . وباءت كل محاولات تاسيلو للتخلص من هذه التبعية بالفشل . انظر :

إينهارد : سيرة ، ص ٨٣ حاشية رقم ١

، فسبق أن قاتلوا إلى جوار المورافيين ضد الفرنجة (الشرقيين) عامى ٨٦٢، ٨٨١ م ([١]) ، ولكنها كانت المرة الأولى التى يزور فيها هؤلاء مملكة الفرنجة . ويعد أرنولف بذلك المسئول الأول عن توجيه المجريين نحو مورافيا وفتح الطريق أمامهم نحو بلاده فيما بعد ، وكانت عواقب ذلك وخيمة إذ دفع خلفائه من بعده الثمن غاليا([٢]).

فهؤلاء المجريون الذين حلوا مؤخرا بسهل الدانوب الأوسط ، وكانوا مجبولين على التنقل والترحال ، كانت حرفتهم الأساسية صيد الأسماك والحيوانات . كما كان اعتمادهم الأساسى فى كسب قوتهم على غنائم انتصاراتهم . لذلك ، رغم خصوبة التربة وملائمة المناخ بمنطقة الدانوب الأوسط ، لم يعملوا بالزراعة وآثروا الاكتفاء بتربية الخيل اللازمة لممارسة هوايتهم المفضلة من السلب والنهب ، خاصة وأنهم كانوا يتمتعون بمهارة منقطعة النظير فى الرماية والفروسية ، واشتهروا بأنهم لا يقهرون بفضل صرخاتهم المدوية ([٣]) وقسوتهم الشديدة . وبعد أن لفت العاهل الألمانى نظرهم نحو بلاده ، وجدوا فى ألمانيا وإيطاليا وأحيانا فرنسا حقلا خصبا لشن الحملات المدمرة ([٤]).

كان بقاء أرنولف على قيد الحياة وقيامه على مقربة منهم بتطهير بعض سهول الدانوب من السلاف ، سبباً فى تخليهم لبعض الوقت عن ألمانيا ، والاتجاه نحو إيطاليا التى عانت عقب وفاة إمبراطورها لامبرت الثالث Lambert (٨٩١-٨٩٨م) الأمرين

([١]) Stephenson., Hungary,pp.105-106;Bakay., Hungary,p536.

([٢]) Fliche.,Histoire,pp.17-18 ;Oman.,Ages,p.471.Bloch., Society,vol.1,p.9 ;Davis., Europe ,p.168.

ما يزال تاريخ مجئ المجريين إلى مورافيا بعد وفاة سفاتوبلك ، موضع نقاش بين الدارسين ، ولا يوجد رأى قاطع بشأنه ، انظر :

DAI,II,p.153.

([٣]) تذكر سيرة قسطنطين أنه مر وهو فى طريقه إلى بلاد الخزر على رأس بعثة تبشيرية عام ٨٦١م ببعض المجريين وسمع لهم عواء مثل الذئاب ، ولما رأوه أرادوا أن يقتلوه ، لولا أن سمعوه يرتل بعض الترانيم الدينية فتركوه . انظر :

Vita Constantini .,p.45 ; Nikolov., Magyar,p.86.

([٤]) Fliche.,Histoire,pp.17-18;Thompson.,History,p.166;Bloch., Socity,vol.1,p.9;Lane Poole.,Germany,p.182.

مـن جراء التهديد الألمانى من الخارج والاضطرابات الشديدة ـ بسبب الصراع على الحكم ـ فى الداخل ([1]) .

وظهـر المجـريون لأول مـرة فى إيطاليا عام ٨٩٩ – ٩٠٠م ، وذلك عندما أغـاروا مـن مستوطناتهم على نهر الثيس – وربما بتحريض من أرنولف أيضاً نكاية فـى عـدوه العاهل الإيطالى الجديد برنجار Berengar – على فنيتو Veneto الحالية وأوقعـوا بهـا ضرراً بالغاً ثم انسحبوا إلى ديارهم . ثم استأنفوا الكرة مرة أخرى فى العـام الـتالى بعـد أن حشدوا عددا ضخما شق طريقه من أكوليا Aquileia وفيرونا Verona حـتى بافـيا Pavia ، وقاموا بنهب سهول الشمال الإيطالى . وحينئذ حاول الإمبراطور الجديد برنجار ـ الذى شجع هو الآخر المجريين فيما بعد على الاستيلاء علـى مـا تبقى من بانونيا رداً على تحريض أرنولف ـ أن يكون على قدر المسئولية ويواجـه هـذا الخطـر ([2]) فأرسـل الرسائل والرسل لسكان إيطاليا من التوسكانيين والفوليشـيان Volscians و السـبوليتو Spoleto يأمرهم أن يتحدوا معا فى مواجهة هـؤلاء الأعداء . فتجمع جيشا قوامه نحو ١٥ ألف جندى . ولما رأى المجريون ذلك انـتابهم الرعـب وبعـد تردد قصير بدا لهم أن الفرار أفضل من القتال ، وأخذوا فى عـبور نهر آدا Adda ، فغرقت منهم أعداد كبيرة أثناء عبور النهر ، ولذلك أرسلوا يعرضون على برنجار تسليمه كل ما بحوزتهم من غنائم مقابل السماح لهم بالعودة إلى أوطـانهم آمنيـن . ولكـن رفض برنجار عرضهم باستهزاء ، وبدأ أتباعه ـ وكأنهم واثقيـن مـن النصـر ـ يبحـثون عـن السلاسل التى يقيدون بها من سيأسرونه من المجريين ([3]) .

ولمـا لـم يجد المجريون بدا من القتال بدأوا فى تنفيذ خطة ماكرة ؛ بأن أخذوا يـتقهقرون حتى وصلوا السهول الواسعة المحيطة بفيرونا وهناك جرت مناوشات بين

---

(١) Previte-Orton., Italy,p.148.

(٢) Stephenson.,Hungary,p.107;Previte-Orton., Italy,p.148; Oman ., Ages,p.465.
انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ص ٢٩٥ ؛ نعيم فرح : أوربا ، ص ١١٢-١١٣.

(٣) Liutprand of Cremona,pp. 75-76 ; Previte- Orton., Italy,p.148.

الجانبيـــن كانـــت الغلبة فيها للمجريين ، الذين أخذوا يستأنفون مسيرتهم التقهقرية مرة أخرى بمجرد أن علموا أن هناك تعزيزات عسكرية فى الطريق إلى أعدائهم ، وانتهى الأمـــر بوصول الجانبين إلى نهر برنتا Brenta . غير أن المجريين أصبحوا منهكين مـــن كثرة التنقل وأثر ذلك فى معنوياتهم ، وفكروا فى أن يتخلى كل منهم عما بحوزته مـــن أســـلاب وأسرى ويحتفظ فقط بحصان واحد ينجو به . وزيادة فى الأمان أرسلوا إلـــى برنجار وأتباعه يتعهدون لهم بعدم مهاجمة أراضيهم مرة أخرى إذا سمحوا لهم بالرحـــيل دون أذى ، ولتأكيد عهدهم سيسلمونهم أبناءهم رهائن لديهم ، ولكن كان ذلك دون جـــدوى حيـــث قوبلت كل عروضهم بالرفض مرة أخرى (1) . ولما انقطعت بهم كـــل الســـبل أقـــبل بعضهم على بعض وبدأ الشجعان منهم يهدءون من روع الخائفين ويسدونهم النصائح الحماسية " لماذا نخاف من الاندفاع نحو سيوف أعدائنا ؟ أليس من الأفضـــل أن نسلم أمرنا إلى قدرنا لا إلى جبننا ؟ لا تظنوا أن الرجال الذين يقتلون فى أرض المعركة أمواتا بل أحياء ! يجب أن نكون على ثقة بأنفسنا وبخبرتنا فكم من مرة انتصـــرت فـــئة قليلة منا على فئة أكثر عددا وعدة !". وأعدوا على إثر هذه النصائح كمينا للأعداء ؛ بأن عبروا النهر متجهين مباشرة صوب وسط صفوفهم وفى وقت كان جـــنود برنجار قد نزلوا عن خيولهم ليتناولوا الطعام بعدما أضناهم طول انتظار دخول المعـــركة . فـــانقض المجريون عليهم يحصدون رقابهم بسيوفهم المستلة ، وتعقبوا من لاذ مـــنهم بالفـــرار دون أن تـــأخذهم بهـــم رأفة . نجم عن هذه المعركة أن ظل سهل اللمبارد مسرحا لتجوال المجريين ما يقرب من عام كامل ، ولم يوقف ذلك ويخفف ألم هـــذه الهزيمة ، إلا هزيمة بحرية حاقت بالمجريين على أيدى دوق البندقية بترو تريبنو Pietro Tribuno حينما حاولوا الاعتداء على مدينته عام ٩٠٠م (2).

---

(1) Liudprand of Cremona,pp.76-77;Guldencrone., L'Italie,p.319.

(2) Liudprand of Cremona,pp.77-78 ; Previte.,Orton Italy,p.148.

بدلا من أن يرجع ليودبراند الكريمونى (٩٢٠-٩٧٢م)الهزيمة التى حاقت بجيش برنجار إلى أسباب منطقـــية كالإهمـــال وسوء التنظيم ..وغيره ، نراه ينكر كل ذلك ويذكر أن نصر المجريين عند نهر برنتا لا يرجع إلى بسالتهم بقدر ما كان عقابا آلهيا سبق أن توعد به الرب كل العصاه فى شخص بنى

فـــى نفس الوقت الذى كانت تعانى فيه إيطاليا من جراء الغزو المجرى ، توفى أرنولـــف ملك ألمانيا فى ٨ ديسمبر عام ٨٩٩م ، وخلفه على العرش ابنه لويس الثالث ، وكـــان صبيا فى السادسة من عمره ، وتم تتويجه فى شهر فبراير عام ٩٠٠م ملكا على ألمانيا . كان اعتلاء لويس الثالث العرش بمثابة كارثة ؛ إذ كانت البلاد فى حاجة إلـــى قـــائد عســـكرى مـــن الطـــراز الأول يســـتطيع مواجهة أعدائها من المجريين وغـــيرهم (١) . ففـــى فترة الأحد عشر عاما التى حكم فيها البلاد حكما اسميا ، قويت الـــنزعة الإقطاعية عند الأمراء الألمان وجاءت هذه النزعة مصحوبة بروح عنصرية قويـــة وعصـــبية قبلـــية واضحة ، مما ساعد على استمرار الحروب والمنازعات فيما بيـــنهم ، وغـــدا لكـــل قســـم مـــن الأقسام الأربعة الرئيسة التى تألفت منها ألمانيا ــ فرانكونـــيا وســـوابيا وبافاريـــا وسكســـونيا ــ دوقا يرثه ابنه فى منصبه. كان هؤلاء الدوقات المحليون ــ من دينيين وعلمانيين ــ لا يجرءون من قبل على الثورة والتمرد مـــا دام هـــناك ملـــك قـــوى على رأس الدولة ، فلما تولى لويس الثالث الحكم أخذوا يـــتحركون ويشتبكون مع بعضهم البعض فى منازعات طويلة وحروب دامية أضرت بالـــبلاد ضررا جسيما ، وزاد الطين بلة اشتداد إغارات المجريين وعدم انقطاعها عن ألمانـــيا عقـــب وفـــاة أرنولف (٢) . فبعد فترة قصيرة من وفاته حشد المجريون جيشا ضـــخما وطالـــبوا بأحقيـــتهم فـــى إقلـــيم مارافانى Maravani ، كما اجتاحوا أرض

إســـرائيل وعلـــى لسان النبى جرمياه Jeremiah حينما قال " انظروا ، إننى سوف أرسل إليكم أمة بعـــيدة تسودكم ، إنها أمة قوية ، أمة عتيقة ، أمة لا تعرفون لغتها . إن جعبة سهامها ستكون كالقبر المفتوح ، فكلهم رجال أقوياء . وسوف يأكلون محاصيلكم وخبزكم ، الذى كان أولادكم وبناتكم أحق بأكلـــه : لســـوف يلتهمون جموع طيوركم وقطعان ماشيتكم ، سيأكلون أشجاركم من العنب والتين ، سوف يحطمون بسيوفهم مدنكم الحصينة التى كنتم تشعرون فيها بالأمان . إلا أننى لن أفنيكم تماما فى تلك الأيام " انظر:

Liudprand of Cremona, pp.78-79.

(١) Dummler.,Geschichte,T.III,pp.757,495-500;Fried.,Frankish,p.165;Fliche.Histoire ..pp.18-19.

(٢) سعيد عاشور : أوربا ، جـ١ ص ٢٩٥-٢٩٦.

البافاريين Bavarians ودمروا قلاعهم وحرقوا كنائسهم وأعملوا فيهم الذبح (١) . وما إن علم لويس الثالث بالوحشية والدمار الذى أشاعوه بين شعبه ، حتى أشعل الحماس بين أتباعه وحذر الجميع بألا يتخلف أحد منهم عن الاشتراك فى الحرب التى استعد لشنها ضدهم ، ثم خرج على رأس جيشه متجها إلى مدينة أوجسبرج Augsburg . ولكن فوجئ على نحو غير متوقع باقتراب هؤلاء الأعداء من جيشه وفى وضع يصعب فيه التراجع عن الدخول معهم فى معركة ، وكان ذلك فى سهول نهر لخ Lech (٢). ولم يفطن العاهل الألمانى لمكر هؤلاء الأعداء ودهائهم فى نصب الكمائن حيث تظاهروا بالتقهقر واندفع الألمان خلفهم بجرأة ، وفجأة وعلى نحو غير متوقع انقضوا عليهم من كل حدب وأوقعوا بهم خسائر فادحة ، حتى أن الملك نفسه تملكه الرعب من هول المفاجأة . ولم يكتف المجريون بالمذبحة المروعة فى صفوف الألمان ، بل لكى يشفوا صدورهم من غل ، ساروا نحو ممالك بافاريا وسوابيا وسكسونى Saxony وأحرقوا فيها الأخضر واليابس ، ولم يستطع أحد أن يقف فى وجههم ما لم يجد الحصون والقلاع التى يحتمى بها (٣) .

هكذا أثبتت الأحداث خطأ سياسة أرنولف الشرقية وتحملت ألمانيا تبعة ذلك ، وحينئذ أدرك الأوصياء على الإمبراطور الصبى مدى أهمية التعاون مع مورافيا لمواجهة عدوهم المشترك ، وبادروا بعقد سلام مع المورافيين فى عام ٩٠١م . ولكن بعد فوات الأوان ؛ ذلك أن الضعف كان قد تمكن من إمبراطورية سفاتوبلك ، التى

---

(١) Liudprand of Cremona,p.69.

كانت متعة المجريين – على حد قول البعض – فى القتال وسفك الدماء ، فكانت الأم بمجرد أن تضع طفلها تقوم بشج وجهه بسكين حاد كى يتمرس على تحمل آلام الجروح قبيل أن يرضع من ثديها . ويمكن تصديق ذلك من مشاهدة الجروح التى يلحقونها بلحمهم كعلامة على الحزن عندما يحتضر أحد أقربائهم ، أى أن هذا الجنس الملحد كان يسفك الدماء بدلا من أن يذرف الدموع انظر : Liudprand of Cremona ,p.70.

(٢) نهر لخ هو أحد روافد نهر الدانوب وطوله نحو ٢٨٥ كم . انظر : إينهارد : سيرة ، ص ٨٤ حاشية رقم ٣ .

(٣) Liudprand of Cremona,pp.70-71.

كانــت قــد عانت هي الأخرى من ويلات الهجمات المجرية. صحيح أن المورافيين أبــدوا شـــجاعة قوية في مواجهة هذه الهجمات وحققوا بعض النجاح ، لكن لم تتمكن إمبراطوريــتهم مــن الصمود طويلا في مواجهة هؤلاء الأعداء ، ساعد على ذلك عدم ثبات الألمان في سياستهم نحوهم (١) . وفي ظل هذه السياسة المتذبذبة تجاه مورافيا ، كرر الألمان خطأ أرنولف السابق ؛ بأن حرضوا المجريين ضدها في عام ٩٠٥-٩٠٦ م للقضـــاء عليها ، ظنا منهم أن مورافيا عادت لتوطد دعائمها في وسط أوربا . وكأنهم لــم يقــدروا الخطر المجرى حق قدره ، عندما رأوا أن المجريين ـــ رغم ما فعلوه ـــ أقــل خطرا من المورافيين. فاتجه هؤلاء الغزاة نحو مورافـــيا واجتاحوها ، وانتهى الأمـــر بقتل موجمير الثاني وتدمير عاصمته إلى حد يصعب معه تحديد مكانها الآن ، وخضوع إمبراطوريته تماما للمجريين (٢).

كان سقوط إمبراطورية مورافيا عظيم الأهمية بالنسبة للمجريين ولمستقبل وسط أوربـــا وغربها أيضا . فمنذ ذلك الوقت أخذ التاريخ المجرى دورا جديدا ، وصار من الصعب اعتبارهم مجرد بدو رحل بمعنى الكلمة ؛ حيث أخذوا في الاستقرار الدائم في الســـهول التي ظلت تحمل اسمهم حتى اليوم وبدءوا يطورون من نظمهم . أما بالنسبة لوســـط وغـــرب أوربا ، فيرى بعض المحدثين أنهما كانا في أمس الحاجة خلال هذه المـــرحلة إلـــى الاتصـــال المباشر مع بيزنطة ، حارسة الحضارة اليونانية والهلينية. صـــحيح أن الاتصـــال كان مقطوعا عن طريق البحر بسبب العرب ، ولكنه كان قائما من خلال أودية الدانوب والبلقان التي كان يسيطر عليها كلا من الموراف والبيزنطيين ، ممـــا ســـاعد علـــى مـــزج الثقافات الرومانية والبيزنطية في وسط أوربا . ولو قدر الاســـتمرار لهـــذا الاتصـــال ، لكان الغرب الأوربي قد جنى ثمارا طيبة بدت آثارها في مخـــتلف الجوانـــب . ولكـــن ســـقوط مورافيا قطع ما تبقى من شرايين اتصاله بمدينة

---

(١) Dummler., Geschichte,T.III,pp.530-534;Fliche., Histoire,p.20.

(٢) Bloch., Society,vol.1,p.9; Dvornik., Les Slaves,pp.97-98; Fliche., Histoire,p.20.

القسطنطينية ، وأجل استفادته من كنوز الحضارة البيزنطية لحين من الدهر (١) . ليس هـذا فحسـب بل كان سقوط مورافيا ــ من وجهة نظر الباحث ــ واستيلاء المجريين علـيها ، يعـنى إقامتهم وبصفة دائمة فى منطقة حوض الدانوب الأوسط ، وأن مملكة الفرنجة ستكون المسرح والمنفذ الطبيعى لحملاتهم المدمرة ولم لا ؟ والجاران الآخران لهمـا كانـا قـد صـارا علـى درجـة كبيرة من القوة ، على الأقل فى هذه الفترة . فالإمـبراطورية البيزنطية كانت قد أصبحت فى ذروة مجدها منذ تولى أباطرة الأسرة المقدونـية عرشها حتى عرف عصر هذه الأسرة بالعصر الذهبى . كذلك كانت بلغاريا ، الـتى أصـبحت تشاركها فى أحد حدودها على نهر الثيس ، قد بلغت أوج قوتها فى عصـر القيصر سيميون . أما ألمانيا وإيطاليا (٢) ففى ضوء جولاتهم السابقة داخلهما ، كـانوا على دراية بمدى تدهور أوضاعهما الداخلية ، ولذلك كان اتجاههم نحوهما أمرا حتميا .

لاشـك أن عواقـب حملات المجريين السابقة ، كانت وخيمة على ألمانيا وإيطاليا ولا يمكـن تجاهلهـا . فهـزيمة جـيش برنجار على أيديهم وقتلهم العديد من الأساقفة والنـبلاء جعـل أعـداء بـرنجار فـى الداخل بزعامة أمير توسكانيا أدالبرت الثانى

---

(١) Bloch., Society,vol.1,p.9; Dvornik., Les Slaves,p.98 .

(٢) فـى الوقـت الذى كان حكم لويس الثالث لألمانيا اسميا وكان عصره من أحلك عصور التاريخ الألمانى بسبب النزعة الإقطاعية عند الأمراء الألمان ، كانت إيطاليا هى الأخرى تمر بفترة حرجة من تاريخها ، ففى الوقت الذى كان شمالها يعانى من الصراع على العرش ، كان الجنوب الإيطالى يعانى هو الآخر من الشقاق والحروب الداخلية ، وكان ذلك سببا فى عجزها عن صد غارات المجريين من جهة الشمال والوقوف فى وجه المسلمين من جهة الجنوب . وكانت أعظم قوة بها فى تلك الفترة هى بـيزنطة ، مـنذ قام الإمبراطور باسيل الأول المقدونى (٨٦٧-٨٨٦م) وقائده نيقفور فوقاس بإحياء سـطوتها فى الغرب من خلال إنشاء ثغرين كبيرين هما ثغر لونجوبارديا Longobardia وعاصمته بارى Bari وكان يضم أبوليا Apulia ولوكانيا Lucania من نهر تريجنو Trigno على الأدرياتى إلى خليج تارانتو Taranto ، والآخر ثغر كالابريا Calabria وعاصمته رجيو Reggio وحل محله ثيم صقلية المختفى ، ومع ذلك يبدو أن بيزنطة لم تول إيطاليا القدر الكافى من الاهتمام ، انظر :
Previte-Orton., Italy,pp.149-150.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ص ٢٩٥.

Adalbert II يفكـــرون فى حياكة مؤامرة ضده ، وهرب برنجار بالفعل وللمرة الثانية إلى بافاريا خشية على نفسه وليسعى من هناك لتأمين عرشه المتنازع عليه (١) . كذلك كانـــت لهذه الحملات آثارها السلبية على الحياة فى ألمانيا بعد سلب الأراضى الزراعية وذبح أعداد لا تحصى دون تمييز بين كبير وصغير ، وارتكاب فظائع وإهانات مخزية للنســاء ــ اللاتـــى اقـــتدن إلـــى الأســـر عاريات وموثوقات مع بعضهن البعض من شـــعورهن ـــ ومعاملـــة الأطفال بقسوة شديدة ، فضلا عن الدمار الذى حل بالكنيسة . وأصـــبحت الأزمـــة محـــتومة وانفجرت فى سوابيا منذ بداية حكم لويس الثالث وكان مقدرا لها أن تنتشر فى كل مكان (٢).

لـــم يمهـــل المجريون ألمانيا طويلا عقب استيلائهم على مورافيا. ففى عام ٩٠٧م أغـــاروا علـــى بافاريـــا وكارنثـــيا ، ثـــم انتهزوا فرصة الحرب الأهلية فى فرانكونيا وتطـــرقوا إلـــى ســـوابيا حتى وصلوا سكسونيا وأنزلوا هزيمة كبرى بالقوات البافارية وقتلوا ليتوبولد دوق بافاريا وذبحوا رئيس أساقفة سالزبرج وأسقفى فريزنج Freising وســـبن Seben وواصـــلوا زحفهـــم باجتـــياح الحـــد الشرقى لألمانيا وهى أوستمارك Ostmark البافارية (النمسا Ustria حاليا) حتى نهر الأن Inn. ودخل المجريون فى العام التالى ثورنجيا Thuringia وذبحوا دوقها مع أسقف ورزبرج Wurzburg (٣)، الأمـــر الذى دفع لويس الثالث ــ وكان قد بلغ السادسة عشر من عمره ــ إلى النزول إلـــى المـــيدان بنفســـه لصـــد الخطـــر المجرى. وفعلا اتحد البافاريون والسوابيون والفرانكونـــيون تحـــت قيادة الملك الشاب لمحاربة هؤلاء الأعداء . ولكن كانت نتيجة هـــذه المعـــركة قاسية حيث وقع لويس الثالث وجيشه فريسة كمين محكم ونصب لهم المجـــريون مذبحة مروعة ، ولم ينج إلا القوات البافارية التى نجحت فى الفرار ، وأكد

---

(١) Previte-Orton., Italy.,p.149.

لمزيد من التفاصيل عن مؤامرة أدالبرت الثانى . انظر :

Previte-Orton.,Italy,p.149.

(٢) Fliche.,Histoire,pp.27-28.

(٣) لمعرفة موقع كل من بافاريا وكارنثيا وسالزبرج وورزبرج وغيرها من الأماكن التى أغار عليها المجريون بألمانيا ، انظر الخريطة .

المجـــريون بذلـــك انتصاراتهم السابقة ، ولم يحتمل لويس الثالث وطأة هذه الهزيمة ، وتوفى على أثرها عام ٩١١م بعد صراع قصير مع المرض (١) .

انتهت بوفاة لويس الثالث سلالة البيت الكارولنجى من الذكور فى ألمانيا ولم يعد هــذا البيــت ممــثلا إلا فــى شخص شارل البسيط فى فرنسا . وبعد كثير من الجدل والـــتردد بيـــن النـــبلاء الألمـــان وقـــع الاختيار على كونراد الأول Conrad I دوق فرانكونـــيا لـــيخلف لويـــس الثالث على عرش ألمانيا . ونظرا لأنه لم يكن له مجـــــد مـــوروث فقـــد اعتـــبره كبار النبلاء الألمان مجرد واحد منهم ، وثاروا ضده فى العام الـــتالى ٩١٢م بقـــيادة هنرى Henry دوق السكسون والتورنجيين Turingians. ولكن كونـــراد الأول بفضـــل شـــجاعته ومثابرته نجح فى قمع هذه الثورة ، ومع ذلك استبد الخـــوف بـــأحد النـــبلاء الثائريـــن وهو أرنولد Arnold من بافاريا فاصطحب زوجته وأولاده وفـــر هاربـــا إلـــى المجريين وعقد العزم على البقاء عندهم طالما ظل كونراد الأول على قيد الحياة (٢) .

رغم نجاح كونراد الأول فى إخماد هذه الثورة ، كانت السنوات السبع التى قضاها فى الحكم مليئة بالمتاعب الداخلية والخارجية ؛ ذلك أنه فى الوقت الذى أخذ السوابيون والـــبافاريون يقـــاومون جهوده فى توحيد المملكة تحت سلطته الفعلية ، أخذ المجريون فـــى شـــن غارات مكثفة على ألمانيا . فتوغلوا فى عام ٩١٢م داخل سوابيا وفرانكونيا وأحدثـــوا بهمـــا أضرارا بالغة وشجعهم انشغال كونراد الأول بمشكلة منطقة اللوريين Lorraine (٣)عن اتخاذ أى إجراء لمقاومتهم على معاودة الكرة مرة أخرى عام ٩١٣ م حيث أغاروا على سوابيا وتوغلوا داخلها ، ولكن عند عودتـــهم واجـــــهم أرنولف

---

(١) Oman.,Dark,p.474.

انظر أيضا :سعيد عاشور : أوربا ، ج ١،ص٢٩٦.

(٢) Liudprand of Cremona, p.79; Thompson., History,p.167.

انظر أيضا :سعيد عاشور : أوربا ج١ ، ص ٢٩٧.

(٣)مـــنطقة لوثرنجيا ــ أى مملكة لوثر ــ حرف اسمها إلى اللوريين وهى نفس المنطقة التى مازالت حـــتى اليوم تمثل حلقة الانتقال بين الفرنسية والألمانية . وكانت قد أصبحت ــ بموجب اتفاقية فردان عام ٨٤٣م ــ من أملاك لوثر (حاكم الشق الغربى من مملكة الفرنجة) ، لكن لم يرض هذا حكام=

ــ دوق بافاريــا وزعــيم المعارضــة ضد كونراد الأول فيما بعد ــ على رأس جيش قــوى على مقربة من نهر الإن وأنزل بهم هزيمة ساحقة . كانت النتيجة المباشرة لهذا النصر هى أنه كفل لألمانيا نحو عام من الهدوء من جانب المجريين (١).

وما أن حل عام ٩١٥م حتى ظهر المجريون من جديد فى سوابيا وانطلقوا منها إلــى ثورنجــيا وســاكس Saxe وكــرروا هـــذه الاعتداءات فى عام ٩١٧م على جــنوب ألمانيا ، وتقدموا فى هذه المرة عبر الألزاس Alsace إلى اللورين وواصلوا زحفهــم حــتى أبــواب متز Metz ، كما توغلوا فى برجنديا Burgundy الفرنسية وهددوا قلب المملكة دون أن تستنفذ هذه الغارة البعيدة طاقاتهم المتجددة . ولسوء الحظ لا توجد معلومات عن هذه الحملات ، بيد أن الدمار والسلب والنهب كانا السمة الغالبة علــيها . ولــم يذكر المؤرخون إبان سردهم المحزن لهذه الجولات الدامية أى محاولة للمقاومــة من جانب كونراد الأول ،والتفسير الأرجح لهذه السلبية هو أنه بعد أن أضاع نحــو عاميــن فى اللورين ، وجد نفسه مشغولا فى مواجهة المعارضة الداخلية التى امتصت كل جهده حتى نهاية حياته فى عام ٩١٨م (٢) .

يحســب لكونراد الأول أنه كان قد أوصى وهو على فراش الموت وتوسل إلى أخــيه إيفــيرارد Everard ، أن يخلفه هنرى الأول ــ دوق سكسونيا لما يتمتع به من قــوة وحــنكة ــ علــى عــرش ألمانيا لإنقاذها من وضعها المتردى . واجتمع كبراء الأمــراء والأساقفة عقب وفاة كونراد الأول وأقروا اختيار هنرى الأول ــ الذى عرف بهــنرى الصــياد نظرا لانشغاله برياضة الصيد أثناء اختيارهم له ــ ملكا على ألمانيا

=الجــزء الشرقى وسعوا دوما لضم هذه المنطقة لنفوذهم . ولم ينجحوا فى ذلك إلا عام ٩٢٥م على عهد هنرى الأول ، حينما استولى عليها بالقوة ، انظر :

Fliche., Histoire,p.37.

انظر أيضا :محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٢٧ ، ٥٨.

(١) Fliche., Histoire,p.29.

(٢) Halphen., France,p.87;Dummler., Geschichte,T.III,p.596 ; Fliche., Histoire,pp.29-30.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج١ ، ص ٢٩٧-٢٩٨.

عـــام ٩١٩م ([1]) . وبمجرد أن علم أرنولد الهارب لدى المجريين بوفاة كونراد الأول ، عـــاد إلى بلاده على الفور فرحب الباقاريون والفرنجة الشرقيون به وبأولاده وزوجته وحـــثوه بقـــوة على أن يتولى العرش بدلا من هنرى الأول . وما أن علم الأخير بذلك حـــتى جمـــع جيشا قويا وخرج متجها نحو بافاريا ، ومن جانبه جمع أرنولد هو الآخر قوات ضخمة وأسرع لملاقاته . وكادت الحرب تنشب بين الجانبين لولا أن لجأ هنرى الأول للوســـائل الدبلوماســـية ، حيـــث أرسل مبعوثا أستدعى أرنولد واجتمع به سرا ، فخاطبه باللين وعرض عليه وصية كونراد الأول([2])، كما خلع عليه لقب القائم بأعمال الأسقف فى بافاريا ، فاقتنع أرنولد وتخلى عن ثورته ([3]) .

لـــم تقتصر مثل هذه الاضطرابات على ألمانيا بل عانت إيطاليا هى الأخرى من بعـــض المشـــاكل التى شجعت المجريين على استئناف نشاطهم العدائى بها . ففى عام ٩٢٢م قـــام كـــبار النـــبلاء بقـــيادة أدالـــبرت من إيفريا Iverea بدعوة رودلف الثانى Rodolph II ملك Jurane Burgundy لخلع برنجار عن العرش بعدما ساءت الأحوال فـــى عهده ولم يعد يتمكن من وقف الغزو المجرى المتكرر . وبعد تضييق الخناق على بـــرنجار بعد أن احتجزه معارضوه فى فيرونا ، رأى أن المجريين أفضل من يساعده علـــى الخروج من هذا المأزق . لذلك استنجد بهم وطلب منهم أن يخلصوه من أعدائه لـــو كانوا يحبونه حقا . فلبوا على الفور وزودهم هو بمرشد يدلهم على طريق يسلكوه غير الطريق التقليدى كى يحققوا أهدافه فى حملتهم على إيطاليا . ولذلك اتسم هجومهم بالســـرعة والمباغتة مما أسفر عن قتل وأسر الكثيرين وسلب ديارهم ولم ينج أدالبرت نفســـه مـــن الأسر إلا عن طريق الحيلة . ولكن إذا كانوا قد أنقذوا برنجار من وضعه الصـــعب فإن العمر لم يمتد به طويلا حيث راح ضحية مؤامرة دبرها ضده أحد أتباعه

([1]) Liudprand of Cremona,pp.79-80.

انظر أيضا :سعيد عاشور : أوربا ، ج١، ص ٢٩٨.

([2])لمعرفة نص وصية كونراد الأول ، انظر :

Liudprand of Cremona,pp.79- 80.

([3]) Liudprand of Cremona,pp.80-82.

، فأودت بحياته فى ٧ أبريل عام ٩٢٤م . فقام المجريون على أثرها فى نفس العام ــ دون أن نعلــم إذا ما كان ذلك بدافع الانتقام لقتله أم استغلالا للظرف ــ بتدمير لمبارديا Lombardy وحــرق بافــيا وعجــز الســكان هناك عن كسب رضاهم بالهدايا ، ولم يتركوا إيطاليا عائدين إلى بلادهم إلا بعد جمعهم غنائم طائلة من مختلف أرجائها([1]).

أما على صعيد ألمانيا فبعد أن استتبت الأمور بعض الشئ لهنرى الأول ، رأى أن حمايــة ألمانيا من خطر المجريين ــ الذين لم تتوقف حملاتهم على بلاده منذ توليه العــرش ــ يجب أن يكون له الأولوية على ما عداه . كان ذلك فى الوقت الذى قام فيه المجــريون بعقــد اجــتماع كبير ليتشاوروا فيما بينهم حول الإجراء الذى سيتخذوه لو رفض العاهل الألمانى الجديد دفع إتاوة لهم . وأجمعوا أمرهم إن فعل ذلك أن يدمروا بــلاده من خلال سلسلة طويلة من الحملات المدمرة ، ويبدءوا بأرض السكسون ، التى كــان دوقــا لهــا من قبل خاصة وأنها تفتقر إلى الحصون أو القلاع التى تكفى للذود عنها ([2]) .

يــبدو أن هــنرى الأول غير رأيه بعدما وجد أن الوقت غير ملائم للدخول فى مواجهــة مــع المجريين وآثر دفع الإتاوة لهم ، لذلك شهدت السنوات الأولى من عهده هــدوءا تاما من جانبهم . ولكن عندما لمسوا فى عام ٩٢٤م أن هناك معارضة داخلية ضده من قبل البافاريين لم يترددوا فى توجيه ضربة قوية إلى سكسونيا . وكشفت هذه

([1]) Liudprand of Cremona,pp.97-98,110-112; Previte-Orton.,Italy,pp.152-153.

لمــا رأى أدالبرت أنه قد أحيط به من قبل المجريين لجأ إلى الحيلة بأن ألقى بحزامه البراق وأساوره الذهبية وارتدى زى جندي ولما وقع فى قبضتهم أخبرهم بأنه مجرد جندي مراسل وتوسل إليهم أن يــأخذوه إلى مدينة Calcinate المجاورة ليدفع له أقاربه الفدية المطلوبة ، وكان الذى دفعها هناك ــ دون أن يعلموا ذلك ــ أحد أتباعه وهو شخص يدعى ليو . مثل هذه الرواية وغيرها مما يعج بها مصــدر لــيودبراند الكريمونى يجب التعامل معها بحذر فبغضه الذى عبر عنه فى أكثر من موضع لهؤلاء الأعداء ومحاولته إظهارهم فى صورة الوثنيين الأجلاف ، يدفعنا لذلك ، انظر :

Liudprand of Cremona,pp.98-99.

([2]) Liudprand of Cremona,pp.83-84 ; Flishe., Histoire,p.37.

الضـــربة عن مدى ضعف التنظيم العسكرى والخلل الشديد فى نظام الدفاع الألمانى . فقـــد انســـاب المجريون كالسيل فى سكسونيا دون أن يعيقهم عائق ، وفر الناس أمامهم ليختبـــئوا فى الغابات المجاورة ، ولم يجد هنرى الأول أمام عجزه عن المقاومة سوى أن يحصـــن نفسه فى قلعة ورلا Werla (عند قاعدة جبال هارز Harz) . إلا أن الحظ ســاعد هـــنرى الأول حيـــنما وقـــع زعيم مجرى كبير أسيرا فى يديه ورفض تسليمه للمجرييـــن قـــبل الدخول فى مفاوضات معهم ، وهى المفاوضات التى وافق بموجبها زيـــادة الإتـــاوة والاستمرار فى دفعها، مقابل انسحابهم وقبولهم بهدنة أمدها نحو تسع سنوات . بيد أن هجوم المجريين على سوابيا واللوريين فى عام ٩٢٦م ونهبهم الأديرة هـــناك يثبت أن هذه الهدنة كانت قاصرة على سكسونيا وثورنجيا فقط ، ولم يجد هنرى حيـــنها بـــدأ من دفع إتاوة أخرى مقابل مد هذه الهدنة لسبع سنوات لتشمل باقى الأقاليم الأخرى (١) .

واســـتغل هـــنرى الأول هذه الهدنة فى بناء الحصون والقلاع وتجهيز الجيوش للقـــاء المجريين لقاءا حاسما ، خاصة بعد أن وقف إلى جواره حكام الدوقيات والأمراء المحلييـــن فى بافاريا وفرنكونيا واللوريين. وبدأ هنرى الأول مشروعه العسكرى ضد المجرييـــن ، وكانـــت ثمـــار هذا التحالف طيبة وانعكست بصورة مباشرة على موقف هـــنرى الأول تجـــاه الإتاوة السنوية المقررة للمجريين . حينما جاء سفراؤهم فى عام ٩٣٣م يطالـــبونه بالإتاوة المقررة ، فرفض بشدة وطردهم من بلاده ، مما أثار حفيظة المجرييـــن وجعلهـــم يوجهون على الفور حملة قوية لمعاقبة العاهل الألمانى على رده الســـافر (٢). وبمجـــرد أن علم هنرى الأول بقرب قدومهم أرسل الرسل فى الحال إلى سكســـونيا يطلـــب من كل رجل يستطيع حمل السلاح أن يأتى فى غضون خمسة أيام

---

(١) Stephenson,Hungary, p.108 ;Lane Poole., Germany, p.182, Note , no.1;Fliche.,Histoire ,pp.37-38.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ،ج١ ، ص ٣٠٠ ؛ محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٥٨.

(٢) Lane Poole., Germany,pp.182,185; Flishe., Histoire,p.38.

لمزيد من التفاصيل حول جهود هنرى الأول وتنظيماته العسكرية ، انظر :

Lane Poole., Germany,pp.182-184 ; Fliche., Histoire,p.38 .

على الأكثر وإلا سيكون الموت مآله .ونجح قبل انقضاء هذه المدة فى جمع جيش قوى مـــن السكســـون . وبينما هو يخطب فيهم ــ رغم ما أصابه من مرض منذ علم بقدوم المجرييـــن ــ ليحـــثهم على الصمود والقتال ، إذ بالأنباء تأتى بوصول المجريين إلى قلعـــة مرســـبرج Merseburg على حدود السكسون وقتلهم وأسرهم أعداداً هائلة من الـــرجال والنساء والأطفال وإعلانهم عن عدم ترك أى شخص يتعد العشر سنوات كى يثـــيروا الرعب والفزع بين السكان (١) . فقاد هنرى الأول جيشا قويا متجها نحوهم ، والـــتقى الجانـــبان فى شهر مارس قرب مرسبرج فى معركة شرسة كان النصر فيها حليفا للألمان بعد أن مزقوا صفوف المجريين وأجبروا من نجا منهم على الفرار . وما أن ســـمعت باقى جيوش المجريين بهذه الكارثة حتى تخلت عن مقابلة جيوش الفرنجة عـــائدة إلـــى بلادهـــا (٢) . أرجـــع ليودبراند الكريمونى النصر فى هذه المعركة إلى شـــجاعة هنرى الأول والتزام جنوده بالنصيحة التى أسداها لهم قبيل دخول المعركة " عـــندما تـــندفعون مسرعين إلى المعركة ،لا يتقدم أحدكم على الآخر ــ لأن حصانه أقوى وأسرع ــ ليسبقه . أحموا أنفسكم بدروعكم الصغيرة من جهة تتلقون فيها أول دفعـــة من سهام الأعداء ، ثم اندفعوا نحوهم بكل ما أوتيتم من سرعة وما أكننتم من غضـــب قـــبل أن يطلقـــوا دفعة أخرى ، ليجدوا ضربات سيوفكم فوق رؤوسهم " . ثم أشـــار إلـــى صـــرخات الجـــنود مـــن الجانبين أثناء المعركة ، ففى الوقت الذى كان المسيحيون يقولون " لترحمنا أيها الرب " كان الوثنيون يصيحون صيحتهم المشهورة " Hui hui " (٣).

كان لهذا النصر صدى كبيرا ،حيث رفع من مكانة الأسرة السكسونية الحاكمـــة

---

(١) Liudprand of Cremona, pp.83-84 ; Lane Poole., Germany,p182.

لمعرفة نص الخطاب الذى ألقاه هنرى الأول على أتباعه ، انظر :

Liudprand of Cremona, pp.83-84 .

(٢) Liudprand of Cremona, pp.85-86 ; Lane Poole., Germany,p.185.

(٣) Liudprand of Cremona.p.85.

فـي ألمانيا . وحاز هنرى الأول شهرة عظيمة واحتل مكانة هامة فى هذا الجانب من دولـة الفرنجة . ولكن كان هذا النصر آخر جهد قام به الإمبراطور هنرى الأول ضد المجريين ، حيث توفى يوم ٢ يوليو عام ٩٣٦م عن عمر يناهز الستين عاما ، وبعد فترة حكم دامت نحو ثمانية عشرة عاما تمكن خلالها من وضع أسس الملكية الألمانية وتثبيت هذه الأسس تثبيتا ظهر أثره واضحا بعد ذلك فى عهد ابنه وخليفته أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ –٩٧٣م) (١) .

كـان المجريون على دراية بما يواجه الإمبراطور أوتو الأول من مشاكل داخلية نتيجة لسعيه لبسط نفوذه على مختلف أرجاء ألمانيا ، ورغبته فى مد هذا النفوذ ليشمل إيطاليا أيضا ، بهدف الجمع بينهما فيما يعرف بالإمبراطورية المقدسة(٢). لذلك رأوا أن الفرصة أصبحت سانحة للانتقام للهزيمة السابقة وممارسة نشاطهم المفضل من السلب والنهب . وقاموا بشن حملة فى عامى ٩٣٧ ، ٩٣٨م على ثورنجيا وسكسونيا ، لكـن واجهتهم مقاومة شديدة فعادوا إلى بلادهم دون طائل . وحينما كرروا حملتهم فى عـامى ٩٤٨ ، ٩٤٩م حاقت بهم هزيمة ساحقة على يد هنرى دوق بافاريا . جعلتهم هـذه الهـزائم أشد إصرارا على قتال أوتو الأول ، فأغاروا فى عام ٩٥٤م وساعدهم هـذه المـرة اثنان من معارضيه ، هما لويدولف liudolf دوق سوابيا وكونراد دوق اللوريين ، اللذين زودوهما بمرشدين داخل ألمانيا نكاية فى أوتو الأول (٣) . فاجتاحوا بافاريا وفرانكونيا وتم الاحتفال بهم علنا فى ورمز Worms وقدمت لهم الهدايا الفضية والذهبية وقادهم كونراد عبر نهر الراين على أمل أن يساعدوه فى استرداد دوقيته التى ظـل سـكانها علـى ولائهم لأوتو الأول ، ولكن دون جدوى . وتوغل المجريون فى

---

(١) Liudprand of Cremona, p.154; Fliche .,Histoire ,pp.38-39;LanePoole.,Germany,p. 186.

انظر أيضا : محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٥٦ ؛ سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ، ص ٢٩٩.

(٢)لمزيد من التفاصيل عن جهود أوتو الأول لتوحيد ألمانيا والجمع بينه وبين إيطاليا تحت سيادته، انظر :

Lane Poole., Germany,pp.186-203.

(٣) Lane Poole., Germany,pp.191,198.

آتريخــت Utrecht يدمـــرون كـــل شئ فى طريقهم ثم تحركوا بعد ذلك جنوبا خلال فـــيرماندوا Vermandois ولاون Laon وريمـــس Rheims حـــتى دخلوا برجنديا ، ولكـــن ســـرعان ما تفشى فيهم المرض ، مما أدى إلى تناقص أعدادهم ودفعهم بالتالى إلى العودة إلى بلادهم عن طريق إيطاليا (1) .

لـــم تمـــض فترة قصيرة حتى عاود المجريون الهجوم من جديد على ألمانيا فى بدايـــة عام ٩٥٥م ، نظرا لما حققوه من نجاح فى حملتهم السابقة . غير أن الحملة فى هـــذه المرة باءت بالفشل ، ولم ييأس المجريون ، فقد أرسلوا سفارة إلى أوتو الأول فى سكســـونيا تطلـــب المودة في الظاهر ، ولكنها كانت تستهدف التجسس ومعرفة أحوال الـــبلاد ومواطن الضعف فيها . وفى أغسطس من نفس العام (٩٥٥م) عاودوا الهجوم ثانـــية علـــى الأراضـــى الألمانية حتى اقتربوا من مدينة أوجسبرج ، مما دفع أسقفها يولـــريك Ulric إلـــى مكاتبة أوتو الأول يصف له الحالة السيئة والقلق الذى انتابه من جراء وصول المجريين إلى ضفاف نهر لخ على مقربة من مدينته ، وأنه يصعب على أهلهـــا الصـــمود أمـــام تلـــك الجموع الغفيرة من المجريين ؛ لذلك يستنجد به ويطلب الحضور بنفسه لمساعدته في الدفاع عن مدينته (2) .

لـــم يـــتأخر أوتو طويلاً عن نجدة المدينة ، ففى العاشر من شهر أغسطس اتجه جـــنوبا نحوهـــا علـــى رأس قوة عسكرية من السكسون أضيفت إليها قوات أخرى من مخـــتلف أرجـــاء ألمانيا أثناء مسيرته عبرها حتى أصبح لديه جيش جرار يضم ثمانية فصـــائل ، ثلاثـــة مـــن بافاريا ، اثنان ، من سوابيا ، واحدة من ساكسونيا ، واحدة من اللوريـــن ، وأخيرة من بوهيميا Bohemia . ولم يدخل أوتو فى معركة مع المجريين إلا بعـــد أن راقـــب تحركاتهم وقدر من خلالها مدى أعدادهم . ثم انتهز فرصة هبوب ريـــح ودخـــل مع المجريين فى معركة شديدة على الضفة اليسرى لنهر لخ فى منطقة

---

(1) Lane Poole., Germany, p.198

(2) Simon of Keza., Hungarorum,pp.91-93; Lane Poole., Germany,p.199.

لخفلــد Lechfeld . فحاقت بالأخيرين هزيمة ساحقة وتعقبهم أوتو على مدى ثلاثة أيام ليقضى على فلولهم ([1]) .

كانــت نتائج هذه المعركة عظيمة الأهمية بالنسبة للجانبين . فقد لقب أوتو الأول بــأوتو العظــيم ، كما أخذ زمام المبادرة ومد نفوذه شرقا على حساب المجريين وأقام علــى أكتافهم ماركية أوستريا (النمسا) . أيضا كان استخدام المسافرين لممر برنر ــ أســهل الممرات بين لمبارديا وألمانيا ــ ضيقا بسبب تهديد المجريين للمارة فيه ، ولم يخلــص ذلك الطريق للمسافرين إلا بعد انتصار أوتو الأول فى هذه المعركة . كذلك لم يفكر المجريون مرة أخرى فى شن حملات على مملكة الفرنجة ، بل اقتنعوا بضرورة التخلى عن فكرة الهجرة والترحال مرة أخرى ، بل يجب السعى للاستقرار الآمن([2]). ولاشــك أن اســتقرارهم فــى أعقاب هذه المعركة ، أدى إلى تغييرات كبيرة فى حياة المجريــن ، حيث أخذوا يستغلون بيئتهم الطبيعية الخصبة ، ويستبدلون نظامهم القبلى بالســلطة المركزية القوية . كما استغلوا وقوع بلادهم عند نقطة تقاطع مجالين ثقافيين ــ همــا الــثقافة الغربية أواللاتينية – الألمانية Latino-Germanic ،والثقافة الشرقية أواليونانــية–الســلافية Greco-Slav ــ ووازنوا بين الفوائد التى يمكن أن تعود عليهم مــن وراء اعتــناقهم المســيحية مــن قبل أحد قطبيها ــ روما والقسطنطينية ــ ولما

([1]) Simon of Keza., Hungarorum,p.93 ; Lane Poole., Germany,p.199; Bloch.,Society, p.11.

انظر أيضا :محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٦٦.

هناك خلاف كبير بين المؤرخين حول الموقع الدقيق لهذه المعركة . عارض بعضهم وقوعها جنوب المديــنة على الضفة اليسرى للنهر فى لخفلد على أساس أنها وقعت على الضفة اليسرى للنهر ولكن شمال غرب أوجسبرج . فى حين اقترح بعضهم الأخر وقوعها على الضفة اليمنى للنهر جنوب شرق المدينة ، ورأى فريق ثالث أن الضفة اليمنى للنهر شمال شرق المدينة كانت المسرح لهذه المعركة ، انظر :

Lane Poole., Germany,pp. 199-200, Note, no,1.

([2]) Lane Poole., Germany, p.200; Previte-Orton., Italy,p.160.

انظر أيضا : أرشيبالد لويس : القوى ، ص ٢٧٣؛ سعيد عاشور : أوربا ، ج١ ص ٣٠٤.

اعتـــنقوها وصـــاروا ضـــمن مجـــتمع الشعوب المسيحية ، اكتمل هيكل دولتهم واتخذ حـــاكمهم لأول مـــرة وهـــو القديس ستيفن الأول Stephen I (١٠٠٠-١٠٣٨م) لقب ملك (١) .

أخيرا ، ما الذى يمكن أن نخرج به من هذه الدراسة ؟ يمكن استخلاص ما يلى:

أولا : يعتـــبر تـــاريخ المجريين الباكر من الأمور الغامضة لقلة المعلومات التى وردت عـــنهم فى المصادر ، بل تفتقر هذه المعلومات لعنصرى الضبط الزمنى وتحديد الموقع الجغـــرافى ؛ ممـــا أدى إلى وجود تباين شديد فى وجهات نظر المحدثين بشأن بعض القضايا التى ما تزال دون حسم وتحتاج للمزيد من البحث والدراسة .

ثانـــيا : اخـــتلف اتجاه حملات المجريين باختلاف موقع قبائلهم ؛ ذلك أن كل قبيلة من قـــبائلهم الســـبع ، قامت بالحملات التى تحقق أطماعها الخاصة . لذلك فى الوقت الذى أغـــارت القبائل المقيمة فى غرب المجر على ألمانيا وإيطاليا ، فإن القبائل المقيمة فى الشـــرق والجـــنوب أغارت على الدولة البيزنطية ، عبر بلغاريا (٢). ولعل هذا يوضح لمـــاذا حارب المجريون على أكثر من جبهة فى وقت واحد ؟ ولا ترجع الانتصارات الـــتى حققوهـــا إلى ما كانوا يتمتعون به من قوة وشراسة فى ساحة القتال فحسب ، بل وإلـــى اســـتغلالهم الأوضـــاع السياسية التى كانت سائدة سواء فى منطقة الاستبس أو الـــبلقان ووسط أوربا ، فى التمكين لأنفسهم . فلا ريب أن صراع بيزنطة مع بلغاريا، ومملكـــة الفرنجة مع مورافيا، ووقوفهم على الأوضاع السياسية المضطربة فى بعض هـــذه الدول ، قد ساعدهم على ترسيخ أقدامهم فى منطقة الدانوب الأوسط ووضع حجر الأســـاس لبناء كيان سياسى مستقل شكل النواة الأولى لدولة المجر فيما بعد . ونجحوا رغـــم انقســـامهم الداخلى فى ظل النظام القبلى ، فى الحفاظ على أنفسهم وعلى هويتهم التركـــية ـــ على الأقل طوال النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ـــ من الذوبان وسط غيرهم من المجموعات العرقية الأخرى .

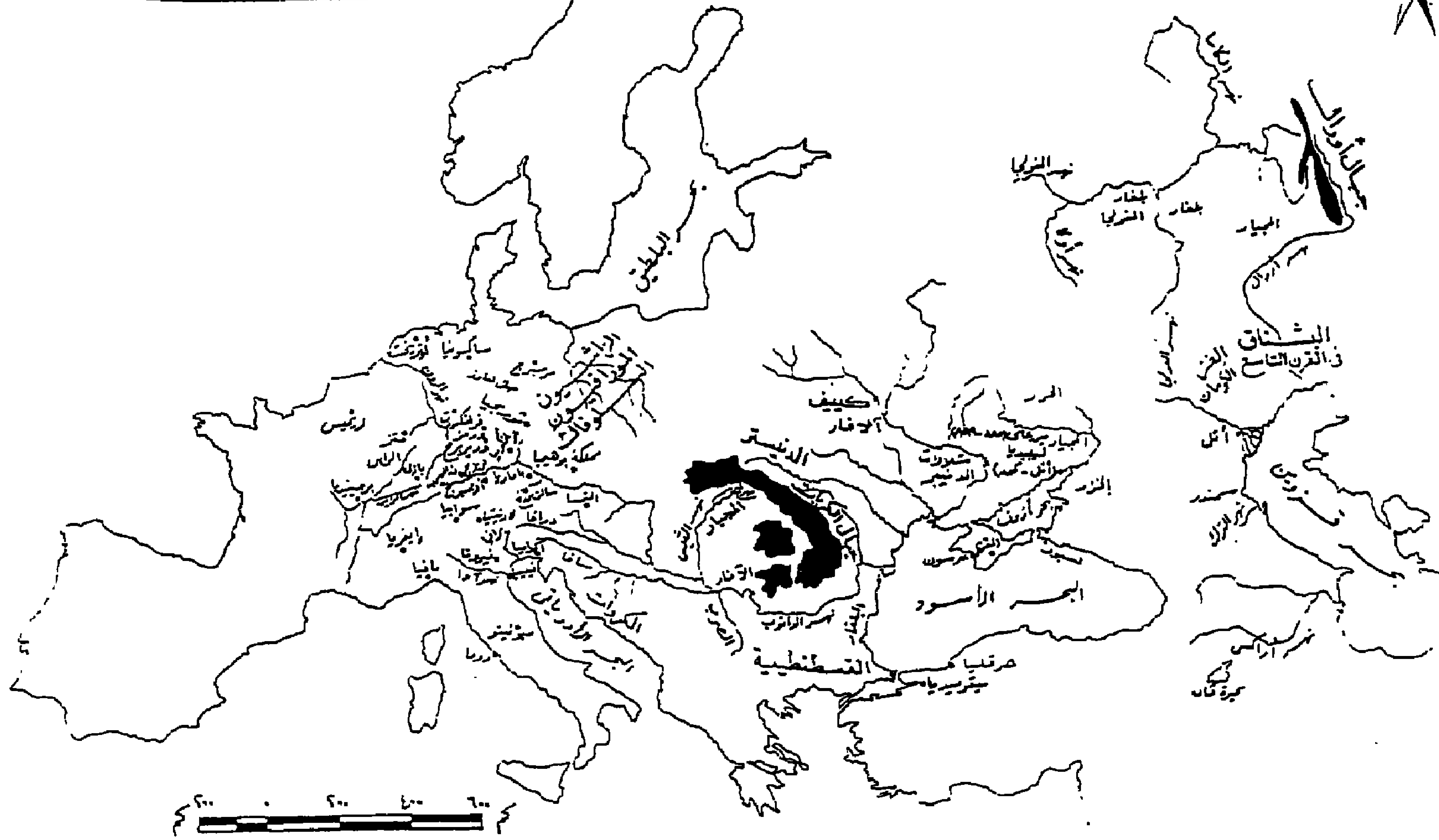
---

(١) Moravcsik., Hungary.pp.572-573.

(٢) لمزيد من المعلومات حول الغارات المجرية على بيزنطة ، انظر :
Moravcsik., Hungary.pp.569-571; Vasiliev., Empire,p.319.

ثالـثا : كانت حملات المجريين على مملكة الفرنجة بهدف السلب والنهب وليس بهدف الإقامة والاستقرار ، وكانت تفتقر إلى النظام والإعداد الجيد ، ولذلك لن نبالغ إذا قلنا أن أغلبها كان نوعا من الإغارات الشرسة ، ولكنها ذكرت من قبل المحدثين كحملات على أساس لم تكن خاطفة ، بل استغرق بعضها ما يزيد على العام فى داخل مملكة الفرنجة . وساعد على نجاحها تزامنها مع ما ألم بمملكة الفرنجة فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى من انقسام وضعف . ولذلك بمجرد أن تمكن أوتو الأول من توحيد ألمانيا وإيطاليا نجح فى مواجهتها وأنزل بالمجريين هزيمة ساحقة جعلتهم يعيدون النظر فى هجماتهم على بلاده ويتخلون عنها . ومن ثم ، إذا كان سقوط مورافيا عام ٩٠٥-٩٠٦م يمثل نقطة التحول الأولى بالنسبة للمجريين ، فإن هزيمتهم فى معركة لخفلد تمثل نقطة التحول الكبرى فى تاريخ دولة المجر فى العصور الوسطى .

الخريطة السياسية لمواطن هجرة المجريين وحملاتهم على مملكة الفرنجة بين عامي (٨٩٦-٩٥٥م)



قائمة المصادر والمراجع والمختصرات

أولا: المصادر والمراجع الأجنبية .

Bakay
Hungary — Bakay , K.," Hungary "**NCMH**, III, (900 – 1204) , (Cambridge, 1999) pp.536 –552 .

Bloch.,
Society — Bloch,M,Feudal Society,trans byL.A Manyon,vol.l, America 1964.

Bury.,
Eastern — Bury,J.B.,A history of the Eastern Roman Empire , From the Fall of Irene to the accession of Basil 1 , (London, 1912) .

B — Byzantion,(Bruxelles,1939) .ff .

BMGS — Byzantine and Modern Greek Studies

Cedrenus..,
Historiarum — Cedrenus,G., Historiarum Compendium **CSHB**,ed, Bekker I,II.(Bonn,1838) .

Costantine Perphorgenitus ., De Administrando Imperio .

وقد رجع الباحث إلى الترجمة العربية لكتاب : إدارة الإمبراطورية البيزنطية،عرض وتحليل وتعليق د / محمود سعيد عمران،(بيروت ، ١٩٨٠م) .

DAI — De Administrando Imperio ed &Com by,Jenkins and Others ,2 (London, 1962) .

CMH — Cambridge Medieval History,(Cambridge,1981)ff .

CSHB — Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonn,1838)ff .

Davis .,
Europe — A Davis ., R ., History of the Medieval Europe (London,1957) .

Dvornik.,
Slaves — Dvornik,F.,Les Slaves , Histoire et Civilisation de L'antiquité aux Debuts de l'époque Contemporaire, Traduit de L'anglais par Pavlevski, avec la

Collaboration de Maroussia Choplyansky, (Paris, 1970)

Dummler , **Geschichte** — Dummler ,E Geschichte des Östfronkischen reichs T.III,Die letzten Karolinge Conrad I(Leipzig1888).

EME — Early Medieval Europe .

El — Encyclopaedia of Islam .

Fliche., **Histoire** — Fliche,A., Histoire du Moyen age, T.II, L'Europe Occidentale de1125, A 888 (Paris, 1930) ff.

Fried, **Frankish** — J Fried.,"The Frankish Kingdoms, 817-911:The est and middle Kingdoms" **NCMH** ,II (Cambridge, 1995) pp. 142-168.

Georgius Monachus Continuatus.,Georgius Monachus Continuatus in Theophanes Continuatus **CSHB** ed Bekker.I, (Bonn,1838), pp.761-924 .

Grégoire., **Origine** — Grégoire.,H.,"Le nom et L 'Origine des Hongrois" dans Zeitschr d.deutsch .morgenlondischen Gesellschaft ,91(1939) pp.630-642.

Grégoire., **L'Habitat** — Grégoire.,H.," "L'Habitat " Primitif " des Magyars,et Les"Σαβαρτοιασφαλοι" **B**,13 (Bruexelles, 1938) , pp.267 – 278 .

Guldencrone., **L' Italie** — Guldencrone,D., L' Italie Byzantine , étude sur le haut moyen âge ,400-1030,(Paris 1914).

Halphen ., **France** — Halphen,L., " France , the last Carolingians and the accession of Hugh capet (88-987)" **CMH**,III. ed Hussey.J (Cambridge,1981)pp. 71-98.

Hudud Al Alam.,"The Regions of the World " A Persian Geography,372 A.D., trans,and explained by V.Minorsky,(Oxford,1937).

Kaldy –Nagy., **Madjar**	Kaldy-Nagy, Gy., Madjar, Madjaristan, **EI**,5(1986) pp.1010-1033.
Lane Poole., **Germany**	Lane Poole , A ., " Germany : Henry I and Otto the Great " **CMH**,III .ed Hussey.J (Cambridge, 1981) pp.175-203 .
Lewicki, **Hongrois**	Lewicki , A . , " Les noms des Hongrois et de L'Hongrie chez les medievaux geographes Arabes et Persans " dans Folia Orientalia,19 (1978) pp.35-55.

Liudprand of Cremona., The Works of Cremona.,ed,BGG,Coulton and Eileen Power Eng Trans,by. F.A.Wright (London,1930)

Macartney., **Magyars**	The Magyars in the Ninth century ,(Cambridge , 1930) .
Mckitterick., **Frankish**	Mckitterick , R ., The Frankish kingdoms under Carolingians, (London,1983).
Moravcsik, **Hungary**	Moravcsik , G ., " Hungary and Byzantium in the Middle Ages " **CMH** , ed Hussey .J, IV /1 (Cambridge, 1975), pp.566 – 592 .
NCMH	The New Cambridge Medieval History,1999,ff .
Nikolov ., **Magyar**	Nikolov,S., " The Magyars Connection or Consta-ntine and Methodius in the Steppes " **BMGS** , 21 (1997) pp.79-92.
Obolensky., **Commonwealth**	Obolensky , D ., - The Byzantine Commonwealth Eastern Europe 500 – 1453, (London, 1971) .
Obolensky., **Crimea**	Obolensky , D ., " The Crimea and the north before 1204" Αρχειον Ποντου 35 = Papers given at the 12 th Spring Symposium of Byzantine Studies, Birmingham,1978, Athens,1979,pp.123-133.
ODB	Oxford Dictionary of Byzantium .

Oman., **Dark** — Oman,Ch.,The Dark Ages,476-918.(London,1914).

Previte-Orton., **Italy** — Previte-Orton,C.,"Italy in the tenth century " **CMH** ,ed Hussey.J III(Cambridge,1981) pp.148-178.

Simonis de Keza., **Hungarorum** — Gesta Hungarorum , ed and trans by Veszpremy , L and Schaer,F, with study by Szucs, I(Budapest ,1999).

Stephenson., **Hungary** — Paul Stephenson ., " Early Medeival Hungary in English " **EME** ed by Julia Crick and Others ,10/1 (Oxford,2001) pp.95-112.

Symeon Magister ac Logothete., Symeon Magister ac Logothete , Symeon Continuatus , In :Theophanes Continuatus , **CSHB** ed Bekker.I, (Bonn,1838) ,pp.603-760.

Theophanes Continuatus.,Theophanes Continuatus , Ioannes Cameniata, Symeon, Magister ,Georgius Monchus Continuatus,**CSHB** ed Bekker.I,(Bonn,1838), pp. 3-481.

The Russian Primary Chronicle.,The Russian Primary Chronicle , English Translation by Cross And Wetzor (Cambridge-Mass,1953) .

Thompson., **History** — Thompson,J.W., History of the Middle Ages ,300-1500,(London,1931) .

Vasiliev., **Empire** — Vasiliev ,A., A history of the Byzantine Empire, 324 – 1453,(Madison ,1952).

Vernadsky., **Lebedia** — Vernadsky,G., " Lebedia Studies on the Magyar Background of Kievan Russia " **B**,15 (Bruexelles, 1939) pp.179-204.

Vita Constantini , Eng trans In Medieval Slavic Lives,ed By Ladislav Matejka , (Michigan, No date) pp.23-96.

Vlasto., **Christendom** — Vlasto , A , P. , The Entry of the Slavs into Christendom ,(London ,1967) .

ثانيا : المصادر والمراجع العربية والمعربة .

أرشيبالد.ر. لويس **القــوى** : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) تــرجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال (القاهرة ، ١٩٦٠م) .

الاصطخرى **مسالك** :أبو إسحاق إبراهــيم بن محمــد الفارسى ت ٣٤٠هــ/ ٩٥١م ، كــتاب مسالك الممالك ، تحقيق محمد جابر عبد الله الحسينى ، (القاهرة، ١٩٦١م) .

الكرديزى **الأخبار** :زين الأخبار ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، (القاهرة ، ١٩٨٢م) .

المتولى السيد تميم **البشناق** :البشناق والبيزنطيــون ، دراســة فى سياسة بيزنطــة الشمالية (٨٥٠هــ/١١٢٢م) رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، كلية الآداب -جامعة المنصورة (١٩٩٦م).

المسعودى **مروج** : أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦هــ ــ٩٥٧م) ، مــروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ج ، (بغداد، ١٩٣٨م) .

الرمزى م.م **الأخبار** :تلفيق الأخبــار وتلقيح الآثار فى وقائــع قزان وبلغــار وملوك التتار ، ج١ ، (القاهرة ، ١٩٠٨م) .

اليعقوبى **البلدان** :أحمد بن أبى يعقوب بن جعفــر(ت ٢٨٤هــ/٨٩٧م) ، كتاب البلدان ، (ليدن - بريل ١٩٦٧م) .

بطرس البستانى :دائرة المعارف ، ج ٧ (بيروت ، د-ت) .
دائرة

جودة حسنين جودة ، فتحى أبو عيانة ، محمد خميس الزوكة : الجغرافيا الإقليمية ،
الجغرافيا (الإسكندرية د ــ ت).

دنلوب :تاريخ يهود الخزر ، نقله إلى العربيـــة وقدم له د/سهيل
الخزر زكار ، (بيروت ، ١٩٨٧م) .

ذكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصـــور الوسطى ، (القاهرة
الرحالة ، د-ت) .

ليلى عبد الجواد اسماعيل :تاريخ الروس من خلال المصادر العربية،(القاهــرة ،
الروس ١٩٩٠م) .

ليلى عبد الجواد اسماعيل :المسلمون فى بلاد المجر فى العصور الوسطى ، مجلة
المســلمون المــؤرخ المصــرى العدد السابع يوليو(١٩٩١)ص٣٩
-٨٠ .

سعيد عاشور :أوربا العصور الوسطـــى ، التاريـــخ السياسى ، الجزء
أوربا الأول ، الطبعة السابعة (القاهرة ،١٩٩٤م).

طارق منصور محمد :الروس والمجتمع الدولى٩٤٥-١٠٥٤م(القاهرة،٢٠٠١م)
الروس

كيستلر ، س :القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم ، (القاهرة ،١٩٩١م) .
القبيلة

محمد مرسى الشيخ **الفرنجة**	:دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادى٧٥٥-٩٧٦م/ ١٣٨-٣٦٦ه (الإسكندرية ،١٩٨٠م) .
محمد مرسى الشيخ **الخزر**	:الخزر وعلاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية ، العدد الرابع(١٩٨٠م)ص٣٤٨-٣٧٧.
نعيم فرح **أوربا**	:تاريخ أوربا السياسى فى العصور الوسطى ، (دمشق ، ١٩٩٥ م).
هانئ عبد الهادى البشير **بيزنطة**	: بيزنطة وبلغاريا ٦٨١-١٠١٨م (القاهرة ، ٢٠٠١م)
هانئ عبد الهادى البشير **مورافيا**	: بعثة قسطنطين ومثود فى مورافيا (٨٦٢-٨٨٥م) ، مجلة كلية الآداب – جامعة طنطا ، العدد الرابع عشر (يناير ٢٠٠١م) ص ٦٠٣-٦٣٧.
هلستر ، س **أوربا**	:أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمة د/ محمد فتحى الشاعر ، (القاهرة ، ١٩٨٨م).
وسام عبد العزيز فرج **قراءة**	: قراءة فى التاريخ المبكر لكرواتيا ــ البوسنة ــ الصرب فى العصور الوسطى . " دراسات أثرية وتاريخية " مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية ، العدد ٨ (١٩٩٣م) ص ١٤٧-١٩٩.

ب. عرض الكتب والرسائل

عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي، رسالة دكتوراة لم تنشر بعد، كلية الآداب، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس.

عرض/ أحمد المحمودي

المغرب

يهـتم موضـوع هذه الأطروحة بدراسة أوضاع طبقة العامة في إحدى أبرز مـناطق الغرب الإسلامي ويتعلق الأمر بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي كما يسـتهدف إضـافة حلقة أخري لمشروع لا يزال يخطو أولي خطواته في مجال البحث الأكاديمـي، وحسـبنا أن التاريخ للعوام – باعتبار موقعهم في قاعدة الهرم الاجتماعي ومكانـتهم في الاقتصاد والسياسة – كفيلاً بالإفصاح عن حلقة مركزية طالما تم إغفالها فـي التصـورات المعاصـرة لـتاريخ الإسلام – وتسليط الضوء علي الميكانيزمات والأسـس المـتحكمة فـي المسار التاريخي العام، والوقوف علي أدق تفاصيل الحياة اليومـية والثقافـية والدينـية، وتعرية مختلف مكونات ومفاصل البنيان التاريخي وفق تصـور أكـثر شـمولاً واكتمالا قصد إنصاف هذه الطبقة المهملة في الأبحاث العلمية ووضـعها فـي مكانـتها التاريخـية اللائقة، وبالتالي تجاوز متاهات ونقائص التنظير والشـروع عملياً في إنجاز تاريخ للعوام واستيعاب شمولي لكل الاستفهامات والقضايا التي ترتبط بهم.

وممـا يـبرر اختـياري لهـذا الموضوع اقتناعي بضرورة الكشف عن ذلك الإقصـاء والإبهام الذي شمل العديد من الأنشطة الحيوية لطبقة عامة ودورها التاريخي والحضـاري علي عهد الدولة الموحدية التي امتد عمرها من (٥٤١ – ٦٦٨هـ) وهو مـا يمكـن أن يساهم في تفسير وفهم المسار التاريخي للمجتمع المغربي وتطوره أكثر مما تفسره الأحداث العسكرية والتحولات السياسية.

وقـد اعـتمد هـذا الاختيار أيضاً – في الأساس – علي المركز الذي شغلته العامة في إطار البنية الاقتصادية حيث شكلت قوام القوي المنتجة من حرفيين وفلاحين ممـن وقـع علي كاهلهم عبء الإنتاج الاقتصادي، كما ارتكز – أيضاً – علي فعاليتها السياسية التي تنامت بشكل واسع في ظل سيادة الإقطاع وما ترتب عنه من آثار سلبية

بالنسبة للطبقة الوسطي، مما أفسح المجال أمام العامة لتحل محلها في قيادة المعارضة السياسية، والمشاركة بقوة في صياغة الأحداث العامة خلال العصر الموحدي.

ورغم الأهمية العظيمة والبارزة لدور العامة، فإنها لم تنل من مؤرخي السلطة ما يكشف عن هذه الأهمية وظلت خارج اهتماماتهم التي تمحورت حول حياة السلاطين والأشياخ واعتبروها المدخل الرئيسي لفهم حركة التاريخ في هذه الفترة، ومن ثم تفننوا في صياغة عبارات القدح والتنقيص في حق العامة، فهم جماعات من الغوغائيين والسفلة والهمج والرعاع التي لم يكن بمقدورها القيام بأي دور علي الصعيد التاريخي والحضاري، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار انعدام وجود كتابات تاريخية تعبر عن وجهة نظر العامة وتساعد في ذات الآن علي إثارة قضاياهم وما تفرزه من تساؤلات منهجية وموضوعية خاصة بهم في علاقاتهم مع السلطة والمجتمع معاً.

ومن جانب أخر، وارتباطاً بدواعي اختيارنا لهذا الموضوع نعتقد أننا اقتحمنا موضوعاً جديداً وحقلاً بكراً وقطاعاً منسياً ومغيباً، ومن ثم حرصنا علي بذل ما في المستطاع والجهد قصد الإلمام بمختلف الجوانب الخاصة بموضوع العامة، والاستناد إلي كل ما من شأنه أن يساعدنا منهجياً وموضوعياً علي تسليط ما يكفي من الأضواء حول الأدوار التي نسبت للعوام في العصر الموحدي، وكان لزاماً علينا أن نوسع آفاق البحث والمساءلة لتشمل مجمل القضايا والاستفهامات التي يطرحها الموضوع، والوقوف عند أدق التفاصيل وذلك بالركون إلي توسيع دائرة المصادر لتشمل مختلف المصنفات الوسيطة وذلك بإجراء قراءات واسعة في متونها، والانفتاح علي المظان التي ظلت مهمشة، ولم شتات النصوص المبعثرة، والانتباه إلي قيمة المصادر غير المستعملة، ما يوفر المادة والأدوات الكفيلة باقتحام الموضوع، وهكذا فقد استفاد البحث من مضامين كتب التراجم والطبقات والنوازل والأحكام الفقيهة، وما تزخر به كتب الفلاحة والأطعمة والتصوف والمسالك والممالك والمعاجم الجغرافية والحكم والأمثال وكتب الحسبة.

واقتـــناعاً بأهمية توسيع مجال القراءة لتشمل مختلف أصناف التأليف لم نذخر جهــداً في استغلال فيض من المصنفات الأدبية بما في ذلك كتب الشعر والمستظرفات والحكايــات الرمــزية، والاســتفادة مــن الرســائل واستقراء محتويات بعض الكتب الموضوعة في الطب والأوزان والمكاييل وفهارس الكتب والتسفير.

وللوقــوف عن كثب علي تطور الاهتمامات في أوساط المختصين في التاريخ الاجتماعــي والمشــتغلين بــتاريخ الغــرب الإسلامي عموماً ومتابعة القضايا المثارة وتحصــيل النتائج وفحص المناهج، تشعبت القراءة فيما لا يسع ذكره في هذا المقام من كــتاب العــرب والمستشــرقين فــي مجالات الفلاحة والثقافة والنظم السياسية، وفي المواصــلات والأغذيــة واللغة والفنون وغير ذلك مما يتصل بالموضوع من قريب أو بعيد، ولم نغفل الاستفادة من حصيلة عدد من الأبحاث الاركيولوجية مع توسيع القراءة لتشــمل عــدداً مــن الدراســات التي أنجزت عن المشرق الإسلامي وبعض الممالك المســيحية والمــدن الإيطالــية بمــا يفيد المقارنة وتدقيق ما انتهينا إليه من خلاصات واستنتاجات.

واســتفدنا أيضــاً من المنهج المقارن وذلك بتوسيع دائرة المقابلة لتشمل العدوة الأندلســية وبــلاد المشرق فضلاً عن بلاد الفرنجة في محاولة لاستخلاص خصائص العصر المميزة.

وبفضــل ما تراكم من مادة تاريخية أمكن تناول الموضوع وفق نظرة شمولية تــتوخى الإحاطــة بمخــتلف الجوانب ورصد كافة التجليات وارتباطها بعضها ببعض مســتهدفاً مــتابعة الظواهــر التاريخــية في نشأتها وتكوينها وتطورها مع وضعها في السياق ضمن المسار العام.

ووظفنا المادية التاريخية وأدواتها العلمية مدعمة بمنهجيات شتي مستوحاة من أحــدث ما كتب في مجال المناهج، ومن أوثق المصادر العربية في الهيكلة والتصنيف والوصــل بيــن البنيات والأنساق والمستويات، ولم نغفل الاستعانة بالمناهج الحديثة في علــم الاجــتماع اللغوي والسيميائيات من أجل ضبط المصطلحات والمفاهيم والإحاطة بمكامن التفاعل بين العامية والفصحي والأعجميات المتعايشة.

واســتناداً إلــي هــذا التناول المنهجي تمت دراسة الموضوع في ستة فصول بالإضــافة إلي مقدمة وخاتمة وثبت بالمصادر والمراجع والدراسات، وتتضمن المقدمة دراسة نقدية للمظان المعتمدة مع إبراز قيمة كل صنف في تغطية مباحث الأطروحة.

خصــص الفصل الأول لرصد البنية الاقتصادية للمجتمع المغربي ودورها في صــياغة الهــرم الاجتماعي علي أساس "طبقي" وذلك بتتبع مسار تطور أشكال ملكية الأرض وتحديــد نمط الإنتاج السائد، فضلاً عن إبراز القسمات العامة للنشاط الزراعي – الرعوي، والنشاط الصناعي والتجاري، واهتم الفصل الثاني بتحديد الشرائح المكونة لطــبقة العامــة والتفصيل في وضعيتها الاجتماعية والاقتصادية تأسيساً علي أنه رغم تــنوع شــرائح هــذه الطــبقة إلا أنها تشترك جميعاً في ضآلة حيازتها للثروة، وعالج الفصــل الثالــث بعــض مظاهــر الحياة الاجتماعية لطبقة العامة رابطاً بين المظاهر والأسباب.

وتعــرض الفصل الرابع لذهنيات العامة باعتبارها تجليات للوقائع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة.

وتصــدي الفصل الخامس لمعالجة العلاقة بين المتصوف والعامة إن تأييداً أو إن انحــيازاً للسلطة، كما عرض تأثير المتصوفة في كثير من معتقدات العامة وصياغة نظرتها للوجود.

أمــا الفصل السادس والأخير فتناول الدور السياسي لطبقة العامة فعالج شطره الأول العلاقــة المصــلحية بيــن العامــة والخلفاء وتضمن شطره الثاني تحليلاً لأبرز ثــورات العامــة ذات الــبعد الاجتماعــي في مطالبها وموقف السلطة الموحدية منها، ورصــدنا فــي الخاتمــة أهــم مــا أســفرت عنه هذه الدراسة المتواضعة من نتائج واستخلاصــات نــأمل صــادقين أن تصــلح لتعزيز رصيد الأبحاث الخاصة بالتاريخ الاجتماعي المغربي في العصر الوسيط عامة وفي العصر الموحدي خاصة.

وتفاديــاً للإطــناب فــي عــرض نتائج هذا البحث الذي سيستفيد ولاشك من ملاحظــات الســادة الأســاتذة الأفاضــل أعضاء اللجنة الموقرة نود أن نشير إلي أن الأوضاع الاقتصادية المتردية ساعدت علي توضيح كثير من جوانب البنية الاجتماعية

حيث كان للتطورات الاقتصادية أثرها الفعال في صياغة البناء الطبقي للمجتمع المغربي فاحتلت ذراه الطبقة الأرستقراطية التي تصدرتها – من حيث الأهمية – الشريحة العسكرية التي شكلت دعامة النظام الأساسية وتليها الطبقة الوسطي وأخيرا طبقة العامة التي احتلت أسفل الهرم الطبقي.

وقد فصلت الدراسة الحديث عن طبقة العامة موضحة المتغيرات التي طرأت علي كيانها والوضعية الاجتماعية لشرائحها المختلفة.

وحتى يكتمل التصور العام عن الكيان الاجتماعي لطبقة العامة كان من اللازم معاينة طبيعة واقعها المعيشي ومظاهر حياتها اليومية وتجلياتها الذهنية والفنية والتلقائية وذلك عبر: دراسة التكوين العائلي عند العامة التي احتلت المرأة خلاله مكانة متميزة – عكس نساء الخاصة– الأمر الذي يشي بدور العامة الاجتماعي الفعال، وابراز سمات منازلهم وطابع ملابسهم ومأكولاتهم ، واستعراض مجالسهم واحتفالاتهم العامة ووسائل الترفيه التي يمضمون بها أوقات فراغهم • وعلى جانب أخر لم يغب العامة عن الحياة الثقافية والاجتماعية بإبداعاتهم الأدبية والفنية ذات الطابع الشعبي "والفلكلوري" فقد تجاوز دورهم تذوق عيون الأدب التقليدي إلي أسهامهم من خلال لهجتهم العامية في الحفاظ علي حياة كثير من ألفاظ اللغة الفصحي التي هجرتها فنون الأدب الرسمي مما يفند كثيراً من المزاعم التي تلهج بخطورة لهجة العامة وآدابها علي اللغة العربية الفصحي، كما فرض العامة وجودهم علي ساحة الأدب الرسمي بالإنتاج الشعري، وعلاوة علي ذلك فقد خاض وجدانهم بأدب تلقائي يعبر عن واقع حياتهم ويعكس طموحاتهم وآمالهم خلال أشكال غاية في التنوع والثراء.

أما عن علاقة العامة بالمتصوفة فقد تجلت بالخصوص في الجانب الإنساني والإحصائي الذي يظهر خاصة في أوقات الأزمات والمجاعات، ولم يقتصر دور المتصوف علي النواحي الاجتماعية فقط بل تعداه إلي جوانب أخري كالتخفيف من جبروت السلطة وإقبالهم علي تعليم ووعظ العامة.

بالـرغم من محاولات المتصوفة لإصلاح وإنعاش أوضاع العامة المتأزمة إلا أنهم في الواقع لم يزيدوها إلا خمولاً وإحباطاً وهو ما عطل جزءا من قدراتهم الذهنية ووفر مزيدا من عناصر الانغلاق فاسحا المجال لتفشى الخرافات والشعوذة ،

والظاهرة أن العامة وجدت في الخطاب الكرامى ما يناسب أوضاعها ويوافق تطلعاتها فهو إفراز لواقعها المعيشي ،

وفى ما يتعلق بدور العامة على الساحة السياسية تقصى البحث صيغ وأشكال الـثورات التـي أقامـتها العامة وذلك بتحليل أبعادها الاجتماعية والفئات التي انضوت تحت لوائها،

والملاحــظ أنـــه بالرغم من أن هذه الثروات أتاحت للعامة المشاركة بقوة في صياغة الأحداث السياسية في تلك الفترة، فإنها عجزت عن تحقيق أغراضها أو إحداث تغيـيرات جذريــة علي الصعيد السياسي والاجتماعي ويرجع ذلك بالأساس إلي انعدام التنظـيم وتخلــي الطــبقة الوسطي عن قيادة الحركة السياسية، فضلاً عن قمع السلطة المتواصل لنشاطات العامة.

وعلي جانب أخر يمكن الإشارة أن العامة بفضل هذه الثورات نجحت في لفت الأنظــار إلــي الواقع المأساوي الذي تعيشه وإجبار السلطات القائمة علي التخفيف من شطط استغلالها.

وتجــدر الإشارة إلي أن شح المادة التاريخية قد أفضي إلي عدم استيفاء بعض الموضــوعات حقهــا مــن الدراسة فظلت إشكالات مطروحة علي بساط البحث مثل: الإحصـــاء العــددي للعامة، أشكال جباية الأرض العينية والنقدية في العصر الموحدي وعلاقــتها بمســتوي تطور البنية الاقتصادية، فضلاً تنظيمات الأصناف التي ما يزال تركيــبها الداخلي والعلاقة القائمة بين أصحاب العمل والأجراء من الأمور التي يكتنفها الغموض.

وفــي الــنهاية يمكــن الإشارة إلي أن المعطيات التي ساقها البحث عن مدار صــفحاته قــد أكــدت الدور الحيوي والهام الذي قامت به العامة علي صعيد الحضارة الإســلامية، الأمر الذي يحتم دمجها في نسيج تلك الحضارة بدلاً من نفيها خارج إطار تاريخها المسطور.

عبد المحسن طه رمضان، الحروب الصليبية في الأندلس ميلادها وتطورها مع دراسة نقدية لمصادرها العربية والأسبانية حتى القرن العاشر، القاهرة، ٢٠٠١.

عرض/ محمد مؤنس عوض

مصر

يقع الكتاب القيم المذكور في ٦٧٤ صفحة من القطع المتوسط، واحتوي علي التمهيد والذي انقسم بدوره إلي المقدمة ثم تعريف بأهم المصادر والمراجع، ثم أربعة أبواب احتوت تسعة فصول، وهي كالآتي: الباب الأول، وعنوانه: إقليم اشتوريس حتي الفتح الإسلامي في عام ٧١٤م/ ٩٥هـ، وانقسم إلي فصلين، الفصل الأول، اشتوريس قبل الفتح الإسلامي، الفصل الثاني، الفتح الإسلامي لإقليم اشتوريس أما الباب الثاني فعنوانه: المقاومة الأسبانية في طور التكوين ٧١٤ – ٧٣٩م/ ٩٥ – ١٢١هـ، واحتوي فصلين الأول بلاجيوس وميلاد المقاومة في إقليم اشتوريس، الفصل الثاني تطور المقاومة في اشتوريس حتي عام ٧٢٢هـ/ ١٠٣هـ، الفصل الثالث، رد الفعل الإسلامي للمقاومة في إقليم اشتوريس حتي ٧٣٩م/ ١٢١هـ، أما الباب الثالث، فعنوانه: فرض الوجود الأسباني ورد الفعل الأندلسي ٧٣٩ – ٧٨٨م/ ١٢١ – ١٧٢هـ، واحتوي فصلين، الأول عنوانه قيام مملكة اشتوريس وتجرؤها علي الأندلس ٧٣٩ – ٧٥٧م/ ١٢١ – ١٤٠هـ، أما الفصل الثاني فعنوانه، الانتكاسة الأسبانية ومهادنة الأندلس ٧٥٧ – ٧٨٨م/ ١٤٠ – ١٧٢هـ، وجاء عنوان الباب الرابع: الصحوة الأسبانية واشتداد الضغط علي الأندلس ٧٨٨ – ٩١٠م/ ١٧٢ – ٢٩٧هـ واشتمل علي فصلين هما: الفصل الأول، مرونة اشتوريس وصمودها للضغط الأندلسي ٧٨٨ – ٨٥٢م/ ١٧٢ – ٢٣٨هـ، أما الفصل الثاني فعنوانه تمزق وحدة الأندلس وتفوق أشتوريس ٨٥٢ – ٩١٠م/ ٢٣٨ – ٢٩٧هـ، وأخيراً احتوي الكتاب عللي الخاتمة، ثم عدة ملاحق، ومن بعدها الخرائط، ثم قائمة المصادر والمراجع.

وبدايـــة، أود أن أقدم للمؤلف أصدق التهاني القلبية الصادقة علي صدور كتابه الأول وهـــو فـــي الأصل أطروحتيه للماجستير والدكتوراه، وبالفعل فقد احتوي الكتاب علـــي جهد علمي بارز خاصة من حيث ترجمة المؤلفات المصدرية، والمرجعية، وهي بعـــدة لغـــات أوربية، ولا ريب في أنه يقدم إسهاماً علمياً جديراً بكل تقدير وجاء ليسد ثغرة واضحة المعالم في المكتبة العربية خاصة في مجال دراسات تاريخ المسلمين في الأندلـــس في العصور الوسطي، ولا أغفل هنا ضمن الحديث عن إيجابيات الكتاب أن مؤلفه انفق في إعداده عدة أعوام طويلة فأستحق الإشادة الجديرة به.

ومـــع ذلـــك، فإن أي عمل علمي لابد من أن يحتوي علي بعض الزوايا التي يمكن الاختلاف بشأنها مع المؤلف، مثل طبيعة كافة العلوم الإنسانية ذات البعد الجدلي، ومن البداية أود التأكيد علي عدة حقائق:

أولاً: إن ملاحظاتـــي التالية لا ولن تقلل من القيمة العلمية للكتاب التي أشدت بها في السطور السابقة.

ثانـــياً: إن الملاحظـــات التالـــية ما هي إلا نماذج وليس كافة ما ألاحظه علي الكـــتاب، ولا أتشكك لحظة في أن المؤلف بما عرف عنه من خلق رفيع، وموضوعية سوف يتسع صدره من أجل قبولها حتى ينفذها في الطبعة الثانية بإذن الله تعالي.

ثالـــثاً: ما يتم إبرازه في هذا العرض من تصورات هي بالتأكيد مفيدة للمؤلف خاصـــة أن هذا هو العمل العلمي الأول في صورة كتاب ينشر له، والأمل معقود عليه وعلـــي غـــيره مـــن الباحثين الجادين من أجل إصدار العديد من المؤلفات عن تاريخ المسلمين في الأندلس في العصور الوسطي.

ويمكن إجمال أهم الملاحظات علي النحو التالي:

١. العـــنوان "الحـــروب الصليبية في الأندلس"، والواقع أن المرحلة التي يـــتحدث عنها المؤلف لا توصف بأنها حروب صليبية "حقيقية" بل هي مرحلة ما قبل الصليبيات، Pre-Crusades، فما قبل عام ١٠٩٥م، يعد مقدمات لوجودها الحقيقي مع دعوة البابا أوربان الثاني Urbanus II (١٠٨٨ – ١٠٩٩م) لها في مجمع كليرمونت بفرنســـا، وإلقـــاء خطاب تاريخي في ذلك الشأن في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م، وإلا اعتبرنا

حـروب هرقل ضد الفرس في القرن السابع الميلادي حروباً صليبية، أو حروب القادة العسكريين الذين حكموا بيزنطة مثل نقفور فوكاس ويوحنا تزيمسكس العاشر الميلادي فى الرابع الهجري ضد المسلمين حروباً صليبية، وهو أمر عكس الواقع التاريخي.

لقـد جـاء الكـتاب خالـياً من الحديث عن الدور البابوي، فكيف تكون هناك حروب صليبية دون البابوية وهي التي تعرف أحياناً بأنها السياسة الخارجية للبابوية؟، ثم أن المؤلف لم يقدم لنا البراهين الدالة علي أنها حروب صليبية في معرض دراسته، ممـا يعكس أن العنوان لم يكن موفقاً وكنت أفضل أن يكون هو نفس عنوان أطروحتيه العلميتين اشتوريس والمقاومة الأسبانية للفتح الإسلامي

١- كنـت أفضل ألا يضع المؤلف في العنوان كلمة "ميلادها"، بل نشأتها، أمـا عـبارة "دراسـة نقدية" فأختلف معه بشأنها لأن ما أورده في الكتاب لم يكن كله دراسـة نقديـة كما ذكر بل فيه جانب من التعريف بالمصادر سواء بالنسبة للمصادر العربية أو الأسبانية وغابت "الرؤية" النقدية عن عدد من المؤلفات.

٢- جـاءت خطـة الدراسـة لـتركز تماماً علي الجانب السياسي، دون الإشـارة إلي أية زوايا حضارية، وهي نقطة بالغة الأهمية وكان الأجدر بالمؤلف ألا يغفـل ذلك الجانب وهو أساس للدراسة الأكاديمية الموضوعية بحكم التأثير والتأثر بين الزوايا السياسية والحضارية ضمن السياق التاريخي العام.

٣- اتسـمت الخطـة بالطابع الزمني، وكنت أفضل التقسيم الموضوعي الـذي يراعـي البعد الزمني وهو بالتأكيد أقدر وأوفي وأشمل من النمط الزمني الذي يتصف بالطابع التقليدي والنمطي ولا يعطي للمؤرخ مساحة أكبر من الابتكار.

٤- أورد المؤلـف الفاضل قائمة بأهم الاختصارات في ص٥ من الكتاب، وأتصـور أن موضـعها الحقيقـي قبل قائمة المصادر والمراجع والحالة الوحيدة التي توضـع فيها في الصفحات الأولي من الكتاب عندما يكون متخصصاً في البيليوغرافيا كما في حالة كتاب هانزماير. بيلوغرافيا تاريخ الحروب الصليبية، الصادر في هانوفر عام ١٩٦٥م.

Hans Mayer, Bibliographie Zur Geschichte der Kreuzzuge, Hannover 1965.

حيث أورد ماير قائمة بالغة الثراء بالاختصارات في مقدمة الكتاب.

٥- لـــم يورد مؤرخنا في مقدمة الكتاب المنهج المتبع في الدراسة وبصفة عامـــة، جاء جهده وفق المنهج السردي الوصفي باستثناء بعض المواقف الممتازة في معالجتها التي بذل فيها جهداً جديراً بكل تقدير حلل الأحداث وتوصل لنتائج طيبة غير أن ذلـــك جاء بصورة جزئية دون أن تكون ضمن تصور شامل للمعالجة التاريخية من بداية الدراسة إلي أخرها كما هو مفترض علمياً.

٦- خلـــت الدراسة من "الإشكاليات" إلا في النادر، أتصور أن إشكاليات الدراســـة علي جانب عظيم من الأهمية، بالإضافة إلي المنهج المتبع مع ملاحظة عدم الانفصال بينهما.

٧- مـــن المؤسف حقاً أن المؤلف الفاضل لم يورد اسم أ.د. عبد المنعم ماجد علي أنه المشرف الفعلي علي الدراسة، فقد أورد اسمه دون أن يذكر أنه الأستاذ الدكـــتور المشـــرف بـــل أورده ضمن الذين عاونوه في الدراسة، وأود التقرير هنا أن كاتـــب هـــذه السطور أشرف عليه مؤرخنا الراحل وأفدت من علمه بحكم تتلمذه علي المستشـــرق الفرنســـي الـــبارز ليفي بروفنسال Levi Provencal وقد أشرف علي أطروحتـــي للماجســـتير فـــي مرحلة من مراحلها، وحالياً يتم تخصيص جزء عنه في كـــتاب "مؤرخون مصريون رواد لمرحلة العصور الوسطي" الذي سيصدر قريباً بإذن الله تعالي، وهذا حق المشرف الراحل علي كل من تتلمذ علي يديه، وأفاد من علمه.

٨- العمـــل العلمـــي الذي يمثله الكتاب تم أعداده منذ عقد ونصف تقريباً (حوالـــي ١٥ عامـــاً)، وخلالهـــا صـــدرت العديد من المؤلفات بالعربية والإنجليزية والأســـبانية وكان علي المؤلف متابعتها، غير أنه في قائمة المصادر والمراجع لم أجد مؤلفـــات في حقبة التسعينيات إلا خمسة كتب فقط باللغة العربية، وأذكر المؤلف بندوة الـــتاريخ الأندلسي في المملكة العربية السعودية الصادرة بمناسبة مرور ٥٠٠عام علي ســـقوط غر ناطة، والكتاب البيليوغرافي الصادر عنها، وكذلك ندوة أخري في مصر في جامعة الإسكندرية، وغيرها من الندوات والإصدارات.

٩- هناك مغالطة واضحة أوردها المؤلف، إذ بعد إيراده لمؤلفات الباحثين المصريين في مجال تاريخ الأندلس قال ما نصه:

"ولعله يتضح من عناوين المؤلفات العربية السابقة أنها اختصت في معظمها بتاريخ المسلمين في الأندلس، منذ الفتح الإسلامي لا يبيريا ولفترات متفاوتة تصل في بعضها إلي إخلاء المسلمين لها في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، علي أن بعضها قد اهتم أيضاً بالتاريخ للقوي المسيحية الأسبانية - ومنها اشتوريس إلا أن رواياتها في هذا الصدد تتسم بالعمومية، والإيجاز، وأحياناً بالغموض، وتفتقد إلي التحليل والتمحيص بسبب اعتماد مؤلفيها علي المصادر الإسلامية وحدها من دون اللاتينية. باستثناء بعض المؤرخين المصريين الذين تقف كتاباتهم كدليل قاطع أيضاً علي السبق المصري في الانفراد حتى وقتنا الحاضر بالإطلاع عليها والاستفادة منها جنباً إلي جنب مثيلاتها الإسلامية".

وأود التقرير بأن العبارات السابقة تتسم بالتعميم وعدم الموضوعية خاصة أنه اغفل سبق وريادة الراحل أ.د. حسين مؤنس في مقالته بعنوان:

"بلاي وميلاد اشتوريس وقيام حركة المقاومة النصرانية في شمال أسبانيا"، وهي منشورة في مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، م(١١)، جـ (١) مايو ١٩٤٩م.

ويلاحظ أنه اغفل ذكرها في القسم الخاص بتعريف المصادر والمراجع علي الرغم من استعانته بها وإيراداها في قائمة المصادر والمراجع، في ص٦٦٨.

أما القول بأن الدراسات السابقة علي دراسته "تتسم بالعمومية والإيجاز وأحياناً بالغموض وتفتقر إلي التحليل والتمحيص" فأود أن أنبه المؤلف إلي أن من كتب في موضوعه منهم أ.د. حسين مؤنس، أ. محمد عبد الله عنان وهما عملاقان من عمالقة المؤرخين الرواد.

من ناحية أخري، هاجم المؤلف أطروحة أ.د. رجب محمد عبد الحليم وهو الآن أستاذ التاريخ الأندلسي في معهد الدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة:- وهي بعنوان: العلاقات بين الممالك الإسلامية والنصرانية في أسبانيا منذ الفتح وحتى نهاية

القــرن الخــامس الهجري .ط. القاهرة١٩٨٠ م (انظر عباراته ص١٥)، وأود التقرير بــأن الدراســة المذكورة علي جانب كبير من الأهمية، لمؤرخ فاضل، وتحتوي علي جزء خاص بالصلات الحضارية بين الطرفين، وهو آمر خلت منه دراسة مؤلفنا.

كذلــك كان موقف المؤلف من دراسات أ.د. عبد الرحمن الحجي التي اتصلت بموضــوع الكــتاب علــي الرغم من أنه حصل عليها من خلال أطروحة علمية من جامعــة كامبردج عام ١٩٦٦م، وقد قرر ما نصه: "فلم تكشف أي من هاتين الدراستين عن جديد....".

وأكــرر قــيمة جهــد أ.د. عبد الرحمن الحجي الذي يجيد الإنجليزية والفرنسية والأســبانية، وأدعــو المؤلف إلي التأني في إطلاق الأحكام علي الذين سبقوه بإصدار مؤلفــاتهم بعشــرين عامــاً، وبالتالــي كانت لهم الريادة في دراسة جوانب من نفس موضــوع دراســته مــن ناحية أخري، أود التأكيد علي أن ما أورده بشأن الدراستين المذكورتين مكانه ليس في المقدمة بل في القسم الخاص بتعريف المصادر والمراجع.

١٠- فــيما يتصــل بالباب الأول، وهو بعنوان إقليم اشتوريس حتي الفتح الإسلامي في عام ٧١٤م/٩٥هــ، وشمل الصفحات من ١٢٣ إلي ١٩٦ أتصور أنه لا يعد باباً بل فصل تمهيدي للدراسة، لأنه لا يدخل في صلب العمل العلمي.

١١- خصــص مؤلفنا الباب الثاني الذي يحتوي علي ثلاثة فصول لأحداث ٢٦ عامــاً مــن ٧١٤ - ٧٣٩م/ ٩٥ - ١٢١هــ وذلك علي مدي الصفحات من ص ١٩٧ إلــي ٢٩٣، أي مــا يزيد علي المائة صفحة، بينما خصص فصلاً مستقلاً فيما بعــد، وهو بعنوان تمزق وحدة الأندلس وتفوق اشتوريس لتتناول ٥٩عاماً في المرحلة الواقعــة بيــن عامي ٨٥٢ - ٩١٠م/ ٢٣٨ - ٢٩٧هــ، وهنا يكمن الخطأ في التقسيم الزمنــي لا الموضــوعي للدراســة مع تقديري الكامل لوضع الخطة بالصورة القائمة عليها إذ أن الاختلاف في وجهات النظر - كما يقال - لا يفسد للود قضية.

١٢- توجــد عناوين للفصول ليست ذات طابع علمي مثل الفصل المعنون بــ "مرونة اشتوريس وصمودها للضغط الأندلسي"، فكلمة مرونة لا تصلح في عنوان فصل في أطروحة علمية لأنها ليست ذات تحديد علمي دقيق.

١٣- استخدم المؤلف كلمة "جمود" علي موقف الدولة الأموية من اشتوريس في مرحلة من مراحل تاريخها (انظر ص٤٤٧)، وأورد التقرير أن الكلمة المذكورة لا تذكر في الدراسات الأكاديمية لأن التاريخ حركة مستمرة والثابت الوحيد هو التغير.

١٤- هناك صفحات في الكتاب بلا توثيق كما في الآتي: صفحة ٤٤٧و ٤٤٨ علي الرغم من احتوائهما علي "معلومات" تاريخية مستقاة من مصادر ومراجع ولا نجد بها أفكاراً تحليلية من عند المؤلف نفسه.

١٥- أورد مؤرخنا في ٤٧٩ نصاً لاتينياً شمل نصف الصفحة دون أن يترجمه، فما قيمة إيراده دون ترجمته، والواقع أن موضعه في الملاحق مع إيراد الترجمة العربية له.

١٦- شملت الملاحق قسماً من الكتاب من ٥١٩ إلي ٥٥٠ وهي باللاتينية دون أن تترجم، والسؤال ما قيمة إيرادها لتشمل نحو ٣٠ صفحة من الكتاب، والمفروض أيراد النص المصدري وترجمته العربية حتى يستفيد منه الباحثون الذين سيتناولون موضوعاً قريباً من الموضوع الحالي.

١٧- استعان مؤرخنا بكتاب الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطي لماجد والبنا، (وقد أورد أنه دون تاريخ للطباعة، انظر ص٦٥٦، والحقيقة أنه صدر بالقاهرة عام ١٩٦٨م) ويلاحظ أنه مع تقديري الكامل للكتاب المذكور إلا أنه مع صدور كتاب العلامة أ.د. حسين مؤنس أطلس تاريخ الإسلام المزود بالخرائط البالغة الدقة تم بمقاييس الرسم المحددة كان من الممكن الإفادة منه خاصة أنه الأحدث دون الإقلال من جهد الرائدين أ. ماجد، د. البنا الذي كان متميزاً وقت صدوره بطبيعة الحال.

١٨- أحياناً، يورد عنوان المصدر التاريخي دون اسم المحقق كما في حالة كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء الذي يذكر صدوره في باريس عام ١٨٤٠م. والمفروض أن بذكر تحقيق رينو ودي سلان .

١٩- أحياناً يضع التاريخ الهجري والمقابل الميلادي لوفاة المؤرخ، وأحياناً أخري لا يفعل ذلك، والمفروض السير علي قاعدة واحدة، كما في ص٦٣٤.

٢٠- استعان المؤلف بدراسات قديمة وعامة مثل كتاب Burke بعنوان A History of spain، الصادر في لندن عام ١٩٠٠م وهناك مثل آخر أورده في صورة كتاب صدر عام ١٧٠٥م ، وهو يعنوان

Catalonia: A Geographical and Historical Account of the principality of Catalonia and Earldom of Barcelona, London 1705

ولا أتصور إمكانية وجود قيمة علمية بارزة لكتاب مر علي صدوره قرابة ٣٠٠عام، لقد تجاوزته كتب الجغرافية التاريخية الصادرة من بعد ذلك علي مدي ثلاثة قرون كاملة، وفي حالة كونه من المصادر التاريخية لكان من الممكن قبول الأمر، أما أن يكون من المراجع فالأمر يحتاج إلي مراجعة وأتصور أن المؤلف الفاضل يتفق معي في هذا الشأن، وأتمني أن يكون هناك خطأ مطبعي! ويقال أيضاً نفس الأمر علي كتب عامة من أمثلة ذلك كتاب

Dubois, L'Espagne Ancienne et Moderne, Rouen 1859

أي أسبانيا القديمة والحديثة، وقد صدر عام ١٨٥٩م ولا أتصور أهميته المباشرة لموضوع الدراسة.

ونفس الأمر يتكرر بشأن كتاب

Hannay, Spain, Great Britain 1917

فهو عام ناهيك عن صدوره في العام المذكور

وهناك مثال آخر في كتاب

Fayyaz, A Short History of Islam, Oxford 1960.

فهو كتاب عام ومختصر عن تاريخ الإسلام وصدر منذ أربعين عاماً علي الرغم من صدوره من جامعة أكسفورد العريقة، ومنطقي تصور أنه ليس كل ما يصدر في الدول الأوروبية يتسم بالأهمية لأطروحة أكاديمية متخصصة.

٢١- من الملاحظ أن مؤرخنا الفاضل علي مدي دراسته عمل علي أن يقدم دور اشتوريس للقارئ العربي علي أنه دور ريادي وكأنها كانت القوة المسيحية الوحيدة المعارضة للوجود الإسلامي في شبة القارة الأيبيرية، والأمر عكس ذلك. إذ

حيـــث كـــان للـــتطورات الاقتصـــادية أثرها الفعال في صياغة البناء الطبقي للمجتمع المغربـــي فاحتلـــت ذراه الطـــبقة الأرستقراطية التي تصدرتها – من حيث الأهميه – الشـــريحة العسكرية التي شكلت دعامة النظام الأساسية وتليها الطبقة الوسطي وأخيرا طبقة العامة التي احتلت أسفل الهرم الطبقي.

وقـــد فصلت الدراسة الحديث عن طبقة العامة موضحة المتغيرات التي طرأت علي كيانها والوضعية الاجتماعية لشرائحها المختلفة.

وحتى يكتمل التصور العام عن الكيان الاجتماعي لطبقة العامة كان من اللازم معايـــنة طبـــيعة واقعهـــا المعيشـــي ومظاهـــر حياتها اليومية وتجلياتها الذهنية والفنية والتلقائية وذلك عبر: دراسة التكوين العائلى عند العامة التى احتلت المرأة خلاله مكانة متمـــيزة – عكـــس نســـاء الخاصة– الآمر الذي يشي بدور العامة الاجتماعي الفعال، وابـــراز سمات منازلهم وطابع ملابسهم ومأكولاتهم ، واستعراض مجالسهم واحتفالاتهم العامـــة ووسائل الترفيه التي يمضمون بها أوقات فراغهم ، وعلى جانب أخر لم يغب العامـــة عـــن الحياة الثقافية والاجتماعية بإبداعاتهم الأدبية والفنية ذات الطابع الشعبي "والفلكلـــوري" فقـــد تجاوز دورهم تذوق عيون الأدب التقليدي إلي أسهامهم من خلال لهجـــتهم العامية في الحفاظ علي حياة كثير من ألفاظ اللغة الفصحي التي هجرتها فنون الأدب الرسمي مما يفند كثيراً من المزاعم التي تلهج بخطورة لهجة العامة وآدابها علي اللغـــة العربية الفصحي، كما فرض العامة وجودهم علي ساحة الأدب الرسمي بالإنتاج الشـــعري، وعـــلاوة علـــي ذلك فقد خاض وجدانهم بأدب تلقائي يعبر عن واقع حياتهم ويعكس طموحاتهم وآمالهم خلال أشكال غاية في التنوع والثراء.

أمـــا عن علاقة العامة بالمتصوفة فقد تجلت بالخصوص في الجانب الإنساني والإحصـــائي الـــذي يظهـــر خاصة في أوقات الأزمات والمجاعات، ولم يقتصر دور المتصـــوف علـــي النواحي الاجتماعية فقط بل تعداه إلي جوانب أخري كالتخفيف من جبروت السلطة وإقبالهم علي تعليم ووعظ العامة.

٢٤- أشار إلي كتاب أرشيبالد لويس، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ت. أحمد عيسي وذكر أنه بدون عام للطبع، والواقع أن تاريخ طباعته معروف وهو عام ١٩٦٠م.

٢٥- أورد المؤلف اسم جمال الرمادي مؤلف كتاب فتوح العرب، والاسم الصحيح هو جمال الدين الرمادي.

٢٦- جاءت الخاتمة مجرد تلخيص لما ورد في الكتاب !!!، وبالتالي لم يركز المؤلف علي النتائج العلمية التي توصل إليها علي مدي فصول الدراسة، وفي تقديري أن تعليل ذلك يكمن في غياب إشكالية الدراسة ذاتها والهدف من إعدادها .

٢٧- أحياناً يضع المؤلف معلومات موضعها في الهامش كما في ص٤١٧ وص٤١٨ حيث تناول "صليب الملائكة" وأتصور أن أيراد ذلك الأمر في المتن يفسد السياق التاريخي للعرض.

٢٨- كنت أود أن يذكر مؤرخنا من عاونه في الترجمة عن الأسبانية واللاتينية لأن ذلك أمر له جانب كبير من الأهمية نظراً لتعدد المؤلفات، خاصة – الأسبانية – التي أفاد منها في إعداد دراسته القيمة.

وبعد؛ فإن كافة تلك الملاحظات لا ولن تقلل من قيمة الجهد العلمي البارز في الكتاب المذكور، والذي يعكس إنفاق مؤرخنا الأعوام الطوال من أجل إنجازه بصبر وجهد ومن المهم أن اذكر القارئ بأن مادة تلك الدراسة تم إعدادها بالسفر إلي إنجلترا، وأسبانيا، علي نحو يعكس ما لدي مؤرخنا من اهتمام كبير بتخصصه الذي أتمني أن يثري من خلاله المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات في المستقبل القريب بإذن الله تعالي.

إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين) بيروت، ١٩٩٨، ٢٥٦ص.

عرض/ محمد تضغوت

المغرب

يدخـل هـذا العمـل الـذي نتشـرف بقـراءته ضمن مجموعة من الأبحاث والدراسـات التـي أنجـزها د. إبراهيم القادري بوتشيش، في حقل التاريخ الاقتصادي والاجتماعـي، وهو حقل لا تزال العديد من قضاياه لم تدخل بعد دائرة البحث التاريخي المنظم

هذا الكتاب يأتي ليضيف إنتاجا موسوماً بالجدة، ويزكي الصورة المشرقة التي يتمـتع بهـا الباحث المؤلف في واجهة الدرس الأكاديمي المقتدر، ولعل المهتمين بحقل الاقتصـاد والمجـتمع في تاريخ المغرب الوسيط ليسوا في حاجة إلي أن أقدم لهم هذا الكتاب وفوائده منهجاً وبحثاً وتحصيلاً.

وعلـي ما يبدو، فإن هذا المؤلف – الذي نحن بصدده – هو في الأصل جزء مـن أبـواب الأطـروحة التي أنجزها الباحث لنيل دكتوراه الدولة في تاريخ المغرب والأندلس، سنة ١٩٩١ – تحت إشراف الأستاذ د. محمود إسماعيل.

وقـد سبق للمؤلف أن نشر قسماً منها في طبعة دار الطابعة سنة ١٩٩٣ تحمل عنوان: (المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، الذهنيات، الأولياء).

ولا نـدري هـل هـذا العمل هو بالفعل جزء من المشروع، مثلما راهن عليه المؤلـف، أو أنـه عمل قائم في حيزه، ومستقل في ذاته، كما لا ندري إن كان تمفصل الأطروحة تحت حاجة النشر علي مراحل، مفيداً في تصحيح المعتل، وترميم التصدع، وإزالـة الغمـوض والإبهـام الـذي ظـل يكتنف تاريخ المغرب الإسلامي في الحقبة الوسطي.

مـع ذلك فهذه الدراسة – شأنها في ذلك شأن الدراسات المفيدة – تطمح إلي تأسـيس مشـروع معرفي يروم إلي رصد العناصر الفاعلة في حركة تاريخ المغرب المنسـي أو المعـتم، كـذا تأسيس تاريخ شمولي ومتكامل ينتقد الحصيلة الضحلة من

المعلومات التي تركها التاريخ التقريري المبتذل، والسعي إلي نسج تاريخ من منظور جديد يتوخي رصد الظواهر التاريخية رصداً أميناً بعيداً عن مسلك الأدلجة، والانشداد المسلم للنص الرسمي الذي أمسي مهيمناً علي مساحات شاسعة من تاريخ المغرب المعروف بالعنعنة والتداول.

فهل أفلح المؤلف في الإيفاء بالوعد الذي قطعه علي نفسه في مقدمة التأليف، وهل حقق الطموح الذي ظل يراوده وما يزال، أم ظل المكتوب – الذي نحن بصدده – لم يخرج علي نسق ذلك الصنم المعروف للمتداول المألوف.

إن الكتاب الذي نروم في هذه الورقة الموجزة تقديمه وتوصيفه واستعراضه وانتقاده يقع في ٢٥٦ صفحة من الحجم العادي، صدر عن دار الطليعة، بيروت ١٩٩٨.

ابرز الباحث في صدر التأليف، الدوافع التي كانت وراء تحفيزه علي كتابة تاريخ من هذا النوع، فبين أن الحقبة المرابطية عرفت مخاضاً وتحولاً عميقاً في الاقتصاد والمجتمع الذي ازداد حجمه وتعددت عناصره، كما مثلت السياسة والثقافة في الحقبة ذاتها، واجهة من واجهات معالم التحول الجديد الذي ظهر جلياً في توحيد المجال السياسي المغاربي واتساعه، ووحدة المذهب وانتشاره.

أقر الباحث مبدئياً – في المقدمة – بصعوبة ولوج هذا الموضوع لأعتبارين أحدهما: ندرة المادة التاريخية المتاحة، وثانيهما: تداخل الحقول المعرفية وتنوعها، وتراميها بين مجال الاقتصاد والمجتمع والسياسة والثقافة.

مع ذلك صرح بإمكان تجاوز الصعوبات بفضل توسيعه دائرة القراءة في المتون، والاهتداء إلي اكتشاف نصوص جديدة جري توظيفها لأول مرة، كذا تقويم الحصيلة بفضل تبني منهج علمي رصين، أثبت قدرته علي جمع الجزيئات، وفرز الظواهر المتشابكة، والعمل علي ربطها بالأبنية الفاعلة في النسق العام، ولم يفته استحضار الآراء الاستشراقية والتخريجات النظرية، والأطروحات الأجنبية التي لامست الموضوع من قريب، أو من بعيد ووضعها موضع اختبار وتأمل وانتقاد.

وبفضل ما تجمع لديه من مادة تاريخية متنوعة، عمل علي تفصيل الدراسة في أربعة فصول: خصص الفصل الأول منه لدراسة عناصر السكان وهجراتهم وتطورهم الديموغرافي، وعالج في الفصل الثاني أوضاع أهل الذمة، وعلاقتهم بالدولة والأهالي، بينما تناول في الفصل الثالث شكل البناء الطبقي وتراتب الفئات الاجتماعية، في حين اهتم الفصل الأخير بدراسة التكوين القبلي بالبوادي المغربية في الحقبة موضوع الدراسة، وختم بسلسلة من الملاحق والخرائط، اعتنت بمسألة توطين القبائل البربرية والعربية في بلاد الأندلس، واستخلاص ملحق تعريفي ببعض أثرياء الفقهاء الذين عرفهم العصر المرابطي، وتدبيج العمل بخرائط متنوعة بشأن الاستيطان المسيحي وأماكن التجمعات اليهودية في المغرب والأندلس، في حين يلاحظ أنه أسقط سهواً أو أغفل عمداً موافاة القاريء بقائمة من المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في مكتبة البحث، فما محتويات ومضامين أهم ما ورد وطرح في هذه الفصول جميعها؟

من خلال تتبع فحوي الفصل الأول الذي خصصه الباحث للسكان والديموغرافيا أوضح أن مكونات المجتمع المغربي اتسم في حركته ونظامه الداخلي بسمات غلبة الظاهرة القبلية شكلاً ومحتوي، فالقبيلة انبنت من مجتمع الكثرة والتعدد، وقام اقتصادها علي موارد الغزو والغنيمة (ص٩)، وهذا التعدد الاثني شمل بالخصوص العناصر البربرية والعربية والمولدين والأقليات.

فبالنسبة للبربر قدم الباحث عرضاً مسهباً حول الأراء التي قيلت في أصول البربر وتفرعاتهم القبلية، ومع إقراره بصعوبة الحسم في هذا الموضوع بسبب تضارب النصوص وتناقض التفسيرات المقدمة في هذا الشأن، فقد اكتفي بمسايرة الأراء التي ترجع أصول البربر إلي المنبع العربي في شقه الحميري، والتي تصنفهم تلقائياً علي أساس معيار نمط العيش مسايراً للرؤية الخلدونية.

ومن خلال الخريطة الجيو- أثنية التي استلهمها من النصوص، أبرز أن الوجود المكثف للبربر في بلاد المغرب يعزي إلي ظروف تاريخية، وذلك قبل أن

يهاجروا بشكل كثيف إلي بلاد الأندلس التي استقروا بها خصوصاً في المناطق الثغرية لمواجهة القوي النصرانية، بعد امتداد النفوذ الاسلامي هناك (ص٣٦).

أمـا العـرب فقـد ظلـوا – في رأيه – نسبة قليلة العدد من سكان المغرب الأقصـي، عكـس الأندلـس التي لاحظ بأنها استقطبت هجرات عربية هامة بدءاً من تاريخ الفتح الاسلامي، وفسر هذا الاستقبال بتشابه البيئة الأندلسية مع البيئة العربية في الشرق، وهو ما انعكس في تشابه أسماء الاماكن أو تقاربها.

وفق الباحث في تقديم وصف وتعريف مسهب لمجموعة من الهجرات قصدت بـلاد المغرب والأندلس، وتابعها تاريخياً من زمن الفتح الأول لشمال افريقيا إلي زمن المرابطيـن، وجزم بحصول اندماج اثني واختلاط عنصري بين البربر والعرب لدرجة سـمحت بـالقول عن تبرير العرب وتعرب البربر، وهي ظاهرة اعتبرها الباحث ميزة طبعـت تـاريخ المغرب وخصوصيته (ص٤١)، وضرب أمثلة مستحضراً نماذج من بعـض الأسر الفاسية، والعائلات الصنهاجية التي عرفت تمازجاً واختلاطاً في الأنساب (ص٤٧)، كمـا برهـن علـيها في تناسي العرب لأصولهم المشرقية تحت تأثير نظام الخلافـة، فضـلاً عـن تنشـيط حركة الهجرة الداخلية ونمو أعداد المولدين، وذوبان الصـقالبة فـي الجسـم المغاربي خلال العهد المرابطي، واعتماد العنصر السوداني، وأتراك الغز في سلك الجيش وانتشارهم داخل المجتمع.

ولاحـظ الكاتب بأن هذا التنوع السكاني المتعدد الأصول والمشارب لم يتطبع بالـنعرة العنصرية والنزعة القبلية إلا في فترات الأزمات الاقتصادية والسياسية، وهو أمـر طبيعي – في اعتقاده – نظراً لتعدد مجال الاستيطان، وتبعات الحروب، وتلاحق المجاعـات، وتحرك السكان، وتباين التوزيع البشري بين الجهات، واعتماد الدولة علي اقتصاد الغزو.

ونظـراً للمكانـة السياسـية والاقتصـادية التـي لعبها أهل الذمة في الجسم المرابطـي، فقـد أفـرد لها مبحثاً خاصاً تناول فيه أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والدينـية وعلاقـاتهم بالدولة والأهالي سواء بسواء، ولاحظ بأن تلك الأوضاع وشكل العلاقـات، كانـت تتأرجح بين أساليب الشدة والتسامح تبعاً لتطورات الوضع الداخلي،

وطبـيعة السلطة السياسية القائمة، وإن بدأ في رأيه بأن اقتصاد المغازي الذي تحكم في توجهـات الدولـة المرابطية، جعل تلك العلاقة – في الغالب الأعم – موسومة بالتعنت والاضطهاد والتغريم واستنزاف القوي المنتجة.

ويبـرر الباحث ذلك في حاجة الدولة إلي المال، وليس إلي سبب ديني عقائدي، مـثلما زعمت بعض المصادر والدراسات التي تناولت الموضوع، واستدل بظاهرة تقلد أهـل الذمة المناصب السامية، وامتلاكهم العبيد من المسلمين، وتركهم بصمات واضحة فـي الحـياة اليومـية لمسـلمي المغـرب والأندلـس، فـي مجال الأزياء والأطعمة والاحتفالات، والزخرفة والبناء والزراعة وتقنيات السقي واستنباط المياه (ص١١٥).

ويعتـبر الفصل الثالث الذي خصصه الباحث لرصد البناء الطبقي في العصر المرابطـي من أبرز فصول هذه الدراسة، وإن كنا نري – مبدئياً – بأن الفصل الرابع الـذي دارت مباحث حول التكوين القبلي في البوادي المغربية يعتبر – منهجياً – مقدمة لفهم أسس البناء الطبقي ومكوناته، وليس نتيجة وخاتمة له مثلما جاء في المؤلف.

فالتنظـيم القبلـي والأعراف القبلية، وحياة القبيلة – هي جزأ لا يتجزأ – من مكونات المجتمع، فهي إذاً مقدمات أو بالأحري تجليات في المنظومة الطبقية المنضدة، والمنـبلجة أساسـاً من إفرازات البنية التحتية المحددة في شكل الاقتصاد ونمط الانتاج المهيمن الذي وسمه الباحث – سلفاً – بأقتصاد الغزو.

وكـيفما كانـت الاعتبارات أو الخلفيات الكامنة وراء التقديم والتأخير، فإن ما ميز أدوات البحث في التراتب الطبقي في المجتمع المرابطي أن المؤلف لم يتبن مقياساً واحداً، ففي المدن استند إلي مقياس الثروة (أغنياء ، متوسطو الحال، مقلون) أو مقياس سوسـيو- أخلاقي (أهل الوجاهة والكرم، فالسفلة واللئام، ثم طبقة ثالثة تتوسطهما)، في حين تم اعتماد معيار قرابة الدم، ومؤشر صلة الرحم في ترتيب مجتمع البادية.

وإذا كان من طبيعة البشر عموماً – وحسب رؤية المؤلف نفسه – (التطلع إلي الدنـيا وأسـبابها من جاه وثروة) (ص١٢٠)، فإن هذا المنحي ينطبق من دون أستثناء علـي سـكان الـبوادي، وسكان المدن إسوة بإسوة، بل أدهي من كل ذلك، كيف يمكن القول بوجود تقسيم العمل وعلاقات العمل وعقود الملكية، وتطور الرأسمال والاستثمار

والتـــبادل في اقتصاد مهتريء لا يتجاوز أنفه، أليس أسلوب النهب والوهب اللذين ميزا أسـلوب الحكـم والاقتصـــاد فـــي العصور الوسطي دليلاً علي هشاشة البناء الطبقي، ومـسيوعة في تراتب الأبنية الاجتماعية؟ بل كيف يمكن استخدام مقياس الثروة الظرفية في مجتمع قائم علي مزاج الحاكم، وعلاقات انتاج مبنية علي اقتصاد عرضي غير قار متسـم بالعــبور والظرفية؟. ثم هل بمقدور اقتصاد من هذا النوع أن يراكم الرأسمال، ويدفــع واقعــياً إلي أسلوب توظيف الأسهم والتعامل بالسلف والفوائد؟ ألا يوجد تناقض بيـن الـزعم بالقول بوجود ثروة عقارية قائمة علي الإقطاع وثروة عابرة مجبولة علي الغزو والسلب والتلكيب (ص١٢٤).

وكـــيفما كـــان موقف الباحث من هذه المسائل التي لا أظن أنها قد غابت عنه، فإنه قد حاول وفق التصور الذي وضعه، رصد خصوصية الطبقة والتفاوت الطبقي في المجـــتمع المرابطـــي استناداً إلي استحضار ثلاثة معايير، حصرها في ملكية الأرض، ملكية الرأسمال، نوع الوظيفة، وإن رأي أن هذه المعايير التي اقترحها لم تتسم بالثبات فـــي ظل اقتصاد ونمط انتاج هش مرتبط بالظرفية. فأقترح – من خلال النصوص التي وقــف علــيها ولا سيما ابن خلدون – اتخاذ معيار الجاه الذي يدفع بصاحبه إلي أعلي المراتب (ص١٢٥)، وضرب أمثلة بمجموعة من الناس ملكوا المال وسعة الحال، غير أنهــم افــتقدوا الجاه، فتعرضوا لأشرس النكبات، وقدم أمثلة من صنف أخر كانوا في غمـــار الخلق، فاستنهضوا في المكانة والقدر، بفعل نفع السلطان الذي فوت إليهم إدارة الأعمال (ص١٢٥).

وبمـــا أن دولـــة المغـــازي هي أصلاً دولة السيف والتحلق حول الحاكم، فإن وضـــع ذوي الجـــاه لـــم يكـــن ليستقر علي حال، فبمجرد ما تعن الفتن تهتز الوضعية الطبقـــية والمكانة الاجتماعية لكثير ممن استظلوا سابقاً بالجاه، وقد استشهد بأبن خلدون الذي لمح إلي هذا الوضع، حين ذكر (بأنه قد يقع في الدول اضطراب في المراتب من أجل هذا الخلق، فيرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية).(١٢٧)

ويـــبدو أن هذه الظاهرة كانت عامة في العالم الاسلامي مشرقاً ومغرباً خلال العصـــور الوسطي، وهو ما يفسر ميوعة التشكيلة الطبقية في المجتمع الاسلامي، مثلما أومأنا إليه سلفاً في هذه الدراسة ودراسات أخري سبق أن أنجزناها.

مـــع ذلك فقد تسمك الباحث بدور الجاه وألصقه بمسألة الشرف وأصلة النسب واعتـــبرهما مؤشـــرين مركزيين (لاستمرار أركان المجد وقوادم الحمد وخوافيه)، بل نجده يؤكد النسب الشريف في التمايز الطبقي والفرز بين مراتب الأفراد.

ولا نـــدري كيف أضاف مذهب الدولة ذا المنحي المالكي، كذا توظيفه لعنصر القـــرابة المرســـوم بالعصبية، واحتراف العلم، في نسق المؤشرات التي رآها فاعلة في الارتقاء والتألق الطبقي.

ألـــيس المذهب والثقافة والجاه والشرف والحسب والنسب والقرابة، كما تفيدها الماديـــة التاريخـــية – التـــي هي التأطير النظري لهذا البحث – هي تجليات ومظاهره لتأثير الاقتصاد ونمط الانتاج المهيمن علي الأبنية الاجتماعية والسياسية والحقوقية.

ومـــن ثمـــة، فالعناصـــر التي امتحنها الباحث واعتبرها فاعلة وموضبة للبناء الطبقـــي، نخالهـــا صوراً لهذا البناء ومكوناته، في حين تظل الثروة وتظافرها مع الجاه بمثابة الأسين الفاعلين في تحديد شكل الطبقة ونوعيتها.

أمـــا التزلف والتملق والوساطة في قضاء الحاجات، والتي أدمجها الباحث بين أدوات تحســـين الوضع الطبقي للأفراد، فهي في اعتقادنا لا تعدو أن تكون مظهراً من مظاهر شكل البنية الاجتماعية وذيلاً من ذيولها.

وتأسيســـاً علـــي مـــا تم إثباته من خصوصيات بشأن التكوين الطبقي للمجتمع المرابطـــي، أنكـــب المؤلف علي تدريج المنازل، أو بالأحري الطبقات وفق التصنيف الذي اقترحه كما يلي:

- فـــي قمـــة الهـــرم وضع الكبراء والأعيان والأمراء وقادة الجيش والـــوزراء والكـــتاب والـــولاة والفقهاء، وبعض البيوتات الكبري المـــنحدرة من العائلات الوجيهة، فضلاً عن أطباء البلاط وشعراء السلطة، ضمن الفئات الاجتماعية المكونة لطبقة الخاصة.

وبصـــرف النظر عن الدعة والترف الذي طبع الحياة اليومية لهذه الفئات لأنها تحصـــيل حاصـــل، فإن ملاحظة الباحث النبيهة حول وسم هذه الطبقة بالهجينية، وعدم الانســـجام بفعل تضارب المصالح والتكالب علي المواقع والتهافت علي المال، فإننا لا نوافقــه في الرأي حول طرح فكرة الفصل بينها وبين مؤسسة الدولة، وذلك حتي تقدر علي تطوير المجتمع وتتمكن من لعب دورها التاريخي.

وفـــي هذا الإطار تعن أمامنا مجموعة من التساؤلات، اختصرها في ما يلي، كـــيف يمكن الفصل بين المؤسسة السياسية ونظام الحكم القائم؟ بل كيف لنا أن نتصور قـــادة مـــن دون جـــيش، وجيش من دون سلطة، وسلطة من دون وزراء، ووزراء من دون دواويـــن . مـــا المقصـــود بالاستقلالية عن أجهزة الدولة، مع العلم أن الدولة هي أجهـــزتها – وفـــق مـــا طـــرحه المؤلف (١٥٩)- هل بالفعل معاقرة الخمرة، وإتيان الجـــواري، والاقبال علي المحرمات، واقتراف الفواحش والزنا، وهضم حقوق العامة، والسماع للألحان وأغاني القيان، يؤدي بالفعل إلي تفسخ هذه الطبقة وانحلالها، فما دور الحـــراك الاقتصـــادي فـــي تقوية الطبقة أو تفتتها – حسب ما يتداوله السوسيولوجيون أليس البذخ والترف والاستغلال وفساد الأخلاق، عناصر منفعلة ومنصهرة في منظومة الفعل الاقتصادي حسب منهج المؤلف نفسه؟.

هـــذه أسئلة ارتأينا طرحها لعلها تبيد الظلام وتراجع أحكام القيمة التي ما تزال تطغي وتخيم علي مساحات شاسعة من حيز الفكر التاريخي وآليات اشتغاله في المجال العربي الاسلامي. فما المنظور الذي قدمه الباحث للطبقة الوسطي؟

يـــري الأســـتاذ أن هـــذه الطـــبقة ضمنت شرائح اجتماعية متنوعة من تجار وصـــيارفة يهـــود وأربـــاب حـــرف وأصحاب مهن من مهندسين، وأطباء فضلاً عن أصحاب الوظائف المتوسطة وأهل العلم ص(١٦٠).

وقـــد اجـــتهد فـــي استحضـــار زخم هائل من النصوص تصف وضعية هذه الشـــرائح وتقلـــب أحوالهـــا، ولاحـــظ بـــأن هذه الطبقة بدورها اتسمت بعدم التجانس والانســـجام، كما أن افتقارها إلي النفوذ والسلطة – رغم حيازتها علي الثروة – لم تقو علـــي لعب دورها التاريخي علي غرار ما قامت به مثيلتها في أوروبا، وأرجع الباحث

سبب هذا القصور إلي طبيعة اقتصاد المغازي القائم علي الاحتكار والنهب والمصادرة.

وإذا كان المؤلف لم يسهب كثيراً في طرح مسألة دور الطبقة الوسطي في الفكر والتاريخ الاسلامي وحلحلة قسماتها الداخلية، وهو أمر كنا نعول عليه كثيراً لدعم أطروحة اقتصاد المغازي الذي أطر مباحث التاريخ الاجتماعي، فإنه بالمقابل خصص لطبقة العامة حيزاً وفيراً.

فهل تعزي هذه الوفرة إلي وجود مادة تاريخية بشكل كاف وفرتها مسألة نزول اعداد كبيرة من شرائح الطبقة الوسطي إلي صفوف العامة، وهو وضع قد يكون طبيعياً بحكم اقتصاد قائم علي النهب الداخلي والخارجي؟ أو يعزي إلي صعود جناح من أجنحة الطبقة الوسطي إلي معانقة البيوتات الكبري والاندماج في سلكها؟، أم أن الطبقة الوسطي – وهذا احتمال فرضي – لم يكن لها وجود أصلاً الغرب الاسلامي مثلما ذهب إلي ذلك (هنريش بيكر). (راجع: محمود اسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الاسلامي، ج٣، ص١٣٢).

إن الهاجس الذي يكمن وراء هذه القراءات تدفع إلي ترتيب واقع المجتمع وتنميط حركته وفق تعيين مستويات اجتماعية قبلية لا توجد في الواقع، بقدر ما توجد في النظرية، وبعض الاجتهادات السوسيولوجية التي حاولت تقعيد المجتمعات وتقطيعها قطائع طبقية بشكل متعسف.

والملاحظ أن مفهوم الحركية الاجتماعية في البلدان التي تتسم بالركود الاقتصادي أو الدورة الحلزونية في الانتاج، يصعب فيها التسليم بوجود طبقة وسطي قادرة علي تفعيل الاقتصاد، وخلخلة المعطي الطبقي القائم علي أساس القناعة النفسية، تحت تأثير الإيديولوجية المهيمنة وضغط القوي السياسية الحاكمة.

وكيفما كانت نتائج هذه التساؤلات النظرية والمنهجية المطروحة للتفكير في نسق حركية المجتمع الاسلامي مشرقاً وغرباً، فإن طبقة العامة التي أصبحت في السنين الأخيرة موئل عناية البحث التاريخي المنظم، قد جعل منها الباحث قاعدة بشرية ضمت عناصر شتي من حرفيين وصغار التجار، وباعة متجولين، وأجراء

ومســـتخدمين، وأصحاب المهن الوضيعة والمزارعين والرعاة والمعلمين والطلبة وأئمة المســاجد والشــعراء واليتامــي، فضــلاً عــن المهمشــين من اللصوص والمهرجين والمشعوذين وأصحاب الحلقة، والعاهرات وأسري الحروب والعبيد.

وقد فصل الباحث وفق منهج سردي وصفي جوانب من حياة هذه الشرائح وما بعدهــا (من ص ١٦٩) وعرض في ختام هذا الفصل إلي ذكر المحن والمصائب التي ألمت بها، ولاحظ عجزها عن القيام بثورة لصالحها، بسبب ضعف الوعي الطبقي عند هؤلاء، بالرغم من أنها طبقة منتجة حسب رأيه وتساءل في ذيل هذا المبحث عن مدي أوجــه التشــابه والاخــتلاف بيــن وضع السكان الاجتماعي في المدن ونظرائهم في البوادي.

وفــي هــذا الإطار خصص الفصل الرابع والأخير لمعالجة التكوين القبلى فى الــبوادى المغربية فى العصر الوسيط عموما والمرابطي بوجه خاص، فقدم في البداية جــرداً ملخصــاً للظاهــرة القبلــية بين المصادر الوسيطية والدراسات الأنثروبولوجية المعاصــرة، ولا ندري كيف عمد الباحث إلي الموافقة جمعاً بين مفارقتين تنتميان إلي موقعيــن تاريخيين متباينين؟ فهل يخول المنطوق العلمي والرصد العياني أن نزاوج بين اســتقراء حصــاد الدراسات الحديثة التي اهتمت بمونوغرافية القبيلة المعاصرة، وبين توصيف الظاهرة نفسها في حقبة العصور الوسطي.

وإذا كــان الباحــث قــد استشــعر باستمرار أسس القبيلة كظاهرة اقتصادية واجتماعية وسياسية بسبب حفاظها علي أسلوب الحماية والمدافعة والمطالبة التي ظلت فاعلــة في بنيان القبيلة، فإننا لا نوافقه الرأي حول اعتبار النظام القبلي في ذاته انعكاس أميناً لنمط اقتصاد المغازي (ص٢١٨).

فــبالرجوع إلــي الفقــرة أو الفقــرات التي سجل فيها الأستاذ الباحث بعض المــتظهرات الديموغرافــية والجبائــية في نسق واقع القبيلة، وانضباطها لشيخ الرئيس الــذي يجمع السلطة ويراقب الأجهزة، فإن مفهوم التمثيلية في الأعراف المحلية السائدة والموروثــة لــم تســمح ميكانيزماتها بتجدر الديموقراطية في ذاتها بسبب التماهي في المحلــية والحــركة اللولبــية، وهــي ظاهــرة جعلت في قمة القرار السياسي هيمنة

الأوليكارتـــية القبلـــية المؤسســـاتية التي كانت تدفع دوماً في اتجاه التعنت والعنجهية والاستبداد.

وإذا اقتنعـــنا – ولو علي مضض – بمقولة اقتصاد الغزو كنمط سائد تحكم في واقـــع مؤسسة القبيلة، فهل معني ذلك أن تاريخ المغرب والأندلس في الحقبة والوسطي جـــبل علـــي عـــدم الاستقرار وترصص علي حروب الكر والفر، بل وإذا سلمنا بهذا الواقع، فمن هو الغازي، ومن هو المغزو في واقع جغرافي – سياسي كان موحداً علي الأقل في العصر المرابطي.

نظـــرياً وواقعـــياً تمدنا مصادر الحقبة بسيل من النصوص تكشف عن اعتماد علـــي موارد ثابتة للرزق، فيما يعرف بأقتصاد القلة، واقتصاد الكفاف، ونادراً ما تقوم الدولـــة بالغـــزو إلا إذا توفـــرت علي فائض من الانتاج يتم توظيفه للبحث عن موارد جديـــدة تجســـدها عملـــياً مشـــاريع الهيمنة وتوسيع المجال الذي يتبع حتماً مقدار قوة العصبية وشوكتها.

فمـــا رأي الباحـــث في أن أساس استقرار المرابطين وثبات نظامهم السياسي والاجتماعـــي يـــرجع إلي حرصهم علي إقامة كنفدرالية قبائلية ذات أصول بربرية في تشـــكيلها السوسيو – أثنية، واقتصاد قائم علي الوساطة في حركة التجارة البعيدة المدي واستخلاص الفوائض الريعية؟

وإذا كـــان ابـــن خلـــدون – الـــذي هو عماد هذا البحث – قد ربط بين جدلية العصـــبية وأصـــالة البداوة، فإنه لم يخف الهدف المادي من هذا المسعي الذي قد يصل فـــي منتهاه إلي إقامة السياسة وتأسيس الملك، وهو مسعي ما كان ليتم – في اعتقادنا – لـــولا حـــرص المرابطين علي تشكيل بنية تنظيمية ذكية ومتماسكة، رامت إلي تلطيف حساســـية البربر ودرء تمرادتهم علي السلطة المركزية، إن علي المستوي السياسي، أو علـــي المســـتوي الرمزي، والممارسة الدينية التي كانت في الغالب موسومة بصرامة المـــنطق الفقهـــي الأحـــادي الذي تبناه المرابطون لظروف تاريخية كانت مهيأة، ففي حلحلة الفقرة التي خصصها ابن خلدون لنشوء الدول وارتقائها، يتبين أن العصبية التي نوهنا بها سابقاً، كانت ركناً أساسياً وديناميةفاعلة لتخليق الإرادة السياسية وتمكنها.

ومــن هــذا المــنطلق تــأخذ العصبية منحي جدلياً مكوناً من ثلاث محطات متواصــلة، ومتناقضـــة في الوقت نفسه، ففي المحطة الأولي التي تقترن بالبداوة تتميز الظاهــرة القبلــية أو ارهاصات السياسية الناشئة برفض كل نزوع إلي الانضباط مهما كان مصدره، وفي المحطة الثانية التي تقرن بالعمران الحضاري تكون العصبية بصدد تجــاوز نفســها وبتحطيم ذاتها، وآنذاك تتخلي الدولة الصاعدة عن مبدأ المساواة الذي طــبع مرحلة البداوة، وفي المحطة الثالثة والأخيرة تنبثق الأرستقراطية التي تركن إلي الداعـــة وتفنــن في الترف، فتميل إلي التخلي بالتدريج عن العصبية المؤسسة فتستبدلها بالعسكر المرتزق.

وتأسيســاً علـــي هذا الطرح يبدو أن العلاقات الصدامية والتدافع والمغالبة بين أطــراف القــوي المحلــية في المغرب الوسيط، كانت مدخلاً طبيعياً لقيام سلطة الأسر الحاكمـــة وتأسيس مشاريعها السياسية الطموحة، وبدا أن النصر – في كل الأحوال – ارتهــن بمــدي القدرة علي تجييش الجيوش، وضمان أكبر قدر من الموارد والحرص علي عدم نضوبها.

وغنـــي عن البيان أن الآلة الأدارية في أمثال هذه المجتمعات ظلت نشيطة في الاتجــاه الــذي يبحــث عن المال، والمال الذي يعزز السلطة ويفعل استبداد المؤسسة السياسية العسكرية المهيمنة.

ولاشــك أن حرص الأدبيات السلطانية في العصر الوسيط علي المزاوجة بين الجند والمال والعدل والسلطان ما يؤكد أهمية هذه الأدوات في تاريخ الدول الوسيطية.

يبين المرادي هذا المنحي بقوله المأثور عن أرسطو في السياسة:

العالم بستان – سياجة الدولة

الدولة سلطان – تحميه السنة

السنة سياسة – يسوسها الملك

الملك راع – يعضده الجيش

الجيش أعوان – يكفلهم المال

المال رزق – تجمعه الرعية

الرعية عبيد – يجمعهم العدل

العدل مألوف – وبه صلاح العالم

العالم سلطان .... كتاب السياسة ورقة ٦٨ – ٦٩

ونعتقد أن الخيال السياسي الخصب والتجربة المحنكة لشخص مثل عبد الله بن ياسين كانت وراء ادراك واستيعاب الميكانيزمات الفاعلة في جسم القبائل الصنهاجية، وقراءة واعية لذهنية قادتها، حيث تمكن من حسم الصراع علي زعامة الحلف الصنهاجي بين جدالة ولمتونة، وتوجيه المشاجرة والتنافس في اتجاه الشمال.

أما الخلفية الاقتصادية التي شكلت حوافز القيام واستراتيجية التأسيس وتوسيع دائرة المجال، فيجيب عنها مهد المرابطين والفضاء الذي استوطنوه في الخريطة الجيو – إدارية آنذاك. لذلك صدق محمود إسماعيل حين رأي بأن رايه الجهاد التي حملها المرابطون منذ تأسيس الحلف الصنهاجي، كانت غطاء للتوسع والهيمنة علي مصادر ومنافذ ومراكز وأسواق تجارة الشمال – الجنوب (أنظر: سوسيولوجيا الفكر الاسلامي، ج٣، ١٦٦).

وعلي أي، وكيفما كانت الانتقادات والتصويبات التي اقترحناها لهذا الفصل، فإن من باب الانصاف القول بأنه جاء حافلاً بمعلومات تاريخية لها غاية من الأهمية، تهم بالخصوص الظاهرة القبلية وتشعباتها، وإن كنا لا نوافقه في تجزئة هذا المبحث وبعثرته في وحدات صغري، لأسباب أخالها اجرائية، وليست موضوعية وعلمية، علماً بأن التفيء والتشظى التقطع قد يفقد الموضوع وحدته وتماسكه.

وهكذا وجدنا البحث ينتقل من معالجة مشكلة القبيلة بين المصادر والأنثروبولوجيا المعاصرة، إلي الحديث – في النقطة الثانية – عن عناصر الحياة القبلية في العصر المرابطي (ص٢٢١)، ليرجع في نقطة ثالثة إلي الإطار الاقتصادي للقبيلة، وقضية التمايز الاجتماعي (ص٢٥)، ليخلص رابعاً إلي التنظيم القبلي (ص ٢٨٠)، ثم يدرج الأعراف القبلية في النقطة الخامسة – بالرغم من تلازمها – منهجاً وموضوعاً مع التنظيم القبلي، وأنهى الفصل بنقطة سادسة حول علاقة القبائل بالسلطة المركزية.

ومـــا يمكن ملاحظته بوجه عام أن هذه النقط جميعها لا يمكن فهمها مجتزأة، برهانـــنا علـــي ذلـــك، أن التقســـيم الذي اختاره الباحث قد أوقعه في التقليد وغيابات الأدلجـــة، واستنســـاخ الأفكـــار، وتوظـــيف أحكـــام القيمة، ودفعه إلي منزلق التكرار والاسهاب، بل وأسقطه في سرد بديهيات معروفة تدخل في نسق تحصيل حاصل.

ولا أعـــتقد أن الباحـــث غير متفطن إلي ما للتجزئة من وقع سلبي علي وحدة المواضيع من طبيعة الاقتصاد والمجتمع، والأنثروبولوجية الدينية وتواريخ الأفكار.

ومهما كان وقع الانتقادات التي وجهت لهذا العمل فإن ذلك لا ينقص من قيمته العلمية وأهميته الريادية.

فالباحث قد وفق بأمتياز في اقتحام موضوع ملغز محاط بالكثير من المحاذير، والضـــغوط الإيديو- سياسية، ويحسب له الاعتراف - مثلما ورد في مقدمته - من أن أفكـــاره ليست نهائية، وله الحق فيما زعم، لأن كل خطاب أو تأليف مهما أدعي لنفسه الأكاديمـــية وامـــتلاك الموضوعية، فإنه لا ينفلت من الأدلجة، وثقل الظرفية والراهنية التـــي تلعـــب دوراً كبـــيراً فـــي حـــبك التصورات وتأطير الأفكار وصياغة المفاهيم والمصطلحات.

ولعل من بين الحسنات التي تحسب لهذا العمل أن صاحبه لم يحصر نفسه في دائرة الاهتمام بالنصوص التاريخية المتداولة فحسب، بل نقب في مصادر ومخطوطات تـــم تـــناولها لأول مـــرة، كما فرضت عليه طبيعة المباحث التي سبر غورها أن ينوع القراءة، ويغترف من معارف ومناهج لا تدخل بالضرورة في حقل تخصصه.

وإذا كانـــت معضـــلة البحـــث الجامعي الأكاديمي هو استكناه الأطروحة التي تجمع بين المباحث المبوبة من دون التشبع النظري والتصور الإبستيمي المؤسس علي فرضـــيات مقنعة، فإن المؤلف الذي بين أيدينا حاول فيه الباحث أن يبني أراءه ويصوغ تخـــريجاته بالســـند إلي اقتصاد المغازي، الذي قال به عابد الجابري كذلك من دون أن يفصله.

ومهما قيل في نجاعة أو عدم نجاعة الاقتناع بالأخذ بهذا النمط الأساس فإن ما يحمـــد لهـــذا البحث أنه كتب ولم يغفل صاحبه الإطار النظري المنفتح، وغير المحكوم

بهواجـــس الكلمـــة الفصـــل، والـــنهايات المعروفة. فالتحليل التاريخي الناجح للوقائع الاجتماعـية لا يمكـــنه أن ينفلـــت من التصور النظري الإبستيمي المؤسس علي قناعة العلم، لا علي أقنعة الميتولوجيا وقبعات الإيديولوجية التبريرية، فالمعرفة – حسب قول ألتوســـير – لا تصـــبح حقيقية إلا بعد اكتمال البناء النظري، وأن الوصول إلي مرحلة الاكـــتمال لا يحصل مبدئياً إلا من خلال إدراك العلاقة الجدلية بين النظرية والمعرفة، وهذا ما لمسناه في قسم كبير من هذا المؤلف.

Hassan S. Khalilieh, *Islamic Maritime law: An Introduction* , Brill, 1998.

عرض/ محمد نصر عبد الرحمن

مصـــر

قـــدر للمسلمين في انسيادهم في أرجاء العالم أن يبسطوا سيطرتهم علي العديد مـــن المسطحات المائية، البحرية والنهرية، وسواحل طويلة امتدت شرقاً لتشمل المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر، والبحر المتوسط والمحيط الأطلسي غرباً.

وأدي ذلـــك لـــنمو علاقـــة وطـــيدة ربطت بين المسلمين والبحر، وجعلت من الأخـــير واحداً من أهم معالم الحضارة الإسلامية، وظهر ذلك في المؤلفات العديدة التي ســـطرها المؤرخون حول الرحلات البحرية وكذلك كتب الفقة التي تناولت أحكام السفر وقواعد النقل والتجارة البحرية.

وقـــد ظهـــرت العديد من الدراسات الحديثة حول هذا الموضوع الحيوي علي أيـــدي العديـــد مـــن الباحثين، الذين تناولوا تلك العلاقة بصورة جزئية في إحدى بقاع الدولـــة الإســـلامية كالمحيط الهندي أو البحر المتوسط، أو بصورة عامة تغطي الحياة البحرية الإسلامية بوجه عام[1].

وإلي النوع الأخير من الدراسات ينتمي هذا الكتاب الذي يحمل عنوان (مقدمة فـــي القـــانون البحري الإسلامي)، للباحث الفلسطيني حسن صالح خليلية، الذي تظهر اهـــتماماته الواســـعة بمجال الحضارة البحرية الإسلامية في العصور الوسطي، خاصة تـــاريخ التشـــريع الإسلامي البحري، بجانب الدراسات البحرية الأثرية من خلال هذه الدراسة الجادة.

والكـــتاب في أصله كان أطروحة حصل بها الباحث علي درجة الدكتوراه من جامعـــة برنســـتون Princeton عـــام ١٩٩٥، ثم نشر الكتاب في هولندا عام ١٩٩٨ كإصدار خامس ضمن سلسلة من الدراسات تتعلق بالقانون والمجتمع الإسلامي.

---

[1] انظر علي سبيل المثال:

جورج حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطي، ترجمة. السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، علي محمود فهمي، التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتي القرن العاشر الميلادي، ترجمة. قاسم عبده قاسم، بيروت ١٩٨١.

Nadvi,s. "Arab Navigation" Islamic Culture 15 (1941) pp. 435. 448; 16 (1942) pp. 72 – 86, 182 – 198, 404 – 422.

والكــتاب في أصله كان أطروحة بها الباحث علي درجة الدكتوراه من جامعة برنســتون Princeton عـــام ١٩٩٥، ثم نشر الكتاب في هولندا عام ١٩٩٨ كأصدار خامس ضمن سلسلة من الدراسات تتعلق بالقانون والمجتمع الإسلامي.

وتحـــتوي الدراسة علي سبعة فصول، اختص الأول منها بالحديث عن وسائل الــنقل الــبحري وأهم المصطلحات الخاصة بها من حيث الحجم والاستعمال، كالقارب والمركـــب والســـفينة.... والأسماء الخاصة التي تطلق علي كل سفينة كأسماء مالكي السفن، أو الربانية، أو الأسماء التقليدية المعتادة التي توحي بالتفاؤل والجمال.

ثـــم يـــتطرق بعد ذلك للحديث عن سعة السفن ومدي حمولتها، ووسائل الأمان المتـــبعة لمنع وقوع الخسائر، مثل قوارب النجاة وغيرها، ويتحدث عن دور المحتسب في مراجعة تلك الوسائل للتأكد من صلاحية السفن للإبحار.

ثـــم ينتقل إلي الفصل الثاني ليتناول راكبي السفن من البحارة والركاب، حيث يتـــناول فـــي الـــبداية بحارة السفن من حيث تصنيفهم ومهامهم ومواضعهم علي متن الســـفن، ثم يناقش العلاقة بين أصحاب السفن والبحارة من ناحية والمسافرين من ناحية أخـــري، بجانب مسئوليتهم عن سلامة الركاب والبضائع، ويختتم الفصل بالحديث عن المسافرين من حيث حقوقهم وواجباتهم.

ومـــن خــــلال الفصل الثالث الذي يحمل عنوان القانون التجاري البحري، يلج الباحـــث إلـــي الموضوع الرئيسي للدارسة، لذلك قسم الفصل إلي خمسة أقسام: تناول الأول مـــنها ما يختص بعقود تأجير السفن، فيقدم لنا نماذج لهذه العقود، ويضع القواعد التـــي سار عليها المسلمون في أجراء هذه العقود من حيث الاتفاق علي أجرة الشحن، والإجراءات الواجبة عند نقض هذا الاتفاق.

ويتـــناول القسم الثاني الضرائب والمكوس التي تفرض علي البضائع المنقولة بحـــراً، ويتـــناول القســـم الثالـــث القوانين التي تتحكم في قيام البحارة بطرح جزء من البضائع في البحر في حالات الطوارئ التي تتعرض فيها السفن للغرق مثل العواصف العاتية، أو هجوم القراصنة، وغيرها مع توضيح كيفية توزيع هذه الخسارة بين حائزي البضـــائع وملاك السفن، والعوامل التي تؤثر في التخلص من البضائع خاصة لو كانت

نفيســـة، أمـــا القسم الرابع فيصف القوانين المتعلقة بغرق السفن في حوادث التصادم، ويختـــتم الفصل بالقسم الخامس الذي يتناول القواعد الخاصة بتعويض حائزي البضائع في حالة غرق السفن.

ويواصـــل الباحـــث هنا الاتجاه في الفصل الرابع الذي يحمل عنوان (القانون الـــبحري العســـكر) حيـــث يتناول القوانين التي تحكم الحياة البحرية في حالة الحرب، وآراء الفقهـــاء في الأصول التي علي المسلمين اتباعها أثناء الحرب البحرية مثل منح الأمـــان، وقواعد تقسيم الغنائم، ثم يختتم الفصل بالحديث عن القواعد التي تحكم التجار من أهل الذمة في تعاملهم داخل الأراضي الإسلامية.

وينـــتقل الباحث في الفصل الخامس الذي يحمل عنوان (المياه الإقليمية، البحار المفتوحة القانون البحري الدولي)، ينتقل الباحث هنا من الإطار المحلي للإطار العالمي ليفسر الدلالة الشرعية للمياه الإقليمية من وجهة نظر كل من الفقهاء والحكام والبحارة، والقواعـــد التـــي تنظم الملاحة في المياه المتداخمة والي البحار بجانب الأنهار الداخلية والموانيء.

وفـــي الفصـــل السادس الذي يحمل عنوان (قوانين الانضباط)، يناقش الباحث كـــيف كان القانون البحري يحكم البحر، من خلال تناول بعض الجرائم التي تحدث في البحر كالقتل والسرقة والزنا وغيرها من الجرائم، والقانون الذي يحكم هذه الحالات.

ويختـــتم الباحث دراسته بالفصل السابع الذي يحمل عنوان (التقاليد الدينية في الـــبحر) حيـــث يـــناقش مـــدي فاعلية تطبيق الواجبات الدينية الإسلامية خلال الرحلة الـــبحرية مـــثل الصلاة والصيام والحج والزكاة ونقل السلع المحظورة دينياً كالخمور، وكذلك قواعد دفن الموتى في البحر خلال الرحلة البحرية.

ومـــن خـــلال هذه الدراسة يري الباحث أن القوانين البحرية الإسلامية تأثرت بوضـــوح بالقوانيـــن الفارســـية والبيزنطية، واقتبست الكثير منها، وأن عملية الاسلمة والتعريب لهذه القوانين استغرقت مرحلة زمنية طويلة.

كمـــا أوضـــح الباحـــث آراء الفقهاء في العادات والقوانين البحرية الإسلامية، واســـتخدامهم للتقنـــيات التشـــريعية لبحث الحلول الممكنة لكل ما يحدث في البحر أو

الموانـــئ، اعتماداً علي القرآن والسنة، وكذلك القياس والرأي، والعادات المحلية التي لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية.

ومـــن الناحية المنهجية تبدو بدايات الكتاب – خاصة الفصلين الأول والثاني – تقلـيدية، في الحديث عن السفن والركاب والعلاقات المتبادلة خلال العمليات البحرية، لكن هذه البداية تبدو ضرورية للدخول في الموضوع الذي تدور حوله الدراسة.

أمـــا الناحية الجديدة في الدراسة فهي التعرض لتفاصيل القانون البحري الذي كـــان يحكم البحار الإسلامية ومن يرتادها، وهي ناحية غير تقليدية لم يتصد لها الكثير مـــن الباحثين، نظراً لصعوبة البحث فيها، وقلة المادة المتاحة عنها، والمنهج المتبع في الدراسة تنظيري إلي حد كبير، يتناول القواعد البحرية الحديثة ويحاول أن يطبقها علي الواقـــع الـــبحري الإسلامي في العصور الوسطي، لكن هذا المنهج بقدر ما يحمل من تجديـــد، فإنـــه لـــم يخـــل من بعض السلبيات فرغم الموضوعات الجديدة التي طردها المؤلـــف، ومثلـــت بعداً جديداً في هذا المجال، إلا أنه مع ذلك لم يقدم تطبيقاً عملياً في كثير من الأحيان، إلا من خلال إقرار القواعد الخاصة بها من بعض كتب الفقه.

ويحســـب للمؤلـــف اعتماده الكبير علي كتب الفقه في توضيح قواعد وقوانين الـــبحرية الإســـلامية وهو اتجاه مميز باعتبار كتبه الفقه الإسلامي، كالفتاوى والنوازل والحســـبة وغـــيرها من أهم روافد الفكر الإسلامي، الذي لم ينهل منه دارسي التاريخ الإســـلامي بصـــورة كافـــية، كمـــا يحسب له أنه انتبه إلي اختلاف أحكام الفقهاء وفقاً لاختلاف المذاهب والأماكن والأزمنة.

ومـــع هـــذا يؤخـــذ علي الباحث اعتماده بصورة كبيرة علي أوراق الجنيزة[٢]، كدلائـــل تطبيقـــية علـــي بعـــض الموضوعات، برغم ما تثيره هذه الأوراق من جدل

---

[2] يقصد بها الأوراق التي وجدت مدفونة في اطلال المعبد اليهودي، الباقية اطالاله إلي اليوم بحي البساتين بالقرب من ضاحية المعادي، وهو معبد كان يخص الجالية اليهودية، التي عنت بمصر الإسلامية في مدينة الفسطاط، انظر Goitein, S., Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton, 1973; Sadan, J. "Genizah and Genizah – like practices in Islamic and Jewish Traditions", Bibliotheca Orientalis 43 (1986). PP. 36 – 58.

باعتبارها خاصة بطائفة واحدة وهم اليهود، وبالتالي لا يمكن أن تأخذ أحكامها بصورة عامة علي التاريخ الإسلامي[٣].

كمـــا يؤخـــذ علي الباحث اتساع الفترة التي تناولها والتي تمتد من فتح كريت وصـــقلية علـــي أيدي الأندلسيين والأغالبة إلي سقوط في مصر (٢١٢ – ٦٥٠هـــ – ٨٢٧ – ١٢٥٢م)، أي مـــا يـــزيد عـــن أربعـــة قرون، وهي فترة كبيرة زمنياً شهدت حوادث عديدة في مختلف البحار الإسلامية، كما شهدت تطورات في القواعد البحرية، بحيث من الصعب الإلمام بها بين دفتي دراسة واحدة.

ورغـــم ذلـــك، تظـــل هـــذه الدراسة إضافة مميزة لحقل الدراسات الإسلامية، وناحـــية جديدة تلقي الضوء علي جانب هام من جوانب الحضارة الإسلامية، مازال في حاجـــة للمـــزيد من الدراسات المتعمقة، التي تتيح أبعاداً جديدة من المعرفة لهذا المجال الحيوي من الحضارة الإسلامية.

---

3 للمزيد من التفصيل عن هذه القضية انظر .. أحمد فؤاد سيد، أوراق جنيزة القاهرة، هل هي امتداد لعلم البرديات العربية ودراساته، ندوة الدراسات البردية في مصر، القاهرة ١٩٨٣، ص٢٣٣ – ٢٨٢.

ثانياً: القسم الأجنبى

Deals with the political , administrative economical social and religious circumstances in Byzantine Egypt

Chapter 3 :

Deals with the objectives of education . and the educational institutions of learning in Byzantine Egypt.

Chapter 4 :

Deals with the various courses and teaching methods applied in the system of education during Byzantine Egypt.

Chapter 5 :

Deals with the social status of teachers and students in Byzantine Egypt.

Epilogue :

Contains the conclusions of the study.

Education in Byzantine Egypt, **PhD dissertation by Naglaa Mohamed Hamed,** Cairo University , Institute of Educational Studies Department of Foundations of Education. 2001

Naglaa M. Hamed
Egypt

The Byzantine age in Egypt is considered one of the most impressive ages in the Egyptian history . this importance is due to the radical changes both in economic and the cultural life in Egypt

The present study endeavors to prove that this radical changes have some depth in the Egyptian civilization

The system of education in Byzantine Egypt was meanly based upon several factors · Hellenic culture dominant from the Ptolemaic age ; Christian culture as from the diffusion of Christianity of Egypt ; the reforms made by the Byzantine emperor.

Justification of the study :

There is no previous study concerning history of education in Byzantine Egypt. There is an urgent need for a manifold study to the system of education in Byzantine Egypt, in order to fill the gap of the history of education in Egypt.

Objectives of the study :

There is necessity for a special study concerning the system of education in Egypt in the Byzantine period in order to achieve the following objectives:

For explaining and analyzing the resources of information of this period with a view to proving the principal relation between education and cultural changes.

For discussing in full the educational factors in Byzantine age with a view to solving the recent educational problems

The methodology of study :

This study uses the historical together with the analytical methods in order to explain the educational system and its impact upon the cultural changes in the society.

This study consists of five chapters which are as follow.

Chapter 1 :

An introduction to the study containing a theoretical framework of the study.

Chapter 2 :

B. Book Reviews

enemies.[84] It is most probable that the Byzantine emperor aimed to benefit from the military advantages of the Magyars, who were threatening their neighbors and raided on some European cities,[85] or to destroy their military power in the war against the Bulgarians. These events proved that the Byzantine diplomacy was very active and had the ability to move the tribes of the Steppes one against the other.

Constantine VII mentioned also that: "Árpád, the graet prince of the Turks, had four sons: first, Taskatzous; second, Ielech; third, Ioutotzas; fourth, Zaltas.

The eldst son of Árpád, Tarkatzous, had a son Tebelis, and the second son Ielech had a son Ezelech, and the third son Ioutotzas had a son Phalitzis, the present prince, and the fourth son Zaltas had a son Taxis.

All the sons of Árpád are dead, but his grandsons Phalis and Tasis and their cousin Taxis are living.

Tebelis is dead, and it is his son Termatzous who came here recently as 'friend' with Boultzous, third prince and Karchas, of the Turks.

The Karchas Boultzous is the son of the Karchas Kalis, and Kalis is a proper name, but Karchas is a dignity, like Gylas, which is superior to Karchas".[86]

Therefore, Constantine VII presented good information on the genealogy of Árpáds and distinguished between Kalis, as a proper name, and the dignities of Karchas and Gylas.

Thus, although there is some confusion in some chapters of Constantine VII, which speak of the early history of the Turks, i.e. the Magyars, his account is very useful to examine the Byzantine policy towards the Byzantine-steppe frontier towards the end of the 9th century and the beginnings of the 10th century AD.

---

[84] Chapter 18 of the Tactica contains of valuable information on the Bulgarians, Turks, Scythians, Arabs and others. Leo in this chapter speaks of the strategy and the tactics of these nations, to present his experience with them to his successors.
[85] Shepard, *The Khazars*, 25-26.
[86] *DAI*, I.40. 51-68.

where they live, which is called after the above name of the rivers, as has been said".[78] The Byzantine historians confirm the account of Constantine VII.[79]

As we have already assumed that the Pechenegs attacked the Magyars and drove them from Atelkozou as a result to the lack of the pastures in Lebedia, especially after the arrival of their kinsmen from the east, or because of some skirmishes among them. But we can add that the co-operation between the Bulgarians and the Pechenegs was a common desire, since the Bulgarians wanted to destroy the power of the Magyars, who threatened their safety during their war against Byzantium. At the same time may be the Pechenegs wanted to extend their lands at the expense of the Magyars.

Here there is a question that poses itself: why did Leo VI especially send to the Magyars to support him in his war against Symeon the Bulgarian?

Leo VI speaks in his Tactica about the 'Turks' and mentions that " the Turks are an active nation, and they keep the secret. They are not sociable and they are dishonest. They don't respect their agreements...After their receiving the gifts, they begin to forget their agreements and arrange the plots".[80] "During the battle they fight by deceits, and sudden skirmishes more than fighting hand by hand. They surround the enemy and cut off his supplies.[81] They also are interested in the archers, especially shooting on the backs of the horses".[82]

From the texts of the Tactica of Leo VI, it may be concluded that the Magyars, as fighters, are strong, brave and have a special strategy in the war. They do not accept the defeat during the battle, and search for all the ways to get over their enemy and defeat him.[83] According to the Tactica, it is shown that the Byzantine palace was interested in recording the strategy and the tactics of Byzantium's

---

[78] *DAI*, I. 40. 13-22; P. Diaconu, *Les Pechénègues au bas-Danube* (Bucarest 1970) 11; (henceforth *Pechénègues*) Tamiem, *Pechenegs*, 60f.; Runciman, *Bulgarian Empire*, 149; Fine, *Balkans*, 139.

[79] Cf. *Theophanes Cont.*, 359; *George Monachus*, 854-855; *Leo Gram.*, 268; *Zonaras*, III. 444; *Pusedo-Symeon*, 702. For more details see Bashier, *Bulgarian State*, 111ff.; R. Browning, *Byzantium and Bulgaria, A Comparative Study across the Early Medieval Frontier* (London 1975) 59ff.; Diaconu, *Pechénègues*, 11; Tougher, *Leo VI*, 177.

[80] Leo VI, *Tactica*, col. 958. 47.

[81] Leo VI, *Tactica*, col. 958. 48.

[82] Leo VI, *Tactica*, col 958. 51. For more details see Tougher, *Leo VI*, 182-183

[83] Leo VI, *Tactica*, col 963 74

Byzantine leader Crinitus was killed. Symeon cut off the noses of the Byzantine captives and sent them back to Constantinople.[75]

This incident persuaded the emperor Leo VI to move the Byzantine armies of the Orient, which were under the leadership of Nicephor Phocas from Asia Minor to the Balkans; and at the same time used the Byzantine diplomacy. So he sent Nicetas Skleros to the Magyars to secure their help. He sailed up the Danube and met with them. He carried many of the traditional gifts of these occasions to the Magyars. The Magyars agreed to launch an attack on Symeon's rear. and Nicetas took hostages (presumably as a guarantee of their promised co-operation) and returned to Byzantium.[76]

When the Byzantine leader Nicephor Phocas arrived to Constantinople, the Byzantine emperor sent him with a Byzantine navy to the Balkans, to fight against the Bulgarians. The Byzantine navy of Admiral Eustathius carried the Magyars across the Danube to the north of Bulgaria. The Byzantine armies and the Magyars defeated Symeon who fled to Moundraga. Therefore, Symeon asked Leo VI to make peace with him.[77]

Yet, Symeon in the same year of 896 AD. turned to revenge from the Magyars, the new ally of Byzantium in the north of the Balkans. So, as Constantine VII said: " after Symeon was once more at peace with the emperor of the Romans and was free to act, he sent to the Pechenegs and made agreement with them to attack and destroy the Turks. And when the Turks had gone off on a military expedition, the Pechenegs with Symeon came against the Turks and completely destroyed their families and miserably expelled thence the Turks, who were guarding their country. When the Turks came back and found their country this desolate and utterly ruined, they settled in the land

---

[75] *Theophanes Cont.*, 358; *Leo Grammaticus Chronographia*, ed. F. Niebuhrii, *CSHB* (Bonn 1842) 267; (henceforth *Leo Gram.*) *Georgius Monachus Continuatus*, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838) 853; (henceforth *George Monachus*) *Zonaras*, III. 443; V. A. Fine, *The Early Medieval Balkans* (Michigan 1993) 138f; (henceforth *Balkans*) J. Shepard, 'Bulgaria: The Other Balkan 'Empire'', *NCMH*, Vol. III. ed. T. Reuther (Cambridge 1999) 570. (henceforth *Bulgaria*)

[76] Tougher, *Leo VI*, 176; Shepard, *The Khazars*, 28.

[77] *Theophanes Cont.*, 358; *George Monachus*, 854; *Leo Gram.*, 268; *Zonaras*, III. 443-444; *Pusedo-Symeon*, 701; Leo VI, *Tactica*, ed. J. B. Migne, *PG* (Turnholti 1987) col. 955.42; S. Runciman, *A History of the First Bulgarian Empire* (London 1930) 146; (henceforth *Bulgarian Empire*) H. Bashier, *The Relations between the Byzantine Empire and the First Bulgarian State* (Cairo 2001) 110-111: (henceforth *Bulgarian State*) Tougher, *Leo VI*. 176-177; Shepard. *Bulgaria*, 570

seem that the nations whose power was inferior to the Pechenegs, or afraid of the alliance between them and the Byzantine Emperor were the Rus' the Magyars and the Bulgarians At the same time there is no indication to the nature of the relations between the Khazars and the Pechenegs after the defeat of the latter by the Khazars in 889 AD This may refers to the Khazars' power which was still strong.

This demonstrates the importance of the Pechenegs' power for Byzantium in comparison with other powers of the Steppes. But, what about the Magyars in their last place?

When the Magyars moved from Atelkozou to the lands of Great Moravia they settled in the rear of Bulgaria. Thus, the neighbors of the Magyars were: on the eastern side of the Bulgarians, where the river Istros, also called the Danube, runs between them; on the northern, the Pechenegs; on the western the Franks; and on the southern, the Croats.[71]

On the other hand, there was a great hostility between the Byzantine emperor and the Bulgarian Symeon. So, when Symeon declared war against Byzantium in 894 AD., and the Byzantine armies were in the east under the leadership of Nicephor Phocas, the Byzantine emperor Leo VI asked the Magyars to launch an attack on the rear of the Bulgarians, to gain the time and move his armies from Aisa Minor to the west.[72]

Constantine VII says that the Magyars after their staying in the new site, " at the invitation of Leo, the Christ-loving and glorious emperor, they crossed over and fought Symeon and totally defeated him, and drove on and penetrated as far as Preslav, having shut him up in the city called Moundraga; and they went back to their own country. At that time they had Liountikas, son of Árpád, for their prince".[73]

This account is substantiated by many Byzantine historians. According to their writings, the Byzantine emperor sent a small force of his *hetaireia*[74] in 894 AD. under the leadership of Procopius Crinitus and Curticius the Armenian, to fight Symeon, Khan of the Bulgarians. But Symeon defeated them in Macedonia and the

---

[71] *DAI*, I. 40.41-44.

[72] *DAI*, I. 40.7ff.

[73] *DAI*, I. 40. 7-13; T. Lounghis, *Les ambassades byzantines en accident, depuis la formation des états barbares jusqu'aux croisades 407-1096* (Athens 1980) 196.

[74] S Tougher, *The Reign of Leo VI (886-912)* (Brill 1997) 175 (henceforth *Leo VI*)

that Byzantium was interested in enforcing its relations with the Khaqān of the Khazars, who had an army of 10.000[64] or 12 000 of soldiers.[65] We have to keep in mind that the Rus' and their princes had arrived to Kiev in 859 AD. and taken it by force from the sovereignty of the Khazars. So, Byzantium had to ally itself with the Khazars against the advancement of the Rus' towards the Pontic sea. But, by the end of the ninth century, the Pechenegs proved, through their new geographical places, Lebedia and Atelkozou, that they were more useful to Byzantium than the Khazars This fact persuaded Constantine VII to write these words to his son " I conceive, then, that it is always greatly to the advantage of the emperor of the Romans to be minded to keep the peace with the nation of the Pechenegs and to conclude conventions and treaties of friendship with them and to send every year to them from our side a diplomatic agent with presents befitting and suitable to that nation, and to take from their side sureties, that is, hostages and a diplomatic agent, who shall come. together with the competent minister, to this city protected of God, and shall enjoy all imperial benefits and gifts suitable for the emperor to bestow". [66]

The Pechenegs could attack the Rus', and ravage their lands; and the Rus' couldn't raid on the Byzantine lands without making peace with them.[67] Thus, so long as the Pechenegs were leagued in friendship with the emperor and won over by him through letters and gifts, they could easily come upon the country both of the Rus' and of the Magyars, and enslave their women and children and ravage their country.[68] Constantine VII adds that they may make excursions and plundering raids against Cherson, and may ravage Cherson itself and the so-called "Regions". [69]

The Pechenegs also threatened the Bulgarians of the Danube, enemies of Byzantium, and the Byzantine Emperor would appear more formidable, and could impose on them the need for tranquility, if he was at peace with the Pechenegs who could attack and defeat the Bulgarians.[70] According to the last words of Constantine VII, it would

[64] Al-Marwazī, *Kitāb Tabai' al-Haiawān*, ed. V. Minorsky (London 1940) 21.
[65] Istakhrī, *Al-Masālek wal-Mamālik*, ed. M. G. 'Abdel-'Aal (Cairo 1961) 129.
[66] *DAI*, I. 1.16-24.
[67] See *DAI*, I. 2.2-23.
[68] *DAI*, I. 4.8-13.
[69] *DAI*, I. 1.25-28.
[70] *DAI*, I. 5.2-12.

tribes, immigrated from the east to Lebedia to live there with the Pechenegs who were called Kangār [57]

It is probable that the pastures of Lebedia couldn't cope with these great numbers of the Pechenegs for a long time, or there were some skirmishes between the Pechenegs and the Magyars, especially that the author of Hudūd Al-'Ālam mentions that "the Magyars are at war with all infidels living around them...".[58] So, after three years of their coming,[59] in 896 AD., they marched towards Atelkozou to extend their lands at the expense of the Magyars. They attacked the Magyars and drove them with their prince Árpád out of Atelkozou. The Magyars, in flight and seeking a land to dwell in, came and in their turn expelled the inhabitants of great Moravia and settled in their land, until the time of Constantine VII. And since that, time the Magyars had not sustained any attack from the Pechenegs.[60] Constantine refers also to the relations which were still between the two parts of the Magyars, i.e. Magyars of Persia and the others of the Danube.[61]

Now, what is the importance of these changes which took place in the Steppes for Byzantium? The Pechenegs became neighbors of the Rus' and the Khazars, and the Magyars were neighbors of the Bulgarians and the other nations of the Balkans.

In 860 AD. a regrettable accident happened to Byzantium; the Rus' attacked Constantinople suddenly and ravaged its suburbs.[62] Since this event the Rus' became hostile to the Byzantines, especially when they began to threaten the Byzantine possessions in Crimea, i.e. Cherson. After this attack, Byzantium sent a diplomatic mission under the leadership of Constantine of Thessaloniki to Khazaria to strengthen its relations with the Khazars.[63] It was normal at that time

---

[57] Tamiem, *Pechenegs*, 59-60.

[58] *Hudūd Al-'Ālam*, 101.§ 22.

[59] Tamiem, *Pechenegs*, 60.

[60] *DAI*, I. 172. 53-61.

[61] *DAI*, I. 172. 61-65.

[62] *Symeon Magister ac Logothetae Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838) 674-675; (henceforth *Pusedo-Symeon*) *Cedrenus*, II, 173; I. Zonaras, *Epitomae Historiarum*, Vol. III, ed. T. Bütter-Wobst, *CSHB* (Bonn 1897) 404. (henceforth *Zonaras*) For a good analysis of all the sources of this event see A. Vasiliev, *The Russian Attack on Constantinople in 860 AD* (Cambridge, Mass. 1947) 150-239; A. Court, ' La russie à Constantinople', *RQH* 1(1876) 78-84.

[63] G. Ostrogorsky, *History of the Byzantine State* (Oxford 1956) 203

Kabaroi against the Khazars. The Magyars and the Kabaroi co-operated together and attacked Vienna and its suburbs in 881 AD. Therefore, one may suppose that the Khazars were upset by the alliance between the Magyars and the Kabaroi. And the relations between the Khazars and the Magyars at that time were not cordial.[53] So, they permitted the Pechenegs in 889 AD. to pass through their lands to Lebedia in which the Magyars and the Kabaroi were living, and drove them out of it.

When the Magyars stayed in Atelkozou , after a short time, the Khaqān of the Khazars sent a message to them, requiring that Lebedias, their first Voivode, should be sent to him. Lebedias, therefore, came to the Khazars' Khaqān and asked the reason why he had sent for him. The Khaqān told him that he would appoint him as a prince for his nation. But Lebedias refused to be a *client* prince to the Khazars on the Magyars and told the Khaqān that anther Voivode called Almoutzis and his son Árpád were more suitable for the post. Then the Khaqān sent a political Khazarian mission with Lebedias to Atelkozou, to discuss this matter with the Magyars, who had chosen Árpád their prince for them.[54] Thus, Árpád accepted to be a *client* prince to the Khazars, where he became a ruler according to the Khazarian traditions. These events show and confirm that the Magyars, after their defeat by the Pechenegs, accepted the conditions of the Khazars, who became their masters and submitted to the authority of the Khazarian Khaqān. Thus, in 890 AD. the Hungarian rulers became *clients* to the Khzarian Khaqān such as the Bulgars of the Volga, the Burtas and some other nations.[55]

In 893 AD., Isma'il ibn Ahmed al-Samanī directed an expedition against the Ouzes and defeated them. Therefore, great numbers of the Ouzes' tribes marched towards the Caspian sea and stayed there between the rivers of the Volga and the Oural, in the north of the Caspian sea.[56] So, the rest of the Pechenegs, the five

---

[53] Shepard, *The Khazars*, 26.
[54] *DAI*, I. 172. 38. 31-53.
[55] Zuckerman, *Les Hongrois*, 64. Ahmed ibn Fadlān refers to twenty five wives to the Khazarian Khaqān, which indicate to twenty five of his neighboring (*clients*) kings. See *Resālat Ahmed ibn Fadlān fi Wasf al-Rehla elā Bilād al-Turk wal-Khazar wal-Rus' wal-Saqālibah*, ed S. El-Dahān (Damascus 1978) 192.
[56] Zuckerman, *Les Hongrois*, 61

rivers are identified with the Dnieper, Bug, Dniester, Pruth and Sereth.[46]

These events, which had taken place in 889 AD, as Minorsky concluded,[47] may refer to the entrance of the Pechenegs to the lands of Khazaria. In that year the Pechenegs couldn't bear the bothering and pressure of the Ouzes (Ghuz) to push them towards the west into Khazaria.[48]

M. Tamiem supposes that the Pechenegs took their route to Lebedia across the Russian lands, and that they passed through Kiev, after their defeat by the Khazars.[49] Zuckerman thinks that the Khazars defeated the Pechenegs and there was a Khazarian-Pecheneg plot to attack the Magyars.[50] I think that the presumption of M. Tamiem is not acceptable, especially that the Russian Primary Chronicle afterward reflects the hostility between the Pechenegs and the Rus'. But the assumption of Zuckerman is notable, although it gives an impression that the Khazars, the victors, ordered, or asked, the defeated Pechenegs to attack the Magyars. It may be suitable to think that the Pechenegs, after their defeat by the Khazars, asked the latter to pass through their lands to Lebedia. At the same time it was a good chance to the Khazars to drive the Magyars out of Lebedia and to strike the Pechenegs with the Magyars to destroy their military power. So, they made an agreement with the Pechenegs to pass through Khazaria and to settle in Lebedia instead of the Magyars. On the other hand, the Pechenegs promised the Khazars to drive the Magyars out of Lebedia.

This incident reflects the tension in the relations between the Khazars and the Magyars in that time. In 870 AD.[51] the Kabaroi, which were Khazrian tribes, for political reasons, rebelled against the Khazarian sovereignty and fled to the Magyars, who accepted them on their lands.[52] It is possible that the Magyars were planning to use the

---

[46] *DAI*, II. 149. 38.68-71. Cf. Stephenson, *Medieval Hungary*, 104; Vernadsky, *Lebedia*, 186ff.

[47] *Hudūd al-'Ālam*, 320; Zuckerman, *Les Hongrois*, 55.

[48] M. Tamiem, *Pechenegs and Byzantines, a Study in the Northern Policy of Byzantium 850-1122 AD* (MA unpublished thesis, Mansoura University 1996) 58-59. (henceforth *Pechenegs*)

[49] Tamiem, *Pechenegs*, 59.

[50] Zuckerman, *Les Hongrois*, 61.

[51] Zuckerman, *Les Hongrois*, 63.

[52] *DAI*, I. 39. 1-14; Zuckerman, *Les Hongrois*, 62-63.

their lands to *Bilād al-Rūm*, i.e. Byzantium, to sell them there".[39] This information of al-Gardizī is very important to explain the importance of this alliance between the Khazars and the Magyars.

However, because they were in alliance with them and were brave, the Khaqān arranged the marriage of Lebedias, the Hungarian prince, to a Khazarian noble lady and subsequently proposed to appoint him as 'prince (archon).[40]

Thus, the Magyars became allies of the Khazars during their staying in Lebedia, as we have concluded before, and the relations with them were good. These facts were clear for Constantine VII, who recorded them carefully in his *DAI*.

For some reason the Pechenegs stirred up war against the Khazars, and being defeated, were forced to quit their own land and to settle in that of the Magyars. And, when battle was joined between the Magyars and the Pechenegs who were at that time called *Kangār*,[41] the army of the Magyars was defeated and split into two parts. One part moved eastwards and settled in the region of Persia, and they to this day are called by their ancient name of the Magyars *Sabartoi asphaloi*; but the other part, together with their Voivode and chief Lebedias, settled in the western region, in a place called ' Ατελκούζου.[42]

Al-Gardizī, confirms the account of Constantine Porphyrogenitus about this stage of the Magyars' history, whereas he refers to two parts of the Magyars, one in the east and the other in the west beside *al-Saklāb*.[43] They spent some years in that region, *Atelkozou*, in which there are five great rivers; emptying themselves into the north-western corner of the Black sea.[44]These five rivers are Βαρούχ, Κουβοῦ, Τροῦλλος, βροῦτος and Σέρετος.[45] These

[39] Al-Gardizī, *Zayn al-Akhbār*, 472. Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafīsah*, 142-143 refers only to the Magyars' attacks on the Slavs but Al-Gardizī told us that they attacked also the Rus'.
[40] *DAI*, I. 170.38; Shepard, *The Khazars*, 25.
[41] Κάγγαρ, this is a Pecheneg name which is mentioned in the Syrian sources in the form *hangār*, and applied to a people who fought with the Persians in the middle of the 6th century. For more details see *DAI*, II. 145.37.68-71.
[42] *DAI*, I. 38.19-30. Atelkozou, this name means in Hungarian 'between the rivers' or 'Mesopotamia'. See *DAI*, II. 148.38.30.
[43] *Al-Gardizī*, 471-472.
[44] *Hudūd al-'Ālam*, 320; Zuckerman, *Les Hongrois*, 56.
[45] *DAI*, I. 172. 38. 68-71.

Khazars attack the Pechenegs every year, and Isha (their khaqān) raids and leads his soldiers by himself'.[32] Constantine VII supports the account of Ibn-Rosteh when he says that the Pechenegs extended their influence until the Khazarian Sarkel.[33] Thus, all evidences show that Sarkel was built to protect the Khazarian limit of the Don against the Magyars[34] and the Pechenegs also[35]. So, it may be concluded, according to the previous evidences, that the Magyars moved to Lebedia, which was Khazarian possession, in the fourth decade of the ninth century.[36] The relations between the Magyars and the Khazars were hostile for more than twenty years afterward, if one would suppose that the Khazars tried to restore Lebedia from the hands of the Magyars or that the latter raided on the Khazars, since they launched wars against their neighbors.[37] The new settlers of Lebedia conquered the Slavs and dealt with them as captives. On the other hand they brought many of them as slaves to sell them to the Byzantine merchants.[38] Therefore, the Magyars became inimical to the Khazars, who lost their sovereignty on these Slavic tribes which used to pay the tribute to them.

Probably, after the fall of Kiev, which was under the Khazarian sovereignty, at the hands of the Rus' the relations between the Khazars and the Magyars became better than before 859 AD. In the next stage of the relations between them, the Magyars, who became an *état tampon* between the Rus' and the Khazars, became allies to the latter.

The new situation of the Magyars between the Rus' of Kiev and the Khazars, as an *état tampon*, was in the consideration of the Khaqān. Al-Gardizī confirms this assumption when he says that "the Magyars attacked the Slavs and the Rus', and brought the slaves from

---

[32] Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafisah*, 140.
[33] *ADI*, I. 42. 20-23. Cf. G. Cedrenus, *Historiarum Compendium*, Vol. II, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838), 528; (henceforth *Cedrenus*) *Theophanes Continuatus*, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838) 122; (henceforth *Theophanes Cont.*)
[34] Macarteny, *Magyars*, 75; Shepard, *The Khazars*, 24.
[35] Zuckerman, *Les Hongrois*, 57.
[36] Macarteny, *Magyars*, 77; Zuckerman, *Les Hongrois*, 59.
[37] *Hudūd Al-'Ālam*, Eng. trans. V. Minorsky (Oxford 1937) 101. § 22.
[38] Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafisah*, 142-143; Al-Gardizī, *Zayn al-Akhbār*, Arab. trans. A. S. Zydān (Cairo 1982) 472. (henceforth *Zayn al-Akhbār*)

allies, and from this year onwards the Magyar-Khazarian relations were strengthened, as recorded by Constantine VII . But what about the relations between them before 859 AD., peaceful or hostile?

C. Zuckerman in his interesting article[25] refers to the Russian envoys who had visited Constantinople during the reign of the Emperor Theophilus.[26] He assumes that these envoys visited Constantinople before 839 AD., may be in 835 AD., and stayed there for many years, where the emperor received them.[27] In 18th May 839 AD. the Frankish Emperor Louis the Pious received a Byzantine mission accompanied with the Russian envoys to help them to come back to their country. Because the route through which they came to Constantinople was threatened now with the barbarians.[28]

In the summer of 839 AD. the Byzantine Emperor Theophilus received the Khazarian envoys, who came to ask him to provide them with Byzantine engineers to construct the fortress of Sarkel on the Don. Theophilus answered their request and the Sarkel was built under the supervision of Petronas Kamaretus. The Khazars posted in this fortress a garrison of 300 men , who were relieved annually.[29]

Zuckerman examined these evidences and concluded that the barbarians who has threatened the Russian envoys were the Magyars, and supported his conclusion with the clash of the Byzantines ca. 836 AD. with the Hungarian troops in the north of the Danube. May be the Russian envoys knew of the troubles of the Pontic Steppes in that year and stayed at Constantinople for many years before their returning back to their country in 839 AD.[30] Ibn-Rosteh supports the conclusion of Zuckerman where he says: " In the past, the Khazars protected themselves by ditches against the Magyars and the other neighboring nations...".[31]

I think that Ibn-Rosteh means with "the other neighboring nations..." the Pechenegs, especially because he confirms that "the

---

[25] 'Les Hongrois au pays de Lebedia: Une nouvelle puissance aux confines de Byzance et de la Khazarie ca 836-889', in *Το Εμπόλεμο Βυζάντιο 9ος-12ος αι.* (Athens 1997) 51-74. (henceforth *Les Hongrois*)

[26] *Annales de Saint-Bertin*, ed. F. Grat, J. Vieillard, S. Clémencet and L. Levillain (Paris 1964) 30-31.

[27] Zuckerman, *Les Hongrois*, 54-55.

[28] Zuckerman, *Les Hongrois*, 53.

[29] *DAI*, I. 42. 20-41.

[30] Zuckerman, *Les Hongrois*, 55-56.

[31] Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafisah*, 143.

For example, when the Rus' itended to attack Abskoun, between 864-884 AD./250-271AH., in the Caucasus they asked the Khaqān of the Khazars to give them his permission to do it, because they had to pass through his lands.[19] When the Rus' attacked Abskoun for the second time in 910 AD. without his permission, and without passing across his lands, the Khaqān of Khazars attacked them while they were retreating before the Caucasian Moslems.[20] So, when the Rus' intended to attack the Moslems of Tabaristan, Jilan, Bakou and other Caucasian countries, for the third time in 912 AD., they sent to the Khaqān to give them his permission to pass through his lands for this purpose, and if they conquered the people of these countries they would give him the half of their booty.[21] During the time of the Khazarian Khaqān Aron (900-920 AD.) Byzantium pushed the king of Alans to attack Khazaria; but Aron allied himself with the Turkish Ouzes and defeated him.[22] It should be added that the Khazars collected the tribute from the Slavs of the Steppes.[23]

On the other hand, beside the Khazarian power, it should be remarked that the Rus' had taken Kiev from the Khazars by force in 859 AD. and shared them in the tribute of the Slavic and Finnish tribes in the Steppes. The Khazars collected it from Radimichians, Polyanians, Severians, and Vyatichians, while the Rus' collected it from Chuds, Slavs, Merians, Ves' and Krivichians.[24]

According to this information, it seems that Khazaria was a super power as compared to the other powers of the Steppes. But, since 859 AD. I think that the Khazars had to search for an ally to support their ability against the Rus'. They regarded the Magyars as

---

Hawqal, *Kitāb Sūrat al-Ard* (Leiden 1967) 15, 392-394; Ibn-Maskawaih, *Tajāroub al-Umam*, vol. 6 (Cairo 1915) 209; Al-Idrisī, *Kitāb Nuzhat al-Moshtāq fi Ikhtraq al-Afāq* (Cairo, without date) 835).

[19] Ibn Sfandiyar, *Tarikhe Tabaristan*, Eng. trans. E. G. Brown (London 1905) 198: W. Chadwick, *The Beginning of the Russian History* (Cambridge 1966) 60-61; Mohammed, *Russians*, 142.

[20] Mohammed, *Russians*, 143.

[21] See Al-Mas'udī, *Moroj al-Dhahab wa Ma'āden al-Djawhar*, vol. I (Cairo 1927) 114-116; Al-Hemiarī, *Al-Rawd al-Me'tar fi Khabar al-Aktār*, ed. I. 'Abbass (Beirut 1980) 340-341.

[22] Noonan, *Byzantium*, 115; V. Mošin, ' Les khazares et les byzantins', *B* 6(1931) 312; Mohammed, *Russians*, 196-197.

[23] *RPC*, 84; Franklin and Shepard, *Rus'*, 77; M. Whittow, *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025* (London 1996) 223.

[24] *RPC*, 58-59, 61.

It is known that there were political, commercial and social relations between Khazaria and Byzantium since the era of the Byzantine emperor Heraclius. There were strong ties between the Khaqān of the Khazars and the imperial court of Byzantium. The Byzantine diplomacy from the 7th century onwards depended on the military Khazarian power to form the political map of the Steppes. This situation extended to the 10th century, when there were many new military powers in the Steppes such as Pechenegs and the Rus'. According to these considerations the scale of the political relations between Byzantium and Khazaria were reduced,[16] and the Byzantine court turned strongly its interests towards the new powers, especially to the Pechenegs and sometimes to the Rus' and Alans.[17] The Arab geographers and historians give a clear picture of Khazaria, especially on its political, economic and religious life. Here I'll not repeat their accounts on Khazaria, which had been studied by many scholars, but according to these accounts, it may be concluded that Khazaria was a super power on the banks of the Volga, or on the Byzantine-Steppe frontier, for many centuries. [18]

---

[16] In the reign of the Khazarian Khaqān Benjiamin (880-900) Byzantium allied with the Ouzes, Burtas, Black Bulgarians and the Pechenegs to attack Khazaria. The king of Alans supported the Khazars to get over this alliance. The Khazars and Alans defeated the alliance of Byzantium. (Noonan, *Byzantium*, 115; Mošin, *Khazars*, 321). The document of Cambridge refers also to anther Byzantine attempt to attack the Khazars by the Russians. The Byzantine Emperor Romanus Lecapenus persuaded the Russian prince *Helgou* to attack the Khazars during the time of Joseph (920-960). (Noonan, *Byzantium*, 115; Mošin, *Khazars*, 313-314) It may be added an important reason to the hostility between Byzantium and the Khazars in the tenth century, the religious policy of the Macedonian dynasty towards the Jews in the Byzantine Empire. (see: A. Sharf, *The Byzantine Jewry from Justinian to the Fourth Crusade* (London 1971) 99ff.; S. Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign* (Cambridge 1963) 231ff.).

[17] For more details on Khazaria see D. M. Dunlope, *The History of the Jewish Khazars* (New York 1967), Arab. trans. S. Zakkar (Damascus 1990) 233-294; T. M. Mohammed, *The Russians and the International Community 945-1054 AD* (Cairo 2001) 183-215;(henceforth *Russians*) A. Koestler, *The Khazar Empire and its Heritage* (London 1976), Arab. trans. H. M. Saleh (Damascus 1978) 31-70.

[18] This power decreased when the Russian prince Sviatoslave launched an attack on Khazaria in 965 AD. and destroyed their capital Itel. (*The Russian Primary Chronicle*, Laurantian text, ed. and Eng. trans. S. H. Cross and O. P. Sherawitz-Wetzor (Cambridge, Mass. 1953) 84; (henceforth *RPC*) S. Franklin and J. Shepard, *The Emergence of the Rus' 750-1200* (London 1996) 143). (henceforth *Rus'*). The Arab geographers confirmed this event and added that Sviatoslave allied with the Ouzes and destroyed also Samander, the second city of the Khazars. (See: Ibn-

Constantine VII speaks of the geographical site of the Magyars and its development as follow: "The nation of the Turks had of old their dwelling next to Khazaria, πλησίον τῆς Χαζαρίας, in the place called Λεβεδία[9] after the name of their first βοέβοδος,[10] which Voivode was called by the personal name of Λεβεδία, but in virtue of his rank was entitled Voivode, as have been the rest after him".[11] In that time the Magyars were called Σάβαροι ʼασφαλοι[12] and Constantine VII didn't know the reason behind this name.[13]

Constantine VII provides us with some details on the site of Lebedia, whereas he says that "there is a river called Χιδμάς or Χιγγιλοὺς.[14] In this place they lived together with the Khazars for three years, and fought in alliance with them in their wars.[15] Then, a question will rise for us " when did the Magyars become allies of the Khazars and fight with them too?"

---

[9] Lebedia has been located on the Dnieper, between the Dnieper and Don, near the Don and Donets, and on the Banks of Meotis and Kuban. Most of the scholars incline to the view that Lebedia lay west of the Don. Cf. *DAI*, II. 147.

[10] The meaning of this Hungarian title is not clear and there is no Byzantine synonym to it. We know from Constantine VII that this is an official title for the prince of the Magyars. *DAI*, II. 147. Ibn-Rosteh in his book *Kitāb al-A'lāk al-Nafīsah*, ed. M. J. De Goeje, *BGA* (Brill 1892) 143 says that " the president of the Magyars is called Kandah (or Kendah), and this name is a symbol of their king. Because the name of the man who rules them is Djalah (or Djelah). All the Magyars are obeyed the orders of Djalah of launch the wars or stop it...etc". This quotation indicates there were two high positions among the Magyars, i.e. Kandah, the king, and Djalah, his first leader or prime minister. Probably Voivode was a Slavonic version to the Turkish title Kandah. I think that Constantine VII is unaware of the fact that there were two high positions among the Magyars, because he speaks of only one, who is called Voivode.

[11] *DAI*, I. 170.38.3-7.

[12] It is in all probability related to the name of the Savirs and means 'invisible Savartians'. Armenian and Arab sources mention a people called 'Sevordi' which in 8th century lived near the river Kour, on the northern border of Persarmenia; scholars believe this people to be identical with Constantine VII's Savartians. *DAI*, II. 147; Macartney, *Magyars*, 87-88.

[13] *DAI*, I. 170.38.9-10.

[14] *DAI*, I. 170.38.8-9. This river has been thought by the some scholars in the following rivers: Kodyma, Inchul or Inchulets, Orel, Molotchnaya, Donets and the Don. There is identification between this river and the συγγούλ. But the last is unknown. *DAI*, II. 147.38.

[15] *DAI*, I. 170.38.13-14.

others, which examined some aspects of the relations between Byzantium and its northern neighbors, such as Pechenegs, Khazars, Rus', Magyars...etc. There are also a couple of questions which will be aroused if we re-read chps. 38, 39 and 40 of *DAI*.[8]

DAI draws a good picture about the immigrations of the Magyars from the East of the Pontus to the West and shows their political and social developments during their journey from the East to the West. In this modest paper I'll try to re-read the account of *DAI* about the Magyars and I'll try to find answers to some problematic questions, such as: Why the Magyars had allied themselves with the Khazaras and what was the nature of this alliance? Why the Magyars did not fight with the Khazars against the Pechenegs? Were the Magyars, according to Constantine VII, under the Khazarian sovereignty? What was the nature of the Byzantine-Hungarian relations in the end of the ninth century?

As a prologue I present here the account of *DAI* about the early history of the Turkoi. We have two main chapters in *DAI* , i.e. chps. 38 and 40, beside many indications in chaps. 3,4,8,13,30,39 and 42 which reflect a complete view on the early Magyars.

---

eds., Gennadios, K70-letiiu Akademika G. G. Litavrina (collection of articles celebrating G. G. Litavrin's 70th birthday) (Moscow 1999) 264-283.

[5] Nonnan has a lot of valuable studies on the Khazars and the nations of the Volga. From these studies ' When Rus/ Rus' Merchants First Visit Khazaria and Baghdad?' *AEMA* VII (1987-1991) 214-219; idem, ' What does the Historical Numismatics Suggest about the History of Khazaria in the Ninth Century', *AEMA* III (1983) 265-281; idem, ' Russia, the Near East and the Steppe in the Early Medieval Period: An Examination of the Sasanian and Byzantine finds from the Kama-Urals', *AEMA* II (1982) 269-302; idem, ' Why the Viking First Came to Russia?' *JGO* 34 (1986) 321-348; idem, 'Byzantium and the Khazars: a Special Relationship?' in *Byzantine Diplomacy*, papers from the twenty-Four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March 1990, eds. J. Shepard and S. Franklin, Hampshire, 1992, 109-132.(henceforth *Byzantium*)

[6] Nikolov presented an interesting study on the missions of Constantine and Methodius in the Steppes, especially among the Magyars. See 'The Magyars Connection or Constantine and Methodius in the Steppes', *BMGS* 21 (1997) 79-92.

[7] O. Pritsak, ' The Pecengs a Case of Social and Economic Transformation', *AEMA* 1(1975) 211-235; O. Pritsak and N. Golb, *Khazarian Hebrew Documents of the Tenth Century* (Ithaca, London 1982).

[8] Constantine Porphrogenitus, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik, Eng. trans. R. J. Jenkins (Budapest 1949); (henceforth *DAI*) Vol. II ed. by R. J. Jenkins and others (London 1962).(henceforth *DAI*, II)

The Turkish Settlement in Caucasus and Steppes Constantine VII's Evidence*

Tarek M. Mohammed
Ain Shams University. Egypt

Although there are many and valuable studies about the early history of the *Turkoi*, i.e. Magyars, such as the important study of C. Macarteny, *The Magyars in the Ninth* Century (Cambridge 1930);[1] G. Moravcsik, *Byzantium and the Magyars* (Amsterdam 1970), and others, the important and useful account of Constantine Porphyrogenitus about the history of the Magyars, it still needs more analysis. Macarteny presented a good presentation about the Magyars' account of *DAI*; but he was more concerned with discussion of the home-land of the Magyars, Lebedia and Atelkozou, and the different shapes of their name in the Byzantine sources. G. Vernadsky in 1939 presented an interesting study about Lebedia and its relation with southern Russia.[2]

These are some of the modern studies which speak of the Hungarian history in the Medieval times.[3] But, as I think, we can present a new reading of the account of Constantine VII about the early Magyars, if we depend on the recent, valuable and important studies of J. Shepard,[4] T. Noonan,[5] S. Nikolov,[6] O. Pritsak[7] and

---

* This paper was delivered at *The Second International Congress on the Black Sea Antiquities, Ankara, Turkey, 3-9 September 2001.* I'd like to thank my colleagues Dr. Peter Frankopan, Oxford University, for his useful remarks and for Prof. Eshak Ebeid, Ain Shams University, who revised the English version of this paper. My warmest thanks for Prof. J. Shepard, Cambridge University, who provided me with some articles and valuable remarks.

[1] Henceforth *Magyars.* G. Kristó presents a new study on the Magyars of the ninth century *Hungarian History in the Ninth Century, trans. G. Novak* (Szeged 1996).

[2] G. Vernadsky, 'Lebedia Studies on the Magyar Background of Kievan Russia', *B* XIV (1939) 179-203. (henceforth *Lebedia*)

[3] P. Stephenson presents an analysis to these studies. See 'review article: Early Medieval Hungary in English', *Early Medieval Europe* 10/1(2001) 95-112. (henceforth *Medieval Hungary*)

[4] J. Shepard presented some important studies on the relations between Byzantium and its northern neighbors, especially Rus' and Pechenegs. See, J Shepard, 'The Russian-Steppe frontier and the Black Sea Zone', The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer, *Αρχ.Ποντ.* 35 (1978) 218-237; idem, 'The Khazars' Formal Adoption of Judaism and Byzantine's Northern Policy', *OSP* 31 (1998) 11-34; (henceforth *The Khazars*) idem, 'Constantine VII's Doctrine of "Containment" of the Rus', in *S Ivanov et al.*,



Fig. 14

Fig 13A





Fig.13B

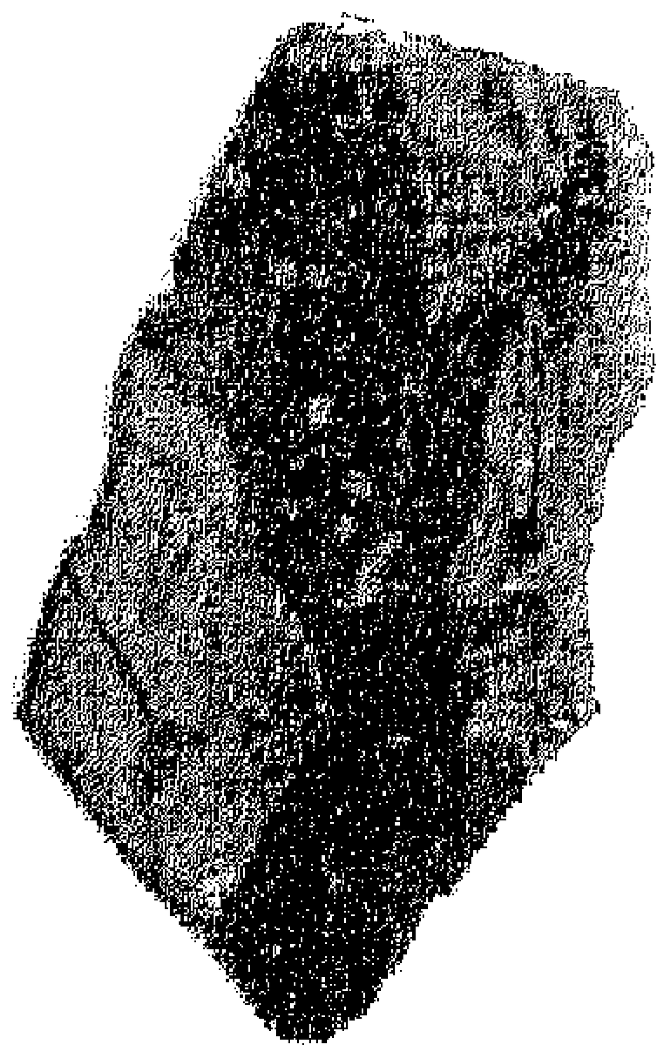


Fig. 11

Fig 12

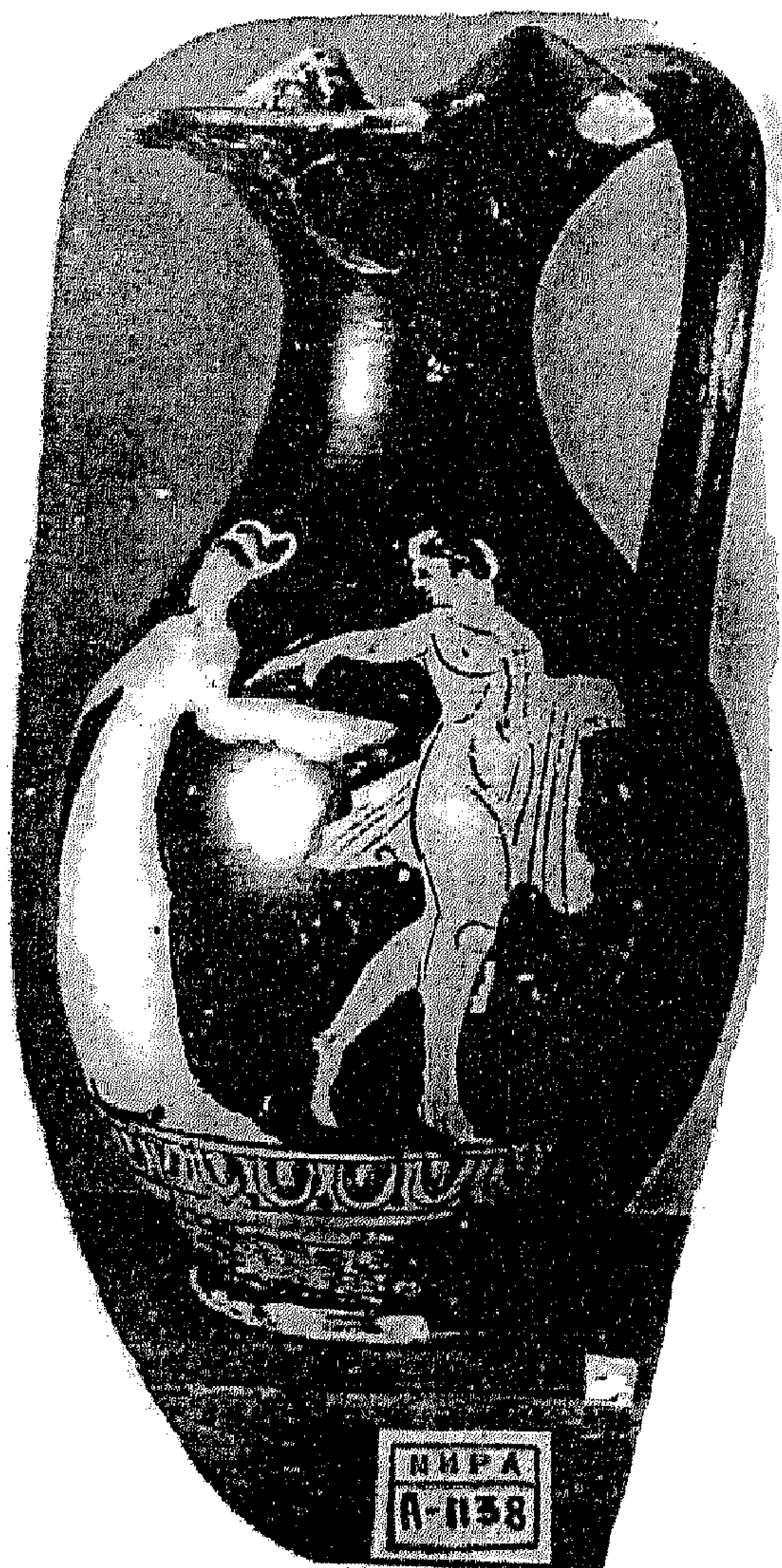




Fig.9



Fig.10



Fig. 8A

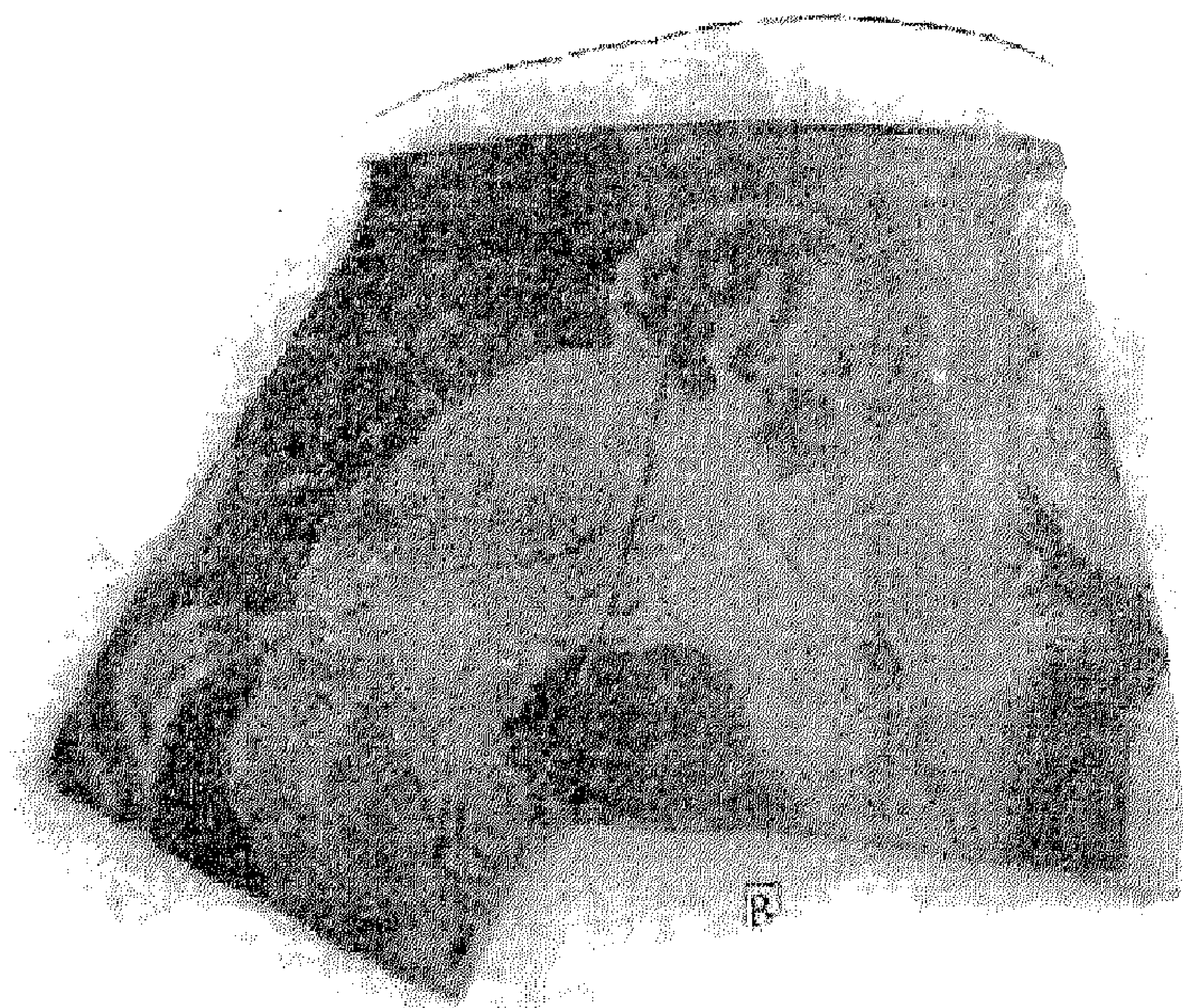


Fig. 8



Fig.7



Fig.6



Fig 5



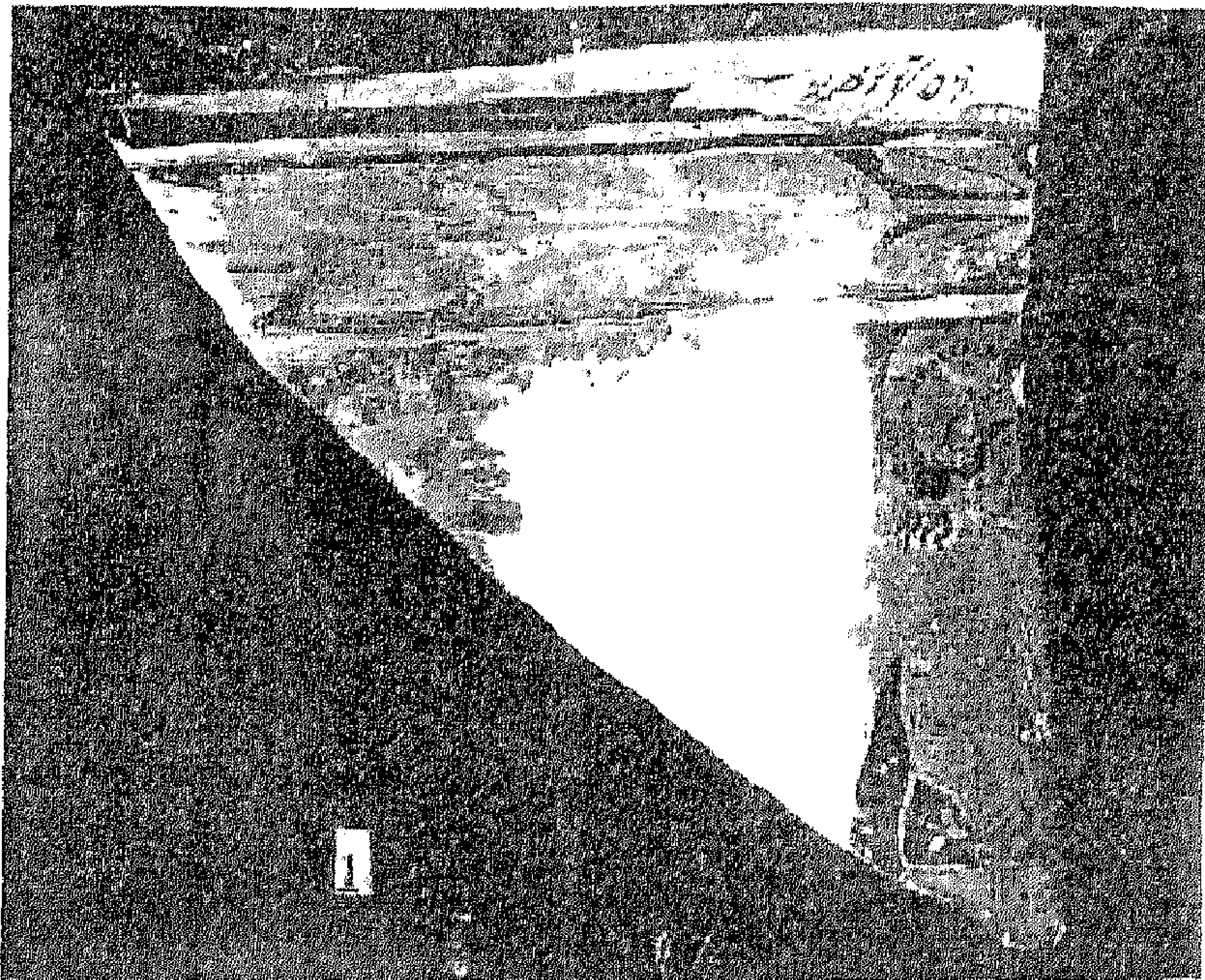
Fig 4B



Fig.4A



Fig.3



Fig



Fig. 2

fig. 2. Krater from Kiev , founded by I. Funduklej near villages Pishchal'niki and Lazurtsi . This vessel is dated the late 5th century BC. J.Beazley attributed it as Kiev Painter's work - ARV^2 1346,3
fig. 3.*Pelike from Yalta Museum. A-498; 390 BC, Painter of the Lion Griffin, ARV^2 1473, UKV, 44,taf. 5,1. fig. 3.*
Fig.4a. Fragment of krater from the Taman museum (flutist-woman and commos).Inv.KM-6461, 360-350 BC, L.C. group , ARV^2 1456-1461
fig. 4b. *Fragment of krater from Feodosia Museum of Local Lore(woman with lotus and 2 men) inv. КП-31751, 360-350 BC, L.C. group, ARV^2 1456-1461*
fig. 5. *Pelike from Crimean Republican museum(Simferopol), inv. КП-1094, 360-340 BC, Black Thyrsos Painter, $ARV^2$1431-1434.*
fig. 6.Oinochoe from the Novorosijsk museum , without number,350-325. The Painter of the Ferrara Choes, ARV^2 1504
fig. 7. Pelike from Feodosiya museum, inv. A - 5971 КП-28750, 370-360 BC, Painter of krater from the Louvre. N 2776
fig. 8a. Pelike from Sochi ОФ-543. 360-340 BC. Black Thyrsos Painter, $ARV^2$1431-1434.
fig. 8b Fragment of cup from Feodosiya КП-45573 , 410-400 BC, analogy - №1494 AGORA XXX
fig.9.Fragment of krater from Kerch KMAK-10647 , 2nd quarter of 4th century BC
fig.10.Oinochoe from Kertch (inv.6547) 350-325. The Painter of the Ferrara Choes, ARV^2 1504
fig.11. Fragment of krater from Chersonesos(inv.31629
fig.12. Oinochoia from St-Perersburg (Museum of religion and Atheism) inv.1138, provenansed from Black Sea Area , 350-325. The Painter of the Ferrara Choes, ARV^2 1504
fig. 13a.Pelike from Feodosiya КП-1048 . Eros and woman . 320-310 BC. Near the Jalta Painter, ARV^2 1452
fig. 13b. Pelike from Yalta КП-723 Eros and 2 women. 320-310 BC, Jalta Painter, ARV^2 1452
fig. 14. *Pelike from Kerch KMAK-52 .320 BC. Group of London 245. ARV^2 1483*

Bibliography:

Bron Chr, "The Sword Dance for Artemis", *The J.Paul Getty Museum Journal*, V.24. pp.69-83. 1996.
Delavaud-Roux Marie-Helene, *Les danses pacifiques en Grece antique*, publications de l'université de Provence, 1994.
Delavaud-Roux Marie-Helene A.A., *Les danses Dionysiaque en Grece antique*, publications de l'université de Provence, 1995.
Funduklej I., *Obozrenije mogil,valov i gorodishch Kievskoj gubernii*,(Kiev 1848) 18,19,71, tab. XII
Matheson Susan B, *Polygnotos and Vase Painting in Classical Athens*, The University of Wisconsin Press, 1995.
Poursat J.K., "Les representation de danse armee dans la céramique attique", *Bulletin de correspondance hellenique*, V.92. 1968.
Vdovichenko I.I., 'Izobrazhenie voennykh zhenskikh tantsev na vazakh iz Severnogo Prichernomoria', *Zapiski istoriko-filologichnogo tovaristva Andria Biletskogo*, Kiev,1979
Zedgenidze A.A. , 'O vremeni osnovaniya Khersonesa Tavricheskogo', *KSIA*, 159 (1979) 28, fig. 2,3

List of abbreviations(cuttings):

Ath. Deipn. - Athenaios, Deipnosofistai. // K. Latte. De Saltationibus Graecorum capita quinque. Giessen, 1913.
Pol. On. Pollux Iulius. Onomastikon // K. Latte. De Saltationibus Graecorum capita quinque. Giessen, 1913.
AGORA XXX – The Athenian Agora. Results of Excavation conducted by The American School of Classical Studies At Athens. Volume XXX. Attic Red-Figured and White-Ground Pottery by Mary B.More.Princeton, New Jersey,1997
ARV^2 - J. Beazley, 1963. Attic Red Figure Vase-Paintings, 2^{nd} edition, Oxford.

List of illustrations

fig.1.Krater, stored in the Chersonesus museum (Sevastopol, Ukraine). Inv.2877/09. Christie Painter's ,430 BC. analogy - Matheson ,1995, 127, Pl. 107-110

creatures - satyrs and maenads. The invitation to a dance is depicted on the pelike from Crimean Republican Museum satyr give tympanum to maenad (fig. 5). Maenads begin the dance, standing on both sides of Dionysos (oinochoe from the Novorosijsk Museum (fig. 6). Running maenads and satyrs are represented on the pelikai from Sochi OФ-543 (fig.8a), from Feodosia A - 5971 (fig. 7), fragment of cup from Feodosia (fig. 8b) and fragment of krater from Kerch KMAK-10647 (fig. 9) oinochoiai from Kertch (inv.6547) (fig.10) and fragment of krater from Chersonesos(inv.31629)(fig.11).

The dance with a coverlet (himation) is one of the curious dances popular in the late 4^{th} century BC. Menandros in the 'Diskol" had described the performance of this dance at a friendly carousal by two young maidservant . In the opinion of some researchers the dance is connected with a cult of fertility(Delavaud-Roux, 1994)This dances are represented on the pelikai 4^{th} century BC from Feodosiya (fig. 13a), Yalta (fig. 13b), and Kerch inv. KMAK- 52 (fig. 14).
The moves of this dance included covering and recovering himation, turn , sliding.

We can see other pacific dance on the Oinochoia from St-Perersburg, provenansed from Black Sea Area Youth and girl dance it. Their moves are calm and slow. (fig.12).

The musical support of the dances were double flute aulos and tambourine.

So, the Greek cult dances preserved some relicts of the archaic cults, but it did not influence on their popularity. Moreover, the chorographical traditions preserved during existence of the Byzantine empire up to the modern time.

vases quite frequently. On the Pelike from Yalta two *arimasp*ı perform ritual dance (may be *apokinos*) around the Griffin (fig 3)

Plato in the "Laws" ("*Nomoi*") marks out Bacchic dances ın a separate category of dances (5, 8-9). He negatively perceives ecstatic motion, characteristic for them. But, he does not say that these dances are ugly (except of Kordax) . Bacchic dances showed the trance caused by a deity, instead of entertainment and consequently they were out of human comprehension and opinion. However, in his judgment, they contradicted to the ideal of *sofrosini* (σωφροσύνη) - prudence, moderation. On Plato's opinion they were divided into two varieties - mystical, caused by a trance (the dances of maenads) and dances of *commos*, which were performed by men. In a modern Greek folk choreography mystical dances were not saved (except of dances *anastenaries*- dancing on a fire-brand, which exist nowadays in Northern Greece). But many dances from the other category of Bacchic dances performed by drunk men are saved better.

In antiquity they also were very popular, to what the performance of "Bakchai" by Euripides testifies. In 630-530 BC the images of these dances for the first time occurs on the Corinthian vase. Then this theme is spread in Attic, Beotia and other parts of the Greek world. It is interlinked, apparently, with spreading of popularity of a Dionysos's cult. In 530-475 BC this theme becomes one of popular in the vase-painting , which one at this time passes to new red-figure techniques . In period 475 - 320 BC the new cults - Dionysos's - Zagrey , Isis, Kybele, Sabazios were grown. It was reflected in a plastics and choreography of the Bacchic dances (Marie-Helene Delavaud-Roux 1995. p.45) The movements become less active, softer, than in the earlier period, tearing animals to pieces disappear.

The images of Dyonisos, satyrs and maenads are very popular in the vase-painting of the 4th cent. BC. Ritual dances in honor of Dionisos started spontaneously and were improvised , using traditional moves - jump, turn , sliding or running. Dances, performed by drunk men during the holidays in honor of God or after symposiums, you can meet on the kraters dated back to the 5- 4th cent. BC. On the fragments of kraters, from the Taman museum and Feodosia Museum of Local Lore N 6966 (fig. 4, a,b), you can see the picture of komos Dances performed by professional girl-dancers during symposiums can be attributed to this category too. Second one – includes the ritual dances in which both men and women creating the image of mythological

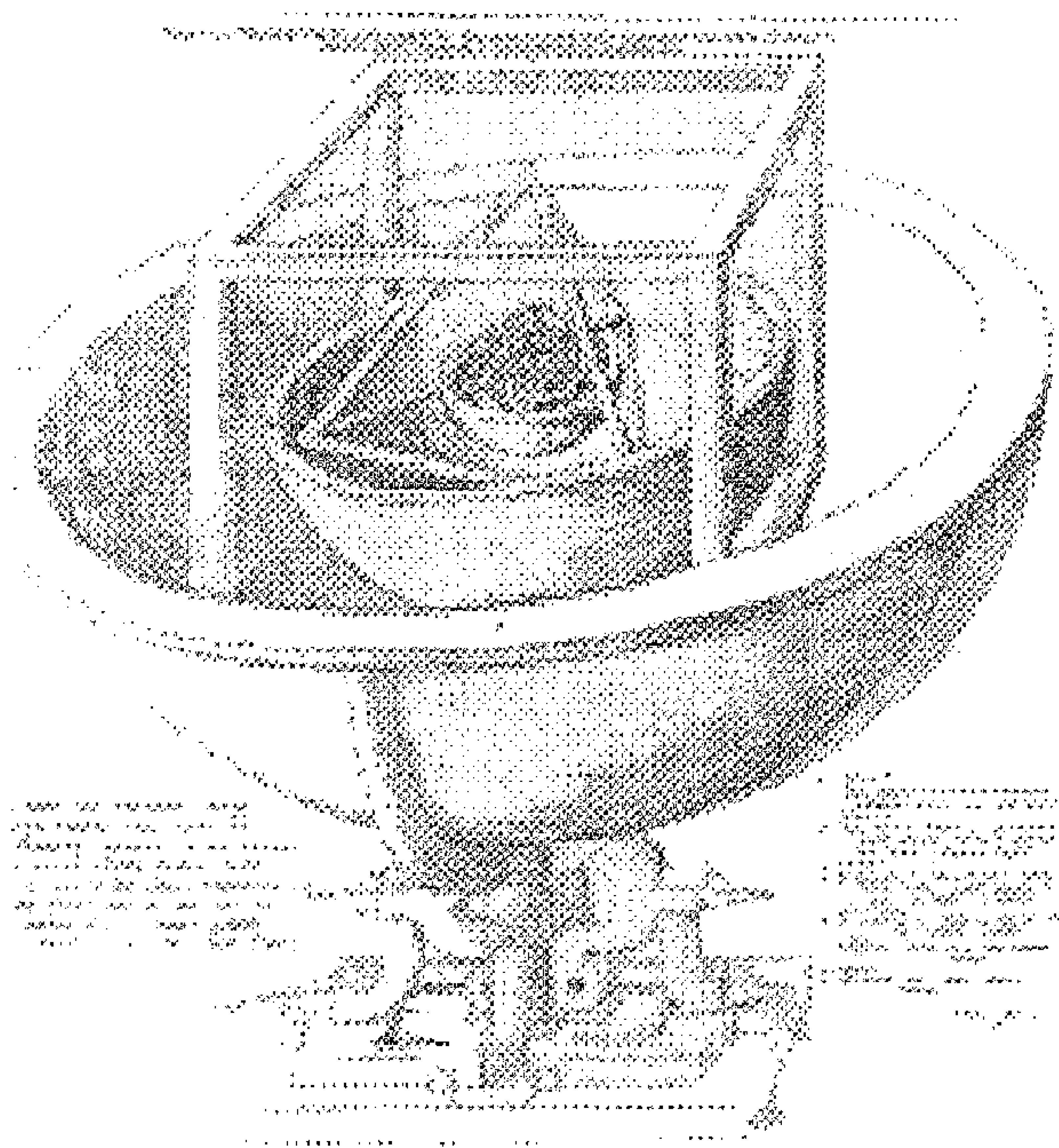
Images of the Dances on the 4^{th} Century Vases from the Black Sea Area

Vdovichenko Irina
Taurida National University
Ukraine

Ancient vase-painting gives us the richest iconographic material for learning of all sides of contemporary life. Attention of the researches attracts the images of different dances, which one from a deepest antiquity and before our time are the brightest expression of an emotional nature of the Greeks. The features of succession in a national choreography speak about the extraordinary stability of this component of culture and on the other side about saving of national character.

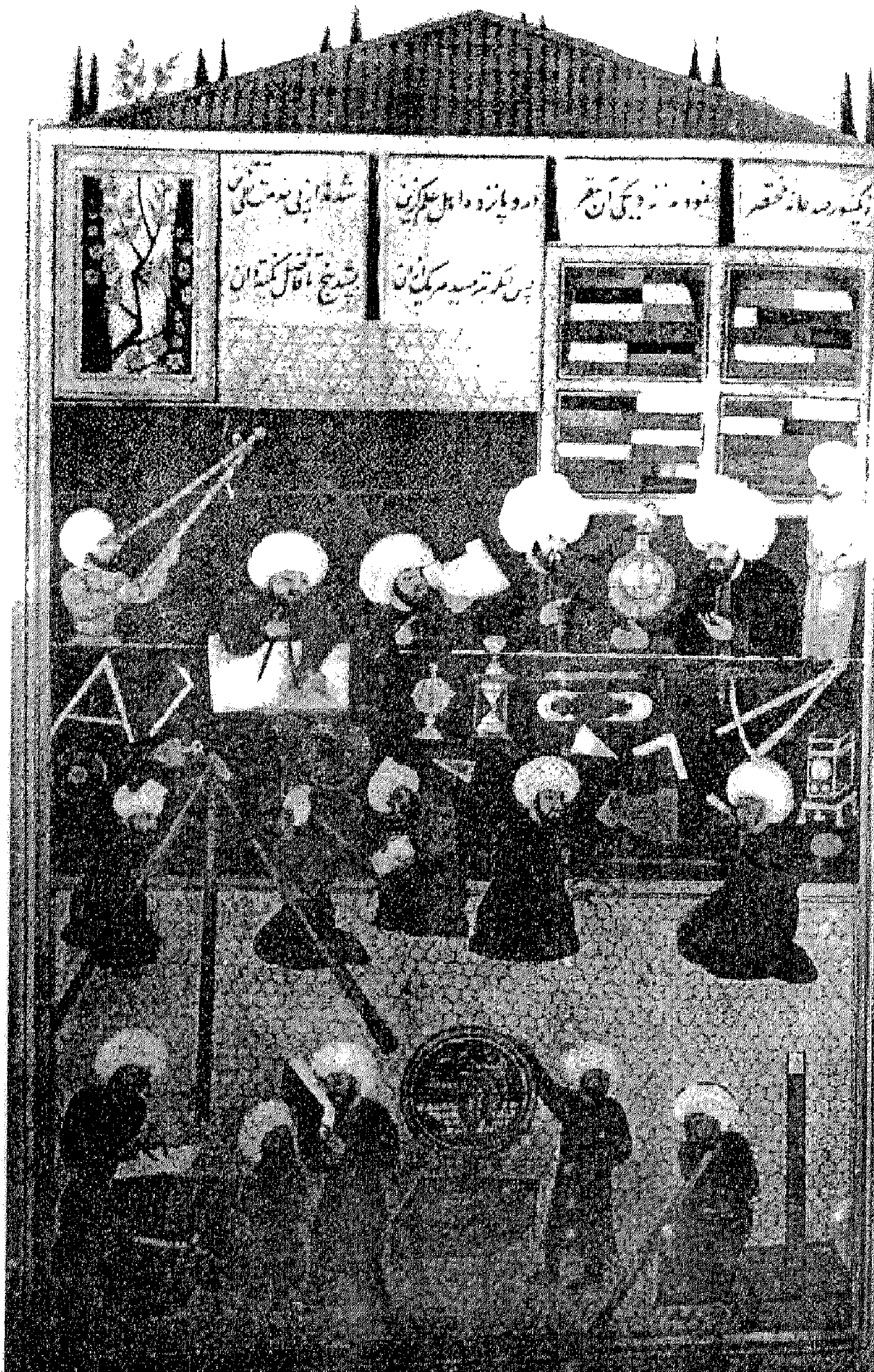
The Greek dances in antiquity were divided into military, *Bacchic* and pacific ones. We know some of these dances from the ancient literary sources. Athenaeus and Pollux, lexicographers from Alexandria (2^{nd} –3^{rd} century AD) give a quite complete list of the Greek military dances (Ath. Deipn.6.628s. - 31; Pol. On.4.95-104). The most popular dances were the *apokinos*, the *Pirrhic* and the Prylis (Bron, 1996. p.76) Many information have been saved in the sources about *Pirrhic*. It was performed usually under accompaniment of a flute. The dancers had to wear helmet, and to hold shield and spear in their hands. In Athens the dance was associated with Athena, on the other part of Attic territory *Pirrhic* was performed in the Artemis sanctuaries. Both girls and *ephebes* danced *Pirrhic* during an initiation ritual (the moment of transition from childhood to adulthood) (Bron, 1996, p. 63-83).We have many information about performing *Pirrhic* in the 4^{th} century BC, but this image is not popular in the vase-painting in this time . In the late 5^{th} century we know 2 vases with this subject from the Black Sea Area - fragment of krater, stored in the Chersonesus museum (Sevastopol, Ukraine) (fig.1.) (Zedgenidze, 1979 , 28, fig. 2,3;Vdovichenko, 1999,81-86) and the krater from Kiev typical barbarous warrior' s tomb near villages Pishchal'niki and Lazurtsi (fig. 2) (Funduklej, 1848 18,19,71, tab. XII).

The *apokinos* (other name was *maktrismos*), remains only a name for us , we know also, that this dance performed amazons. Prylis danced Curetes around the baby Zeus. Amazons and Curets performed it with shields and swords. The images of amazons and arimasps were very popular at that time, that's why their militant dances were pictured on the



Joh. Kepler, *Mysterium Cosmographicum* Tübingen, 1596. (p. 26 - 27)

Arabic Observatory



An early Arabic manuscript from 14th century which contains the principal work of Nasir ad-Din at-Tusı. "Tadhkıra fi ilm al-Haya" (Memoir on Astronomy).

from something not existing and nothing is destructed to something not existing. Atoms are infinite in size and multitude They move swirling everywhere and they generate everything: fire, water, air, earth, because they are systems of atoms [18] The atoms move in the void eternally. They are unbreakable, indivisible, unchangeable, unalterable in quality. The qualities are noticeable because of the combination of atoms.[19] The British chemist and physicist John **Dalton** converted the atomic philosophy of the Greeks into a scientific theory at the beginning of 19th century.

The earliest philosophers of Greece were theorists of the physical world. The Renaissance continued this breadth of conception characteristic of the Greeks. Galileo and Descartes were mathematicians, physicists, and philosophers at once; and physics retained the name of "natural philosophy" at least until the death of Sir Isaac Newton in 1727.[20]

The multifariousness of today's sciences obliges the scientists to follow very narrow specification. It is rare a philosopher or a historian or a philologist to be also a mathematician or a physicist or a chemist. This makes difficult the spherical view and understanding of the world.

History and Philosophy of science is inseparable part of both, classical studies and exact science. It provides indispensable links with Classical Philosophy, History and the evolution of the exact sciences.

In order to achieve global classical studies, their bounds have to be extended and the study of History and Philosophy of Science must be encouraged.

---

[18] Democritus Testimonia: Fragm. 1 DIOG. IX 34ff. [44]

[19] Democritus Testimonia: Fragm.49 GALEN. de elem. sec. Hipp.I 2 [I 417 K., 3, 20 Helmr.]

[20] Philosophy of nature Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

The scientists Nicolaus **Copernicus**, Johannes Kepler, and Galileo, following the Platonic ideas of the philosophical importance of mathematics and the Pythagorean attempt to discover the secrets of the heavens in terms of number and exact calculation[15], supported the idea of the heliocentric model -suggested by the Greek astronomer Aristarchus of Samos.

Sustained by a vision of mathematical harmonies in the skies, a vision he derived from the philosophy of Plato and the mathematics of the Pythagoreans, **Kepler** tried to relate planetary orbits with the five regular solids, or "Platonic bodies"· tetrahedron (formed by four equilateral triangles), cube, octahedron (formed by eight equilateral triangles), dodecahedron (12 pentagons), and icosahedron (20 equilateral triangles) in "Mysterium cosmographicum", published in 1596. Later, trying to determine the orbit of Mars -using the observation results of Tycho Brahe- Kepler discovered the three laws describing the motion of the planets, putting out of use the Ptolemaic system. Following the model established by Archimedes, Kepler, in his volumetric researches, investigated the properties of nearly 100 solids of revolution -made by rotating a two-dimensional surface on one of its axes- enormously extending the range of Archimedes' results.[16]

Galileo, following the Greek tradition of proofs, introduced the experiment to study the movement of bodies and used the telescope to affirm the Heliocentric system, supported by Copernicus.

In artem analyticem isagoge ("Introduction to the Analytic Arts"; 1591) **Viéte**, as part of his program of rediscovering the method of analysis used by the ancient Greek mathematicians, proposed new algebraic methods, but he saw this as an advancement over the ancient method, a view he arrived at by comparing the geometric analysis contained in Book VII of Pappus' Collection with the arithmetic analysis of Diophantus' Arithmetica.[17]

Leucippus of Miletus (5th century BC) is thought to have originated the atomic philosophy. **Democritus** of Abdera (460-370 BC) developed further this philosophy and named the building blocks of matter atomon, meaning "indivisible". According to Democritus nothing is coming into being

---

[15] Humanism: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

[16] Johannes Kepler: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

[17] Mathematics in the 17th and 18th centuries: The 17th century: Analytic Geometry. Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

Nasir al-Din al-Tusi (born 1201) made the most significant development of Ptolemy's model of the planetary system up to the development of the heliocentric model in the time of Copernicus.[12]

Many of the ideas, which were previously thought to have been brilliant new conceptions due to European mathematicians of the 16th, 17th and 18th centuries are now known to have been developed by Arab mathematicians around four centuries earlier.

At the western part of Arabic Lands, in Cordoba, prince Abd al Rahman II created in 9th century a great library, where the translated works came directly from Baghdad. A school for Mathematics and Astronomy founded also there by Maslama. The numerous students of that school spread to the kingdoms of Sevilla, Granada, Zaragoza and Toledo. In the monastery of Ripoll, in the province of Gerona, many manuscripts from East and West - among them mathematical ones- were collected. In the 11th century a new phase of mathematics began with the translations from Arabic. In 1126 was founded in Toledo a school for translators, its aim had been the translation of the great Greek and Arabic works into Latin[13]. Along with philosophy, astronomy, astrology, and medicine, important mathematical achievements of the Greek, Indian, and Islamic civilizations became available in the West. Particularly important were Euclid's Elements, the works of Archimedes, and al-Khwarizmi's treatises on arithmetic and algebra. Western texts called algorismus (a Latin form of the name al-Khwarizmi), introduced the Hindu-Arabic numerals and applied them in calculations. Thus modern numerals first came into use in universities and then became common among merchants and other laymen.[14]

The spirit and the wisdom of Greeks met the restless minds of the Renaissance and fired the beginning of a new era in science. Every new idea and theory becomes subject of discussion and is exposed to a critique, which conduces to its improvement.

---

[12] O'Connor, J J and Robertson, E F: Arabic mathematics: forgotten brilliance http:// www-history.mcs.st-andrews.ac.uk

[13] Veguín Casas, María Victoria: Mathematicas y Camino de Santiago, pp.162-165. Ediciones del Orto, Madrid 1998

[14] The transmission of Greek and Arabic learning: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

not done for its own sake, but was done as part of the current research effort.[10]

The Arabs appropriated not only the knowledge of Greeks, but also the Greek conception of the world and the Greek methodology of the science. As Lindberg says[11], the Islamic science was built on Greek foundations and was formed according to Greek architectural principles; the Muslims did not try to demolish the Greek structure, but they worked for its completion.

Al-Khwarizmi put the foundation of Arabic algebra; **Omar Al-Khayyam** (b.1048) made a complete classification of cubic equations, solving them by means of intersecting conic sections; **Sharaf Al-Din Al-Tusi** (b.1135) studied curves by means of equations and inaugurated the beginning of algebraic geometry.

Al-Karaji (b.953) made algebra free of geometrical operations substituting them by arithmetical ones; **Al-Samawal** (b.1130) following the same tradition declares that Algebra is concerned with operating on unknowns using all the arithmetical tools, in the same way as the arithmetician operates on the unknown.

Al-Biruni (b.973) held extensive studies on astronomy and geography, using the projection of a hemisphere onto the plane.

Thabit ibn Qurra (b.836), **Al-Baghdadi**, **Al- Haytham** worked on Number Theory.

Ibrahim ibn Sinan (born 908), who introduced a method of integration more general than that of Archimedes and **al-Quhi** (born 940) were leading figures in a revival and continuation of Greek higher geometry in the Arabic world.

Ibrahim ibn Sinan and his grandfather **Thabit ibn Qurra** both studied curves required in the construction of sundials.

---

[10] O'Connor, J J and Robertson, E F: Arabic mathematics: forgotten brilliance http:// www-history.mcs.st-andrews.ac.uk

[11] Lindberg, David: The beginnings of Western Science. The University of Chicago Press, Chicago, 1992

After the 3rd A.D. century the production of new ideas fell in decline. At that time commentaries and explanations of the great works of the past appeared. Possible reasons for this decline could be the discontinuance of the oral tradition and the new philosophical and religious movements.

In the Byzantine era few new ideas appeared; its most important contribution in the History of Science was the preservation of ancient scientific heritage mainly by monks, who copied, made anthologies and commented the work of ancient Greeks.

In the 7^{th} century the Arabs, inspired by their new religion, burst out of the Arabian peninsula and laid the foundations of an Islamic empire. To the Arabs, ancient science was a precious treasure. Contact with Hindu mathematics and the requirements of astronomy, mainly for religious reasons, stimulated the study of numbers and of geometry.

The writings of the Greeks were, therefore, eagerly sought and translated, and thus much of the science of antiquity passed into the Islamic culture. Greek medicine, Greek astronomy and astrology, and Greek mathematics, together with the great philosophical works of Plato and, particularly, Aristotle, were assimilated in Islam by the end of the 9th century.[9]

This fruitful period begins under the **Caliph Harun al-Rashid**, the fifth Caliph of the Abbasid dynasty, whose reign began in 786. He encouraged scholarship and the first translations of Greek texts into Arabic, such as Euclid's *Elements* by al-Hajjaj, were made during al-Rashid's reign. The next Caliph, **al-Ma'mun** (813-833), encouraged learning even more strongly than his father al-Rashid, and he set up the House of Wisdom in Baghdad, which became the centre for both the work of translating and of research. Al-Kindi (born 801) and the three Banu Musa brothers worked there, as did the famous translator Hunayn ibn Ishaq.

The translations into Arabic at this time were made by scientists and mathematicians such as those named above, not by language experts ignorant of mathematics, and the need for the translations was stimulated by the most advanced research of the time. It is important to realize that translating was

[9] Science in Islam: Britannica CD. Version 97. Encyclopedia Britannica, Inc., 1997

existence cannot be proved), some of them **peculiar** to each science and some **common**. **definitions**, and **postulates** (propositions assumed and used without demonstration). He also stressed the dealing with abstract notions rather than figures: *"The geometer draws no conclusion from the existence of the particular line of which he speaks, but from what his diagrams represent"*[6]. In Alexandria of Egypt, the center of Hellenistic science, **Euclid** collected and systematized the accumulated knowledge of Greeks according to the Platonic and Aristotelian ideas. Characteristic example is his "Elements" that included the most important results obtained from the previous mathematicians. Hellenistic era brought sciences to an apogee:

The **Archimedean** method for the determination of areas and volumes related to the idea of integration developed between the 17th and 19th centuries;

The profound work of **Appolonius** on conics gave the idea on which Viéte, Fermat, and Descartes built in 17th century Analytic Geometry.

Hipparchus discovered the precession of equinoxes, which is caused by the cyclic precession of the Earth's axis of rotation.

Claudius Ptolemy applied the theory of epicycles to compile a systematic account of Greek astronomy. His theory generally fitted the data available to him with a good degree of accuracy, and his book, the Almagest molded astronomy for the next millennium and a half.[7]

Pappus had employed an analytic method for the discovery of theorems and the construction of problems; in analysis, by contrast to synthesis, one proceeds from what is sought until one arrives at something known.

Diophantus in his Arithmetica conceives the idea of the unknown quantity, uses abbreviations to express the powers of the unknown and the subtraction (λείψις).[8] These abbreviations are also used in the process of the working out of the equations. His method of solving equations was the start point not only for the Arabs, but also for Viéte and Descartes to formulate Algebra.

---

[6] Aristoteles: Analytica Posteriora i. Bekker 77a 1-3 (Thesaurus Linguae Graecae)

[7] Ancient Middle Eastern and Greek Astronomy: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

[8] Diophantus of Alexandria: Arithmetica I, pp.1.1 - 12.21

Although Plato argued for the exclusive use of ruler and compass for the constructions in Geometry, Greeks trying to solve problems as the duplication of the cube, the trisection of an arbitrary angle and the quadrature of a circle and finding no solution in agreement with Plato's restrictions, they invented new methods as that of verging (νεῦσις) and new curves as the conic sections, the conchoidal lines, the quadratrix etc[2]. Only in 19th century it was proved, using higher algebra, that the above problems were impossible to be solved by the exclusive use of ruler and compass. Greek mathematicians manifested by their attitude the freedom of their thought; they had to reach their aim by any means and they did it through the flourishing of a diversity of methods.

In the Timaeus, **Plato** tried to build up a complete system of physics, partly employing Pythagorean ideas. The **Pythagoreans** (5th century BC) were responsible for one of the first Greek astronomical theories. Believing that the order of the cosmos is fundamentally mathematical, they held that it is possible to discover the harmonies of the universe by contemplating the regular motions of the heavens. They constructed a model of cosmos postulating a central fire, about which the fixed stars, the five planets, the Sun, the Moon, the Earth and the Anti-Earth (Αντίχθων) revolve[3]. Subsequent Greek astronomy derived its character from a comment ascribed to Plato, in the 4th century BC, who is reported to have instructed the astronomers to "save the phenomena" in terms of uniform circular motion.[4]

In his Physica and Mechanica **Aristotle** put the foundations of Physics; his theory held for almost two millennia, until Isaac Newton and Galileo refounded Physics on the base of experiment and mathematical expression of natural laws. Aristotle put also the logical base on which the Greek Mathematics was developed. In his Posterior Analytica[5] he clarified the importance of building the science on **first principles** (elements whose

---

[2] Tomas, Ivor: Greek Mathematical Works, in 2 vols, Chapter IX, Special Problems. Loeb Classical Library, London 1991 (first edition 1939).

[3] Alexander: In Aristotelis metaphysica commentaria p.37.18-39.3 (Thesaurus Linguae Graecae)

[4] Ancient Middle Eastern and Greek Astronomy: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

[5] Aristoteles: Analytica Posteriora i. Bekker 76b 3-22 (Thesaurus Linguae Graecae)

The Philosophy of Greek Mathematics and its influence on the Development of Arabic Civilization and Renaissance*

Flora Vafea
M. Sc. Mathematics
Greece

Speaking about classical studies, we usually mean the study of ancient Greek and Latin literature, history and philosophy that has come to us through the magnificent works of distinguished ancient writers. But a characteristic feature of Greek Philosophy was the consideration of the world and the ideas as one entity that cannot be studied separately. Thus the Greeks developed Philosophy parallel to Mathematics, since the leading philosophers as Thales, Pythagoras, Plato, Aristotle were pioneers in the development of Mathematics and Physics, as a necessary mean for revealing the secrets of the Nature and the world around us.

These philosophers had traveled to Egypt and Babylon and were acquainted with the knowledge of the civilization thereof. They did not confine themselves to obtaining the results, but they searched for proofs and further development of the received ideas and knowledge. Greeks, spread from the Italian peninsula to Asia Minor, formulated mathematics as a theoretical discipline, built on abstract notions rather than sensible objects, using formal demonstrations to prove the truth of their theorems. As Plutarchus preserves in his Convivial Questions[1], *"Plato censured Eudoxus and Archytas and Menaechmus for endeavouring to solve the doubling of the cube by instruments and mechanical constructions, thus trying by irrational means to find two mean proportionals: for in this way what is good in geometry would be corrupted and destroyed, falling back again into sensible objects and not rising upwards and laying hold of immaterial and eternal images, among which God has his being and remains for ever God."*

---

* This paper was delivered at the conference of *The future of Classical Studies in Egypt*, Cairo 17-18th April 2002.

[1] Plutarchus: Quaestiones convivales. Stephanus p. 718 : E7-F4 (Thesaurus Linguae Graecae)

Nicolle, "Shipping in Islamic Art; Seventh through Sixteenth Century AD," *American Neptune* XLIX (1989) 168-197.
17- M. Rule & J. Monaghan, *A Gallo-Roman Trading Vessel from Guernsey: The Excavation and Recovery of a Third Century Shipwreck* (Guernsey 1993) 125-131.
18- Nicolle, "Shipping in Islamic Art..." *op. cit.*, 175-181.
19- V. Christides, "Naval Warfare in the Eastern Mediterranean (6^{th}-14^{th} centuries): An Arabic Translation of Leo VI's 'Naumachica'," *Graeco Arabica* III (1984) 140-141; V. Christides, "Milaha: in the pre-Islamic and Medieval Arab Worlds," in *Encyclopedia of Islam*, 2^{nd} edit., vol. VIII (Leiden 1991) 44-45; V. Christides, "Navies: Islamic," in J. R. Strayer (edit.), *Dictionary of the Middle Ages*, vol. IX (New York 1992) 76; S. D. Goiten, "Glimpses from the Cairo Geniza on Naval Warfare in the Mediterranean and on the Mongol Invasion," in *Studi Orientalistici in Onore di Giorgio Levi della Vida* (Rome 1956) 395, 397 & note 1.
20- Al-Hassan, A.Y., & D. R. Hill, *Islamic Technology, an illustrated History* (Cambridge 1986) 3 1-34 & passim.

&passim, vol II,156, 170-171 & 180, vol. III, 93, 106-107, 111, 321, 336 & 342; D.C. Nicolle, "Moors against Majus: The Defence of Spain and Morocco against the Vikings 844-972 AD," *Osprey Military Journal* II/3 (2000) 23-32.

6- Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 15,18 & 2 3-24; Lévi-Provençal, *op. cit.*, vol. I, 354 & vol. III, 342.

7- Dunlop. "Al-Bahr al-Muhit..." *loc. cit.*; Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 15-18 & 22-24.

8- Lévi-Provençal, *op. cit.*, vol. III, 297-298; Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 17-18; Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit..." *loc. cit.*

9- D.M. Dunlop, "Al-Djaza'ir al-Khalida," in *Encyclopedia of Islam*, 2nd edit., vol. II (Leiden 1965) 522.

10- H.T. Norris, *Saharan Myth and Saga* (Oxford 1972) 4-5.

11- J.L. Yarrison, *Force as an Instrument of Policy: European Military Incursions and Trade in the Maghrib, 1000-1355* (Ph D thesis, Princeton Univ. 1982) 118, 135 & 227-228.

12- E. Lucie-Smith, *Outcasts of the Sea: Pirates and Piracy* (London & New York 1978) 64-65.

13- J.D. Latham, "The Strategic Position and Defence of Ceuta in the Later Muslim Period," *Islamic Quarterly* XV (1971) 204.

14- B. Landström, *The Quest for India* (London 1964) 162 & 187; G. Ferrand, *Instructions Nautiques et Routiers Arabes et Portugais des 15e et 16e siècles*, 3 vols. (Paris 1921-1928) passim.

15- S.D. Goiten, A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Ara World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza, vol. I, Economic Foundations (Berkeley 1967) 305-306; D.A. Agius, "Maqrizi's Evidence for the Gurab: The Galley of the Mamluks," in U. Vermeuben & J. M. F. Van Reeth (edits.), Law, Christianity and Modernism in Islamic *Society* (Leuven 1998) 195-196; D.A. Agius, "Historical-Linguistic Reliability of Muqaddasi's Information on Types of Ships," in D.A. Agius & I.R. Netton (edits.), *International Medieval Research. Across Mediterranean Frontiers: Trade, Politics and Religion, 650-1450: Selected Proceedings of the International Medieval Congress, University of Leeds, 10-13 July 1995, 8-11 July 1996* (Turnhout 1997) 303-329; J.H. Pryor, *Geography, technology and war: Studies in the maritime history of the Mediterranean 649-1571* (Cambridge 1988) 28 & 32.

16- V. Christides, "The Transmission of Chinese Maritime Technology to the Arabs: The Single Stern Rudder, Greek Fire, Animal Transport Ships" (pre-publication draft of article); D.C.

bacini, inserted as a form of architectural decoration into the structure of the Church. They were almost certainly made in the Balearic Islands of Spain which were then under Islamic rule and formed part of the flourishing Andalusian kingdom of Denia. The ships themselves are fully within a medieval Mediterranean tradition of lateen sailed "round ships" with high stern-castles, as illustrated in many sources from Iberia and Italy. However, these bowls are particularly important because of their date and provenance. They are considerably earlier than previously known pictures of three-masted ships and might support the idea that multi-masted vessels did not disappear from the early medieval Mediterranean following the collapse of the Roman Empire. Or perhaps they might at least have survived in those regions which became the western Islamic world. Current research into the history of Islamic technology is also strengthening the view that the Islamic world was, for many centuries, the major inovator in technological terms.[20] This may also have applied to ship design and methods of construction, in which case those specifically medieval features which distinguish the medieval Mediterranean "roundship" from its two-masted Roman predecessor the *corbita* may have been a shared Byzantine and Islamic development or indeed a largely Islamic one.

Footnotes

1- J.N. Hillgarth, *Visigothic Spain, Byzantium and the Irish* (London *1985)* passim.

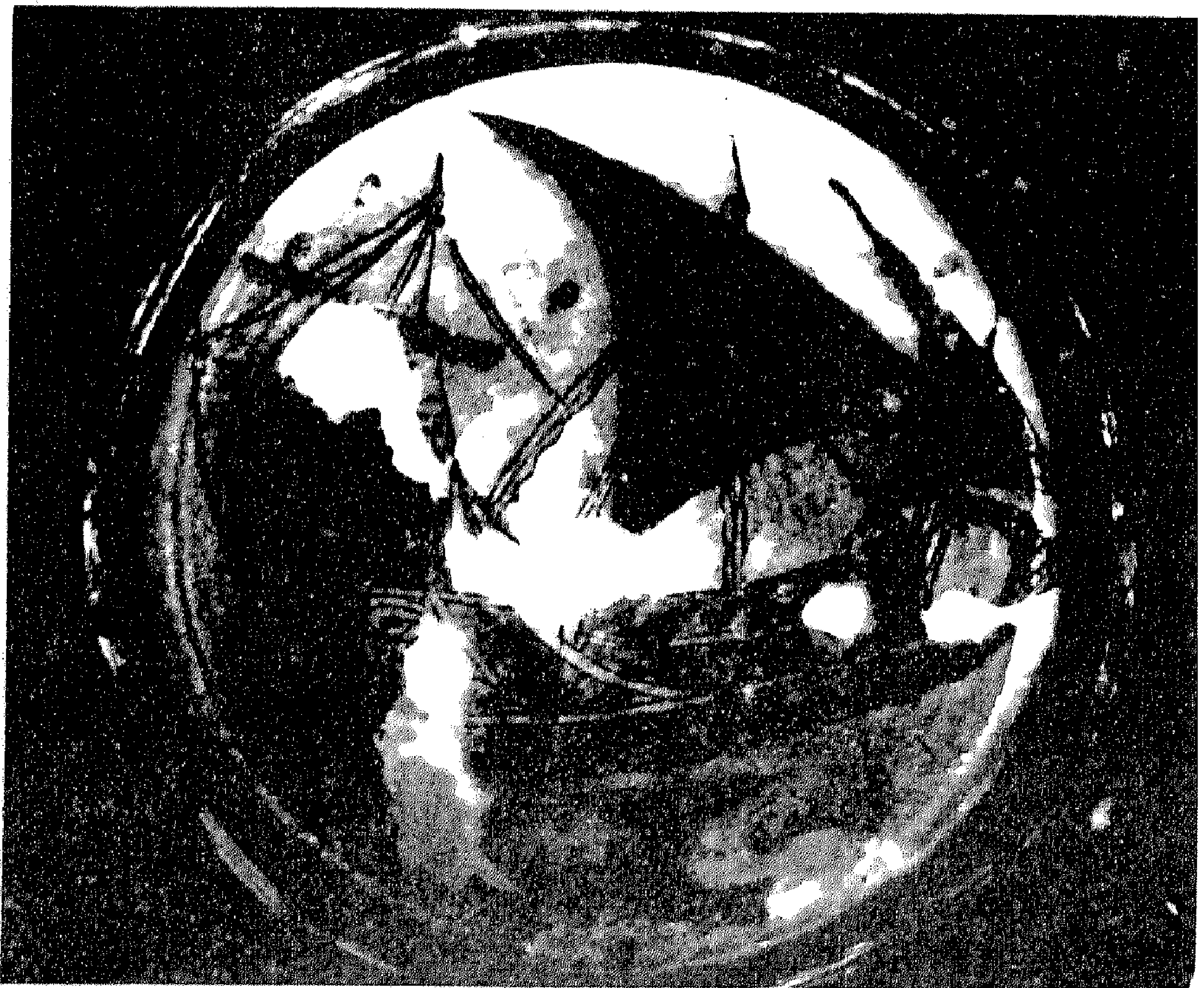
2- M. Lombard, *Les Mélaux dans l'ancient monde du V^e au XI^e siècle* (Paris 1974) Map A, & passim; J.W. Allan, *Persian Metal Technology 700- 1300 AD* (Oxford 1979) 2 7-28; Ibn Sa'id, cited in E, Ashtor, *Les métaux précieux et la balance des payements du proche-orient à la basse époque* (Paris 1971) 53-56.

3- D.M. Dunlop, "The British Isles according to Medieval Arabic Authors," *Islamic Quarterly* IV (1957) 11.

4- Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 12-14; D.M. Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit," in *Encyclopedia of Islam*, 2nd edit., vol. I (Leiden 1960) 934.

5- Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 12, 15 & 19; Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit," *loc. cit*; E. Lévi-Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane* (Paris & Leiden 1950-1967) vol I, 218-225, 310-312

Andalusia and of the Islamic Middle East The ship on this piece is highly stylized but certain features can be identified The vessel has three masts, two of which carry lateen sails, plus what appears to be a bank of oars though these are not connected to a possible row of oar-ports Even the cross-hatched triangular projection on the right or presumed stern recalls features seen in earlier Middle Eastern Islamic representations of ships. Perhaps such forms of ceramic were traditional and they might have no connection with contemporary shipping. On the other hand Rabat is very close to S ala, the home-port of the famous "Sallee Rovers." These North African corsairs used three-masted *xebecs* and ranged across much of the north Atlantic during the 16th and 17th centuries



G The best preserved of two tin-glaze ceramic bowls from the church of S. Piero a Grado in Pisa. 11th century AD (Museo Nazionale di S Matteo. Pisa) The two bowls were used as

an ordinary early 13th century merchant ship. The exception lies at the ends of the keel where two apparent cutwaters are shown. These could be dismissed as artistic conventions were it not for the fact that exactly the same feature is found on a crude medieval drawing from the Egyptian Red Sea port of Qusayr (figure D). Perhaps it was a feature of Islamic ships operating in tidal seas such as the Atlantic and Indian Oceans which had to be beached rather than docked, as in the tideless Mediterranean.

D Part of a simple sketch or drawing on a fragment of paper found by archaeologists in the rubbish dumps of medieval Qusayr (Old Qusayr) on the Red Sea coast of Egypt, 13th-14th centuries AD (Museum of Islamic Art, inv. 1097, Cairo). It is impossible to state with certainty whether this little drawing from the early Mamluk period shows the prow or stern of the ship. The vessel was probably single-masted, perhaps with a yard-arm to hold a lateen sail, and it seems to have a substantial midships deckhouse which extends both ahead of and behind the mast. The stem or sternpost is essentially straight with a series of ropes or perhaps two steering oars extending from it. Most interesting, in the context of this study, is a small extension or cutwater at the end of the keel. Perhaps it was to protect the keel when beaching the ship.

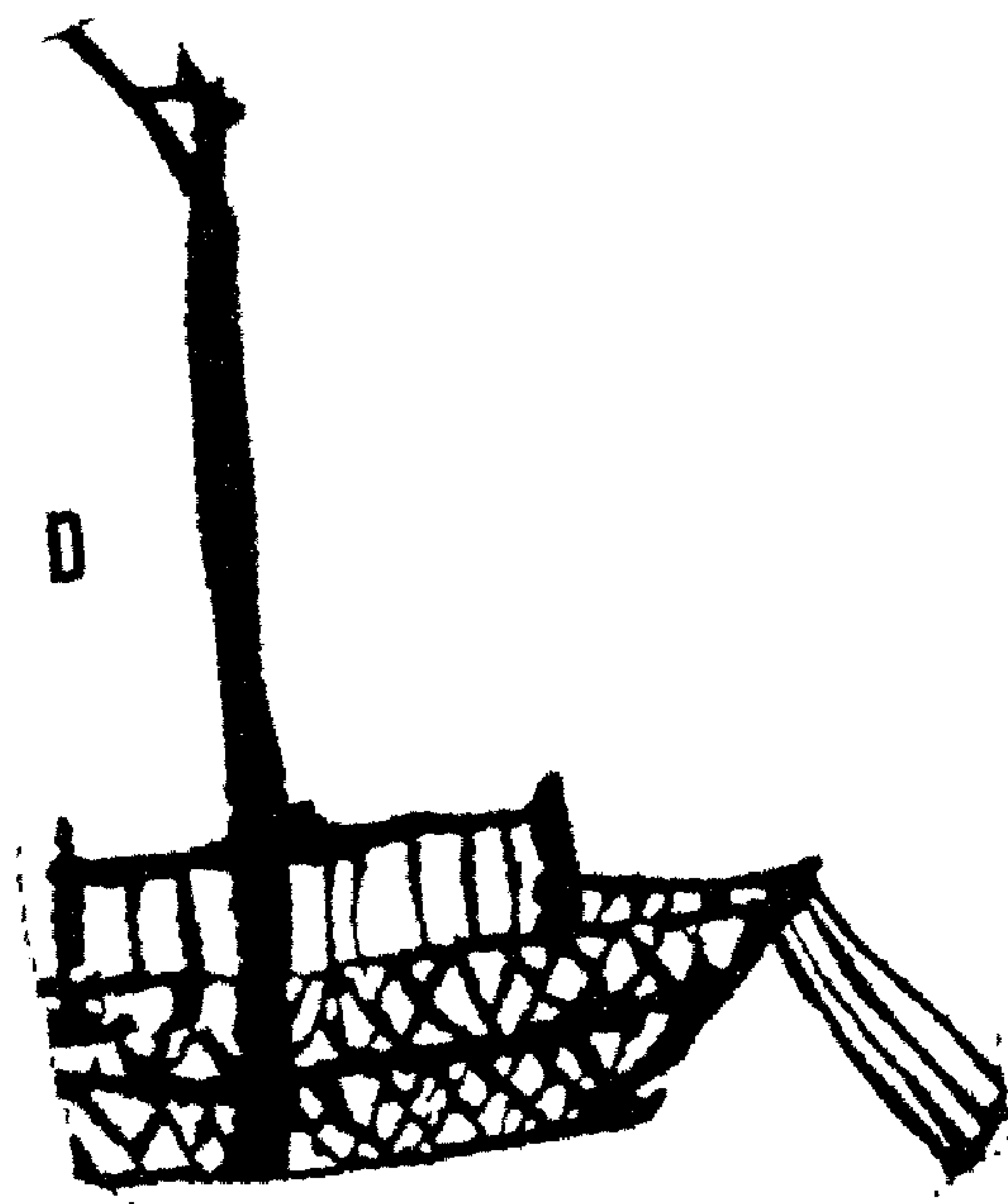
E This simple but better-known stratched graffito comes from Malaga on the southern coast of Spain and is generally thought to date from the 14th or 15th centuries (Museo Naval, Madrid). It illustrates a typical single-masted Mediterranean galley with a lateen sail, a raised boarding beak rather than a ram, probably a single bank of oars, slightly raised fore and aft castles, and steering oars rather than a hinged rudder. This latter feature would, in fact, point to a date earlier than the 14th century - perhaps considerably so. One may, however, assume that such galleys were responsible for maintaining Islamic communications between al-Andalus and Morocco.

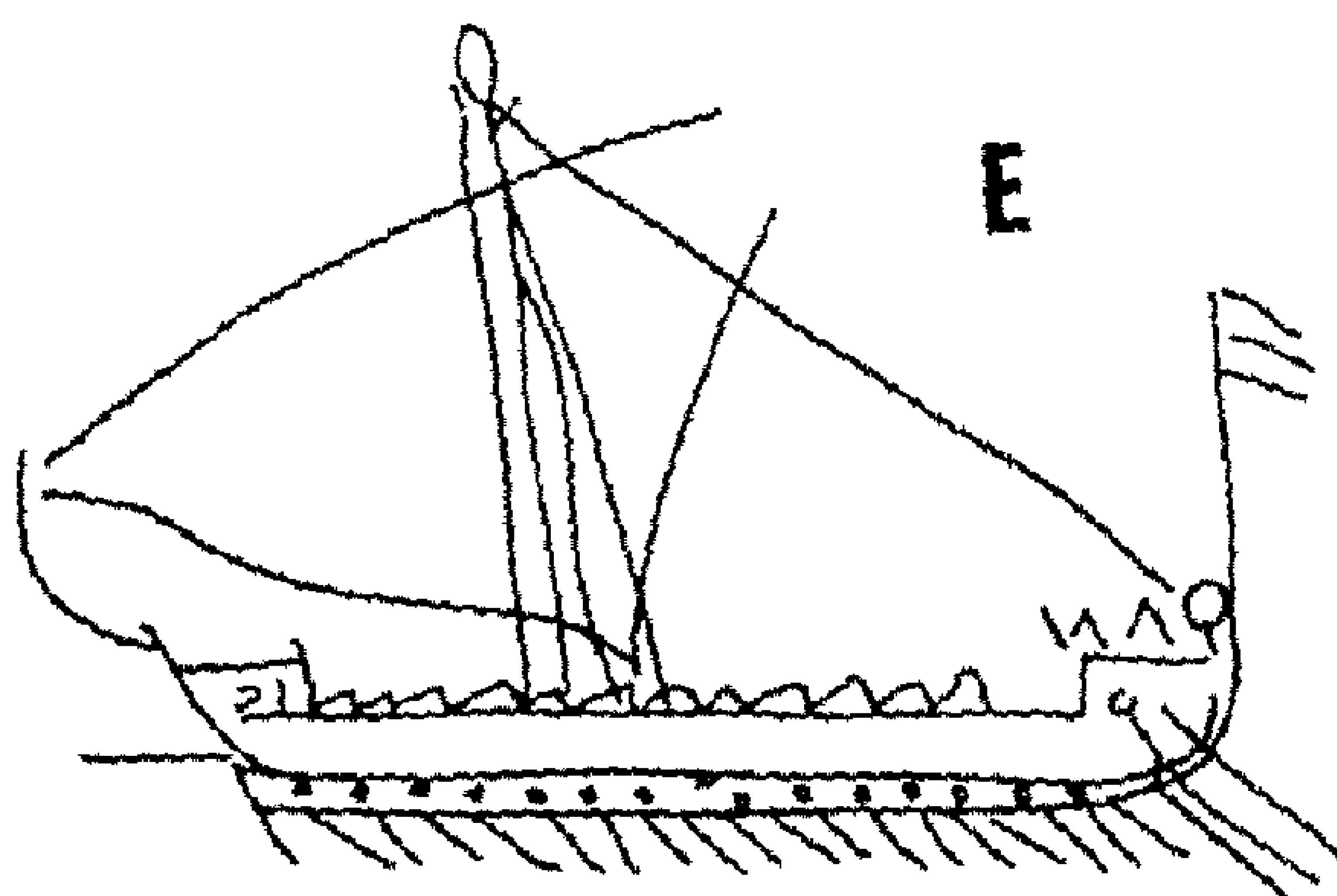
F Polychrome ceramic bowl from Rabat, 15th century AD (Archaeological Museum, Rabat). The ceramics of later medieval North Africa are crude in comparison to those of

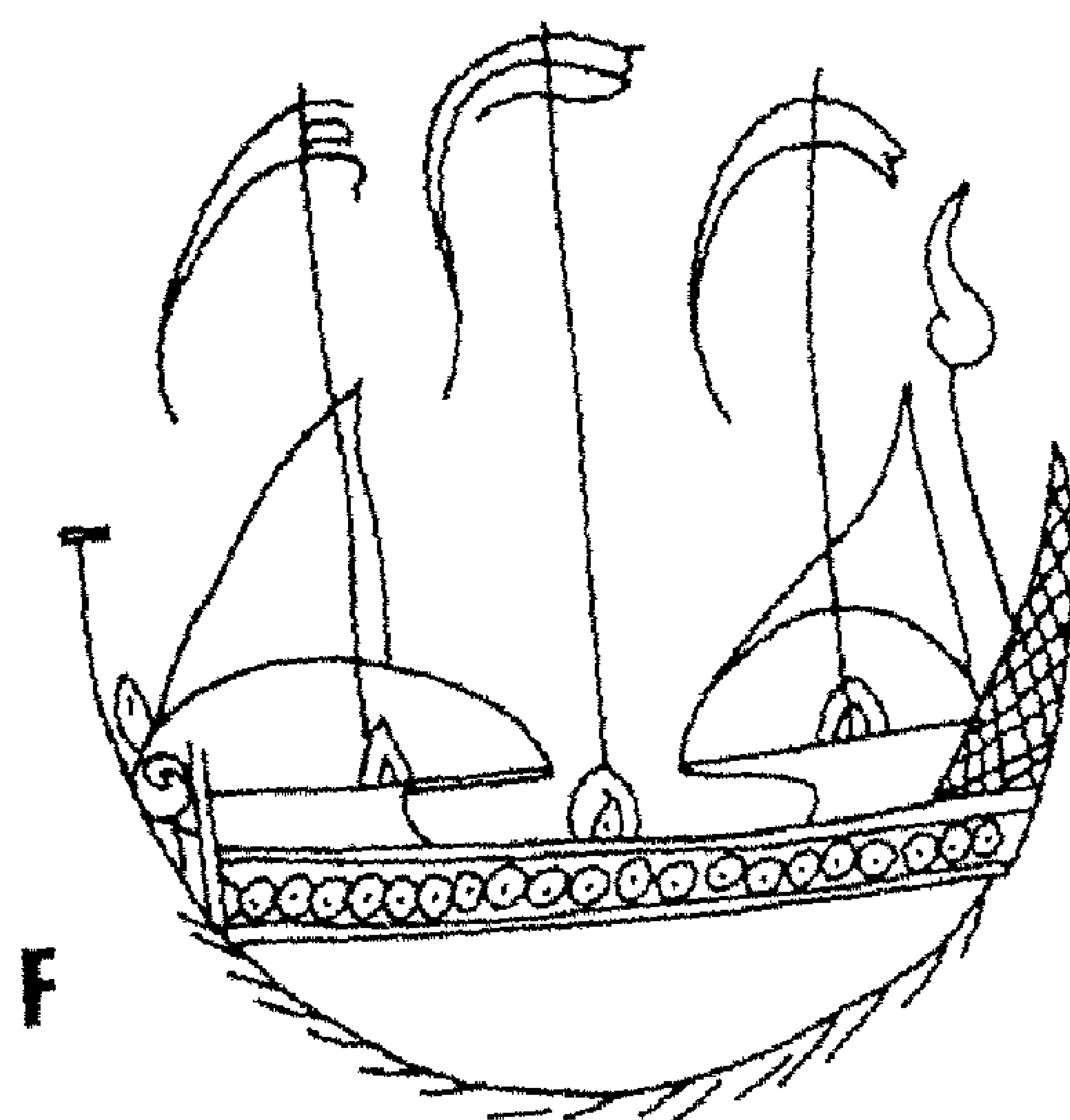
A Galley in an illustration of "The Second Trumpet,' *Beaus Commentaries on the Apoccalypse,* Iberia 922-952 AD (Pierpont Morgan Lib., Ms. 644, f. 137r, New York). Three points need to be noted in this tiny and highly stylized drawing from a 10th century Mozarab (Iberian Christian within the Andalusian Islamic cultural context) manuscript. These are the possible existance of a raised beak instead of a waterline ram, the straight stempost attached at an angle to the keel, and the curved stern which continues to form a high decorative poop. Similar hull forms may be shown in various other pictorial sources of Islamic origin.

B A petraglyph or rock-drawing of a sailing ship at Azru Aklan, near the western end of the Wadi Draa in southern Morocco not far from the Atlantic coast. Although it cannot be dated, the shape of the hull and the sail suggests that it was scratched on a rock in the medieval rather than ancient or early modern eras. The sail is basically triangular, the prow angled and near vertical, the stern apparently curved, while the vessel is controlled by a steering oar instead of a hinged rudder. The simple style of drawing also recalls other medieval Arab "sailor's drawings" from Egypt, the Middle East and East Africa.

C "Argo" in the *Suwar al-Kawaklb* (Book of Fixed Stars) by al-Sufi; copy made in Sabta (Ceuta), northern Morocco 1224 AD (Vatical Lib., Ms. Ross 1033, Rome). This manuscript contains a perhaps unique though obviously highly stylized illustration of a vessel of the type in which medieval Muslim sailors may have plied the western Atlantic. Its iconography is, of course, based on earlier Islamic "Books of Stars" from further east, yet this illustration of Argo also includes interesting features. Assuming that the sail is blowing forward as one would expect, the hull has the same curved stern but angled stempost as shown in the previous two illustrations. In addition there is an unusual deck-house in front of the mast if we have identified the prow and stern correctly, plus a lateen sail. The oars are a convention based upon the star-constellation of Argo and, with the exception of one almost unique feature, one might regard this as a stylized drawing of



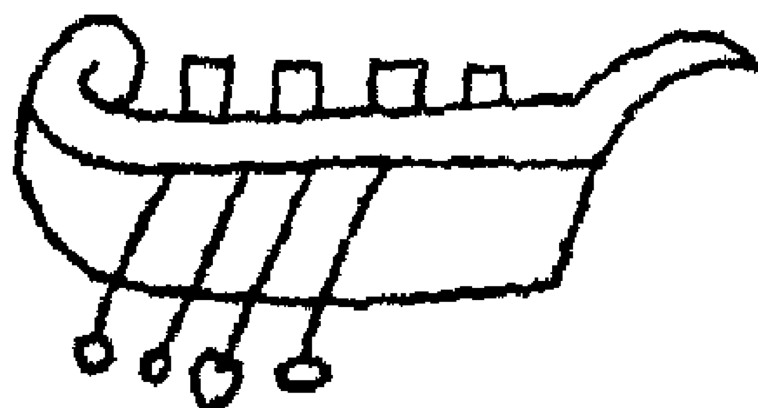




(8)

Captions

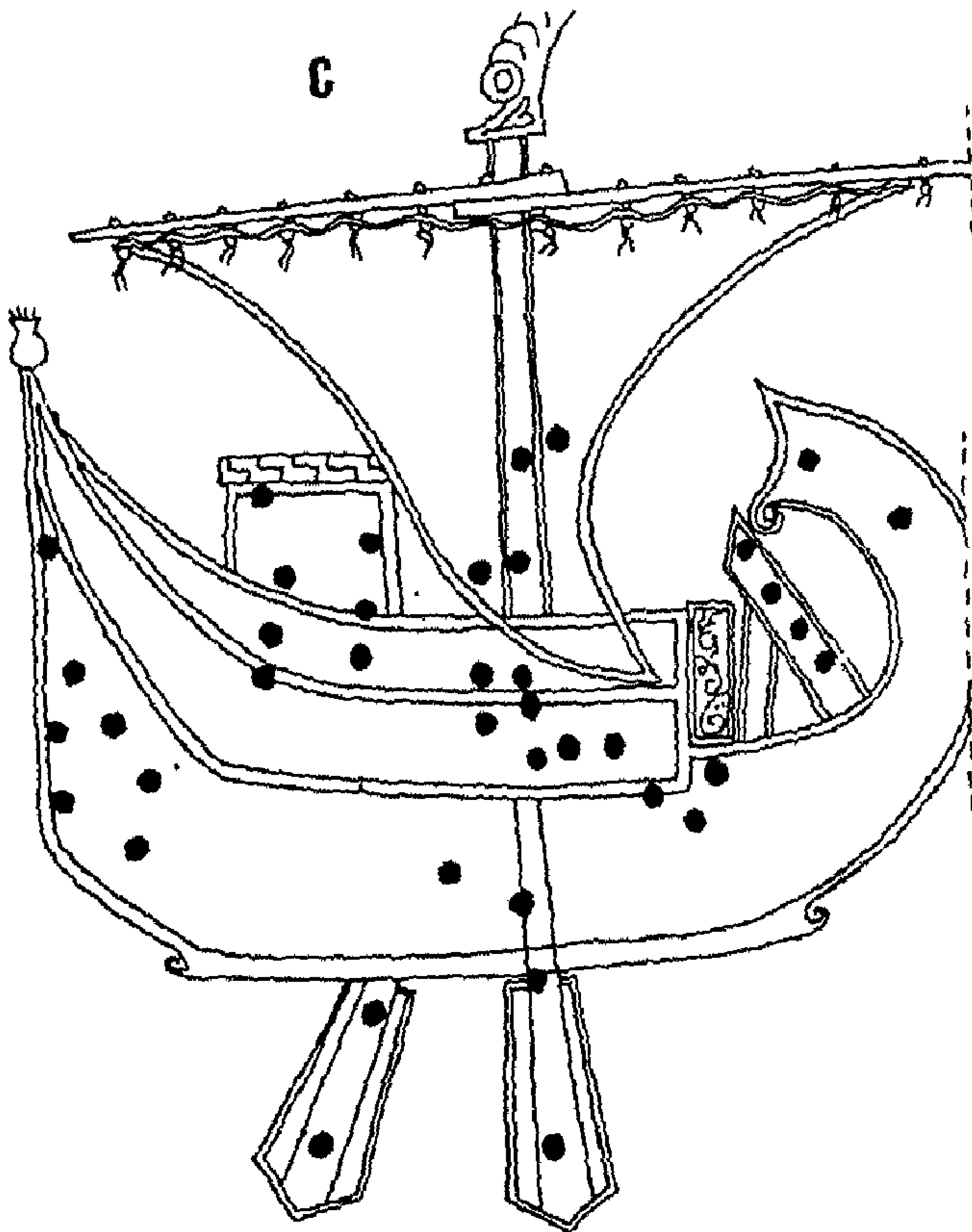
A



B



C



somewhat flimsey Mediterranean naval architecture brought north by the Romans. Potentially very interesting in the context of Iberian-Andalusian navigation in the medieval Atlantic are certain design features which the Guernsey wreck seems to have in common with the few existing pictorial representations of western Islamic "Atlantic" ships. The most obvious is an angled keel and stempost construction. This is in clear contrast with the rounded hull form of both Roman and medieval Mediterranean vessels. The second might be a sort of cutwater where the keel and stempost join, a feature also seen in the medieval Red Sea.'[8] It might also be worth noting that the written sources suggest, without specifically stating, that the Andalusian Atlantic squadron was able to defeat Viking raiders in the 10th century because they carried larger crews - perhaps because the *shini* Arab-Islamic galley was larger.[19] Perhaps they were also more strongly built.

Hulls with angled rather than rounded outlines returned to northern waters in the 13th and 14th centuries in the form of the famous *cog*, following the decline of the sleek but much smaller rounded hulls of Viking and post-Viking vessels, The reappearance of such angled hulls in the western Mediterranean during the 14th century is usually attributed to the influence of northern *cogs* arriving via the Straits of Gibraltar. Yet the possibility of such a hull-form having survived in the Islamic Maghrib and al-Andalus should not be entirely ignored. Unfortunately little research has yet been done on the ships used by Muslim Andalusian and Moroccan sailors in the Atlantic. This may prove to be a fruitfull field of study and is certainly worth consideration.

even commonplace. During the reign of the Marinid sultan Ya'qub al-Mansur (12 58-86 AD) an engineer from Seville (Ishbiliya), named Muhammad Ibn al-'Ali, established a *dar al-sina* or naval arsenal at Sala on the Atlantic coast of Morocco.[11] Many years later the so-called "Sallee Rovers" - meaning pirates from Sala in Morocco - who raided southern England in the 16th century AD[12] included amongst their crews men of Andalusian origin. The military capabilities of western Islamic fleets had clearly not disappeared with the collapse of the Umayyad Caliphate of Cordova, and in 1340 AD a Moroccan fleet had destroyed a Castilian-Spanish fleet near Algeciras.[13] This happened at a time when European observers regarded the Castilian fleet as the most powerful in Atlantic Europe.

The concept of a spherical world was widely accepted by educated people in the 13th century Islamic world and the Algarve region remained a centre of geographical science, including the manufacture of spherical celestial globes, even after it was conquered by the Portuguese in the 13th century. Here the idea that Africa could be circumnavigated and that inhabited "islands" existed far out into the Atlantic similarly survived. The role of this Algarve region during the first phase of Portuguese overseas exploration in the 15th century is well known.[14] What is less well known is the fact that the Algarve seems to have played a major role in the evolution of the Arab-Andalusian form of widely used Islamic trading vessels called a *qarib* and a *gurab*[15] into the famous *caravel*. The latter was, of course, used by Portuguese and Spanish explorers such as Vasco da Gama, Christopher Columbus and many others during the 15th and 16th centuries AD.

Given the speed with which new technology, including maritime technology, is known to have spread across the medieval Islamic world, it seems inconceivable that new naval ideas from the Indian Ocean should not have reached the Atlantic coast. The question of when knowledge of the hinged rudder, invented by the Chinese, reached the Islamic Middle East, and to what degree it may or may not have been adopted in the Arabian Gulf and Red Sea regions, has already been considered[16] but many other problems remain unsolved.

For example, the sophistication of a pre-existing Celtic naval tradition in the Atlantic is indicated by the remains of a substantial ship found off Guernsey in the Channel Islands.[17] The massive way in which this vessel was constructed was very different from the

outburst of naval aggression from those little-known northern parts of the world.[4]

The Viking threat soon became serious enough for an Umayyad naval squadron to be created specifically to patrol the Atlantic coast of al-Andalus. These patrols remained in existance from the mid-9th to 10th centuries AD. The first Umayyad Andalusian naval bases had, of course, been on the Mediterreanean coast but in the mid-10th century additional facilities, including shipbuilding arsenals, were constructed at Ageciras (al-Jazayr al-Khadra), Silves (Shilb) and Alcacer do Sol (Qasr Abi Danis) on the Atlantic coast. The resulting Atlantic fleets then proved themselves fully capable of defeating a major Viking raid in 966 AD and another in 971 AD.[5] These successes were followed by the Vizir al-Mansur's ambition combined operations assault upon the north-western Spanish city of Santiago in 997 AD.

One of the commanders of a naval patrol which fought Viking raiders in 8S9 AD was named Khashkhash Ibn Sa'id Ibn Aswad of Pechina (Bajjana). One of the so-called "Adventurers of Lisbon" was also named Khashkhash and he made several expedition far into the Atlantic before he disappeared along with his companions.[6] Their voyage north proved dangerous and won little reward. Nevertheless it probably reached Scandinavian settlements in Ireland where the "Adventurers" were said to have been told that exploration of the Atlantic had already been done by a previous generation, probably meaning by those Vikings who had reached Iceland and would soon sail to Greenland and even North America. The "Adventurers"' subsequent voyages headed southward and achieved greater reward in Bilād al-Sudam, beyond the Canary Islands. It is even possible that they reached as far as the Cape Verde Islands.[7]

The flourishing fishing fleets of Lisbon (al-Ushbuna) and what is now the Algarve (al-Gharb) in southern Portugal also ranged far into the Atlantic as well as venturing down the western coast of Africa in search of good fishing grounds.[8] Meanwhile the Atlantic coast of Morocco saw considerable economic expansion in the 12th century AD and the Muwahhid ruler 'Ali Ibn Yusuf even reportedly planned an abortive naval expedition to conquer the Canary Islands.[9] In the early 13th century AD a mariner named Ibn Fatima and his crew were wrecked off Ras Nu'adhibuin, much further south in what is now Mauretania.[10] When taken together, these reports give a distinct impression that such voyages were quite normal and perhaps

Medieval Islamic Navigation in the Atlantic

David Nicolle
Nottingham University, England.

Medieval Islamic navigation in the Atlantic Ocean extended over greater distances than is generally realized. Most was in a region bordered by the Iberian peninsula, the north-western coast of Africa, the Canaries Islands, the Azores and Madiera, some of these islands being well known while others were little more than sailors' legends. This region of the ocean has sometimes been so-called "Mediterranean Atlantic" as it was closely linked in technological, economic and historical terms with the Mediterranean side of the Straits of Gibraltar. Most voyages by Muslim sailors in this "Mediterranean Atlantic" were undertaken for commercial, diplomatic or military reasons though some were a result of that intellectual curiosity which characterized the golden age of medieval Islamic civilization.

Roman vessels plied the coastal waters from the Straits of Gibraltar and Iberian Peninsula to the Englash Channel and British Isles. After the collapse of the western half of the Roman Empire a maritime link appears to have survived between the Iberia pensinsula and the Celtic western fringes of Brittany, the British Isles and Ireland during the Visigothic period, before the Arab-Islamic conquest of al-Andalus but most particularly in the 7th century AD.' This may have survived into Arab-Islamic period since it is clear that Britain remained the main source of tin for al-Andalus well into the 9th century AD.[2] Furthermore it is worth noting that the famous terror stories about the Atlantic, or Sea of Darkness as it was widely known in the Islamic world, all seem to stem from the Middle East.[3] None seem to have originated amongst the Arabized people of Morocco or al-Andalus.

The most famous seafarers of the early medieval Atlantic were, of course, at first the Celtic Irish and after then the Scandinavian Vikings. However, in reality two peoples habitually sailed the eastern Atlantic during the early medieval centuries - the Vikings and the Muslim Andalusians. While the latter never ventured as far as the Scandinavians, they remained the Vikings' only real rivals. Furthermore it was Viking raids which prompted the Umayyad rulers of Cordoba (Qurtuba) to sent at least one official embassy to the far north, almost certainly to discover the source of this sudden

II. Non Arabic Part

A. The Articles

Contributors*

- 'Abdul – 'Aziz Ramadan, , Assistant Lecturer of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Ahmed El-Mahmoudi, Prof.. of Islamic History, Mawlai Ismai'l university, Meknaas, Morocco.
- David Nicolle, Prof. of Islamic History, Nottingham university, England.
- Flora Vafea, The Greek School, Greece.
- Hanie' 'Abdel – Hadi, , Lecturer of Medieval History, Helwan Egypt.
- Ibrahim Al-Qadri, Prof. of Islamic History, Mawlai Ismai'l university, Meknaas, Morocco.
- Irina Vdovichenko, Associate Prof. of Byzantine Archeology, Taurida National University, Ukraine.
- Ishak Ebied, Prof. of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Mahasen M. Al-Wakkad, Lecturer of Islamic History, Ain Shams University, Egypt.
- Mahmoud Ismail, Prof. of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Mohammed Mo'ness 'Awad, Assistant Prof. of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Mohammed Nasr, Assistant lecturer of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Mohammed Tadghout, Prof. of Islamic History, Mawlai Ismai'l university , Meknaas university, Morocco.
- Naglaa M. Hamed, Lecturer of Education, Cairo university, Egypt.
- Nariman 'Abdel-Karim, Assistant Prof. of Islamic History, Al-Monefia university, Egypt.
- Ra'fat 'Abdul – Hamid, , Prof. of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Tarek M. Mohammed, , Associate Prof. of Byzantine History, Ain shams university, Egypt.

These names are arranged alphabetically.

By Mohammed Nasr ...301-305

II – The non Arabic Part
A. Articles

- Contributors. V
- David Nicolle, Medieval Islamic Navigation in the Atlantic 3-14
- Flora Vafea, The Philosophy of Greek Mathematics and its Influence on the Development of Arabic Civilization and Renaissance.............15-25
- Irina Vdovichenko, Images of the Dances on the 4th Centuries Vases from the Black Sea Area 26-43
- Tarek M. Mohammed, The Turkish Settlement in Caucasus and Steppes: Constantine's Evidence.. 44-59

B. Book Reviews

- Naglaa' M. Hamed, Education in Byzantine Egypt, Cairo.
by Naglaa M.Hamed 63-64

Contents

I. The Arabic Part

A. Articles

- Contributors....................T
- Introduction....................K-N
- Ishak 'Ebied, Raa'fat Abdul – Hamid : Lantern of the Arts that Went out....................3-6
- Ibrahiem Al-Qadri, The Role of Muslim Jurists "*Foqaha*" against the Crusades' Danger in Andalusia....................7-22
- Raafat Abdul-Hamid, The Eastern Frontiers of Egypt....................23-26
- Zeinab 'Abdel – Magid, The Nature of the English Parliament in the Thirteenth Century until the End of the King Edward I's Reign....................27-74
- 'Abdul – 'Aziz Ramadan, Bride – shows in the Byzantine Court 788 – 882 AD....................75-88
- Mahmoued Isma'il, The Problem of Historical *Hermenia* of the Earlier Muslim Historians....................89-106
- Mahasen Al – Wakkad, Common Mockery Titles and Epithets in the Age of Mamlouk Sultans....................107-151
- Nariman 'Abdel – Karim, The Financial Policy of the Fatimids : Theory and Application....................153-228
- Hanie' 'Abdel – Hadie, The Magyars in the Middle Danube and their Expeditions against the Frankish Kingdome....................229-266

A. Book Reviews

- Morocco's Laymen in the Time of Moahedēns.
  by Ahmed Al – Mahmoudī....................269-274
- 'Abdel – Mohsen Ramadan, The Crusades in Andalusia, its Birth and Development, Cairo, 2001.
  by Mohammed Mo'ness 'Awad....................275-284
- Ibrahiem Al-Qadri, Researches in the Social History of Morocco and Andalusia during the Time of Al-Murābitēn, Beirut, 1998.
  by Mohammed Tadghout....................285-299

Hassan Khalilieh, *Islamic Maritime Law: An Introduction*, Brill, 1998.

Journal of Medieval and Islamic History

Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History
Ain Shams University
Abbasiya, Cairo. Egypt. Postal code 11566

- An Annual Review Interested in Medieval History, specially Byzantine and Islamic History.

- We accept all the papers and book reviews in Arabic, English, French, Italian and German.
- Books for review should be sent in one copy only.
- Orders may be addressed directly to the board of the Seminar on the above-mentioned address.
- All papers should be written by the computer as follow: Text's size is 12,5 x 19,5 cm.
  Text's fonts are 12 New Times Roman and 13 Simplified Arabic for the Arabic papers.
  Footnote's font is 10; Main title's font is 12 Bold.
- Correspondences: Vice-Chairman: Dr. Tarek Mansour Mohammed, on the following address: Department of History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566. Fax. 00202 - 6851432. E. mail: amrtar_eg@yahoo.co.uk
- The board of the *JMIH* invites you to share with us in the third volume, which will be issued during the academic year 2002-2003.

Journal of Medieval and Islamic History

An Annual Review Interested in Medieval History, specially
Byzantine and Islamic History

(JMIH)

Volume II
2002

Issued by:
Seminar of Medieval and Islamic History
Ain Shams University

Special Issue in Honor of Prof. Raafat 'Abdul-Hamid

Publisher
Misr Al-Arabia
13A Islam Str., Hamamat Al-qoubba, Cairo

Journal of Medieval and Islamic History

(JMIH)

Volume 2 / 2002

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies.

Issued by : Seminar of Medieval and Islamic History, Ain Shams University





